AYMAN AL-OTOOM

رواية

أيمن العتوم

تِسعةَ عشَرَ

عصير الكتب


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

«النَّاسُ نِيامٌ فإذا ماتُوا انْتَبَهُوا»

[عليّ بن أبي طالب]

(١)
النّفخة

لا أدري كم مـرّ عليّ هنا في هذه الظّلمـة المُحـيطة بكلّ شيء ، مئـات السّنين ، آلاف ، ربما عـشـرات الآلاف . . . لا أدري على وجه الدّقّة ، وأنّى لبـشـريّ قـادم من الفـانيـة أنْ يدري ، إنّه العِلم الّذي لم يَخُصّ به أحدًا . تقلّبتُ بصّعوبةٍ في القبـر الضّيّق من شِقّي الأيمن ، واضجعتُ نفسي على ظهري ، مُرجعًا رأسي إلى الأسـفل ، لأواجه الظُّلمـة من جديد ، سـقف القـبـر يكاد يلتـصق بأعـضـائي ، أشـعـر باختناق ، وقليلٍ من الغـثـيـان ، بسبب الرّطوبة الّتي صنعـهـا التّراب الطريّ والظّلمـة الطّويلة الأمد ، الشّمس غـابتْ منذ ذلك اليـوم الّذي دُفِنْتُ فيه ، لم تكنْ عيناي يوم أنْ دُفِنتُ مُطفأتَين ، فلقـد كنتُ أُبصِر بهـمـا كلّ شيء ، غير أنّني لم أكنْ قـادِرًا على أنْ أحرّك أيّ عضوٍ من جسدي ، ولا أنْ أَفُوه بكلمة ، كنتُ أودّ أن أستمْهلهم قليـلاً بقراءةِ شيءٍ ما من كتابٍ ما لتسكن روحي قبل أنْ أُسجَى طويلاً في القبر .
في اليوم المشهود ، اجتمع كثيرٌ من أهلي ، وقليلٌ من أصدقائي ، وكلّ أوراقي الّتي أيقنتُ أنّها ستدخل معي في القبر مع أنّ أحدًا لم يرها ، ولم يشعر بها مُكوّمة فوق الأرض بعيدةً قليلاً عن الشّاهدة الّتي ستحمل اسمي . حضورٌ نورانيٌّ آخر كان يفوق عدد البشريّين رأيتهم يحومون حول الحفرة ، يتلون صلواتٍ لم أفهمها ، وإنْ كنتُ أجد بردَها

بين كتفَيّ ، لم أتعرّف في البشر على وجهٍ سوى وجهِ أبي . شيخ في التّسعين ، شابَ كلّ شيءٍ فيه ، وابيضّتْ عيناه من طول حزنٍ لم أدركْ لوعته إلاّ حينَ حدثَ ما حدث ، يُمسك بحفنات من التّراب يُقرّبها من أنفه ويشمّها طويلاً قبل أنْ تُتَمتم شفتاه الرّاجفتان بكلماتٍ غير مسموعة ، ثُمّ ينثرها على القماش الأبيض فتتحوّل إلى بياضٍ جديد على هيئة ياسمين يفوح شذاه حتّى يكاد يلامس السّماء السّابعة أو هكذا خُيّل إليّ . كان أبي يبكي بُكاءً صامِتًا ، يرتجّ جسده في اضطرابٍ شديد كأنّ نفخة الصّور قد سَرتْ فيه ، يقترب منّي يتلمّس بيدَيه الحانيتَين وجهي المكشوف ، ويقرأ بأصابعه السّلام عليّ ، وينحني ليقبّلني ، وعددٌ من البشر أظنّهم إخوتي يدفعونه ، مُمسكين بذراعه وهم يحاولون التّهدئة من رَوْعه ، وهو يمدّ ذراعه الأخرى إليهم متوسّلاً أنْ يتركوه يفعل ما يريد . لم يكنْ قادرًا على أنْ يمنع دموعه الّتي اخضلّتْ بها لحيته البيضاء الكثيفة ، ولا أنْ يُخفي نشيجه المكبوت الّذي يُسمَع بين فينةٍ وأخرى . أُهيل التّراب ، فانتشرت الظّلمة في كلّ شيء ، جلسوا حول القبر كطيورٍ مُهاجرة ، وردّدوا من خلفِ أبي بعض الدّعوات . ثُمّ ما لبثوا أنْ سارعوا بالقيام مُغادرين المكان كأنّ شبحًا يُطاردهم ، ووحده بقي غارقًا في دموعه وأساه ، وهو يتلو الصّلوات دافنًا رأسه الّتي مُلئتْ حزمًا وعِلمًا في صدره ، جالسًا القرفصاء ، كأنّما غُرِس في الأرض . عاد إليه بعضُهم ، رجاه أنْ يُغادر معهم ، ما الفائدة من أنْ يُطيل الجلوس على القبر ؛ فابنه الّذي ظلّ يُشبهه طوال حياته قد مات .

هناك ؛ في الوحشة ، قال لي القبر : «لقد طال العَهدُ بك ، أنسيتني ومِن تُرابي خُلقت ، وأنتَ ابن هذا الثّرى ، ها أنتَ ذا تعود ؛

لطالَما انتظرتُ أوبتَك؟» ثُمّ أقبلَ إليّ بشوق ، فضُغِطتُ ضغطةً انفرطتْ منها حمائلي ، وصرختُ صرخةً فَزِعتْ لَها أسراب جَمّة من الطّيور فوق أعالي الأشجار في أقاصي المعمورة ، وهربتْ من هَولها وحوشٌ في البرّية ، ودخلتْ في جحورها بناتُ آوى في الجِبال ، ونهضتْ من مجاثمها غزلانٌ مذعورةٌ في الخمائل . ثُمّ قيل : «هذا غَيْضٌ من فيض» . فأُرسِلتُ ، وخُلّي بيني وبينَ مَضجعي ، ثُمّ وفدتْ أرواحٌ من كلّ حدبٍ وصوبٍ تستقبلني ، يحفّون بي ، ويُهنّئونني على السّلامة ، وما كانتْ لتكون ، ويسألونني عن أخبار أهليهم وذويهم مِمّن تركناهم خلفنَا ، سألوا كثيرًا وقليلاً ، وما دَروا أنْ بضاعتي مُزجاة ، وأنّ عِلمي قليل ، وأخذتُهم بالهَوْن ، فأجبتُهم إلى ما أستطيع بما أعلم ، وتجاوزتُ عمّا لا أعلم ؛ فإنّ علم الدُّنيا إلى الآخرة غائض . وسألني أحدهم : ما فعلَ فلان؟ فقلتُ : إنّه مات قبلي فما أدراني؟ فبكى ، حتّى رأيتُ دموعه تسيل على خدّيه ، ثُمّ أطرق وقال : «إنّ لله طريقَين ، فهذا الّذي نحن فيه طريق ، وذاك طريق ، لقد ذهبَ إلى أمّه الهاوية فإنّه لم يأتِنا إلى هنا» . وقال أحدهم وقد رأى تعبي واجتماع الأرواح عليّ تُمطرني بالأسئلة : «دَعوه ليتسريح ، فإنّما خرج من كَربِ الدُّنيا ، فلا تجمعوا عليه كَربَين» . فرأيتهم أجابوه ، وانسلّوا من حولي ، وانحلّوا عن عنقي ، وانفرطوا من بين يدي ، وانسابوا كما ينساب الماء على الأرض المائلة ، وطار آخرون إلى أشجارهم . وعُدتُ أنا إلى مرقدي وما نبتتْ شجرتي بعدُ ، ثُمّ غرقتُ في سُبات أطول بكثير من سُبات أهل الكهف ، وشعرتُ بأنّ رحلةً قصيرةً قطعتُها في الهمّ قد انتهتْ ، وأنّ راحةً من نوعٍ ما سوف تأخذني في أعطافها إلى أجلٍ معلوم .

مَنْ يدري كيف يمرّ الزّمان على السّاكنين هنا؟!! الظّلمة سيّدة كلّ

شيء ، بعد ليالٍ قصيرة يُمكنك اعتياد هذا الظّلام الكثيف ، تتخلّى عينا الجسد عن دورهما ، وتبدأ روحك تتلمّس المكان . كنتُ أشعر بأنّ سنواتي الّتي قضيتُها على الفانية كانتْ كافيـة ، وأنّ رحلتي الجديدة تحتاج إلى راحةٍ طويلة ، ولذلك نمت ، نمتُ نومًا عميقًا لم أجرّبْ مثله من قبل .

فوق . . . هناك فوق التّراب ، كانتْ أُمَم تَتوالد ، وحضارات تنشأ ، وأخرى تَبيد ، وبشر يعبرون هذه الحُفَر ، يأتون لاهثين من أماكن بعيدة ، ومن تحت أرجلهم – دون أنْ يدروا ، وفجأةً – تبتلع الواحدَ منهم حُفرةٌ كُتبَ في قلبها الاسم بوضوح ، كلّ حفرةٍ ابتلعتْ صاحبها الموسوم دون أنْ تُخطئه ، لم تكنْ هناك من نسبةِ خطأ أبدًا . ذراري يتكاثرون في كلّ مكان أكثر من تكاثر الفِطريّات والهُلاميّات ، وآخرون يسقطون في العراء ، وحيواناتٌ تَنفُق ، وأشجار تتساقط ، وغيوم تمرّ بأرقام لا تُحصَى قاطعةً قبّة السّماء راكضةً نحو المجهول ، وذئابٌ تعوي ثمّ تخمد ، وكلابٌ تهرّ ، وثعالب تتقافز معلنةً بداية النّهاية ، وأفاعٍ تبدّل جلدها ، ثُمّ تستسلم لِقدَرها تاركةً سُمّها لأخريات يأتين تِباعًا ، وفي البرّيّة المفتوحة على المُطلَق ، لم يعرف أحدٌ كم من أسدٍ أو فهدٍ أو ذئبةٍ قضتْ نحبها ، ولم يستطعْ أحدٌ أنْ يُحصي عدد الحشرات الّتي التهمتْ غيرَها ، ولا تلك الّتي ديستْ بأقدام لكائنات حيّة لم تتوقّعها لحظةً ، وفي السّماء انكسرتْ أجنحةُ بعضِ الطّيور فهوت ، وسقطتْ طائرات ، وظهر آكِلو لحوم البشر ، وخَرِبتْ ممالك ، وفسدتْ أبينة ، واحترقتْ أخرى ، وعمّ خرابٌ متواصلٌ كلّ شيءٍ على الأرض ، وَوُلِدتْ من رَحِم هذا الخراب حياةٌ جديدة ، ورأى الله كلّ شيء ، وسُجّلتْ في الصّحائف الدّقائق من الأمور ، ونبتتْ أشجارٌ يانعة من جذوع تلك الخربة الهرمة ، ثُمّ عمّت

الفوضى البشر الجُدُد ، فاقتتلوا ، وانتشرت الحروب بينهم كما تنتشر الأوبئة ، ومن رَحِم الموتى عاشَ أطفال في مأساة ، ومن رَحِمهم عاش آخرون في بُلَهْنِية ، ودارت الأرض دورتَها ، فلم يعد يعرفُ أحدٌ مَنْ يلد الآخر ، الحياةُ تلد الموت ، أم الموت يلد الحياة!!

وأنا ، كنتُ أسمع كلَّ ذلك وأشاهده ، وكنتُ أسجّل في عقلي ما استطعتُ أنْ أحتفظ به في ذاكرةٍ صلدة ، كانت لديَّ قدرة عجيبةٌ في حفظ الأسماء والمشاهد والحَيَوات ، وكنتُ قادرًا على تمييز كلِّ شيءٍ تعرضه شاشةٌ عملاقة ، تنتصب مثل مرآة سماويّة ، تنعكس فوقها كلّ أفعال البشر أمامي ، شيءٌ واحدٌ لم أكنْ لأميّزه ؛ إنّه الزّمن ، كانت الأزمنة تتداخل وتتوالد ثُمّ تتشابه حتّى يختلط عليّ التّمييز ، ومع ذلك فإنّني وإنْ كنتُ لا أُحصي للزمّن عِداده ، فإنّني أستطيع أنْ أحصي لكلِّ أمّة زمانها الخاصّ بها . وحُرمتُ من قدرة الجمع بين الأزمنة ، ومعرفة تراتبيّته الّتي أوصلتْني إلى هذا اليوم . اليوم الّذي سيكون أصعبَ بكثيرٍ ، بكثيرٍ جدًا من اليوم الّذي أُنزلتُ فيه من فوق الأرض إلى باطنها!!

لم أشِخْ هناك ، ولم تضعفْ ذاكرتي ، ولا هَرِمَ الجلد الّذي يُغطّي روحي ، غير أنّي لطول عهدي بهذا المكان ، ضِقتُ ذرعًا بتطاول العُمُر ، وتلك طبيعتي البشريّة الّتي لم تفارقْني ، الرّتابة قاتلة ، وأنا مع غرائب ما رأيتُ وأرى ، لا أزال في مكاني الوحيد ، وعَليّ أنْ أنهضَ من هنا ، هكذا حدّثتُ نفسي : لقد آن أنْ أنهض .

كانتْ تلك ليلة طويلة ، شعرتُ فيها باختناقٍ شديد ، لم أستطع التّنفس ، انحبس الهواء الفاسد الرّطب العَفِن في صدري ، وعبثًا حاولتُ أنْ أخرجه ، كان يضغط وهو يتعاظَم على صدري ، حتّى

أيقنتُ بأنَّ صدري سينفجر ، وستتبعثر أجزاءً لَزِجةً من لحمه على رأسي ، لكنَّ يدًا خفيّةً ، يدًا نورانيّة ، من تلك الّتي تقرأ فيها الفرج واضِحًا ، وتشعر بالحياة ماثلةً في انسابيّة أصابعها الّتي تتحرّك باتّجاه أنفي ، كانتْ قد بدأتْ بالظّهور ؛ مسحتْ بوقارٍ على أنفي ، فانفجر ما في صدري بزفرةٍ قويّة ، بعثت الهواء الفاسد إلى الخارج . صرختُ صرخةَ الولادة الأولى كأنّني أُبعَث من جديد ، علا صدري كقُبّة ظهر نَمِرٍ يتمطّى ، مثل علوّه في تلك اللّيلة حينَ كان يُنعَش دون فائدة بصَعقِه بالكهرباء في مستشفى أُقيمتْ فوقها من بعدُ عشراتُ المقابر عبر عشرات العهود لأمم تعاقبتْ دون انقطاع على ذات المكان . ارتاح جسدي بطوله ، وبدأتُ أتنفّس بشكلٍ طبيعيّ ، دخلتْ موجةٌ من الهواء من خلال مسامات التّراب ، وتسلّلتْ من عند قدمَي ، ذكّرتْني بالبُخار الّذي صعدَ حارًا كثيفًا إلى الأعالي في اللّحظة الّتي انقطعتْ فيها جوارحي عن الحركة ، تمدّدتْ موجة الهواء تاركةً قدمَي ، مُلامسةً جسدي ، صاعدةً إلى رأسي ، حامتْ قليلاً فوق وجهي ، قبلَ أنْ تدخل أنفي بسكينةٍ عجيبة ، وفجأةً ، سرتِ الحياة في الجسد الميّت ، نفخةً واحدةً في الأنف كانت كفيلةً بإيقاظي ، واستيقظتُ . عرفتُ أنّني أستطيع أنْ أتحكّم بجوارحي في تلك اللّحظة ، وأنّني أملك الإرادة في استخدامها على النّحو الّذي أريد!

(٢)
عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَر

أوّل شيءٍ نطقتُ به : «أنا كُلّي لكَ فكُنْ لي» . وضـربتُ حـجـرَ القبر بيدَيَّ ، لم يتحرّك في الحجر شيءٌ ، كان صخرةً ثقيلةً تجثمُ على القوائم الّتي تحميني من خُرورها على صدري وتمزيقه . رحتُ أضربُ بيدَيَّ من جديد ، وأحرّك رجلَيَّ في حركةٍ عشوائيّة لعلّي أستطيع أنْ أزحزحَ هذه الصّخرة ، وأنهض ، لكنّ كلّ محاولاتي ذهبتْ سُدًى . شعرتُ بالفزع ، أنا حيٌّ ، وحبيسٌ في هذا القفص الحجريِّ الّذي يلبسني لباس الثّوب . تقلّبتُ على جانبيَّ بصعوبة ، استندتُ على باطن كفّيَّ ، ودفعتُ الصّخرةَ بظهري ، محاولاً مرّةً أخرى زحزحتها ، ولكنّها كانتْ كمن يسخر منّي ومن ضعفي . رفعتُ رأسي بما تسمح به المسافة الكافية ، حاولتُ أنْ أقرأَ شيئًا على باطن الصّخرة ، ولكنّ الظلمة كانت شديدة الكثافة ، تمدّدتُ في حركةٍ يائسة . هتفتُ في أعماقي : «ولْيكنْ ما يكون . لقد كنتُ نَسْيًا مَنسيًا قبل قليل ، ولن يُزعِجني أنْ أعود إلى سابق عهدي طوال تلك العهود السّحيقة . كلّ ما عليَّ فِعله أنْ أحتفظ برباطة جأشي وأخلدَ إلى النّوم» . ولكنّ الرّوح الّتي تسري في أعضائي راوغَتْني : «لقد صرتَ حيًا ؛ لم تعدْ كما كنتَ من قبل ، شعلةُ الحياةِ سرتْ في جسدك ، وإنْ لم تخرجْ من هنا ، فستموت من جديد» . أرعبني الصّوت القادم من الرّوح . صمّمتُ على

أنْ أغادر محبسي الخانق هذا . فكّرتُ في أنَّ شيئًا مثلَ الكتابات السّحريّة على جدران الكهوف القديمة قد يكون طريقي إلى النّجاة ، عليّ أنْ أقرأ هذا المكتوب على الصّخرة ، ولكنْ كيفَ السّبيل إلى ذلك والظّلام اللّعين يُغطّي كلّ شيء . خطرتْ ببالي فكرةٌ جديدة ؛ ألا يُمكن لأصابعي أنْ تقرأ ما هو مكتوبٌ هنا؟! الأصابع عيونٌ في الظّلام . مرّرتُ أصابعي على باطن الصّخرة ، تلمّستُ بعض النّتوءات الّتي تشي بحروفٍ منقوشةٍ عليها ، غمرتْني الفرحة ، لا بُدّ أنّ قراءتها تقود إلى انفراجٍ من نوعٍ ما ، بدأتُ من المنطقة الّتي تعلو رأسي مباشرة ، قرأتُ بأصابعي الحرفَ الأوّل ، كانَ حرفَ العين ، سُرِرتُ لنجاحي في قراءته ، وجدتُ في الأمر غموضًا لذيذًا ، تقدّمتُ في تمرير أصابعي ، وقرأتُ الحرف الثّاني والثّالث والرّابع والخامس ، تشكّلتْ لديّ كلمةٌ ، هي : (عليها) ، لم تُعطِني الكلمة اليتيمة أيّ دلالة ، كان امتداد يدي يُجبرني على أنْ أنحني بجذعي متابعًا الحروف الّتي تمتدّ بشكلٍ طوليّ من رأسي حتّى قدَمَيّ ، لن يكون بمقدوري قراءة الأحرف كلّها ، إذْ إنّني لن أقرأ إلاّ تلك الحروف الّتي يسمح بها انحناء جذعي في صخرةٍ لا ترتفع إلا بأقلّ من ذراع فوق رأسي . كان هناك فراغٌ في المكان المتوقّع للحرف السّادس ، فعلمتُ أنّني سأبدأ بقراءة كلمةٍ جديدة ، وأنّ هذا الفراغ يدلّ على انتهاء الكلمة السّابقة . استطعتُ أنْ أتجاوزه ، لأقرأ بأصابعي انبساطة الحرف القادم السّابع ، إنّه التّاء ، ثُمّ ارتطم رأسي بالصّخرة ، شددتُ على جذعي لأصل الحرف الثامن ، وبصعوبة علمتُ أنّه السّين ، شددتُ على جذعي لأصل الحرف التّاسع حتّى كادتْ أنفاسي تختنق ، لكنّني خمّنتُ من خلال جوفه العالي أنّه العين الّتي قرأتُها في البداية . . . لم أستطع أنْ أقرأ المزيد ، إنّها (تسع)

على ما يبدو هذه الكلمة الّتي توصّلتُ إليها للتّو ، انقلبتُ ذات اليمين وذات الشّمال لأتمّ الكلمة الثّانية ، أو أقرأ الكلمة الّتي تليها ، لكنّني لم أتمكّن من ذلك أبدًا ، حاولتُ أن أتلمّس الحروف الباقية بباطن قدميّ لكنّني عييت ، في حوزتي كلمتان : (عليها تسع) لا أدري إنْ كانت الكلمة الثّانية كاملةً أم لا . قدّرتُ أنّ الكلمات المنقوشة على باطن الصّخرة لن تكون أكثر من ثلاث كلمات باعتبار انتهائها عند انتهاء الصّخرة الّتي يُساوي طولُها طولَ جسدي مُمدّدًا . أصابني غضبٌ شديدٌ وأنا أحني جذعي لعلّي أحظى بقراءة جديدة ، لهثتُ ، يئستُ ، أرحتُ جسدي مستسلمًا ، ورحتُ أردّد الكلمتَين لعلّي أتوقّع الكلمة الثّالثة : (عليها تسع . . .) لكنّني نمت . نمتُ فجأة ، كأنّ ثوبًا من نعاس غَطّى على عينَيّ ، وغشي جوارحي كلّها فهمدَتْ . في النّوم ، صَحتْ سنواتي الأربع الأولى ، في البرد الشّديد كان أبي يوقظني في ليالي رمضان من أجل الذّهاب إلى صلاة الفجر ، في الطّريق الطّينيّ إلى المسجد البعيد ، كنتُ أتعثّر وأنا لا أكادُ ألحقُ به . لم يكنِ النّداء قد تعالَى بعدُ من المآذن العتيقة ، وكان صوتٌ ساحرٌ ينبعثُ في الأجواء يرتّل بعضًا من الآيات النّديّة ، ولا أدري إنْ كان أبي يسمعه معي . كنتُ أنسى نفسي في الطّريق ، وأسرح في الصّوت الّذي تتخلّل أمواجه مسامات جسدي ، جسدي الّذي يرتجفُ في الصّقيع ، وصوتُ أبي يأتي من أمامي وهو يحثّني على الإسراع ، كان الصّوت يُذهلني عن نفسي ، ويخفّف من ذلك الارتجاف الّذي يُحيق بكلّ عضوٍ فيّ ، وهو يردّد : «عَلَيْها تسعةَ عَشَر» . يَمُدّ القارئُ الصّوتَ ، ويُخيّل إليّ أنّه وقف عند هذه الآية ، وهو يُعيدها عشرات المرّات ، ولا يتعب من تكرارها ، وعلى باب المسجد ، أرى تابوتًا على يسار الدّاخل ، وأنظر إليه

في وجلِ الطّفل الّذي يُشاهد محفّة الموت ترقد في غموضٍ يزيده ضوءٌ غازيّ منبعث من قوس المدخل يُلقِي بالظّلال على حافّته ، كان التّابوت منكفئًا على وجهه ، بطنه إلى الأرض ، وقاعه إلى أعلى ، واستمهل أبي قليلاً عند المدخل وأنا أحاول أنْ أقرأ الحروف المخطوطة على جانبه ، ويشدّني من يدي ، لم أكنْ أقرأ بشكلٍ جيّد ، ولكنّ الكلمات الّتي تردّدتْ كثيرًا في مسامعي عبر الطّريق ، تلتصق هي الأخرى هنا على جانب هذا التّابوت ، وأراها تتحرّك ، وأراها تُصدِر الصّوت ذاته : «عليها تسعة عشر» .

استيقظتُ بحركةٍ سريعةٍ ، ارتطمتْ جبهتي بالصّخرة ، صرختُ بكلّ ما في بشريٍّ مفزوعٍ مذعورٍ يتهيّأ للخروج من القبر : «عليها تسعةَ عشر» . وارتفع غِطاء القّبر عاليًا في الفضاء ، طار كأنّه قطعةٌ من الصّفيح تلعب بها الرّيح ، وانفجر إلى شظايا صغيرة ، ووجدتُني واقفًا على قدَميّ مثل كائنٍ أسطوريّ!!

(٣)
لماذا أكلتَ من الشَجرة؟

غطَيتُ على عينَيَ من ضوء الشَمس السَاطِعة ، فركتُهما بسرعة ، محاولاً استعادةَ بصرٍ حقيقيٍ لبشريٍ مرَتْ عليه دهورٌ لا يعلمها إلاَ اللَه في الظَلام . ببطء استطعتُ أنْ أُبصر . رفعتُ رأسي ، وأرسلتُ طرفي ، كان فضاءً ممتداً بلا نهاية ، وأرضًا منبسطة على مدّ البصر ، رمليّة ، وصلبةً مع قليلٍ من الهشاشة . لا شجرةَ تبدو في الأفق ، لا نبتةَ تَنجُم من باطن الأرض ، لا حيَ يلوح في مـــدى الرُؤية ، لا صـــوت ، لا حركة ، وحدي في هذا الفضاء الشَاسع كما لو كنتُ آدمَ الَذي أُهبِطَ على الأرض ، تحسَستُ جبهتي من خدشٍ بسيطٍ جرّاء ارتطامها بحرف العين البارز في صخرة القبر ، كانت الشَظايا ترقدُ على مبعدة وأراها ما زالتْ تتدحرج دون أنْ تُصدِر إلاَ حسيسًا لا يسمعه إلاَ مَنْ أرهفَ السَمع ، كما لو كانت فقاعات تغلي . فتحتُ فمي ، تمرّنتُ قليلاً على تحريكِ فَكَيْ قبل أنْ أصرخَ صرخةً مُبهمةً أشقَ بها سكون الفضاء ، الفضاء الَذي لم يسمعني ولم يردّد صدى تلك الصرخة البائسة ، نظرتُ إلى نفسي ، كنت عريانًا إلاَ من رباطٍ ممزَق قد حال لونه الأبيض ، لا شيءَ آخر يستر جسدي ، تلمّستُ ذقني كانتْ قصيرة ، وشعر رأسي خفيفًا . مسحتُ بكفَيَ على جذعي ، تساقطتْ عنه بعضُ الأتربة ، هتفتُ في نفسي ساخِرًا : «إنَه أجملُ استيقاظٍ ممكنٍ لبشريَ

من تحت الأحافير» . داهمني شعورٌ مباغتٌ بالعطش . أجلتُ بصري في المكان ؛ لا شيء ، أين يُمكن أنْ أجد ماءً في هذا المدى اللامتناهي . انفرجتْ شفتاي عن بسمةٍ خفيفة سرعان ما تحولتْ إلى قهقهة ، خفتتْ قليلاً ليحلّ محلّها بُكاءً فجائعيّ : «هأنذا وحدي إذًا . ما أقسى ما فعلتُ حتّى أجازَى بعقوبةٍ فظيعةٍ كهذه» . هكذا فكّرتُ . أسكتَ العطش بكائي . ابتلعتُ ريقي . كان طعمه مريرًا . شيءٌ من التّراب دخل في فمي ، فزادَ من عطشي . ركضتُ عشر خُطواتٍ ، ثمّ تسمّرتُ مكاني ؛ إلى أين أركض ، وكلّ الجهات بلا جهة ، وكل المعالم بلا هِداية . الركض في أيّ اتّجاه يُساوي الركض في أيّ اتّجاه آخر ، ويساوي العدم . فلأركضْ إذًا إلى العدم . كيفَ يُمكن أنْ يكون العدم جهةً أركضُ إليها!! مَنْ يسمع سؤالاً عدميًا كهذا؟! سأركض . بلا شكّ ، لا أملك إلاّ أنْ أركض . أركضُ هاربًا من أيّ شيءٍ ومن لا شيء وإلى لا شيء ، لكنّه بلا شكٍّ سيكون ركضًا باتّجاه البحث عن الحياة ، الحياة الّتي يبدو التّعريف بها هنا ضربًا من الجنون!!

ركضتُ ، حافيًا كما ولدت ، وعريانًا كما أتيت ، ركضتُ ، وركضتُ حتّى لهثتُ ، نظرتُ خلفي ، كان ما قطعته من الأرض يسخر منّي ، لا شيءَ قد تحقّق سوى اللّهاث ، الفضاء ما زال يمتدّ أمامي ومن خلفي بلا نهاية . السّماء تتواطأ هي الأخرى ، فلا تبدو تنحني في الأفق لتقول إنّ هناك شيئًا ما خلف هذه المساحات الشّاسعة يوحي بأيّ وجودٍ لأيّ حياة . لا شيءَ . لا شيءَ ألبتّةَ . لا أحد . لا أحد على الحقيقة سواي . لكنّني مع ذلك ركضت . كانتْ في كلّ صباح تنمو على جسدي شعرةٌ جديدةٌ ، أتسلّى بعَدّ الشّعرات الّتي تنمو في كلّ يوم ، الأمل صنّارة السّاذجين أمثالي ، وأنا أركض . ليس أمامي سوى

أنْ أركض بلا توقّف . ركضتُ عامًا . عامًا كاملاً ، بليله ونهاره ، بصباحه ومسائه ، بِحَرّه وبَرده ، بالخوف ، بالأسئلة الّتي لا إجابات لها ، بالجوع ، بالأسى ، بالفَقد ، بكلّ ما فِيّ من ذاكرة ؛ كنتُ العَدّاء الأوّل بلا مُنازِع في حلبة سِباق ليس فيها سِواي ، أعدو كمن يُطارِدُ حُلْمًا هاربًا بأقصى ما أوتي من قُوّة ، تُسابِقُ رِجلاي الرّيح نحو هدف أجهله لكنّني لم أجدْ أشدّ منه هدفًا حفّزني على عَدْوٍ جنونيّ مُماثِل!! الأيّام تمرّ ولا شيءَ سوى مزيدٍ من العطش . عامًا كامِلاً لم تدخل إلى جوفي قطرةُ ماءٍ واحدة . اليأس ينشب أظفاره في روحي . الكُفر بكلّ شيءٍ يتحرّش بي . النّدم على تلك الصّحوة من ذلك القبر الجميل يأكلني . جرّبتُ أنْ أعودَ إلى القبر لأموت من جديد تعويضًا عن حياةٍ لا تُشبه الحياة في شيء . أنْ أموت لأمتلِئ بالدّود خيرٌ لي من أن أمتلئ بهذا الفراغ الآثِم ، ولكنّني لم أعرف في أيّ جهةٍ كان يرقد ذلك القبر ، بحثتُ عن تلك الشّظايا الصّغيرة الّتي كانتْ ما تزال تتدحرج يومئذٍ بخُبث ، فوجدتُ عشرات الآلاف منها في كلّ مكانٍ ، كلّها تشي بموضع مُحتملٍ لقبرٍ ربّما كان هنا أو هنا أو هناك! استلقيتُ على الأرضّ ، نظرتُ إلى السّماء ، كانتْ مُحايدة ، لا شيءَ فيها يقول شيئًا ، تمنّيتُ أنْ تتحرّك ، أنْ تعبرها سحابة ، أنْ يتغيّر لونها الأرجواني ، لكنّها ظلّتْ جامدة كأنّها تتحدّى صبري وإيماني واحتِمالي . تمنّيتُ أنْ تلعنني ، تمنّيتُ أنْ تسقط عليّ فتسحقني ، أنْ تنشقَ الأرض البلهاء فتبتلعني ، لكنّ أيّ شيءٍ من ذلك لم يحدث . فكّرتُ أنْ أمسكَ بإحدى تلك الشّظايا الصّخريّة ، وأقطع عِرقَ يدي وأنتحر ، لكنّ الحجر كان يتحوّل إلى إسفنجة حالما أقرّبه من ساعدي ، رفعتُه في إحدى المحاولات إلى عنقي أريد أنْ أتخلّص من هذه الرأس الّتي أحملها على

كتفيَ ، لكنّه ذاب كما لو كان وردةً تتفتّت بين يدي صبيٍّ . صرختُ ، لكنَّ الصّرخة لم تُسمَع كأنّها دخلتْ إلى جوفي لا خرجتْ منه . استغثتُ بصاحب القدرة المُطلقة أنْ يُريني أيَّ شيءٍ ، أنْ يبعثَ لي بشريًا مثلي ، أو جنّيًا ، أو حيوانًا ، أو حتّى حيوانًا مُفترسًا يأكلني ويُريحني . لكنَّ عويلي جفَّ دون أنْ يُلقي له أحدٌ بالاً . هتفتُ في داخلي : «أنْ تبقى عامًا كاملاً بلا ماء يعني أنْ تفنى ، فلماذا لم أفنَ حتّى الآن؟!! لماذا لم أمتْ ، لماذا لم تنهرسْ عظامي ، لماذا لم أتحوّل إلى تراب؟!! ألستُ من التّراب وإلى التّراب أعود؟! فلماذا ما زلتُ حيًّا إلى اليوم؟!» . وركضتُ . ركضتُ في كلِّ الجهات وبكلِّ ما أستطيع . ألهثُ ، أسند كفّيَّ على رُكبتيَّ ، ألتقطُ بعضَ أنفاسي ، ثُمَّ أرسل نظرةً إلى الجهة الّتي تمتدّ أمامي وأركض من جديد . أسقطُ من شدّة الإعياء ، أرتاح قليلاً وأنهض لأجرّب الرّكض في اتّجاهٍ آخَر . لا بُدَّ من أنْ أجد حياةً ما في يوم ما ، لا بُدَّ من أنْ يُسْفِر هذا الرّكض العبثيّ عن نتيجة ، ولو بعدَ ألفَ سنَة ، ماذا عليَّ لو انتظرتُ ، ليس هناك أمامي من خيارٍ آخر ، فلأركضْ إذًا!!

مرّ عامٌ آخَر بلا نتيجة ، كانتْ لحيتي قد طالتْ حتّى غطّتْ منتصف بطني ، والتفَّ بعضُها على بعضٍ لطول عهدها بالماء . وكان شعري قد استرسلَ حتّى غطّى كتفيَّ ، وسقطتْ شعرات شواربي على شفتيَّ فلم تعودا تظهران . وانسدلتْ خُصُلاتٌ أُخَر من شعر رأسي فغطّتْ على عينَيَّ فأصابتْني بعمًى مُؤقّت . ورغم كلّ ذلك ما زلتُ أركض . ركضتُ عامًا ثالثًا ، الرّكض كان يعني بالنّسبة لي الأمل كلّه . لكنَّ الأمل ظلَّ أعزَ طريدةٍ لم أُفلح في الإمساك بها . لم تبقَ بوصةٌ في جسدي لم يُغطّها الشّعر الكثيف ، صار شَعرُ جسدي ثوبي . وكان

العطش ما زال يحفزني إلى مزيدٍ من الرّكض . تشقّقتْ شفتاي ، غارتْ عيناي ، وتمزّق ظاهر خدّي ، وسال الدّم فوقهما غير مرّة ، مسحتُ بأصابعي في الرّيح ذلك الدّم ، ولعقتُه ، ثُمّ ركضتُ عامًا جديدًا .

في العام العاشر ، ظلّت الحياة هاربة منّي ، ولم يسعفني الله في أيّ بريقٍ لنجاةٍ بالموت أو بالحياة ، تذكّرتُ كيفَ تسلّلتْ حوّاء من ضلع آدم ، وهو راقدٌ في نعيمه الأبديّ الّذي يُشبه شقائي الأبديّ هذا ؛ في الأبديّة يتساوَى الشّقاء مع النّعيم بالاعتِياد ، لو كان آدمُ هنا لسألته السّؤال الّذي كان في بالي منذ أنْ كنتُ في الخامسة : «لماذا أكلتَ من الشّجرة؟» . وسأجلده بالأسئلة المتتابعة : «لماذا سمحتَ للأفعى أنْ تُغويك؟» ، «هل كانت التّفّاحة حمراء أو خضراء؟» . «هل رأيتَها أنثى حتّى هممتَ بها وهمّتْ بك؟» . وأعرفُ أنّه سيخترع إجاباتٍ لن تكون كتلك الإجابات الّتي قالَها في الأعالي ، ولكنْ ما الضّيرُ في ذلك إنْ كنتُ سأجدُ دائمًا سؤالاً جديدًا من أجل إطالة أمد الحِوار . ولكنْ إنْ لم يكنْ آدم هو الّذي سيظهر لي ، فلْيكنْ شيءٌ آخر ؛ راءَى لي الأملُ أنّه يُمكن أنْ يحدث لي شيءٌ مشابه ، أنْ أستيقظ فأجدَ امرأةً تؤنسني في هذه الوحشة الذّابحة ، فأنمتُ نفسي . أخذتُ خُصُلاتٍ كثيفةً من شعرِ رأسي وأغلقتُ بها عَينَيَّ ونِمت . نمتُ بدافع الرّغبة في أنْ أصحو على حياةٍ جديدة . ومرّ ليلٌ مثل ثلاثة آلافِ ليلٍ سابقات . في الصّباح لسعتْني أشعّة الشّمس فأيقظتْني من رقدتي ، استويتُ جالِسًا كالملدوغ ، تحسّستُ الجزء الّذي تخرج فيه حوّاء من آدم ، مسحتُ بكفّي ما بين حوضي إلى كتفي . لم يكنْ من أثرٍ لحيٍّ خرج من هناك ، ضحكتُ من سذاجتي ، ثُمّ بكيتُ ، كنتُ قد كَبرتُ في تلك اللّيلة كثيرًا ، وشاختْ روحي . لكنّ القِتال لا يعني شيئًا ؛ إنّه يتساوَى مع

الخمول في العالَم العدميّ ، راودتْني أحلام اليقظة ، ورحتُ أُمنّي نفسي بأنّ حوّاء خرجتْ في اللّيل منّي ، وغادرتْني حينَ رأتْ جسدي المُشعَر ، وهربتْ من منظري المُفزع ، وإنّها لا بُدّ أنْ تكون في مكانٍ ما ، وأنّ كلّ ما عليّ أنْ أفعله هو أنْ أركض وأبحثَ عنها ، فهي بلا شكّ موجودةٌ وإنْ كانتْ غائبة ، وإنّ منظري المريع هذا يُمكن أنْ أهذّبه لكي أكون لائقًا بمقابلتها في يوم ما . وبكيتُ ، ثُمّ شربتُ دموعي ، وبحثتُ عن أحجارٍ ذات حوافٍّ حادّة ، ورحتُ أقصّ بها الشّعر الأشعث ، وأشذّب لحيتي ورأسي ، بعد يوم كاملٍ من العمل الجادّ صرتُ لائقًا بمقابلة الحبيبة ، هكذا حدّثتُ نفسي . وبدأتُ أركضُ من جديد .

لم تظهر حوّاء . كانتْ محضَ خيال . حلمًا كاذبًا . وصورةً مُخاتلة لحُبّ الذّات . ولكنْ ألا يمكن أنْ تكون كذلك نجاتي . لم أفكّر فيها لأنّني فكّرتُ في نفسي فحسبُ ؛ بل إنّنا لائقَان بنا . ووحدي لن أكون قادرًا على أنْ أعيش ولا على أنْ أموت ، وهي الميزان ، بها يستقيم اعوجاج الضّلع ، وبها تُرى منازل القمر . الحياة وحشة وهي أُنس . وعلى رفرف من أُنسها تُعاشُ الوحشة!!

لم أعدْ أُحصي الشّعرات ولا الأعوام . ظلّتْ دموعي الّتي صرتُ أذرفها على أيّ شيءٍ وبمحض إرادتي مائي الّذي أشربه ، ولكنّني ما وجدتُ لذلك العطش البشريّ ريًا . وتذكّرتُ مرّةً أنّه كان لي حياةٌ غيرَ هذه الحياة ، وأنّ حياتي الفانية كانت الأولى ، ولا حياة أخرى إلاّ في الآخرة . ومن الجدير الاعتراف بأنّني لستُ حيًا بما يكفي لأقول إنّ ما أعيشه وما أراه وما أشعر به هو حياة ؛ ومن الجدير الاعتراف كذلك بأنّني لستُ في الآخرة ، إذْ لا تبدو من هنا لا جنّة ولا نار ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما نوع هذه الحياة الّتي أعيشها ما دامت ليست الأولى

ولا الآخـرة؟ أتكون حـيـاة الأعـراف؟ ولكنَ الأعـراف لا تكون إلاَ بين جنّة ونار؟ فهل تكون إذًا حياةَ البرزخ؟ البرزخ؟ وأضرم السّؤال في رأسي نارًا . هأنذا ؛ لستُ فِي الدّنيـا فـآكل مع أهلهـا وأشـرب ، ولستُ في الآخرة فأُجازَى وأُحاسَب ؛ فأين أكونُ إذًا؟ في البرزَخ . وسرتْ قشعريرةٌ في جسدي وأنا أنطق الكلمـة . «البـرزخ حـيـاةُ الأرواح؟» هتـفتُ في داخلي . لكنّ روحي على سبـيل التّسليم بهذه الفـرضيّـة لم ترَ روحًا أخرى منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا . فهل في الأمر خُدعة؟ أم أنّه مقصودٌ لِذاته؟ ونظرتُ فِي الأفق ، وتذكّرتُ شكل الأرواح الّتي رأيتُها في ليلتي الأولى في أوّل عهدي بالقُبور كيفَ كانتْ تخرج من النّاقور المُلقَم في فم الملَك تحوم في أسرابٍ لا نهائيّة مثل يعاسيب النّحل . وتسبح مثل هندباءات في الرّبيع لم تستطع خِفّتها أنْ تبقيها على الأرض فطارت ، وأخذت تصعد عاليًا . وابتـمستُ ؛ فكّرتُ : إنّني الرّوح الأولى الّتي تطأ أرضَ البرزخ . لكنّني سرعان ما عبستُ حينَ أيقنتُ أنّني لن أعرف كم سأبقَى وحيدًا هنا قبل أنْ تفد إليّ أرواح الآخَرين . وقمتُ أبحثُ عن قبورٍ محتملة ، عن عِظام نَخِرة ، عن بقايا جذوع لأشجار عتيقة ، عن أحافير لكائنات عُضويّة ، لكنّني لم أجدْ شيئًا ، وارتأيتُ أنْ أركضَ باتّجاه العَدم من جديد!!

في العام الخامس والأربعين من الرّكض في الهَباء بحثًا عن قطرة ماء ، كنتُ قد يئستُ من كلّ شيء ، كنتُ قد شعرتُ بأنّ أَجَلي على الأبواب ولم أعدْ أكترثُ لشيء ، البرزخ - الّذي ظننتُ أنّني عشتُه كلّ هذه السّنوات الفادحة - لم يبعثْ إليّ بشيءٍ لكي يُشعرني بقيمةٍ ولو كانتْ صفريّة لمعنى وجودي وحيدًا في هذا الخَواء القاتل ، البرزخ الّذي يحزّ الجِلد السّميك بسكّين انتظارٍ حادّة جِدًا مثلما هو حدّ المِقصلة ،

فينفشئ الدّم بطيئًا لَزِجًا دَبِقًا في خُيوطٍ تختلط بالشّعر الأسود فتُحيله إلى لون بُنّي غامقٍ مُقزّز ، تفوح منه رائحةٌ نَتِنة . قررتُ بعد خمسة وأربعين عامًا من الرّكض أنْ أتوقّف عن ذلك . هكذا ببساطة . الأعمالُ المصيريّة تحتاج إلى قرارٍ بسيط . النّتائج الكُبرى تنبني على إرادة مُفاجِئة في لحظةٍ فارقة . وهكذا قررتُ أنْ أنام دون أن أستيقظ . شعرتُ في ذلك اليوم المشهود بالذّات أنّني قادرٌ على ذلك . كان عطشي قد فاقَ كلّ حدّ . الشّقوق الّتي في شفتَيّ كانتْ تسمح لأسرابٍ من النّمل – المُشتهاة – أنْ تعبرها من أوّلها إلى آخرها ، جلدي سَمُك وغزاه الجَرَب ، وملأته البثور من أوّله إلى آخره ، وعينايَ تحجرّتا كأنّما قُدّتا من صُوّان مُطفأ ، وقدماي اسودّتا لطول ركضي حافِيًا ، وعِظامي صار يُسمع صوت احتكاك بعضِها ببعض . وأنا يائسٌ حدّ الموت ، وبائسٌ حدّ الفناء . ولم أعدْ قادرًا على أنْ أبلع ريقي ، ولا أنْ أشربَ مزيدًا من دموعي ، فقد جفّتْ كلّها ، بكلّ ألوانها ، دموع النّدم والحسرة ، ودموع الحزن واللّوعة ، ودموع الفرح ، ودموع الدّهشة ، ودموع اليأس ، ودموع الألم ، ودموع الغياب ، ودموع الانتِظار ، و . . . ونمت . في النّوم الّذي لم أدرِ كم استمرّ ، رأيتُ سحابةً قادمةً من الأفق البعيد ، سوداء ، لكنّ قلبي خفق لها ، ظلّتْ تسير حتّى صارتْ فوقي ، سألتْني إنْ كنتُ أشعر بالعطش ، فبكيت . قالتْ : هل أنتَ وحيد؟ فأجهشتُ بالبكاء من جديد؟ هتفتْ : أينَ غابَ إخوتُك؟ فكدتُ أختنقُ بدموعي . ارتجّ كلّ شيءٍ فِيّ ، فملأتها شفقةٌ سماويّة ، فبكتْ لبُكائي . وكأنّما كانتْ تحمل طوفان نوح في جوفها ، انفتحتْ فانهمر المطر غزيرًا كثيفًا سَحًا . واستيقظتُ وأنا أعلم أنّني أحلم ، لكنّ الحُلم الكاذب الّذي يزرع في روحك وردةً خيرٌ من الحقيقة الصّادقة الّتي تغرز في قلبك شوكة .

انفتحتْ بوّابة الحلم على الحقيقة ، ورأيتها ، تبكي وتبكي ، وهي تهطل بلا انقطاع ، استندتُ على باطنِ كفّي ، ابتلّ شَعر رأسي سريعًا ، فززتُ على قَدَمَيَّ ، وبفرحٍ طفوليّ رحتُ أقفز في الهواء ، وأنا أصرخ بكلمات تلعثمتْ حروفها فخرجتْ بلغة البدائيّ الأوّل ، رفعتُ يدَيّ إلى السّماء الغـاطّة بالوابل الغَـدِق وأنا أبكي من الفـرح ، لم أتمالك نفـسي ، ولم تستوعب أقدامي حرارة المُفاجأة فخرّتْ رُكبتاي ، وسقطتُ على الأرض وأنا أبكي ، رفعت رأسي إلى السّماء ، ما أبعدَ السّماءَ أمسِ وما أقربَها اليوم! شكرتُ الله الّذي في الأعالي ، وهتفتُ : «املأني برحمتك أيّها القدير» ، ورحتُ أعبّ من الماء ، أكوّر راحةَ كفّي ، وأثنيها باتّجاه فمي على هيئة ميزاب ، فينسابُ عبره الماء كما في بطون الأودية ، وأرتوي ، أشـربُ وأشـربُ وأشـرب ، دهورٌ من العطش البـشـريّ المجنون لا بُدّ أنْ يُكافِـئـهـا ارتواءٌ أشـدّ جنونًا . أشـربُ وأشـربُ وأشـربُ ، وتسـري في جسـدي شـعلةُ حـيـاةٍ جـديدةٍ ، وأنتـفض ، وأرتجف ، وأتّقـد ، وأكـبـرُ ، وأعشوشبُ ، وأخضلّ ، وأنجلي ، وأزدهي ، وأتسامَى ، وأتذكّر . . . أتذكّر كلّ دقيقةٍ من دقائق الأمور جلّتْ عن الحَصْر منذ مولدي إلى اليوم . لم أعـدْ ذلك الكائن الأوّل ، الماءُ سِـرّ الانـبـعــاث ، إنّه طقسُ الولادة المتجدّدة ، الماءُ حياة الأزل المُتعاظم والأبد المتطاول . وقفتُ على قدَمَيّ من جديد ، وقد غاصتا في طينِ السّنوات الأربع الأولى يوم أنْ سمعتُ ذلك الصّوت السّـمـاويّ الأوّل ، وها هو يتـردّد من جـديد ، في غطيط الأمواه المتدفقّة من سماء الرّحمة!!

فـــركتُ رأسي بالماء ، خَلّلْتُ به جلدة الرأس ، نزعتُ الزّائدَ من الشّعر على جسدي ، أخذتُ قبضاتٍ من الطّين وحككتُ به جلدي ، قدّستُ بالماءِ عينَي ، تدحرجتُ على الأرض وأنا أقهقه ، غامتْ عيناي

وأنا أولدُ من جديد . شربتُ عامًا كامِلاً من ماء تلك اللّيلة ، ومرّت الليلة دون أنيس . ليالِيَّ غاب عنها القمر منذ أنْ جِئتُ إلى هنا . وبدأت الحياة تعود إلى رتابتها ، جفّ الماء ، ولوهلة نثر الرّعب رماده في وجهي في اللّحظة الّتي فكّرتُ فيها أنّ خمسةً وأربعين عامًا أخرى ستُمارس تعذيبها عليّ من جديد .

هربتُ من قسوة الاحتِمال باللّجوء إلى طراوة الذّكريات . استلقيتُ على الأرض ، عقدتُ ما بينَ يدَيّ ووضعتهما تحت رأسي ، ورحتُ أُحدّق في السّماء وأنا أستعيد من ذاكرتي المشهد في ذلك اليوم الّذي مِتّ فيه .

(٤)
المُستحيلات الثّلاثة

جالسًا في المكتبة ، كان الوقتُ مساءً ، شمسُ هذا اليوم كانت حنونة وحزينة معًا ، لا قويّة فتُلهِب ، ولا خفيفة فتُبرِد ، ذاتُ ملمسٍ مُخمليّ ، ودِفءٍ ربيعيّ . غادرتْ مبكرًا نوافذي . ورحلتْ ربّما للمرّة الأخيرة ، دون أنْ تقول كلمة وداعٍ واحدة ، باستثناء قُبُلاتٍ هادئة رسَمَتْها من خلال النّوافذ الّتي تقعُ جهة الغرب على كتب تضطجع بدلالٍ فوق أرففٍ من خشبٍ بُنّيّ زادتْها سحرًا أسطوريًا ، كأنّ كلّ مَنْ عاشوا في بطون تلك الكتب منذ آلاف السّنين شعروا بتلك القبلات النّاعمة فاستيقظوا ، وأخذوا يتوافدون إلى أبواب الأغلفة يحاولون الخروج ليجلسوا إليّ ، وهم يشعرون بسعادةٍ غامرة . مكتبتي الّتي تعجّ بعشرات الآلاف من الكتب تقع في الطّابق السّفليّ للبيت ، على مدى سنواتٍ طويلة اخترتُ سُكّانها بعنايةٍ من كلّ مكانٍ وصلتُ إليه ، أُدرك أنّ صحبتهم ستستمرّ طويلاً ، ولذلك اخترتُهم من النّوع الّذي لا تستطيع الاستغناء عنه . منذ أنْ كنتُ في السّادسة وأنا عندي هذه الهواية ، أعني هذا المرض ، لم أكنْ أعرف في معمور الأرض مريضًا بالكتب مثلي ، الأغلفة القديمة ، رائحة الورق الأصفر ، الزّوايا المُهترئة ، الخطوط الباهتة الّتي تشي بكلماتٍ غائمة ، الكعب الجلديّ الأخضر الغامق ، يكسر غموضَه لمعانُ العناوين ذات الأحرف المُذهّبة ، والصّفحات المثنيّة لقرّاء عابرين دفعهم الفقر إلى أنْ يستبدلوا بالكتب

رغيفَ خبزٍ ساخن . ورسائل غرام لم تصل من عاشقٍ مجهول سرق نصفَ عبارات الحبّ من كتابٍ لابن حزم أو لعمر بن أبي ربيعة أو لنزار قبّاني ، وأوراق وردٍ يبستْ لطول عهدها بدموع المُعذّبين . وكتب طُبعتْ في الأستانة ، وأخرى بمطبعة بولاق انمحى عددٌ من أسطرها تحت أرجل العثّ الّذي اتّخذها مسكنًا هنيئًا ومرتعًا خصبًا لسنوات قبل أنْ تمتدّ إليها يدي ، يدي الّتي تنبتُ في باطنها أنهرٌ وخمائل كلّما لامستْ أصابعها بطون الكتب العتيقة!!

غرفتي في المكتبة تقع إلى يسار الدّاخل من الباب الرّئيسيّ ، أرفف حتّى السّقف تمتلئ بالكتب ، ومع أنّني أهتمّ بتصنيفها على نحوٍ دقيق ، إلاّ أنّني حصلتُ على استثناء خاصٍّ لغرفتي ، كتبٌ عن الأديان ، عن الفلسفة ، اللغة ، الفِكر ، التّاريخ ، السِّير ، التّراجم ، السِّحر ، وروايات في مجالات يصعبُ حصرُها ، ودواوين شعر مُتناثرة ، تُقحِم نفسها بين أخواتها على غير انتظام ، كأنّما تريدُ أن تنتزع منها اعترافًا في زمن أفولها . في أيّام الرّاحة كنتُ أقرأ في اللّغة ، اللّغة السّاحرة ، اللّغة الّتي حافظتْ على نَداوتها وحداثتها وحضورها البهيّ الدّائم كما لم تُحافِظ أيّ لغة . وها هو كتابٌ في المختارات لم أعد أذكر إنْ كان قد وضعه الضّبّي أم الشّجريّ أم أبو تمّام أم البحتريّ أم المُبرّد أم سعيد الكرمي أم وداد القاضي . . . أم آخرون ، يرافقني كثيرًا . وكتب أخرى قرأتُها أو اخترتُ أنْ أقرأها تثوي على سطح مكتبي ، متراكمةً في علوّ يكاد رأسي لا يُرى من خلفها . في ذلك المساء بالذّات كنتُ أقرأ في ديوان صفيّ الدّين الحِلّي ، وكنتُ قد وصلتُ إلى قوله :

أيقنتُ أنّ المستحيلَ ثلاثةٌ

الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوفيّ

حينَ سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب ، هتفتُ : مَنْ؟ لكنَ أحدًا لم يردَ ، عدتُ إلى بيت الشّعر ، ردّدتُه مرّةً ثانية ، أعجبني ولم يُعجبْني ، وقبلَ أنْ أشرعَ في حوارٍ داخليّ حول ذلك ، سمعتُ الطّرقَ الخفيف على الباب مرّة أخرى ، رفعتُ رأسي عن الكتاب ، وأنزلتُه قليلاً عن مستوى عينَيّ ، ونظرتُ باتّجاه ذلك الباب الّذي كان يبدو هادئًا مُسالمًا هو الآخر ، يتمتّع بموجة الدّفء الّتي غمرتْه في ساعة الغروب ، والّتي بدأتْ تنسحبُ تدريجيًا لصالح البرد الّذي أخذ يتسلّل مع هبوط اللّيل . سألتُ : «مَنْ هناك؟» . لم يردّ أحدٌ ، انتظرتُ قليلاً قبل أنْ يُطرَق الباب للمرّة الثّالثة ، هتفتُ بشيءٍ من الضّيق : «ادخلْ» . لم يتحرّكْ في الباب شيء . تركتُ الكتاب على الطّاولة ، ووقفتُ ، خطوتان فَصَلتا بين وقوفي وشُعوري بدوارٍ خفيف . تمايلتُ قليلاً ، ثمّ خلال خُطوتَين أخريَين ترنّحتُ كما لو كنتُ على حافّة السّقوط ، أمسكتُ بحافّة الرّفوف في الواجهة الّتي تضمّ مؤلّفاتي ، التقطتُ أنفاسي من لهاثٍ غير مفهوم ، ودقّات قلبٍ سريعة ، كأنّني أحسستُ بشيءٍ لكنّني لم أعرفْ ما هو . استعدتُ توازني ، مشيتُ باتّجاه الباب ، أدرتُ المِقبض ، وتراجعتُ قليلاً لأسمح لظلفة الباب أنْ تنفتح ، ثُمّ حدّقتُ في الزّائر المُتوقّع ،لكنّني لم أرَ شيئًا باستثناء السّاحة الفسيحة الّتي ترقد أمام المكتبة ، وشُجيرات السّرو العالية الّتي تغيم مع السّواد الّذي حلّتْ غلالته منذ لحظة الغروب ،لولا بعضُ النّور المتسلّل إليهنّ من قمرٍ نصفيّ يكافح في إرسال أشعّته من خلال غيوم عنيدة لغرقنَ في الظّلام والغموض بشكلٍ تامّ . نظرتُ من جديد ، وهتفتُ بصوتٍ مسموع : «هل هناك من أحدٍ؟» . رأيتُ أعالي شُجيرات السّرو تتحرّك . لم يُجبْني أحدٌ ، هَمَمْتُ بإغلاق الباب لأعود إلى مكتبي قبل أنْ أشعرَ

أنّ شيئًا ما مثل غمامة قد تسللّتْ من تحتِ يدَيَّ ودخلتْ ، تابعتُها بنظري ، لم أعرف كُنه هذا الزّائر الطّريف على وجه الدّقّة ، هو لا يُرى ، ولكنّه يُحَسّ ، ربّما كان طيفًا ، ربّما كان هواءً ، ربّما خيالي الّذي لعبتْ به سطور ظلّ الريح ، ومقبرة شنكوفيتش في كوفاديس ، ومذكرات منزل الأموات ، الّتي قرأتُها قد أوحى لي بذلك ، لكنّه مع كلّ تلك الاحتمالات الصّائبة أو الخاطِئة لم يكنْ بوسعي التّمييز آنئذ ، رأيتُه يُتابع سيره بهدوء وثقة كأنّه كان زائرًا مُتوقعا ، أو غائبًا مُنتَظَرًا ، أو حبيبًا مَشوقًا ، أو أحد أصدقائي القُدامى الّذين طالتْ أوبتهم ، ثُمّ جلسَ على الكرسيّ عن يميني إلى ذلك المكتب الّذي كتبتُ فوقه كتبي كلّها .
عُدْتُ إلى مكاني وأنا مذهول ، لم أكنْ أملك أنْ أمنعه ، ولا أنْ أحاوره . كنتُ قد أغلقتُ الباب خلفي بهدوء ، ومشيتُ حتّى جلستُ إلى المكتب ، تفرّستُ في وجهه جيّدًا ، الآنَ عرفتُه ، إنّه الزّائر البعيد القريب ، المنسيّ الحاضر . لقد جاء يستأذنني ، كما قال ، وعرفتُ أنّه استأذن كثيرين قبلي ، يُشبهونني في بعض الوجوه! ابتسمتُ ، سألتُه : «هل أملك خيارًا؟» . كنتُ أعرف الجواب وأريد أنْ أسمعه منه ، لكنّه صَمَت ، هتفتُ بشيءٍ من العصبيّة : «فلماذا إذًا تستأذنني؟! لماذا لم تدخل عنوةً ، لماذا لم تأخذني إليكَ دون أنْ تصطنع مسرحيّة مُؤلمةً كهذه؟» ظلّ صامتًا ، هدأتُ من رَوعي ، حاولتُ أنْ أرسمَ ابتسامةً على وجهي الّذي بدأ يشحب ، وانتشر ازرقاقٌ خفيفٌ فيه تحتَ جفنَيّ ، ورجفتْ فيه عيناي ، لكنّها خرجتْ باهتة . سألتُه : «ماذا تشرب؟» . لم يَفُه بكلمة . ازداد وجيب قلبي ، كان عليّ أنْ أُكرمَ ضيفي ، أعدتُ السّؤال بطريقةٍ أخرى : «أيّها العزيز ، ماذا يُمكنني أنْ أُقدّم لك؟ لديّ شايٌ باللّوز ، ولديّ زنجبيل بالعسل ، ولديّ قهوةٌ حزينةٌ مثل حروفي» .

ابتسم هذه المرّة ، وحرّك رأسه باتّجاه الكتاب . عرفتُ أنّه يريدُني أنْ أقرأ منه ، قلتُ : هذا ديوان شعر ، والشّعر خيال ، وأمام الحقيقة عليَّ أن أقرأ ما يناسب المقام . سأقرأ لك من التّوحيديّ ما رأيك؟ فابتسم ، فعرفتُ أنّ ذلك أعجبه . تناولتُ الكتاب من الكومة الّتي ترتفع عن يساري ، قرأتُ بصوتٍ هامسٍ لا يكاد يسمعه سوانا ، وكأنّنا عاشقان يتناجَيان وحيدَين في غفلةٍ من أيّ رقيب : «عتابٌ ليس يَنقطع ، وقلبٌ ليس يَرتدع ، وفضاءٌ ليس يَتّسع ، وبلاءٌ ليس يَمتنع ، ورُوحٌ ليس يَنتفع ، وأمرٌ ليس يَرتفع ، وشخصٌ إنْ زال لم يَزُلْ خيالُه ، وحبيبٌ إنْ غابَ لم يغبْ مِثالُه ، فالشّوقُ على احتدامه مُحرِق ، والوَجدُ على التِهابِه مُقلِق ، والزّمان على عاداته جامعٌ ومُفرِّق» . ثُمّ توقّفتُ لأنظر في وجهه ، فرأيتُ ابتسامته تتّسع ، ثُمّ إنّ الكتاب ثَقُلَ في يدي ، وغلبني شيءٌ يُشبِه النّعاس ، فلم أنتبه إلاّ والكتاب قد سقط ، فنظرتُ إليه بعينَين نصف مُغمضتَين فإذا هو قد قام من مقعده واقتربَ منّي حتّى سمعتُ حفيفَ أنفاسه ، فعلمتُ أنّها ساعتي ، فاستمهلتُه كلماتٍ ، فلم يُمهلني ، فانتزعتُها مُبعثرًا حروفها في فضاء الغرفة وصوتُ عبد الرزّاق عبد الواحد يرنّ في أذني : «كلّ ما أرجوه يا سيّدي أنْ تُعيدَ الكتاب إلى مكانه إذا حانَ الحَيْن ، إنّه حسب تصنيفه يقع في . . .» . لكنّه ازداد منّي اقترابًا حتّى شعرتُ أنّ غمامته تستحوذ عليّ ، هتفتُ بصوتٍ خفيضٍ مُشبع بالرّجاء : «قُلْ لأبي أنْ يُطعِم عنّي الأيتام سبعةَ أيّام فإنّني فيهنّ أُفتَن» . ازداد اقترابًا حتّى لَبِسني ، صارَ فِيّ ، فتابعتُ وأنا ألهثُ ، وأفتحُ عينَيّ على اتّساعهما ، وأشهقُ شَهَقاتٍ مخطوفة حتّى لا يُغمَى عليّ : «يا سيّدي ؛ أما وقد سقط الكتاب من يدي ، فلا تتركه بعدي منكفِئًا على وجهه كما لو كان ميّتًا ؛ الكتب لا تموت ،

احملْه برفق كما لو كنتَ تحمل طفلاً بريئًا ، وأعِده إلى مكانه في المكتبة ، لن يُعجزك أنْ تجد مكانه هناك في الرّفّ الثّالث من الأعلى ، مكانه فارغ ، ومُظلم ، وبارد ، لكنّه ينتظر منذ أنْ غادره ليملأه بالنور والدّفء . الكتب لا تترك مكانها إلاّ إذا كانتْ ذاهبةً إلى الخلود ، الأمكنة الفارغة ليستْ ميّتة ، إنّها تنتظر عودة كتاب ، والكتاب حياة» .
وسقطتُ على الأرض . ارتطمتُ بقوّة على البلاط بجانب مكتبي حتّى شعرتُ بأنّ فكّي قد انكسر ، صحتُ صيحتي الأخيرة ، وأسرعَ أهلي إليّ ، حملوني على محفّة تُشبه محفّة السّنوات الأربع الأولى التّي رأيتُها مع أبي في مدخل المسجد ذي المآذن العتيقة ، وساروا بي إلى المُستشفى ، لم تُفلح الصّعقات الكهربائيّة المتتابعة - التّي كان يتكوّر فيها صدري كقُبّة - في إعادتي إلى الحياة . الموتُ خيطٌ معلّق بالرّوح إذا انقطع فإنّه ما من قوّة في الأرض تستطيع أنْ تصله!
في الطّريق ، وأنا أهتزّ على أكتاف المُشيّعين ، كنتُ أردّد البيت إيّاه الّذي كنتُ أقرؤه قبل دخول الزّائر المحتوم . وها هي قُبّة السّماء المُحايِدة ، ما زالتْ يداي معقودتَين تحت رأسي ، حينَ رأيتُ طائرًا يعبر الفضاء ، انتفضتُ ، انزاحتْ ذكرياتي جانبًا . حللتُ عُقدةَ يدي ، حدّقتُ في المشهد المُذهِل الماثل أمام ناظِرَيَ ، فركتُ عينَيّ ، حدّقتُ من جديد ، إنّه طائرٌ بالفعل ، صرختُ : واا ربّااه . . . واا رحمتاه . . كائنٌ حيّ في هذا العدم بعد ستّة وأربعين عامًا ، لا بُدّ أنّ السّماء راضِية لتبعث لي بهديّة كهذه . فززتُ واقِفًا ، غطّيت عينَي بيدَي لأتّقي أشعّة الشّمس المُباشرة ، وكذّبتُ نفسي : هل من المعقول أنّني أرى طائرًا حقيقيًا ، أم أنّني ما زلتُ أحلم باسترجاع ذلك المشهد يوم غادرتُ الفانية؟! ولكنّه طائرٌ حقيقيّ ، ها هو يخفقُ بجناحَيه ، وهو يولّي

بعيدًا ، إنّه حقيقيّ ، هتفتُ ثانيةً ، وتذكّرتُ البيت ، وصرختُ بشكلٍ لا إراديّ : «الغول والعنقاااااءُ والخِلّ الوفيّ» ، ثُمّ صرختُ من جديد : «العنقاااااء» . ومددتُ الألف في الكلمة كأنّني أمدّ بها يدًا نحوه لأقول له إنّني هنا ، وإنّني كائنٌ حَيٌّ مثلك ، وشعرتُ أنّ صرختي هذه المرّة كانتْ حقيقيّة في عالَم يبدو في السّابق بلا ملامح . تابعتُ ببصري وأنا مُنشده الطّائر العِملاقَ وهو يواصل رحلته السّماويّة بلا توقّف ، كان جناحاه المفرودَان على اتّساعهما يُغطّيان الشّمس فأراه بوضوح ثُمّ يُظهرناها في خفقةٍ أخرى فأتّقيها بيدَي . أسْود يُشبه الغُراب لولا أنّه يعادل في حجمه ألَف غُراب ، يحلّق على ارتفاع عال ويُتابع سيره في عين الشّمس ، رأسُه الضّخمة يملؤها ريشٌ بألوانٍ شتّى يخرج على الجانبَين مثل تلك الرّيشات الّتي كانت تلتفّ على رأس الهنديّ الأحمر ذي الحظّ البائس في أمريكا أيّام الفانية ، وعيناه متّسعتان كعينَي حِصانٍ مذعور تدوران في محجريهما يمنةً ويسرة ، وعنقه الّتي تُشبه في طولها عنق زرافةٍ كانت خاليةً من الرّيش يظهر لحمها الزهريّ ذو الطّبقات المتدرّجة ، وساقاه ذات الجلد الصدفيّ السّميك تنتهي بمخالب طويلة . وأنا . . .؟ لقد كاد يُغمَى عليّ من الفرحة لعثوري عليه أو عثوره عليّ ، لا أدري من عثر على الآخر . كان الشّيخ أيّام الفانية يقول : «المشاهدة أوّلاً ، وبعد ذلك المُحادثة . فكلّ النّاس يرون السّلطان ، أمّا الّذي يُكلّمه فهو الخاصّ المُؤثّر عنده» . وأنا أَملتُ أنْ ينزل هذا السّلطان من عليائه فيكلّمني . واصل طائر العنقاء تحليقه بلا توقّف ، فركضتُ خلفه ، صحتُ بصوت عالٍ وأنا أركض رافعًا رأسي جهته : «أيّها الطّائر العزيز هَلاّ نَزَلْتَ إليّ فجالَسْتَني . . بأيّ لغات الأرض تريدُني أنْ أخاطبَك؟! في البرزخ هنا يا عزيزي أتساوى مع

سليمان في فَهْم منطق الطَّير ، صدِّقْني أستطيع أنْ أفهمك لو تكلَّمتَ بكلمةٍ واحدة ، تكلَّم أيّها العزيز ، تكلَّمْ ، ولا تبقَ صامِتًا ، جرِّبْ أنْ تُحادثني وستجدني كلّي آذانًا صاغِية» . كان ما يزال يحلّق بعيدًا ، وبدأتُ ألهثُ ، وبدأتْ كلماتي تتقطّع مع أنفاسي الرّاكضة خلف عهدٍ جديد يُمكن أنْ يبدأ لو أنا لم أُفلِتْه من بين يدَي ، وصرختُ : «إنّني أعرضُ عليكَ صداقتي أيّها الطّائر الرّائع ، فهل تقبلني صديقًا؟ هل قلتَ : إنّ الطّيور على أشكالِها تقع؟ كأنّني سمعتُكَ تقول ذلك ، لا بأسَ يا عزيزي ، أعرفُ أنّ ضعفي وقلّة حيلتي لا تليقُ بمقامك العالي ، ولكنْ إذا كنتَ ترفضُ صداقتي فاتّخذني عبدًا لك ، أنتَ تأمر وأنا أطيع ، أنتَ تطلب وأنا أنفّذ ، المهمّ ألاّ تتركني هنا وحيدًا فقد تعبتُ من الوَحدة . . .» . وزاد صوتُ لهاثي الّذي بدا أنّه يخرج من رئةٍ مثقوبة ، وأردتُ أن أتوقّف لألتقط أنفاسي ، ولكنّني خشيتُ أنْ يُفلتَ الطّائر الميمون منّي ، فتحاملتُ على نفسي لأواصل الركّض ، وأنا أصيح : «أيّها الطّائر العزيز . . أيّها الطّائر العزيز ألا تسمعني؟ أرجوك . . . توقّف . . . إنّني بحاجةٍ شديدة إليك ، سوفَ تجدني عبدًا مطيعًا ، أنا متأكّد من أنّك ستجد الاحترامَ الكافي من جانبي لو أنّك نزلتَ فجلستَ إليّ ، وحادثْتني قليلاً ، قليلاً أيّها الحبيب ، قليلاً . . . أرجوك!!» . لكنّه واصلَ طيَرانه مُبتعِدًا ، وكدتُ أُشرِفُ على الهلاك لسرعة عَدْوي ، ولكنّني هتفتُ في داخلي : «لن أتركه يُغادرني فجأةً كما ظهر فجاة ، سوف أتبعه حتّى ينخمد آخر نَفَسٍ في صدري» . وركضتُ تحته وأنا أرفعُ يدِي تارةً مُلوّحًا له ، وأحني رأسي بما أستطيع مُحيّيًا له تارةً أخرى علّه يقبل ضراعتي : «انزلْ إليّ أيّها الصّديق ، ماذا يُمكنني أنْ أفعل لك حتّى تستجيب لي ، قُلْ ، وستجد أنّني سأنفّذ ما

تطلبه على الفَور» . كان أصمَّ على ما يبدو ، ولم تُجد معه توسّلاتي نفعًا . وأنا؟ تَبِعتُه مع أنّه كان - كما في بيت الشِّعر - أحدَ المُستحيلات الثّلاثة ، نعمْ تَبِعتُه ؛ كما لو كنتُ أرى فيه أملي الوحيد في القضاء على وحشتي ، وخيطي الرّفيع الّذي يصلني بالحياة ؛ بالحياة الّتي تكتسب معنى ، لا حياتي الّتي أقضيها هنا برتابتها ، بل بكسر تلك الرّتابة في كلّ شيءٍ ، في أيّ شيء ؛ حتّى في هذا الرّكض العدميّ الّذي استمرّ كلّ هذه العشرات من السّنين ، ومع ذلك فقد ركضتُ خلفه عازِمًا على ألاّ أجعله يغيبُ عن ناظِرَيّ ولو كلّفني ذلك . . . وتوقّفتُ عن إكمال الجملة ؛ حَقًّا؟ ماذا لديّ؟ ماذا سيكلّفني هذا الرّكض العدميّ؟ فأنا لا أملك سوى سنوات متطاولة ليس لها نهاية ، وزمنٍ ليس له انقضاء ، وعليه فلْيأخذ الأبد الّذي لا يُؤخَذ ، ولا يتبدّل ، ولاً يتحوّل ، كأنّما هو ضوء شَعّ في فراغ لا يحجزه شيءٌ فاستمرّ بلا انقِطاع إلى ما لا نهاية ، نعم فليأخذ هذا الأبد الّذي لا ينتهي ، ولا ينبعج ، ولا يلتوي ، ولا ينحرف ، ولا يزيغ ، ولا ينطوي ، وليس له شَكل ، ولا علامة ، وليس له وجه ، ولا يسمع ، وغير مُبال ، وليسَ فيه قفَزات متوقّعة أو غير متوقّعة ، ليسَ فيه أيُّ شيءٍ وفيه كلّ شيء ؛ لأنّه الأبد!! ومَنْ أنا؟ ذرّةٌ تائهةٌ في السّديم ، معلّقةٌ في العدم ، مكنوسةٌ بريح اللامعنى ، كما لو كنتُ كبسولةً سقطتْ من سفينةٍ فضائيّة في الفراغ اللامُنتهي بين كواكب لا حصر لها إلى أجلٍ غير مُسمّى!!

ومع كلّ هذا اليأس ، كان لا بُدّ من الاستمرار في المحاولة ، كانَ عليّ أنْ أنقذ روحي الّتي تُشبه كُتلةً من الشّوك عَلِقتْ في كُبّةٍ من الصّوف . وركضتُ خلفَ طائري الميمون ، ورجعتُ إلى توسّلاتي ،

وبكيتُ كما لم أبكِ من قبلُ ، وأنا أراه يبدأ بالاختِفاء ، ولم تعدْ لديَ القوّة لمزيدٍ من الركض المستمرّ ، وفي غمرة صراخي البائس ، سقطتْ من رأسه ريشة!! نعم سقطتْ من رأسه ريشة!! وكمن يجد قارب النّجاة في بحرٍ لجّي ، ارتجفتْ شفتاي ، وارتعشتْ ساقاي ، وانتفضَ جسدي كلّه ، نعم إنّها ريشةٌ من قمّة الرّأس ، هوت الرّيشة من هناك متأرجحة في الفضاء ، تتمايل ذات اليمين وذات اليسار ، وأنا أتابعها ببصري ، وقلبي يتمايل معها ، فَرِحًا بوجود دلالةٍ على الحياة ، ولو كانت متمثّلةً في ريشة ، وهتفتُ : «إنْ فاتني الكلّ فمن الحِكمة ألاّ يفوتني الجزء» . ووقفتُ متسمّرًا في مكاني وأنا أتابع الرّيشة في سقوطها الأسطوريَ ، كانتْ سرعتها تتزايد كلمّا اقتربتْ من الأرض ، تهزّ رأسَها كراقصٍ في حفلة نشيج صوفيّة ، ثمّ اعتنقتِ الأرض ، وسكنَ كلّ شيء ، وسادَ صمتٌ مُطبِقٌ ، لحظات قبل أنْ يُسمَع صوتُ انبِثاق من باطن الأرض ، الحياة مذخورةٌ في هذا التّراب . إنّها بذرةٌ تنمو على ما يبدو ، بالفعل إنّها بذرة ، البذرة أوّل الحياة . اتّسعتْ حَدَقَتا عَيْنَيَ وأنا أراها تكبُر أمامي ، فتُصبح ساقًا رفيعة ، وتتوزّع على جانِبَيها أوراق خضراء يانعة ، ثُمّ تواصل السّاق تضخّمها ، حتّى ترتفع فتصبح شجرةً باسِقة ، تتمتدّ أغصانها الكثيرة بأوارقها الكثيفة حتّى تُظلّني وتُظِلّ مسافاتٍ بعيدة من خلفي ، ثابِتةً في الأرض عالِيةً في السّماء ، كان الذّهول آنذاك قد غمر كلّ خليّة في جسدي ، تهاوَيت على الأرض على حافّة الإغماء ، ولمحتُ الطّائر يُسقِطُ ريشةً أخرى في البعيد قبل أنْ يعتم كُلّ شيء!!

(٥)
أنا أصل الشّجرة الآدميّة المُباركَة

استيقظتُ لأرى أمرًا عجبًا ، كانتْ هناك شجرةٌ من الأشجار العملاقة قد اكتمل نمّوها في موضع الرّيشة أثناء غيبوبتي . شجرةٌ ممتدّة في الأفق حتّى إنّها لَتحجبه عن ناظرَي . كان بَرد الظّلال مع النّسائم قد تسلّل إلى جوارحي فملأني بالطّمأنينة . سكينةٌ عجيبةٌ حلّتْ على روحي . خِلتُ أنّ سقوطي في بئر الغيبوبة قد أوصلني إلى أبواب الجنّة . استويتُ جالِسًا ، وأنا أحدّث نفسي همسًا : «أتكون هذه الجنّة؟»! . نفضتُ رأسي بسرعةٍ . وتابعتُ : «كلاّ ، لو كانتْ كذلك فأين الحساب؟ النّاس لن يمرّوا من البرزخ في بوّابات غير مرئيّة إلى الجنّة بسقطةٍ واحدة . الحساب طويل ، والوقوف بين يدي القدير أطول ، وهناك مراحلُ كثيرة يجب على المرء المسكين أنْ يجتازها قبل أنْ يدخل إلى جنّات النّعيم أو يهوي إلى قيعان الجحيم» . وقفتُ ، كانت الشّمس تتخلّل الأغصان فتسقط في دوائر ذهبيّة على وجهي وجسدي المُشعَر ، فكّرتُ بآدم وشجرته ، أتكون هذه شجرة الخُلد؟ شجرة الخُلد كانت البداية ، بداية أبينا ، وستكون منتهاه بعد أنْ يمرّ بدورةٍ مستمرّة من الوجود . اقتربتُ من أحد أغصانها ، كان مليئًا بالأوراق الخضراء الكبيرة ، «إنّها فكرةٌ حسنة» ، هتفت . فعلتُ ما فعل أبي آدم ، خصفتُ من ورقها وغطّيتُ عورتي . بعد زمنٍ سأكون قادرًا بموسى حجريّة

مقدودة من صُوّان صَلْد أنْ أنزع شعر جسدي ، وأشذّب لحيتي وشَعر رأسي بشكلٍ جيّد . بل وأعتمر في مرّاتٍ عديدة طاقيّة من ورق الشّجر ، أزيّن بها رأسي الّذي ما زال يضجّ بالدّهشة والأفكار .

أجمل مساءٍ منذ ما يقرب من نصفِ قرنٍ يمرّ عليّ ، هو ذلك المساء الّذي نمتُ فيه تحت ظلّ الشّجرة ، من خلال الغصون لم أرَ سماءً تختلف عن سماوات السّنين الغابرات ، ولم تكنْ بالطّبع مثل سماء الفانية ، كانتْ سماءً مُظلمة ليس فيها أيّ أثر لسُحبٍ أو قمرٍ أو نجوم أو أيّ مصابيح إلهيّة تتدلّى من هناك . لكنّني كُنت على أشدّ ما يكون الاطمئنان . نمتُ . وفي النّوم حلمتُ بطائر العنقاء يظهر من جديد ، هذه المَرّة قال لي : «ألم تشاهدني أُسقِط ريشةً أخرى قبل أنْ تغيبَ عن الوعي ، إنّ كلّ ريشةٍ تُنبِت شجرة ، وعند جذع الشّجرة ستجد الرّيشة الّتي سقطتْ من رأسي ، فإن التقطْتَها من هناك فستتراءى لك عوالم الفانين يجولون في الظّلال ، تراهم لكنّهم لا يرونك ، وتسمعهم لكنّهم لا يسمعونك» . سألته كمن يتوقّع اختفاءه في أيّ لحظة : «كم ريشةً سقطتْ من رأسك أيّها الطّائر الميمون؟» . لكنّه كان كمن سمع فِعلاً صوت هواجسي ، اختفى في ظلام الحلم ، كنور مصباح انطفأ فجأة .

استيقظتُ من النّوم ، وعلى الفور هُرعتُ باتّجاه الجذع الضّخم الّذي يزيد قُطره عن مترين ، درتُ حوله قبل أنْ أجد الرّيشة ، تناولْتُها من هناك ، وخبأْتُها في طيّات ثيابي . وعزمتُ في اليوم نفسه أنْ أبحثَ عن كلّ ريشةٍ سقطتْ ونبتَتْ من بعدها شجرة . نظَرتُ إلى الأفق ، كان منبسطًا بلا التواء ، لا تظهر فيه غير نقطةٍ سوداء يبدو أنّها الشّجرة الثّانية . هممتُ بالمُضيّ . خطوتُ أولى خطواتي في رحلتي الجديدة . ابتعدتُ قليلاً عن الشّجرة لأسمع أصواتًا تأتي من خلف كتفَيّ ، إنّها

أصواتٌ بشريّة ، أدرتُ طرفي لأرى ما أَخبرَ به الطّائر ، آباؤنا الأوائل ، كأنّني سمعتُه يقول هذه شجرة النّشأة ، وقرأت : «أأنتم أنشأتم شجرتَها أم نحن المُنشِئون» . واقتربْتُ أكثر . هل هذا آدم! سألتُه : «أأنتَ هو؟» . كان غارقًا في التّفكير يضع كفّه على خدّه ، وعيناه ساهمتان . «نحن أبناؤكَ يا أبي» . لكنّه لم يسمع . اقتربتُ أكثر ، مددتُ يدي مُصافِحًا ، لكنّه كان في عالَم آخر . بدا أنّه قد ركن إلى العُزلة والرّاحة ، واختار أبناؤه الّذين لم يروا ما رآه في الأعالي أنْ يَضِجّوا بالحياة ويكدحوا فيها . سألته إنْ كان قادِرًا على وصفِ أيّ نهرٍ من أنهار الجنّة لي ، لكنّه تابع صمته . تذكّرت أنّني أراهم ولا يرونني ، وأنّني أسمعهم ولا يسمعونني . إليه كان هناك آخرون يطوفون في المكان ، لا بُدّ أنّها أرواحهم هي الّتي حضرتْ هنا لا هم ، شيخ الدّنيا قال لي : «الرُّؤيا أوّل منازل النّبوّة . والتّوكّل أعظم النّعم . واليقين شُغل الذّاهلين الذّاهبين ، والفناء للجسد ، والأبد للرّوح» . تكاثرَ الخلق تحت الشّجرة ، فسألتُ آدم : «في أيّ عام وُلدتَ» . فرأيتُه يهزّ رأسه ولا يُجيب ، فأعدتُ عليه السّؤال ، فكأنّ صوتَه قال : «لقد قدّر الله وجودي قبل خمسين ألف سنةٍ من وجودي ، لم يكنْ هناك أرض . لم يكنْ هناك سماء . كان هناكَ شيءٌ واحد . هو الماء . وكان عرشُه على الماء . والماء أصل كلّ شيء . ثُمّ كان القلم . ثُمّ كان القَدَر . فكلّ شيءٍ عنده بقَدَر . وأنا شيءٌ من قدره . ثُمّ كان ما كان» . فعلمتُ أنّ السّنوات تنفلت من العدّ ، فسألتُه : «أتعرفني؟» . فأصغَى ، ثُمّ حدّق فِيّ طويلاً ، ثُمّ قال : «وأنّى لي أنْ أعرفك!!» . فسألتُه : «ألا تذكرُ يومَ الذّرّ؟ فإنّ الله مسح على ظهرك فنسلنا منه ، كلّ ذرّيتك وقفتْ بين يدَيك ، وأنا كنتُ هناك» . فردّ : «ولكنّهم كانوا طوفانًا بشريًا ، لولا أنّه لا حدّ للجنّة لما

وَسِعَتْهم ، فكيفَ لي أنْ أتعرّف إليك من بين كلّ هؤلاء الخلائق؟» .
فقلتُ بصوتٍ يقطر رجاء : «حَدّق في عينَيّ يا أبتاه ، لعلّك شاهدْتَ هاتَين العينَين من قبل؟» . فقطّب جبينه ، وردّ بحزم : «ولماذا تريدُني أنْ أتعرّف عليك ؛ بِمَ ينفعك ذلك؟» . فقلت : «لأنّني أريد أنْ أعرفَ إنْ كنتُ قد كُتِبْتُ في الأشقياء أم السّعداء؟ أيُؤمَر بي إلى الجنّة أم إلى النّار؟» . فشهقَ شهقةً أشفقتُ عليه منها ، ثُمّ قال : «وما أدراني يا بُنيّ!! إذا كنتُ لا أدري إلى أينَ يُؤمَر بي أنا ، أفكون أدري إلى أين يُؤمر بك أنتَ؟!» ثُمّ قلبَ كَفًّا بكفّ وراح يردّد ، وعيناه تزدادان ذهولاً : «وما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم . . . وما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم» .
ورأيتُ امرأةً لم أر أجملَ منها في حياتي تقف إلى جانبه تُهدّئ من رَوْعه ، فسألتُها : «مَنْ أنتِ يا أمّاه؟» . فقالت : «تسأل وتُجيب ؛ أنا أصل الشّجرة الآدميّة المُبارَكة» .
ثُمّ رأيتُ (قابيل) ، فسألتُه : «لِمَ قتلتَ أخاك؟!» . فكأنّني سمعتُه يقول : «لم أقتلْه ، بل قتله الشّيطان» . فعَظُم عِنادُه في قلبي ، فهتفتُ مستنكرًا : «الشّيطان؟! وما علاقة الشّيطان بالقتل؟!» . فردّ بحزم أكبر : «إنّه يعيشُ فِيّ» . فأجبتُه : «لا يعيشُ فيك إلا الحسد» . فردّ : «وهل الحسد إلاّ شيطان!!» . «ويُسوّغ ذلك قتْلَ مَنْ خرجَ معكَ من بطنٍ واحدة؟!!» . «قَبِل الله منه ولم يقبلْ منّي ، مع أنّني صنعتُ ما لم يصنعه أخي ، وقدّمتُ ما لم يُقدّمه ، ففيم المفاضلة بيننا ، إذا كان الواحد منّا لا يُمكن أنْ يُقدّم أكثرَ مِمّا يملك ، أملك الزّرع الّذي تأكل منه غنمُ أخي وعليه تعيش ، فأيّنا خير؟!» . ثُمّ سألتُه إنْ كان نادمًا ، فضحك . ثُمّ رأيتُ هابيل يسوق كِباشَه وقد أصبحتْ سمينة ، ويأتيه منها خيرٌ كثير . غير أنّها كانت تمشي في الدّم كما كانت في الفانية

تمشي في الطِّين ، وهي تثغو قائلةً : «دماء الرّاعي قربان الخلود» . ورأيتُ (حَنوك) ، وفي يده الرَّفش ، فسألته عن العيش في الكهوف ، فكأنّني سمعتُه يقول : «أنا بَنّاء ، والكهوف للبدائيّين ، وأنا أوّل مَنْ علّم البشر بِناء المُدُن» . ثُمّ رأيتُ ابنَيْه ، أحدهما يسوق الغنم مع جدّه (هابيل) ، والآخر يجلس في ظلال الشّجرة وبيده مزمار يعزفُ عليه ، فأشجاني صوته ، وخطفني مِنّي ، فذُهِلت عن بقيّة الخَلق ، ورحتُ أستمع إليه ، فإذا لحنه يَرِقّ له قلبُ الحجر ، فقلتُ له : «زِدْني» . فقال : «نحن لا نُجيبُ من يَسأل» ، ثُمّ قام ، ولا أدري أينَ اختَفى ولا كيف . وعزمتُ على أن أتعلّم لحنه ، وأنْ أعزفه إنْ أسعفَ الحال . ثُمّ رأيت (شيث) يتبعه ابنُه (أنُوش) ، وهو يقول له : «إنّه الرّبّ ، وإنّه واحدٌ ، وما نعرفهُ إلاّ وحيًا» ، فكأنّني سمِعتِ (أنوش) يردّد : «يا ربَّ . . . يا ربّ» فطربتُ لذلك . ومن يومها سُمِعتْ الخلائق كلّها تردّد في حال كربِها : «يا ربّ . . . يا ربّ» . فما منْ شجرٍ ولا حجرٍ ولا وَبَرٍ ولا مَدرٍ ولا نجم ولا كوكبٍ ولا إنسيَ ولا جِنّي ، إلاّ ويقول : «يا ربّ . . . يا ربّ» وكانَ له من أجرِ كلّ هؤلاء ، كما كان لقابيل من ذنوب كلّ الّذين صبغَ الدّم أكفَّهم . ورأيتُ (أخنوخ) كأنّني عرفتُ فيه (موسى) ، يكلّمه الله ، أو يُوحِي إليه بلا حِجاب ، ورأيتُ كيفَ أنّ الله أحبّه فاستأثر به في علم الغيب عنده ، فلمّا أشرقتْ شمسُ ذلك الصّباح ، خرج يبتغي وجه الله ، فبسط له الله الأرض ، ومَهَد له الطّريق ، وقال إليّ يا خيرَ عِيالي ، حتّى جاز ما لم يَجُزْه سِواه ، وبلغ في غايته مُنتهاه ، ثُمّ لم يُعرَف له من بعدها أثر . ورأيتُ (نوح) ، يبكي تحت الشّجرة وينوح ، وهو يجلسُ إلى صخرةٍ لم يمسّها الماء ، فأبكاني بُكاه ، فقد كان ذا شجنٍ ورَنّة ، فسألتُه : «لِمَ تبكي يا أبتاه وقد أُعِدّتْ لكَ رِياضٌ في الجنّة لم تُعدّ في الخلائق

إلاّ لخمسة أنتَ أحدُهم؟» . فكأنّني سمعتُ صوتَ نُواحِه يعلو ، وهو يردّد : «لقد ثُقّلت الأرض بالخطايا ، والموعد على الوِرد ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ مَنْ رَحِم ، وإنّ ابني خالفني ، فهلك وكنتُ أرجو أنْ ينجو» . فسألتُه : «أيّهم ، أهو سام أم حام أم يافث؟» . فكأنّني سمعتُه يقول اسمًا آخر ، ثُمّ قام يُصلّي ، فسألتُه : «أصلاةٌ في البرزخ وقد انقطع العمل؟!» . فلم يُجبْني ، ولم أشأ أنْ أقطع عليه صلاته ، فتركتُه حتّى انتهى ، ولم أغادر موضعه ؛ لأنّني كنتُ أريدُ أنْ أسأله سؤالاً ظلّ يحوم في عقلي نصفَ عمري في الفانية : «أَفَعلَ بك حامٌ ما فعل؟» . فرأيتُ وجهه قد تغيّر ، وكأنّني سمعتُه يقول : «كذبوا ، إنّما عصمَنا الله عن كلّ خطيئة» . فندمتُ أنْ قد أثرتُ هذْأته ، وخشيتُ أنْ أسأله السّؤال الآخر ، ولكنّني عندما عاينتُ وجهه تشجّعتُ ، فقلت : «وامرأتك؟» . فقال : «ما شأنُها؟» . فقلت : «أصعدتْ معك على السّفينة أيّام الطّوفان؟» . فقال : «لا يدخل النّار مَنْ ركبَ معي ، ولا ينجو مَنْ قال عنّي مجنون» . ففهمت . فقلتُ : «أخبرني عن الطّوفان؟» . فتنهّد ، فشعرتُ أنّ حكايا الطّوفان لو أرادَ أنْ يقصّها عليّ للبث ألفَ سنة إلاّ خمسين عامًا . فعدلتُ . فقال لي : «من أيّ البشر أنت؟» . فاستوضحتُ : «أتقصدُ من أيّ نسلٍ؟ أمْ من أيّ زمنٍ؟» . فقال وهو يمسح بيده على لحيته البيضاء الكثّة : «من أيّ زمنٍ؟» . قلتُ : «أنا من زمن أخيك الصّالح؟» . فسألني وقد أزعجه جوابي : «أيّهم ، فهم كُثر؟» . فقلت : «الّذي صلّى بكم إمامًا في إيلياء» . فاستبشر وجهه . وسمعتُ كأنّه دعا لي . فازددتُ تعجّبًا : «أينفع الدّعاء في هذا المقام ، وقد رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف؟!» .

وعاجَ بالمكان خَلْقٌ كثيرون ، عرفتُ بعضَهم ، وأنكرتُ غيرهم ، أمّا

الّذين عرفتُهم فقد كنت قد قرأتُ عنهم في الفانية ، وخشيتُ أنّني لو حادثتُ كُلّ مَنْ عرفتُ أنْ يفوتني العلم بالشّجرة الأخرى ، فتركتُ المكان ، وتوجّهتُ في عينِ الشّمس إلى موضعها .

في الطّريق ، أحسستُ أنّ الأرض منذ أمس قد تبدّلت ، صار المشيُ فوقها سلسًا طريًا ، ووجدتُ أنّ جلد قدميّ الحافيتَين قد تبدّل ، ونظرتُ إلى بياضِ كعبَيّ ، وهتفتُ : أستطيع أنْ أمشي عليهما مئة عامٍ كاملةً قبل أنْ يحول لونهما ، وتتشقّق أطرافهما . ومضيت .

(٦)
هل في الجنّة أفاع؟!

فأتيتُ إلى الشّجرة الثّانية ، فوجدتُ لها رائحةَ طعامٍ كقُتارٍ يغلي ، فمن يومها ، عرفتُ أنّ جسدي يحتاج أنْ يقتات ، وأنّ عهدَ قيامِ الجسد بالطّعام قد حلّ . فأخذتُ من طعام أهلها ، فوجدْتُه مُرًّا لا يُستساغ ، فلفظتُه ، فكأنّني استوحشتُ ، فأخذتُ ثمرةً أخرى فإذا مرارتها أقلّ ، وسألتُ أحدهم : «ما اسم هذه الشّجرة؟» . فكأنّني سمعتُه يقول : «الشّجرة الخضراء» . فتساءلتُ : «أخضراء وطعامها مُرّ؟!» . فقال صوتٌ : «إنّها كخضراء الدِّمَن ، منظرٌ طيّب ، ومنبتٌ خبيث» . فأخذتُ ثمرةً ثالثة فأكلتُها فإذا مُرّها قد ذهب ، فتعجّبْتُ ، فأخذتُ ثمرةً رابعةً فأكلتُها فوجدتُ طعمها حُلوًا!!! فكذلك من أدمن الخبيث وجدَ له مساغًا ، وتذكّرتُ قول الشّيخ في الفانية : «ليست الخطيئة في الخطيئة ذاتها ، وإنّما في اعتِيادها» . ثُمّ دخلتُ بين أهلها ، فوجدتُ أقوامًا يأكلون بشراهةٍ ، أشداقهم تسيل بالمَرَق ، وأياديهم تمتلئ بالمِزَق ، قد شخبَت من وجوههم خطوطٌ يسيل فيها العَرَق ، تنفتق أوداجهم لكثرة ما تمتلئ أفواههم بالطّعام فيختنقون ، وهم يتصايَحون ، ويتنازعون على ما يسّاقط من أياديهم ، حتّى على ذلك الّذي تدوسه أقدامهم في هَيجتهم ، فوجدْتُ في نفسي اشمئزازًا ، فسألتُ : «مَنْ هؤلاء؟!» . فقيل : «الجَشِعون الشّرِهون ، الأكّالون الّذين كلّما شبعوا جاعوا ، وكلّما

ازدردوا طلبوا المزيد» . ثُمَّ حدّقتُ في المكان فوجدت الأفق يغطّ بهم لكثرتهم ، فانخلع قلبي ، وخشيتُ أنْ يشملني الجَمْعُ ، فمَن أقام اسْتمرأ . وتذكَّرتُ : «اكْفُفْ جُشاءَك ؛ فإنَّ أكثركم شِبَعًا أطولكم جوعًا يوم القيامة» . ثُمَّ جاء أقوامٌ من بعيد يأخذون أقباسًا من النّار قد شبّت ألسنتُها في أصول الحطب يلتقمونها وهم يصطرخون ، ففزعتُ منهم ، فسألتُ : «ومن هؤلاء؟!» . فكأنّني سمعتُ مَنْ يقول : «إنّهم قومٌ أكلوا أموال اليتامى ظُلمًا» . فعزمتُ على ألاّ أطيل بينهم البَقاء ، ثُمَّ حانتْ منّي التِفاتةٌ أخرى فوجدتُ مَنْ سال القيح من فروجهم ، فسألتُ عنهم ، فإذا بالصّوت يقول : «أولئك الّذين استعبدتْهم شهواتُهم» . فنظرتُ أيّامي في الفانية ، فإذا بي قد كنتُ على شفا حفرةٍ من هذه النّار ، نار الغواية ، وإذا أنا قد أنقذني دعاءٌ في جوفِ ليلٍ . ثُمَّ همَمتُ بالهرب ، فسمعتُ في هؤلاء مَنْ يرفع عقيرته وهو يُنشِد :

تَسَلَّتْ عَمَاياتُ الرّجالِ عن الصِّبا
وليسَ صِبايَ عن هواها بمُنْسَلِ

فعرفتُ أنّه امرؤ القيس ، ولولا قتام النّار ، والرّائحة النّتنة ، والحرارة الحارقة ، والأصوات المُتلاطِمة لاستزدْتُهُ . ثُمَّ كأنّني سمعتُ مَنْ يستمهلني حتّى يُنشِدني ، وإذا برجلٍ وسيم الوجه ، إلاّ أنّ حدقتَي عينَيه قد أُزيلتا من المَحجرَين ، وثبتَتْ مكانهما جمرتان من نار ، وهو يُردّد :

كم من دَنِيٍّ لها قد صِرتُ أتبعهُ
ولو صحا القلبُ عنها كان لي تَبَعا
وزادَني كَلَفًا بالحُبّ أنْ منعتْ
أَحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَا

فاستَزَدْتُه ، فكأنّني سمعتُه يقول :

لو دَبَّ حَـوْلِيٌّ ذَرٌّ تحتَ مِـدْرَعِـهـا
أضـــحَى بهـــا مِن دَبيبِ الذَّرِّ آثارُ

فـعـرفتُ أنّه الأحـوص ، ولمستُ في بعض كلمـاته ندمًا ، ولاتَ مندم ، فـتجـرّأت فـسـألتُـه : «أعـرفتَ فيكم ذلك الرّجل ، أعني النّبيَّ الخاتم ، وتفعل ما تفعل؟» . فكأنّه قال : «إنّما الرّغبة داء ، وإنّها إنْ وجـدتْ في القلب مـحـلاً نبـتتْ فـيـه كـمـا تنبتُ الدّقلة في الطين والوَخَم» . وظهرَ من خلفِه رجلٌ في وجهه سُمرةٌ وحُمرةٌ ، فكأنّه خرج من الغيب ، فما كدتُ أتفرّس في وجهه ، حتّى قال : «أنا أزيدُكَ على ما قال ، إنْ شئتَ أنشدتُكَ تِسعًا وعشرينَ قصيدةً على حروف المُعجَم لا أُسقِط بيتًا واحِدًا» . فشككتُ أنّه الّذي أعرفه ، فمدّ لي قِرطاسًا ، وقال : «استعنْ به على طول الطّريق» . فنظرتُ فإذا فيه أشعار السّبعة المعلّقـات . فـسـألتُـه : «أأنتَ الّذي دُفِنتَ مع بشّـار بن بُرد في قـبـرٍ واحد؟» . فكأنّني شعرتُ بِحَرّ زفرته قبل أنْ يقول : «بلى» ، فعرفتُ أنّه حمّاد الرّاوية . فأخذتُ القرطاس ، وأنا أرجع القهقرى حتّى أديم التّفرّس في وجـوههم ، فـقـفـز من خلفـهـم رجلٌ انـتـشـرت البـثـور في وجـهـه ، وسمعتُه يشتم ويلعن ويهجو ، فقلتُ في نفسي : «أفي هذه الدّار وعلى هذه الحـال!!» . فـشككتُ أنّه الحُطَيـئـة ، وخِفتُ أنْ ينالني منه شيء ، فنأيتُ بنفـسي ، وأعـددتُ قـدمَيّ للرّكض . ثُمّ تذكّـرتُ أمـر الريشـة فعدتُ . فوجدتُ أحدَ العُوران يلعبُ بها ، فسلَلتُها من يده كما تُسلّ الشّعرة من العجين ، فوضعتها إلى جانب أختها في ثيابي ، وسألتُ أحدهم وأنا أولّي هارِبًا : «فهل يطولُ مقامُكم هنا؟» . فكأنّه قال : «إلى يوم الحساب ، وإنّه لَبعيد» . ومضيت .

كان المساءُ قد حلّ . والمسافةُ تطول . فوجدتُ رائحة نسيم من ذلك الّذي كان في القاصِرة . فعلمتُ أنّ الحال يتبدّل . وأنّ الله يُنشِئ خلقًا جديدًا ، وأنّني أفدُ على ما لم أكنْ لأعرفه قبل اليوم . ووجدتُ شبهًا بين الدّارَين ، فارتاح قلبي ، واشتاق إلى أنْ يرى إنسيًا مثله يُحاكيه ، وأنْ يردّ لبعضِ الأرواحِ الهائمة هنا في هذا المدى الشّاسع أجسادَها حتّى أخاطِبها وتُخاطِبني . وشعرتُ بوخزة الشّوق تُصيب كبدي ، فعلمتُ أنّ بشريّتي تصحو رويدًا رويدًا . ولا أدري كيفَ أختبر هذه البشريّة في هذا العالَم العجيب . تخيّرتُ مكانًا للنّوم . وتمدّدتُ أطلبُ الرّاحة ، ولقد نسيتُ عهدَ التّعب الّذي مضى أو كأنّني أُنسيتُه . كنتُ أنظر إلى السّماء الخالية من كلّ شيءٍ . وذهبتُ في خيالاتي بعيدًا . تذكّرتُ أمّي ، تذكّرتُ ضحكتها على غير مِيعادٍ فبزغتْ في صفحة السّماء نجمة!! فنبتتْ في قلبي فرحة ، السّماء تتبدّل كذلك . ثُمّ رأيتُها ، أو رأيتُني أحادثها ، كانتْ كلماتها تُضيء في الظّلام ، لكأنّ أحرفها من نور ، كلّما خرجتْ من فمها كلمةٌ أو ضَحكةٌ ، صعدتْ إلى السّماء فصارتْ نجمة . فمِنْ يومها سمّوا النّجومَ ضَحكاتِ الأمّهات ، وما زالت السّماء تمتلئُ حتّى لم يعدْ فيها موضعٌ ولا موقعٌ إلاّ ولمعتْ فيه نجمة . وأَنِستُ . وسألتُها أنْ تُحادثني حتّى الصّباح من أجل أنْ تزيّن السّماء بالنّجوم . فضحكتْ ، وسألتُها أنْ ترافقني في رحلتي الطّويلة ، فأنا وحيدٌ ، فبكتْ ، فسألتُها : «ما يُبكيك؟» . فقالتْ : «يومَ كنتَ صغيرًا تلعبُ في فناء الدّار ، ذهبتُ لأخبز في طابون القرية ، وتركتُك سحابة النّهار ، وحينَ عُدتُ رأيتُ في حجرِكَ أفعى تلتفّ على ذراعك ، ففزعتُ ، ثُمّ رأيتُكَ تُلاعبها ، فدُهشْتُ ، ووقعتُ في فزع وحيرةٍ مِمّا أفعل ، فخفتُ أنْ تُؤذِيك ، ولم يكنْ من سبيل إلى دَفْعِها

عنك وهي بينَ يديك ، فلمّا رآتني وعاينتْ فزعي ، انسلّتْ عائدةً إلى جُحرها ، فلحقتُها بحجرٍ فشدختُ رأسَها ، فتلوّت وفحّت وانكمشتْ قبل أنْ تموت ، فمن أجل ذلك أبكي» . فسألتُها : «وما يُبكيكِ من هذا يا أمّاه؟» . فقالت : «لقد رأيتُ تلك الأفعى في الجنّة» . فسألتُ منذهلاً : «وهل في الجنّة أفاع؟!» . فكأنّني سمعتُها تقول وهي مُطرقةٌ في الأرض تمسح ما تناثر من لُئالئ دموعها : «إنّها أفعى ذات الصّفا» . ثُمّ إنّ أمّي لفّتْ رأسَها بشالٍ من غمام ، واستدارتْ لكي تودّعني ، فنهضتُ لأعانقها ، فما وجدتُ لها أثرًا . وغابتْ كأنْ لم تكنْ . ثمّ إنّني نمتُ . وكانَ بردٌ . وكان حُزنٌ . وكان جوع . وكان فَقْد .

في الصّباح ، نهضتُ نشيطًا . وتابعتُ السّير . من بعيدٍ نهضتْ - ولا أدري متى حدث ذلك - جبالٌ في وجه الشّمس ، كانت سلْسلةٌ منها تمتدّ على الطّرف القصيّ من الأرض الّتي في الشّرق ، بدت الشّمس وهي تنبعث من بين قممها مِغزلاً في يد نسّاج . سَرّني أنْ تعود الأرض إلى الأرض ، وتستعيد هيئةً تُشبِه صورتَها في الفانية . ومضيتُ لأجد شجرةً جديدة .

كانت الشّمس قد بدأتْ تتنازل عن عرشَ السّماء ، وتولّي حينَ شعرتُ بتعبٍ شديد ، وعطشٍ أشدّ ، فحفرتُ في الأرض ، ولم أكدْ أحفر عميقًا حتّى نبعَ الماء . كانت الأرض قد أُشبعتْ بالماء منذ تلك اللّيلة ، اللّيلة الّتي بكت فيها السّماء بكاءً شديدًا . وشربتُ حتّى ارتويت . ثُمّ نمتُ من شدّة الإعياء ، فلم أستيقظ إلاّ واللّيل قد لبس الأرض ، فنظرتُ من حولي ، فإذا أنا في غابةٍ من القبور ، وإذا شواهدُها على مَدّ البصر ، تنتصب بانتظام ، كأنّما دُفِنَ فيها أهلها اللّيلة ، وكانت الشّواهد من الكثرة حتّى ظننتُ أنّ أهل الفانية كلّهم قد جيء بهم إلى هنا ، وأنّه ما من أحدٍ

قد غادر قبره سِواي ، وأخذتْني رِعدة ؛ فمن قال إنّ أهل القبور موتى؟!
وهأنذا أحسّ بهم يستعدّون للخروج من مساكنهم ، وهأنذا أكاد أسمع
أصواتهم تترامى إليّ من أحفرتهم . ولمعتْ نجوم السّماء ، وسرى شُعاعها
الخافت على الشّواهد فألقى ظِلالاً غامضة على الأرض فارتعدتُ ،
وسَرى تيّار راجفٌ من الخوف في أوصالي ، وسمعتُ صوتًا من قبرٍ يقع
على بُعدِ خطواتٍ كأنّما يقول لصاحبه : «أيطول بنا المُقام هنا؟» .
وسمعتُ الآخَر يردّ : «إنْ بكت السّماء فسيَحين الخروج» . وسمعتُ ثالثًا
يستخفّ بما قاله أخواه : «لا يُفارِق أحدٌ منّا غَرزَه إلاّ إذا نُقِر في النّاقور» .
فأمّن عليه صوتٌ رابع : «فذلك يومئذٍ يومٌ عسير» . فزحفتُ على رجلَيّ
وباطنِ كفّي مُبتعِدًا والذّعر ينخر في عِظامي ، فما عَتَمتُ حتّى أوقفني
شيءٌ صَلْدٌ في ظهري ، فأدرتُ جِذعي ، وإذا هو شاهدة قبرٍ مكتوب
عليها : «لامَك» ، فأُلقِيَ في رُوعي أنّه مات قبل الطّوفان ، فازدادَ هلعي ،
وقُمت أركضُ لا ألوي على شيءٍ . فإذا أنا في غابةِ القبور ، كلّما ركضتُ
وجدتُ أمامي منها أكثرَ مِمّا تركتُه خلفي ، فأطلقتُ ساقَيّ للرّيح بأقصى
ما أستطيع ، وقضيتُ ليلتَين في الرّكض ما أدري ما قطعتُ من الغابة مِمّا
أبقيتُ ، ثُمّ إنّ نفسي سكنَتْ ، فما حصل لي ما أريدُ من الخَلاص من
غابة القبور هذه ، فعرفتُ أنّ عددها في البرزخ لا يقلّ عن عدد النّجوم في
السّماء ، وإنّما ساكِنوها من أولاد آدم حتّى اليوم الّذي جاءني فيه الزّائر
في اليوم المحتوم في مكتبتي ليس لهم حِسابٌ يُحصيهم ، ولا أدري كم مرّ
على مَنْ كان فوق الأرض منهم بعدي ثُمّ وفدوا إلينا تحتها ، حتّى يُمكن
الإحصاء!! ولشدّة لهاثي ، وارتعاد فرائصي ، تمنّيتُ لو كنتُ بيضةً صغيرة
تنهرسُ تحت صخرةٍ عظيمةٍ فأنسحق وأتلاشى على الفور ، ولكنّ
الأمنيات هي الوجه الآخَر للمُستحيلات .

فإذا انتهَى الأمر ، وجدتُني قد أشرفتُ على شجرةٍ تتدلّى من أغصانها قناديل ، يغمرها النّور في الدُّجنّة ، فعلمتُ أنّ أهلها أصحابُ خير ، ورأيتُ شيخًا كبيرًا يُعلّم خلقًا كثيرًا ، وتحت جناحَيه أبناؤه كلّهم صِباح الوجوه ، يتّقدون وضاءةً ، وكلّهم يُنصِتُ خاشِعًا كأنّ على رؤوسهم الطّير ، فسألتُ عنه ، فقيل : «إنّما هو إبراهيم وأبناؤه» . وسألتُ عن الشّجرة ، فقيل : «إنّها شجرة المعرفة» . وتفرّستُ في وجوه بعض أصحابها ، فرأيتُ في ناحيةٍ رجُلَين قد أُلبِسا تاج الوَقار ، فسمعتُ أحدهما يقول للآخَر : «إنّني ابتُليتُ بهذا الأمر فانظر لي أعوانًا يُعينونني عليه» . وعلمتُ أنّه سيردّ عليه بقوله : «أمّا أبناء الدُّنيا فلا تُريدهم ، وأمّا أبناء الآخرة فلا يُريدُونك ، فاستعنْ بالله» . فسمعتُه يقول له هذا بالضّبط! فعلمتُ أنّهما عُمر بن عبد العزيز والحسن البصريّ . فتركتُهما ، فأتيتُ مصطبةً أخرى يُدرّس تحتها غُلامٌ قد بقل وجهُه ، فسمعتُه يُحدّث النّاس دون قِرطاس فإذا هو حُفَظة ، ينساب الكلام من فيه عذبًا انسياب السلسل الرّقراق ، وسمعتُه يقول : «ما حَفظتُ شيئًا فنسيتُه ، ولا استودعتُ قلبي شيئًا قَطّ فخانني» . فسأله أحد النّاس : «أتُحدّث بكلّ هذا ولا كُتُبَ بين يديك» . فأجابه : «لو كانتْ كُتُبي عندي لأفدتُكَ عِلْمًا ، كتبي عند عجوز بالنّيل» . ثُمّ تأوّه فقال : «ليس الزّهد بأكل الغليظ ولبس الخَشِن ، ولكنّه قِصَر الأمل ، وارتِقاب الموت» ؛ فعلمتُ أنّه سُفيان الثّوري . فعدلتُ إلى حوزةٍ واسعةٍ ممتدّة ، ليس فيها إلاّ رجلٌ رقيق الجسم والحاشية ، قد نَحُل حتّى بانَ عَظمُ ترقُوته ، فعجبْتُ من أمره في هذا المقام وحيدًا ، فأتيتُ فسألْتُه : «ما صنع الله بكَ حتّى نأيتَ عن النّاس أو نأوا عنك؟» . فقال : «كنتُ في الغابرة من أبناء الملوك المياسير ، فخرجتُ ذات يومٍ ألهو ، فمررت

بأجمة ، فرأيتُ ثعلبًا فأثرتُه ، فسمعتُ هاتِفًا يقول : ألهذا خُلقت؟ أم بهذا أُمِرت؟ فاحترتُ ، ووقفتُ أنظر يمنةً ويسرة ، فلمْ أرَ أحدًا ، فقلتُ : لعن الله إبليس ، ثُمّ حرّكتُ فَرَسي ، فسمعتُ النّداء أجهرَ من سابِقه : يا إبراهيم ليسَ لِذا خُلِقت ولا بِذا أُمِرت . فلم أرَ مع الصّوتِ أحدًا ، ثُمّ مضيتُ تغشاني رِعدة ، فسمعتُ النّداء ذاته من قَرَبُوس سَرْجي ، فقلتُ وأنا أرجف : قد سمعتُ ، قد سمعت ، فكأنّ شعلةً سقطتْ من السّماء في القلب المظلم فأضاء ، فنزلتُ عن فرسي ، وصادفتُ راعِيًا لأبي ، فأخذتُ ثيابَه وأعطيتُه ثيابي ، ووهبتُه فرسي وكلّ ما أملك ، ثُمّ دخلتُ البادية ، وانقطعتُ عن النّاس زمنًا ، ثُمّ دخلتُ الشّام ، فعشتُ من العمل مع الحَصّادين ، وكنتُ أعمل حَمّالاً ، وطَحّانًا ، وناطورًا في بساتين الرُّمّان» . فقلتُ له : «أنتَ الّذي تقول : كُلّ مَلك لا يكون عادِلاً فهو واللّص سواء ، وكلّ عالِم لا يكون تَقيًا فهو والذّئب سواء ، وكلّ مَنْ ذَلّ لغير الله فهو والكلبُ سواء» . فهزّ رأسه . فعرفتُ أنّه إبراهيم بن أدهم . فهممتُ أنْ أقبّل رأسه ، فأخذتُه بين يدَي فإذا يداي تتخلّلانه ، فتذكّرتُ أنّه روح ، وكأنّني نسيت ، فتنهدّتُ . ثُمّ إنّني رأيتُ في ناحيةٍ امرأةً قد غطّى السّواد رأسَها ، ومن بين يدَيها أمواجٌ من البشر تتلو صَلَواتٍ عذبة ، فأتيتُ أستعلم ما كان مُبهَمًا عنّي منها ، فلمّا اقتربتُ لم أرَ وجهها ، فأدركتُ أنّه لا قِبَل لي بذلك ، فأعطيتُها أُذُني ، فسمعتُها تقول :

فليتَكَ تَحلُو والحياةُ مريرةٌ
وليتَكَ ترضَى والأنامُ غِضابُ
وليتَ الّذي بيني وبينَكَ عامِرٌ
وبيني وبينَ العالَمينَ خَرابُ

فعرفتُ أنّها رابعة العدويّة ، فقلتُ : «يا أمّاه ، ألي عندك كلمةٌ أستعينُ بها؟!» فسمعتُها تقول : «أولستَ على سَفَر؟»» . فقلتُ : «بلى» . فقالتْ : «إذا أردتَ الوصولَ فتخفّفْ ، فإنّما يُفرغُ العَقْلَ امتلاءُ البطن ، وإنّما يُبطِئ الرّاحلةَ ثِقَلُ الرّحْل» . فقلتُ لها : «زيديني يا أمّاه» . فكأنّها كرهتْ إعادة السّؤال عليها ، لكنّها قالتْ : «ويلكَ أيّها المسكين ، تستظهر عملَك وتستكثره ، أما لو كنتَ عاقلاً لأخفيتَ حسناتِكَ كما تُخفي سيّئاتِك» . ثُمّ إنّني بحثتُ عن الرّيشة الّتي في فناء الجذع ، فوجدتُها تزاورُ بين الأقدام ، فالتقطْتُها ، وضممتُها إلى أُختَيها . ومضيت .

ما أشبه اللّيلة بالبارحة!! ليس للزّمن مع تطاوله زمن . السّنوات المِئات تتداخل بالآلاف ، والآلاف بالملايين ، وتلك بأضعافها ، وأضعافُها بأضعافِها ، يأكلُ بعضُها بعضًا كما تأكل النّار كلّ جذعة مُلقاة فيها ، وكلّما ألقيتَ فيها ازدادتْ ضِرامًا وفتحتْ فاهًا لا يكفّ عن الالتِقام ، فلا خطّ للزّمن ، ولا انتهاء ، ولا ابتِداء ، يتشابه قصيره مع طويله ويتشابك ، فتعود اللّحظة تساوي الأبد ، ويعود الأبد يساوي اللحظة . ولا شُعور بالزّمن إلاّ بمقدار ما تَجدُ أنتَ من شعوركَ به ، في لحظة الفَقْد أو الوَجْد أو الوَعْد . . . ومضيتُ .

(٧)
مَنْ حدّث بكَذِبٍ فُضِح

في سنواتي الأخيرة في الفانية ، كنتُ قد أكملتُ كتابة (حقيبة التّاريخ) ، فرغتُ له ما يزيدُ عن عشرينَ عامًا ، أردتُ أنْ أكونَ مثل أبي ، موسوعةً في المعرفة ، لم أتركْ كتابًا في السِّيَر أو المذكّرات مِمّا استطعتُ الوصول إليه إلاّ قرأتُه ، التّاريخ يبدو أكثر نُضجًا من خلال مذكّرات مَنْ صنعوه ، هكذا كنتُ أعتقد ، ومن أجل هذا الاعتقاد الأبيض ، فإنّني لم أترك ورقةً كتبَها مجنون في عالَم السّياسة أو الأدب أو العسكريّة أو الفنّ إلاّ وقرأتُها . ولا صفحةً من هذيان هؤلاء المهووسين بتغيير مجرى النّهر إلاّ خربشتُ فوقها مُلاحظاتي . بعدَ عشرين عامًا كانت الحقيبة قد صارتْ ثلاثين مُجلّدًا . حملتُها في خمس كراتين كبيرة ، واحدةً تلو الأخرى رتّبتُها أمام باب الغرفة الّذي يكون غالبًا مُغلَقًا إنْ لم يكنْ أبي في المكتبة ، لكنّه كان مفتوحًا هذه المرّة ، طرقتُ الباب كأنّني أهمّ بالدّخول إلى العالَم الآخَر ، كنتُ أشعر دائمًا أنّ بابًا يُفضِي إلى مكتبةٍ من خلفه ، ليس بابًا عاديًا ، إنّه بابٌ يفتح على المُطلَق ، وعلى الحياة الأخرى الأكثر إدهاشًا وغموضًا وسِحرًا . إنّه بابٌ يفصل بين حياتَين ، بين حياة تافهةٍ ساذجة ، وبين حياة جادّة نابِهة . لكأنّ الباب هو البرزخ بين هاتَين الحياتَين ، وعليه فإنّه مِن اللائق أنْ تخلع عنك تفاهتك قبل أنْ تخطو الخُطوة الأولى عبر

هذه البوّابة ، وتلبس لِباس الرّهبان المُقيمين في حضرة الصّلوات الطّاهرات . دخلتُ . وضعتُها أمام أبي على مكتبه الخشبيّ الأملس دُفعةً واحدةً بشيءٍ من الزّهو وكثيرٍ من الفَخر . كنتُ أعتقد أنّني أتيتُ بما لم تستطعه الأوائل . وأنّني لن أنال إعجاب أبي واندهاشه فحسب ، بل سأنال ذلك الإعجاب والاعتراف بالأفضليّة من كلّ مَنْ فتح للتّاريخ بابًا في قلبه من بروفيسوريّات العالَم أجمعين بمن فيهم ول ديورانت نفسه . لم يقلْ أبي شيئًا ، أجال النّظر من خِلال نظّارتَيه إلى أرتال الورق المُكدّسة أمامه ثُمّ إليّ ، وضع يده الّتي ينتشر فيها بعضُ النّمش مثل حبّاتِ زبيبٍ صغيرةٍ في صحنِ أرزّ بالحليب ، واتّكأ عليها كما يتّكِئ على مخدّة في قيلولة الظّهر ، أو مثلما يتّكئ مُحاربٍ قديمٍ على سَرجِ حصانٍ عجوز ، وتنهّد ، ثمّ رفع نظّارتَيه ، وبانَ بريقُ أبوّةٍ حانيةٍ فيهما ، ونطق بجملةٍ واحدة : «أمهلْني بعضَ الوقت» . وانقطع الحديثُ في المُؤلَّف بعد ذلك اليوم . خلال ستّة أشهر من جلوسي معه في أمسيات الجمعة ، كُنّا نتحدّث في أمورٍ كثيرةٍ باستثناء الحديث في الحقيبة ، كان ربّما يتعمّد ذلك ، لم أكنْ أدري إنْ كان قرأ منها حتّى الآن شيئًا أم لا ، كم كنتُ أتحرّق لأعرف إنْ فعل ذلك ، ولذلك استعنتُ بأمّي لتخبرني ، من وارئه في المطبخ ، في أيّام العُطل ، وهي تُعدّ لي الشّاي صباحًا ، وتنضّده على صينيّة بيضاء على هيئة وردةٍ ، وكأسَين بلّورَين بزخارف خضراء موشومة على الزّجاج الخارجيّ ، وصَفٌ من البسكويت المُحلّى ، أسألها : «هل قرأ أبي من كتابي شيئًا؟» . ترتسمُ ابتسامةٌ لم تُغيّرها منذ أنْ عرفتُ سحر ابتسامتها أيّام الوعي الأوّل في الطّفولة المُجنّحة : «إنّه لا يقول شيئًا» . «ألم تسمعي منه كلمةً هنا أو هناك بشأنِ كتابي هذا؟» . «لا يا بنيّ ، غير أنّه . . .» .

وتحفّز قلبي لسماع كلمة قد تُطمئن قلبي ، فأكملتْ : «غير أنّه منذ ستّة أشهر كلّ ليلة يدخل غرفةَ مكتبه ، بعدَ أنْ يعود من صلاة العشاء ، ويبقى حتّى الفجر دون أنْ يخرج منها أو يسمح لأحد بأنْ يُقاطعه» . سألتُها : «كلّ ليلة؟» . فأجابتْ : «كلّ ليلة» . اتّصل بي أبي مساءَ الخميس ، قال لي : «أريدُك في مكتبي» . أجبتُه : «على الفور ، أحتاجُ ساعةً لأصل» . كان ينتظرني في مكتبه بالفعل . نظر من خلال نظّارتيه كالعادة . هزّ رأسَه إلى الأعلى ، وهو يضع باطن كفّيه على عشرة أجزاء من الحقيبة : «قرأتُ هذه ، يُمكنك أنْ تأخذ بملاحَظاتي عليها أو تدعها ، أمهلْني بعض الوقت لأكمل البقيّة» . ولم يقلْ شيئًا آخر . قبّلتُ رأسه وعُدت . في البيت خلال أسبوع وأنا أقرأ فقط ملاحظات أبي على الحواشي كنت أخبط أعلى رأسي بكفّي الأيمن ، بدوتُ قزمًا أمام أبي العملاق ، العملاق في كلّ شيء ، أنا الّذي ظننتُ أنّني صنعتُ معجزةً كنتُ أصيح : «ظُفر أبي خيرٌ من ألفِ كاتبٍ مثلي ، أيّ جاهلٍ أنا!!» .

وعوى ذئبٌ في الأمد البعيد ، فاستيقظَ الحنينُ فِيّ . ها هي العوالم تتداخل . وأنستُ في هدأة اللّيل الّذي ليس فيه بشريٌّ سواي يسرح بلا طائل في أرضٍ لا حدود لها ، وتذكّرتُ الأُحيمر السّعديَّ الّذي قال :

عَوَى الذّئبُ فاستأْنستُ بالذّئبِ إذْ عَوَى
وصَوّت إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

ثُمّ بزغتْ قبورٌ على الجانبين ، القبور تنبتُ من باطن الأرض فجأة ، أو هكذا كان يُخيّل إليّ . في أيّة لحظةٍ ، ودون سابقِ إنذار ، ومن تحتِ أيّ ترابٍ ، تظهر وتختفي ، وفي أيّ وقتٍ يُمكن أنْ تُشاهِدَ قبرًا ،

أو مجموعةً ، أو غابةً منها ، وفي تلك اللّيلة بالذّات ، استظهرتُ داليّة أبي العلاء المعرّي كلَّها ، كنتُ أجد حقيقتَها قد عبرتْ كلَّ تلك الآماد السّحيقة لكي تقف هنا كما لو كانتْ كائنًا حيًا ، ولشدّ ما طربتُ حينَ وصلتُ إلى قوله :

صاحِ هذي قبورنا تملأ الرُّحبَ
فأينَ القُبورُ من عهدِ عادِ
خفِّفَ الوَطْءَ ما أظنَّ أديمَ الأرضِ
إلاّ من هذه الأجسادِ

وتساءلتُ كم عاشَ أبي بعدي . وتمنّيتُ أنْ أراه تحتَ أيّ شجرةٍ من هذه الشّجرات الّتي لا أزال أواصل البحث عن ريشاتها . وشدّني إليه حنينٌ جارف ؛ هل يعرفُ أهل البرزخ الحنين؟ هل يُصابون بحُمّى الشّوق كما كانوا في الفانية؟ هل يعطشون ويجوعون ويُحبّون ويكرهون وينامون ويستيقظون كما كانوا في تلك الأيّام الخالية؟!

ووصلتُ إلى ثلاث شجراتٍ يشمخْن غير بعيداتٍ . فأتيتُ الأولى منهنّ ، فإذا تحتها ثلاثة شيوخ ، وكلّ واحدٍ منهم قد أخذ ثلثًا من جذع الشّجرة واستند إليه ، ومن أمامه يمتدّ خَلْقٌ حتى ينقطع البصر عن أنْ يُدرك آخرهم ، يستمع كلّ خَلْق من هؤلاء إلى شيخه ، فأتيتُ الأوّل ، فإذا هو يَعبُر الأحلام ، فعرفتُ أنّه ابن سيرين ، فسألته أنْ يُفسّر الحلم الّذي أنا فيه منذ أنْ استيقظتُ من القبر إلى هذه اللّحظة ، فكأنّني سمعتُه يقول : «يا بُنَيّ أنتَ في الحقيقة ، وإنّما الحلم هو ذلك الّذي كنتَ تعيشه في الفانية ، فإنْ شئتَ فسّرتُ لك حُلم الحياة الأولى ، أمّا الموت فقد أدخلكَ إلى الحقيقة وأوصدَ بينَك وبين الحُلم بابًا لا يُمكن أنْ ينفتح لك مرّة ثانية . ألم تسمع القائل : النّاسُ نِيامٌ فإذا ماتوا

انتبهوا» . ثُمَّ عدلتُ إلى الشَّيخ الثَّاني ، فإذا عليه جُبَّة بيضاء ، قد أخذ بالتَّسبيح ، ثُمَّ راح يقرأ من كتابٍ بين يدَيه : «ورفَعَ ملاكٌ واحدٌ قويٌّ حجرًا كرحًى عظيمة ، ورماه في البحر قائلاً : هكذا بِدَفْعٍ ستُرمَى بابلُ العظيمة ، ولن تُوجَد فيما بعدُ . وصوتُ الضَّاربين بالقِيثارة والمُغنِّين والمُزمِّرين والنَّافخين بالبوق ، لن يُسمَع فيكِ فيما بعد . وكل صانع صناعةً لن يُوجدَ فيكِ فيما بعد . وصوتُ رحًى لن يُسمَعَ فيكِ فيما بعدُ . ونورُ سراجٍ لن يضيءَ فيكِ فيما بعد» . فسألتُه : «أصدَقَ ما تنبأتَ به؟» . فسمعتُه يقول : «مَنْ حدّث بكَذِبٍ فُضِح» . فخجلتُ من نفسي . فسألتُه : «أرأيتَ المسيح؟» . فقال : «رُوحي رآه» . «أأنتَ الّذي كنتَ آخرَ حواريّيه موتًا؟» . فقال : «ذلك غيري» . «أفأنتَ الّذي كنتَ في حضنه في العشاءِ الأخير؟» . فردّ : «لستُه» . «فأنتَ يوحنّا اللاهوتيّ إذًا ، وتلكَ رؤياك؟» . فهزّ رأسه . فعرفته . ثُمّ أتيتُ الشَّيخ الثَّالث ، فإذا هو متربّع يتهافتُ عليه النَّاس تهافت الفراش على النَّار . فجلستُ معهم أستمع ، فسمعته يقول : «سوفَ تحصل كوارث طبيعيّة ، وتشهد أمّ كثيرةٌ حول العالَم تغيّرات» . فاستقللتُ كلامَه أو استثقلتُه ؛ فأيّ شيءٍ في هذا الكلام العاديّ الّذي يحدث في كلّ حينٍ ، ويعرفُه كلّ أحد ، حتّى ينبهر به كلّ هؤلاء؟! وعجبتُ أنْ يكون أكثر الثلاثة جمهورًا يقول كلامًا عاديًا مثل هذا . ثُمّ إنّني كما كان يقول شيخي في الفانية : «لا حُكم قبل إصدار» أردتُ أنْ أعطيه فرصةً أخرى ، فلعلّ فيما سيقوله من بعدُ خيرًا ، فسمعتُه يقول : «إنّ بلادي سيضربها الإرهاب» . فسألتُ عن بلاده ، فعلمتُ أنّها فرنسا ، فقلتُ في نفسي : «هذا رجلٌ يرجُمُ بالغيب» . ثُمّ إنّه تابع : «ستحدثُ كوارث مناخيّة ، وعواصف ، وزلازل ، وبراكين ، وأعاصير تجرفُ كلّ شيء» . فقلتُ في

نفسي : «لقد عاد إلى التّسطيح والمعتاد والّذي يعرفه كلّ أحد» ، وعجبتُ مرّة أخرى من انهمار النّاس على مجلسه انهمار الماء من السّحاب الصّيّب ، وتخابُطهم على مصطبته ، فلمْ يدغني أطيل العَجَب ، فقال : «أشعّة الشمّس تحرقُ الأرض ، السّماء تُفتَح ، والحقول تُحرَق من الحرارة» فهممتُ أنْ أقوم ، فشدّني أحد الجالسين ، فعُدت ، فسألتُ هذا الجالس : «ومَنْ هذا؟!» فوضع يده على فمه يسألني السّكوت ليتسنّى له السّماع ، فلم يرفع يده عن فمي ، حتّى سألتُه ثانيةً : «فما اسم هذه الشّجرة؟» فنظر إليّ نظرةً اخترقتْ فؤادي ووجدتُ ألمها يكاد يخنقني ، فلزمتُ الصّمت ، فسمعتُ الشّيخ يقول : «الأغنياء يموتون أكثر من مرّة» . فلم أفهم ، لكنّني خشيتُ إنْ سألتُ عن معناها الجالسَ بجواري أنْ يضربني . فأتمّ الشّيخ : «إنّ حربًا كبيرةً ستقوم . . .» فهَمْهَمتُ بيني وبيني ، وقلتُ : «النرَ لعلّ جديدًا يخرج من فم هذا المُتنبّئ» . فأكمل : «إنّها حربٌ عالميّة ثالثةٌ طويلة ، وستبدأ بجمهوريّة المدينة الكبيرة ، وستخرب جرّاءها أورشليم في عام ٢٠٢٥» . فندّتْ منّي ضحكةٌ خفيفة ، ولا أدري لِمَ أضحكتْني مفارقةٌ غرائبيّةٌ كهذه ، فقد كنتُ قد سمعتُ الشّيخ أحمد ياسين يقول كلامًا قريبًا من هذا . وتذكّرتُ عاموس عوز وشاي عجنون ويوسف كلاوزنر وزئيف جابوتنْسكي وبياليك ، وضحكتُ من جديد . ونهرني الجالسُ بجانبي ، فوقفتُ ، وأعطيتُ للمجلس ظهري ، وخرجتُ . وتذكّرتُ أنّني نسيتُ الرّيشة ، لَشَدّ ما أنسى ، فعدتُ ، فرأيتُها في يد ذلك الّذي كان يجلسُ بجانبي وهو يفحصُ بها الأرض وعيناه مُعلّقتان بشيخه ، فطلبْتُها منه ، فأعطاني إيّاها رجاء أنْ أكفّ عن الحركة والكلام ، فقلتُ له : «سأفعل إنْ أجبْتني عن سؤالَين قصيرَين : مَنْ هذا المُنجّم ؛ فإنّني

لم أعرفه» فردَ : «يا لكَ من جاهل ، هل أحدٌ في الأرض لا يعرف نوسترادامُوس» . فرجوته أنْ يغفر لي جهلي ، وعَوار بضاعتي من العلم ، وسألته : «وما اسم هذه الشّجرة الّتي تجلسون إليها؟» فقال : «شجرة الرّؤيا» . فأضفتُ الرّيشة إلى أخواتها ، وخرجت . فخرجَ معي شابٌّ وسيمٌ لم أرَ أجمَل منه في حياتي ، فسألني : «ألكَ في تعبير الرُّؤيا؟!» . فاستغربتُ من أحدٍ يتركُ الجمعَ ويرافقني ليعرضَ عليّ علمًا مثل هذا . فسألتُه : «وما يصدقُ منه؟» . فقال : «لا يصدقُ إلاّ القليل ، وإنّما أحلام النّاس أضغاثٌ» . فوجدتُ في محادثته أُنسًا ، فسألتُه : «وأنتَ ما أدراك؟» . فقال : «أنا أصل هذا العِلم ، ولا يُؤتاه إلاّ ذو حظّ عظيم ، وإنّما رَكِبَ أغلبَ المُعبّرين هوى أنفسِهم» . فاستعظمْتُ شأنه فيما يقول . فوقع في نفسي ما وقع في نفوسكم ، ولكنّني خشيتُ أن أقول إنّه هو فيُسقَطَ في يَدَيّ ، فتمهّلتُ حتّى أقع على الماء لا على الزّبد . فسألتُه : «ألكَ إخوة؟!» . فقال : «أحدَ عشر كوكبًا» . فعرفتُه . فسقطتُ على الأرض لأقبّل قدمَيه ، فلم أعثر له على أثر . فحزنتُ . ولكنَّ الحزن لا يردّ الفائت .

(٨)
الشِّعرُ وَترُ الحُزن

إنّه صباح الثّالث من آذار عام ١٩٧٨ حينُ كنتُ في الصّفّ الأوّل الابتِدائي ، كان الطّابور الصّباحيّ شيئًا مُقدّسًا عندنا ، نقف مثل نخلات صغيرة لم ترتفع عن الأرض إلاّ بمقدار الحلم ، نشدّ صدورنا ونضع أكفّنا خلفَ ظهورنا ، ونتأهّب من الدّاخل للّحظة الّتي يتقدّم فيها طالبٌ في الصّفّ السّادس من الكشّافة ليرفع العَلَم ، وخلفه صفٌّ من أربعة كشّافة يؤدّون التّحيّة له . العَلم الّذي كان يبدأ بالارتِفاع رويدًا رويدًا مثل عصفور يتعلّم الطّيران ، لحظة ارتفاع العَلَم كانت لحظةَ ارتعاشٍ وجدانيّ عندي ، ارتعاش يُشبه ارتعاشة الغزالة حينَ تلتقطُ عيناها في تلفُّتها المَريب سهمًا قاتِلاً قبل أنْ تفرّ ، إنّها لحظةٌ واحدةٌ في الزّمن لكنّها كانتْ تُساوي دهرًا كامِلاً في الشّعور . وحينَ يستقرّ العَلم خافِقًا في الأعالي ، تصدح الموسيقى ، الّتي تُشبه موسيقى المارشال ، ونبدأ نغنّي مع الأنشودة :

بِلادي بلادي اسْلَمي وَانْعَمي

سَأرويكِ حينَ الظّما مِنْ دَمي

وكنّا نرتجّ ونحن نردّد كلمات الأنشودة ، ونبتهج ابتِهاجًا غريبًا ونحن نرفع الصّوت عالِيًا بها ، وتملكنا الحَماسة ، فتكاد تفرّ الأوداج من أعناقنا ، وتحمرّ وجوهنا ، ونصرخ بكلّ ما نستطيع لأنّ بلادَنا تريدُنا أقوياء لا ضُعفاء ، ونحن لسنا صغارًا كما يعتقدون ، إنّنا مستعدّون لأنْ

نروي ثرى أوطاننا بدمائنا إنِ طلبتْ ذلك . صحيحٌ أننا كُنّا أطفالاً لا نعي من الحياةِ شيئًا ، ولكنّنا كُنّا نلقِي خلفنَا ظلال رِجال . بالنّشيد الّذي لا يُقدّس الأشخاص كُنّا نعرف معنى الوطن ، وبالكلمات الّتي تصنع منّا مُقاتِلين مُحتَملين كُنّا نحمي هذا الوطن .

والآن ، وأنا أقتربُ من هذه الشّجرة الخامسة أكادُ أسمعُ أصواتًا مشبعةً بالحنين ، أصواتًا لا تكاد تترك القلوب تقرّ ، أسمعُ مَنْ يُنشِد :

ألا ليتَ شِعري هل أبيتَنّ ليلةً
بوادٍ ، وحولي إذخرٌ وجَليْلُ
وهلْ أرِدَنْ يومًا مياهَ مَجَنّةٍ
وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وَطفيْلُ

فرقّقني قبلَ رِقّتي ، وأشجاني من قبل أنْ يوجدَ الشّجن ، فسألتُ فإذا هو صوتُ بلال . فشجّعني ذلك على أنْ أهبط إلى الشّجرة فأُخالطَ أهلَها ، فوجدتُ فيها من الخلق مثل شجرة الرّؤيا ، وسمعتُ اثنَين يتبادلان الغناء ، فالأوّل يُغنّي :

تصابَى القلبُ وادّكرا
صباه ولم يكنْ ظَهَرا
لزينَبَ إذْ تُجِدُّ لنا
صَفاءً لم يكنْ كَدِرا

فردّ عليه الثّاني ، بصوت لا يقلّ عنه شجًا :

أليْستْ بالّتي قالتْ
لمولاة لها ظُهْرًا
أشيرِي بالسّلامِ له
إذا هو نحوَنا خَطَرا

فسألتُ مَنْ هذان الظّريفان؟ فقيل لي : «الأوّل الموصليّ» . فقلتُ :
« أهو الّذي كان قد صحبَ جماعةً من الصّعاليك في أوّل حياته ،
فكانوا يُصيبون الطّريقَ ويُصيبُه معهم ، ويجمعون ما يُفيدونه فيأكلون
ويشربون ويُغنّون ، فتعلّم منهم شيئًا من الغناء وشدًا ، فكان أطيبَهم
وأحذقَهم ، فلمّا أحسَّ بذلك من نفسه اشتهى الغناءَ وطلبَه وسافرَ إلى
المواضع البعيدة؟» . فقالوا : «نعم» . فقلتُ : «لعلّه أبو إسحق» . فقيل
لي : «هُو بذاته» . فسألتُ : «والثّاني؟» . فقيل : «مَكّي» . فقلتُ :
«أليسَ هو الّذي كان يُغنّي مُرتجِلاً فيأتي باللّحن المُبتَكَر» . قالوا :
«بلى» . فقلتُ : «أليسَ مَنْ ضربَ بمكّة على العود بالغناء العربيّ؟» .
قالوا : «بلى» . فقلتُ : «أليسَ أسبقَ من صاحبه وهو شيخُه؟» . قالوا :
«بلى» . فقلتُ : «لعلّه ابنُ سُرَيج» . فقالوا : «ما أخطأتَ الجادّة» .
فسمعتُ أحد النّابهين كأنّما يسألني : «من أيّ زمانٍ أنتَ؟» . فقلتُ
له : «من زمانِ اختلاط الحابل بالنّابل» . فقال كأنّما لم تُعجِبْه
إجابتي : «هو كُلّ زمانٍ ، فزدني» . فقلتُ : «من زمانٍ يكثرُ فيه الهَرْج
والمرج» . فقال : «أنتَ إذًا من آخر الزّمان» . فسألتُه : «وهل له أوّل؟ فإنّ
أوّله يبدو كآخره» . فلم يُجِبْني ، وغمز بسؤال آخر : «وكيفَ
عرفْتهما؟» . فأجبتُه : «مَنْ قرأ عرف ، ومَنْ عرفَ اعترف» . ثُمّ تركتهم ،
فأتيتُ على جانبٍ من الشّجرة فإذا رجلٌ جالسٌ ظهره إلى الجذع ،
ويرفع ساقًا ، فتلامس رُكبتُه صدرَه ، ويمدّ الأخرى ، وهو يُغطّي وجهه
بيده ، وينشج بكلماتٍ حزينات : «يا ربُّ إلهَ خَلاصي ، بالنّهار واللّيلِ
صرختُ أمامَك ، فلْتأتِ قُدّامَكَ صَلاتي ، أَمِلْ أُذُنَكَ إلى صُراخي ،
لأنّه قد شَبِعَتْ من المصائبِ نفسي ، وحياتي إلى الهاوية دَنَتْ ،
حُسِبتُ مثل المُنحدرين إلى الجُبّ . صِرتُ كرجلٍ لا قُوّة له ، بين

الأموات فِراشي مثل القتلى المُضطجعين في القبر» . فاختلطتْ عليّ الرنّة ، وحسبتُه داود ، فاقتربتُ منه ، فوجدتُ دموعه تتساقطُ سِراعًا من عينَيه كأنّها حَبّاتُ جُمان ، فسألتُه : «أداود أنتَ؟» . فكأنّه انتبه إليّ ، فودّ أنْ أعرفه دون أنْ يقول ، فقلتُ له : «زِدْني» . فسمعتُه يقول : «لماذا يا ربّ ترفضُ نفسي؟ لماذا تحجبُ وجهكَ عنّي؟ أنا مسكين ومُسلِّمُ الرّوح منذُ صِباي» . فعرفتُه ، فقلت : «أنتَ هيمان الأزراحيّ» . فكفكفَ دمعه ، وجاهدَ أنْ يرسم ابتسامةً شاحبةً على وجهٍ خضّلتْه الدّموع . وتركتُه وقمتُ ، فإذا أنا برجلٍ قصيرٍ شديد الأدَمة ، قد ترك إخوته ، وذهبَ إلى أقصى ظِلٍّ تصل إليه الشّجرة ، وإذا هو يلبس ثوبًا أبيض يبينُ عن ساقَين رفيعَتَين نحيلتَين ، فتلا : «يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات وبرزوا لله الواحد القهّار» فصُعقتُ وكدتُ لولا جَمال الصّوت أنْ أخِرّ من عَليائي ، فأحببتُ الرّجل ، فقلتُ له «زِدْني» . فقرأ : «الرّحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان» . ومدّ في الصّوت حتّى حسبتُ أنّ الصّخر أطربه الهوى ، وأنّ الشّجرة استخفّها اللّحن فمالتْ بجذعها ، فعرفتُه ، لكنّني أردتُ التّثبّت ، فقلت : «أأنتَ الّذي كنتَ إذا خرجتَ من بيتكَ عرفَ جيران الطّريق أنّكَ مررتَ من طيبِ رائحتك؟» . فكأنّه قال : «بلى» . فأردتُ أنْ أهتفَ باسمه لولا أنّ رجلاً سلّم علينا قبل أنْ أقول ، فإذا هو كصاحبه خفيف الجسم ، قصير ، قليل شعر اللحية ، فقلتُ له : «قد عرفْنا صاحبك ، فقلْ حتّى نعرفك ؛ فإنّما المرءُ مخبوءٌ تحتَ لِسانه» . فكأنّه قال : «ومَنْ صاحبي؟» . فقلتُ : «عبد الله بن مسعود» . فقال : «صدقتَ» . فقلتُ : «أسْمعنا» . فتلا : «ذلكَ يومٌ مجموعٌ له النّاس وذلك يومٌ مشهود . وما نُؤخّره إلاّ لأجلٍ معدود . يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ

نفسَ إلاّ بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيد» . فأصابني ما أصاب موسى يوم التّجلّي ، فلمّا أفقتُ قلتُ له وأنا لا تزال الصّعقة تسري في جسدي : «أأنتَ الّذي أعطيتَ مزمارًا من مزامير آل داود؟» . فكأنّه قال : «بلى» . فقلتُ : «أنتَ والله أبو موسى الأشعريّ» . فكأنّهما قالا : «وإنّنا ما نزال على عهد الله حتّى يأذن بالنّفخة» . فخشيتُ على نفسي أنْ تُفتضح بين أيديهما ، فخرجتُ . فأتيتُ على فارسيّ قد ضُربَتْ حوله الطُّنُب ، وأعلنَتْ لجالسيه المُتّكآت والوسائد ، يجلس النّاس في صفوف عن يمينه وشماله ، ومن أمامه يمتدّ بِساطٌ أحمر مثل ذلك الّذي يُمدّ أمام الملوك والرّؤساء حينَ يستقبلُ بعضُهم بعضًا ، ورأيتُ أكثر مريديه من النّساء ، وإذا هو يضربُ العود بريشة من نَعام أو حَمام ، فخشيتُ أنْ تكون الرّيشة الّتي أبحثُ عنها ، ولَم أشأْ أنْ أقيم عنده طويلاً ، فسألتُ أحد المترنّمين على صوته : «أهذا صاحب الوتر الخامس؟» . فلم يفهم ما عنيتُ ، فملتُ إلى آخر ، فسألتُ السّؤال نفسه ، فكأنّه قال : «بلى» . فناديتُ بصوت عالٍ : «يا زرياب أعطِني ريشتي» . فقام من مجلسه ، والنّاس ترمقه ، وتتعجّب ممّا يفعل ، حتّى إذا صار إليّ ، دَسّ الرّيشة مع أخواتها ، وربّتَ على كتفَيّ ، فعاينتُ عينَيه ، فإذا هما فيروزيّتان كأنّهما من لؤلؤ . فعجبتُ مع النّاسِ من أمره ، وخرجتُ!!

ثُمّ غدوتُ طَروبًا ، فرأيتُ شجرةً هي أعظم الشّجرات السّتّ الّتي رأيتُها حتّى الآن ، وتحتها بشر مُستلقون على ظهورهم ، فأتيتهم ، فوددتُ أنْ أوقظَ أحدهم لأسأله عن سِرّ هذا الاستلقاء الّذي لم ينجُ منه أحدٌ من أهل هذه الشّجرة ، فرأيتُ أحدهم يتقلّب ، ثُمّ هو يبدأ شخيرًا تكاد تتقلقلُ له حصى الأرض ، فتذكّرتُ قول الجواهريّ :

يـا قــــــوم لا تـتـكـلّـمــــــــوا
إنّ الـكـلامَ مُـــــحـــــــرّمُ
نـامـــوا ولا تـســـتـــيــــقظوا
مــــــا فـــــــاز إلاّ الـنُّـوّمُ

فهممتُ أنْ أنام معهم ، فإنّما النّوم سُلطان كما يقولون ، وتذكّرتُ قولة (يوسف زيدان) في (عزازيل) : «لولا النّوم لاجتاح الجنونُ العالَم» . وشعرتُ أنه ألقِيَ عليّ سِربال النّوم ، فاضطجعتُ ، فإذا هاتفٌ يهتف : «مَنْ غَفِل خسر ، ومَنْ خَسِر نَدِم» . ففزَزتُ كأنّ لسعة زنبورٍ قد نكأتْ خاصرتي ، وقلتُ أفوز بريشةٍ من شجرة النّوم ، وأرى ما يشاؤه الله . ومضيتُ وأبعدتُ النّجعة .

هل هو الطّريق إلى الله ، فإنّني أسيره منذ النّفخة ولم أصِلْ . وإنّه لحَزنٌ طويل ، وإنّني اقترفتُ في الفانية ما ليس لي قِبَل بنسيانه ، وإنّني لأخشى أنْ أكونَ قد كُتِبتُ في الأشقياء وما أدري ، ولقد كنتُ أيّام اللّهو واللّعب قد سمعتُ أنّ زاهِدًا لقيَ مُنِيبًا ، فقال الزّاهد للمُنيب : «هل تُبتَ؟» . فقال له المُنيب : «نعم» . فقال الزّاهد : «وهل قُبِلْتَ؟» . فردّ المُنيب : «وما أدراني؟» . فقال الزّاهد : «اذهبْ وادْرِ» . فأنا اليوم مثله ، أذهبُ في الطّريق لأدري ، أبحثُ في البرزخ عمّن يقول لي : «قُبِلتَ» . وإنّني وجدتُ الأنبياء يقولون : «وما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم» وهم أجدر النّاس أنْ أجدَ عندهم إجابةً لسؤالي ، فإذا كانوا لا يدرون ، فيا ليتَ شعري مَنْ يدري!! وواحُزناه على وجع الإجابة ، إنّ حُزن الثّاكلة المفؤودة بأبنائها لينتهي ، وحُزني لا ينتهي . وإنّ أعدى أعدائي نفسي الّتي بين جنبَيّ ، وإنّها مُقيمة معي ما أقمتُ ؛ فأين المهرب؟ ومضيت .

وطالَ الطَّريق ، فقضيتُ ليالي أبحثُ عن شجرةٍ جديدةٍ لعلّني أجد عند سُكّانها مَنْ يُريح قلقي ، ويبرّد لاعجي .

ومررتُ بوادٍ . هل في البرزخ وديان؟! إنّه أوّل وادٍ أراه . فوردتْ إليّ ليالي الصّيف في القرية . كان ذلك وأنا ابنُ ثمانٍ . كُنّا نخرج مع عمّي إلى الجبل . نقضي الصّيف كلّه في مساعدته ، حوالي عشرةً من أولاد العمومة ننام في الحقل ، حيثُ لا شيءَ يسترنا سوى غطاءٍ خفيف وسماء مُرصّعة بالنّجوم . كنتُ قد اكتشفتُ هذا الوادي الّذي يقع على بعد عشر دقائق نزولاً من قِمّة الجبل وحدي ، ووجدتُ فيه بعضَ الغموض والسّحر . في اللّيل الصّيفيّ العميق ، وفي الهزيع الأخير ، أتسلّل من الفراش تاركًا أولادَ عمّي يغطّون في نوم عميق ، وأسير وحدي إلى الوادي ، كان هناك دربٌ ترابيّ ضيّق يشُقّ سفح الجبل الّذي يقع تحته الوادي . يُضيئه نورٌ خافتٌ من قمرٍ خجول . أعبره إلى المنتصف ، من ورائي أشجار الصّنوبر العالية ، يرمي عليها القمر نُثار ضوئه فتبدو عرانيسُها قناديلَ معلّقةً تحت ظلّ العَرش! أجرّب صوتي ، أهمسُ في البداية : «يا جنيّات الوادي» . أتوقّع أنْ يخرجْنَ مُسربَلات بوشاح أبيض ، فلا يحدثُ شيء . ثُمّ أرفع صوتي قليلاً ، وأسمعُ حفيفَ نسيم من خلفي هادئًا وناعمًا مثل مرور إصبع بَضّة على قطعة قماشٍ مخمليّة ، ويلفّ النّسيم عنقي فأجد فيه بعضَ اللّذّة . ثُمّ أرفع صوتي بحيثُ يكون مسموعًا : «يا جنّيات الوادي لقد جئتُ من أجلكنّ» . لكنْ لا شيءَ سوى صدى صوتٍ يترجرج مثل ترجرج الماء على سطح بحيرة ألقي فيها بحصاة . وأصرخ هذه المرّة : «يا جنّيات الوادي لقد هيّأتُ نفسي لكُنّ فلا تَدلّلن» . فيخرجنَ سابحَات من ماء اللّيل الكثيف في قاع الوادي ، ويصعدْنَ حتّى يُجالِسْنَني ، أفزعُ من

منظرهنَّ في البداية ، إنّهنَّ ضبابٌ برؤوس لكنْ بلا أرجل . ثُمّ أعتادهنَّ فأنا مَنْ أردتُ هذا . ويجْلسْنَ حتّى يُحِطْنَ بي ويبدأنَ بالغناء ، فمنهنَّ وجدتُ أنَّ التّرنّم هو صوتُ القلب ، ومنهنَّ تعلّمتُ أنَّ الشّعر هو وتر الحُزن . ومنهنَّ عرفتُ أنَّ الأسى هو حقيقة الإنسان ، فمَنْ لم يكنْ آسيًا فإنّما يتجمّل ؛ فلولا الأسى ما كان إنسان . وقبلَ أنْ يبزغ الفجر ، يَذُبْنَ فِيَّ ، وأعودُ أحمل السّرّ الّذي لا يعرفه سِواي : «ما الشّعر إلاّ غناؤهنّ» . ومضيتُ .

ها هي تبدو من هنا ، شجرةٌ جديدة . وسمعتُ مَنْ يتلو : «مَثَلُ كلمة طيّبة كشجرةٍ طيّبة» . فأتيتُها فإذا تحتها حُكماء العالَم كلّه يُعلّمون الأخلاق ، فوجدتُ تحتها لقمان ، وكونفوشيوس ، وسُقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وابن رشد ، والرّازي ، وابن سينا ، وأفلوطين ، وابن خلدون ، وماركوس أوريليوس ، والكندي ، والفارابي ، وابن باجة ، وتوما الإكويني ، وسبينوزا ، ونيتشه ، وكانْتْ ، وسارتر ، فهؤلاء تسعة عشر فيلسوفًا وحكيمًا . غير أنَّ خلفهم ومن بين أيديهم جمهرةً من الفلاسفةِ لا قِبَلَ لي بِعَدّهم ، يجلسُ إليهم عددٌ قليل ، فخُيّل إليّ أنَّ الفلاسفة يزيدون عن أتباعهم عددًا ، ووجدتُ فيهم وهب بن مُنبّه ، فسألْتُه : «هل من سبيلٍ إلى محاورتكم؟» . فقال : «ليس هنا ، فأنتَ لا ترى غير أرواح ، ولكنْ إذا رُدّتْ إليهم أجسادُهم واطمأنّوا إليك فلن تُغادِرَهم إلا وقد امتلأتَ حِكمةً» . فحزنتُ . فأردتُ أنْ أسأله ما ينفعني وقد قَبِلَ محاورتي ، فقال لي : «إذا مَدحكَ الرّجل بما ليس فيك فلا تأمنْه أن يذمّك بما ليس فيك» . فقلتُ له : «وماذا ينفعني هذا وقد انقطع العمل ، وصرنا في هذه الدّار الّتي ترى؟!» . فكأنّني رأيتُه غضب ، وقال : «إنّما صِرْتَ إلى ما صار بما كان من هذا في الفانية» .

فأردتُ أنْ أسترضيَه ، فاستزدْتُه ، فقال : «عجبًا على النّاس ، يبكون على مَن مات جسدُه ، ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشدّ» . فتحسّسْتُ قلبي فكأنّني وجدْتُه قد مات ، فازداد حُزني . ثُمّ إنّي رأيت أحدهم يُعطيهم ظهره ، ويعتزل حوزتهم ، ويُولّي عنهم في منأى ، فعجبتُ لأمره ، فأتيتُه ، فسألتُه : «ما الّذي دعاكَ إلى أنْ تجتنبَ إخونك؟» . فكأنّه قال : «إنّ خَبْطَهم طويل ، ونزاعهم كثير» . فقلتُ : «وما ذاك؟» . فقال : «إنّهم يحكمون بِظَنٍّ وتَخمين ، من غير تحقيق ويَقين ، ويستدلّون على صِدْق علومهم الإلهيّة بظهور العلوم الحِسابيّة والمنطقيّة ، ويستدرجون ضِعافَ العقول» . فسألتُه : «هل تعني بذلك هؤلاء الفلاسفة؟» . فقال : «ومَنْ غيرهم؟!» . فصحتُ : «لَعَمري أنتَ الغزالي؟!» . فقال وقد ضحك : «وماذا ينفعكَ أنْ تعرفني ؛ فقد انقطع ما كان من أمرنا في الفانية؟!» . فمددتُ ذراعَيّ لأعتنقَه ، فإذا أنا لا أعتنقُ إلاّ الهواء . ورحتُ أبحثُ عن الرّيشة ، فعييتُ ، وإذا بصوتٍ من خلفي يقول : «لعلّكَ تبحثُ عن هذه؟» . فقلتُ : «أجل» . فدسّها في وسطي إلى أخواتها ، ومضيت .

(٩)
الأمل يخدع، لكنّه طَبيب

كُنّا صِغارًا ، ربّما صِغارًا جِدًا عندما أخذنا أبي معه في رحلة إلى «الحَمّة» . إحدى الرحلات الكثيرة الّتي دأب على أنْ يُمتّعنا بها . أبي جادّ لكنّه غير قاسٍ . نظراته صارمة لكنّها حانية في الآن ذاته ، ورث عن جدّي كيفَ على المرء أنْ ينجح في حياته . أفعاله كانتْ تُعلّمنا أكثر من أقواله ، وإنْ كانتْ له أقوال ذهبتْ مثلاً ، وخاصّة في تعاملنا معًا نحن الإخوة الّذين كان عددنا يزيد عن ستّة يومئذٍ ، وستُنجِب أمّي ستّة آخرين وتبعث بهم إلى عالَمنا المجنون من بعدُ ، فنصبح «دزّينة» من الإخوة والأخوات ، وسيكون لكلّ واحدٍ قرينُه الخاصّ بعد سنوات انقضاء الفانية ، وسيكون معه عمله ، ولا أدري على أيّ جنبٍ سيختبر إخوتي الّذين أحببتُهم جميعًا حياةَ البرزخ الّتي لن يُفلت منها أحدٌ ، وسأتحوّل إلى رجلٍ بَكّاء وأنا أرفع يدَيّ إلى السّماء من أجل أنْ ننجو جميعًا .

استقلَلْنا سيّارة أجرة من نوع مرسيدس ١٩٠ الّتي كانتْ شائعةً يومئذ ، وأجمل ما فيها مِقودها الّذي كان وسطه يبدو على هيئة كعكة لذيذة ، أتخيّلها طازجةً بين يدَيّ وأشتهي أكلَها كلّما نظرتُ إليها .

في الطّريق كنتُ أفحصُ الجبال بنظراتٍ ولَهى . كان الزّمان ربيعًا ، وعلى الجانبَين بالإضافة إلى الأشجار العالية ، كانتْ هناك عشرات

الألوان والأصناف من الورود الّتي تنمو بقدرة إلهيّة، لم يزرعها زارع سواء في البعيد تبدو لي قمم جبال جرداء. أبي يحفظ التّاريخ حفظًا عنه أنّ كلّ شبر من التّراب له حكاية. ولذلك كان يطلبُ من السّائق أنْ يتوقّف هنا أو هناك من أجل أنْ يقصّ علينا حكاية هذا المكان أو ذاك. لا غرو أنّنا تعلّمنا منه كثيرًا. على الأقلّ بالنّسبة لي عرفتُ قصّة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح منه، وبتطبيق عمليّ. تخيّلته كما لو كان ماثلاً أمامي، وسمعتُ صوته وهو يهتفُ بالجيش: «شرّعوا الرّماح، واستتروا بالدّرق». ولا أدري تحتَ أيّ شجرة سأعثر عليه من هذه الشّجرات الّتي أمرّ بها، ولا أدري إنْ كنتُ بالفعل سأجده، لأنّني حينئذ سيكون بمقدوري أنْ أخاطبَ روحه لا أنْ أخاطب قبره الّذي يجثو في الغَور. استطاع أبي بعقل موسوعيّ، وذاكرة تاريخيّة صلدة، أنْ يستقدم معركة اليرموك من جُبّ التّاريخ، ويضعها على شاشة عملاقة من خيالنا ونحن نجلسُ على حافّة النّهر في تلك الرّحلة. ورأيتُ بالفعل خالد بن الوليد يُعطي السّيوف إلى النّساء ويطلبُ إليهنّ أنْ يكنّ خلف الجيش، ويأمرهنّ: «مَنْ رأيتموه مُولّيًا فاقتُلْنه!!». استطاع أبي بفصاحته، وبلاغةِ إيجازه أنْ يجلعنا نرى هرقل، وماهان، وجرجة، وسِقلاب في جهة، وعمرو بن العاص، وعكرمة، وقيس بن هبيرة في جهة.

بل إنّنا لمّا زُرنا مقام معاذ بن جبل، ووقفتُ أصلّي هناك، رأيتُ معاذًا بشحمه ولحمه يقف إلى جانبي ويُصلّي، ولا أزال أحفظ قولة أبي حين روى لنا حديثه: «والله يا معاذ إنّي لأحبّك». أنّ هذه العبارة تحمل ثلاثة مؤكّدات هي القسم وإنّ واللام الّتي تقع في خبرها، وهذا ما يُسمّى بالخبر الإنكاريّ الّذي يحمل أعلى درجات التّوكيد، ومن ثمّ

التّخصيص حين ذكر الاسم صراحةً . وهِمتُ يومئذٍ في حُبّ معاذ ، ووددتُ أنْ ألقاه في فَيْء شجرة .

في الظّهيرة ، تكون الشّمس قد أتمّتْ دفئَها ، والبطن قد أتمّ خواءه ، فيعمد أبي إلى الحطب ، يجمع اليابس منه ، ويطلب إلى أختي الكبيرة أنْ تُجهّز الطّعام ، ويُوقد على النّار ، ويضع إبريق الشّاي فوقها . لا أزال أتذكّر كيفَ شَمّر عن ساعِدَيه ، وهو يلبس كنزةً صوفيّة حليبيّة ، وبنطالاً أزرق ، وقد انحنى بجذعه حامِلاً في يده عودًا يقلّب فيه النّار لكي تشبّ . ومن حولنا في الحقل الّذي بدتْ على طرفه دارٌ عتيقةٌ مهدّمة السّقف ، انتشرتْ شجرات زيتونٍ رومانيّة هَرِمة . قد مُلئت جذوعها بثقوبٍ تتّسع لأنْ تضع فيها كأسَ شاي . وتخيّلتُ أنّ بعضَ المُقاتلين الّذين قاتلوا في اليرموك كانوا قد أسندوا في جولات الاستراحة من المعركة ظهورَهم إلى هذه الجذوع ، ووددتُ لو أنّني أستطيع أنْ أدعوهم إلى تناول كأسٍ من الشّاي اللّذيذ على الحطب . ولكنْ هيهات!

في الأفق ، كانتْ تنتشر بساتين من الأشجار المُثمرة ، بيّارات للبرتقال ، والموز ، وحقول أخرى للقمح والذّرة ، كانتْ سيقانها الرّفيعة ، وأوراقها الخضراء الغَضّة تُصاب بالقشعريرة حينَ تهبّ عليها ريحٌ خفيفةٌ قادمةٌ من الشّمال فتسبّب لها تموّجًا ، يبدأ من طرف الحقل ويستمرّ حتّى يخفّ تأثير الموجة ، وكأنّ يدَ نبيّ قد مرّتْ من هنا ، فإذا سكنتِ الرّيح عادت السّيقان إلى سابق عهدها . ومن بعيدٍ على الطّريق الزّراعيّة الّتي تلتفّ حول البساتين ، كنتَ ترى أطفالاً صغارًا يحملون فوقَ رؤوسهم سَحّارات البرتقال أو الكلمنْتينا وهم يُغنّون ، بدا لي هذا الغناء وكأنّه نحيب! ويحصلُ أنْ يُنزل أحدهم السّحّارة من فوق رأسه

ويتشاجَر مع الآخرين ، وتتناثر حبّات البرتقال على الطّريق ، وتتدحرج مع أخضر العُشب مزيجًا من الألوان الرّائعة .

واليوم ماذا حلّ بالحَمّة ، ماذا حلّ بالهضاب المُطلّة على بحيرة طبريّة ، ماذا حلّ بأمّ قيس؟! اتمنّى انْ اعرف وأنا في البرزخ ، لكنّني أخشى أنْ أعرف أيضًا . أخشى أنّه لو سُمِحَ لي بالرّجوع إلى الفانية وزيارة تلك الأماكن الّتي أحببتُها في طفولتي ، أخشى أنْ تتغيّر الصّورة الجميلة الّتي انطبعتْ في الذّاكرة ، أخشى أنْ تتمزّق اللّوحة الرّائعة الّتي لا أريدها أنْ تتغيّر حتّى لو مرّ على ذلك اليوم إلى هذا اليوم آلاف السّنين . أخشى انْ أرى قُطعانًا من الذّئاب تنبش قبر أبي عبيدة ، وتبول على سور مقام معاذ ، وتسكر بجوار ضريح عامر بن أبي وقّاص!!

وهاأنذا في هذا المدى المُوحِش لا يسمع وَقْعَ خُطاي سِواي ، ولا يُصغي إلى دقّاتِ قلبي غيري . ومضيتُ . كانت الأرضُ تُطوَى تحتي . وشعرتُ أنّها قد تغيّرت . فشمسُ هذه الدّيار أشدّ لسعًا ، وحرراتها أعلى . والأرض اختفتْ منها الجِبال والوِديان ، ولم تبدُ منها غير بيداء قاحلة ، وأنا أبحثُ عن شجرة!! هل من المعقول أنْ تجد شجرةً ظليلةً في الصّحراء؟! إنّك كمن يطلب الفَيء من النّار ، إنّه الأمل ؛ يخدع ، لكنّه طبيب . ومضيتُ والجوّ يشتدّ لهيبًا حتّى أشرفتُ على شجرة يابسة ، حمراء الجذوع والأغصان كأنّما هي ألسنة نيران ، ورأيتُ شُيوخَها كثيرين ، ووجدتُ تلامذتهم تغطّ بهم السّاحات حتّى ليفيضون عن حدود الشّجرة الّتي لا يُرى لها حَدّ في المنظور ، فسمعتُ هاتفًا يقول : «ومَثَلُ كَلِمَة خَبِيْثَة كَشَجَرَة خبيثة اجتُثَّتْ مِنْ فَوْق الأرضِ ما لَها مِنْ قَرار» . فعلمتُ أنّها الشّجرة الخبيثة ، فأتيتُ أستطلعُ خبرها ، فلفحني شواظٌ من حرّها كاد يسقط له لَحمُ وجهي ، فاتّقيتُه بيدي ، وهممتُ أنْ

أرجعَ لولا أنّ لي بها حاجة وهي الرّيشة ، وإنْ عُدتُ بدونها انقطع أملي ، وانبتّ رجائي . فدخلتُ وأنا أتحامَل على نفسي ، فوجدتُ أرضَها تمور بالثّعابين ، تتلوّى بين الأرجل ، وتهزّ ألسنتها كما يهزّ الذّباب أجنحته ، تلسعُ بلا توقّف . ووجدتُ كلابًا مسعورةً تنتشر بين سيقان القائمين فيها فتعقر ما شاءت أنْ تعقر ، وإذا هم يتصايَحون كأنّما هم في سوق يبيعون جمرًا أو فحمًا . ورأيتُ علامات كأنّها لافتاتٌ من لافِتات الدّنيا تتدلّى من تحت كلّ غُصن ، كرؤوس مقطوعة عُلّقتْ من فروتها ، يسيل من تحت قَطِران ، ورحتُ أُسرع الخُطا لعلّي أجدُ الرّيشة وأفرّ ، فقرأتُ على كلّ لافتة كلمات ، أحصيتُ منها ممّا استطعتُ : الغيبة ، والنّميمة ، والحسد ، والبُغض ، والحِقد ، والطّمع ، والشّهوة ، والكذب ، والخيانة ، والسّحر ، والعقوق ، والزّنا ، والرّبا ، والسُّكر ، والسّرقة ، والظُّلم ، والرّشوة ، والرّياء ، والسّباب . فهذه تسع عشرة خلقًا ذميمًا . ومن ورائها الغدر ، والكَهانة ، والبَغي ، والمِراء ، واللّدد ، والمَكر ، والخديعة ، والتّجسّس ، وقطيعة الرّحِم ، والسُّخرية ، والكِبْر ، و . . . . وخُيّل إليّ أنّني لو مكثتُ هناك شهرًا كاملاً أقرأ هذه اللافتات لما فرغتُ منهنّ! ورأيتُ لكلّ خُلُق من هذه الأخلاق شيخًا متوركًا حجرًا تشتعل النّار في أطرافه وهو يُعلّم ويُفقّه ، وإليه رؤوس تُصغي . فصرختُ : «الرّيشة» . فسمعتُ صوتَ قهقهة من خلفي ، وإذا هي عجوز تساقطتْ أسنانها ، كأنّها قالتْ : «هي معي ، ولا سبيل لأخذها إلاّ إذا حدّثْتني بأعظم فِرية افتريتَها في الفانية» . فقلتُ : «لم أفعلْ» . فضحكتْ حتّى بانَ حلقومها ، وهتفتْ : «أفِرْيةً أخرى وفي غير الفانية!!» . فقلتُ لها : «هاتها» . فأبتْ إلاّ أنْ أُحدّثها . فلم أجدْ بُدًا من أنْ ينكشف سِتْري ، فقلتُ : «يا ربّ استرْني» . فندّتْ منها صيحةً

وهي تصرخ : «السّتر يوم الحساب ، إذا أراد الله أنْ يستركَ لا هنا» .

فعلمتُ أنّ السّور قد ضاقَ عليّ ، وأنّ السّقفَ قد انهدّ على رأسي .

فقلتُ وأمري إلى الله : «إنّي قد استحسنْتُ في الدُّنيا بيتَين من الشِّعْر ، فوجدتُني أحقّ بهما من قائلهما كما فعل الفرزدقُ مع جميل بثينة الّذي قال :

ترى النّاسَ ما سِرْنا يسيرون خلْفَنا
وإنْ نحنُ أوْمَأْنا إلى النّاسِ وَقَفُوا

فقال الفرزدقُ : أنا أولى من جميلٍ بهذا البيت ، ووضعه في ملحمته الفائيّة . وكان شأني قريبًا مع هذين البيتَين ، أعجباني ، وكأنّني أنا الّذي قُلتُهما ، فكُنتُ أُنشدهما حينَ أُستَنشَد ، وأرى من النّاس إكبارًا لهما ، وكنتُ إذا سُئِلتُ : أَهُما لك؟ أقول : نعم . وتلك فِريتي الّتي ظلّتْ تحوك في صدري حتّى قبض المَلَكُ روحي بين كُتبي ، ولو لقيتُ صاحِبَ البيتَين لاعتذرتُ له ، ولَطلبتُ منه أنْ يُسامِحني» .
فقالت وقد أشرقَ وجهها وبرقتْ عيناها : «هذا ليس كذبًا فحسب ، بل سَطْوٌ وقَمْشٌ ، وإنّ المؤمن لا يكذب ، وإنّ الله لا يَهدي مَنْ هو مُسرِفٌ كَذّاب ، وإنّي لأعجبُ كيفَ ما زال شِدقُكَ سليمًا ولم يُشَقّ لك في القبر جرّاء كَذِبك ، أما وقد نجوتَ من الأولى ، فإنّي لأرجو أنْ تصير إلى الجحيم في الثّانية» . فقلتُ لها وأنا أكظمُ غيظي : «قد قُلتُ ، فهاتي الرّيشة» . فكفّتْ يدها تمنعني ، فاستلبْتُ الرّيشة من يدها وبصقتُ في وجهها ، وقلتُ : «وإنّي لأرجو أنْ يغفر الله لي ، وأنْ يفضحكِ على رؤوس الخلائق» . ودَسَسْتُ الرّيشة في وسطي ، ومضيت . في الطّريق بكيتُ دمًا . تمنّيتُ لو أنّني تخلّيتُ عن الرّيشة ولا أنْ أقول ما أقول ، ورحتُ أبحثُ عمّا يُعزّيني ، فوجدتُ صوتًا في

داخلي يقـول : «إنّه لو عُـدتَ إلى الدُّنيـا لوجـدتَ أنَّ الكذب أكـثـر الأوضـار انتـشـارًا في الأرض ، لم تنظف منه بيـئـة ، ولم تسلم منه خوباء . ولولا بعضُ الصّادقين ، لأصاب الكذب كلّ نسمةٍ من هواء ، وكلّ قطرةٍ من ماء ، وكلّ ورقةٍ من نبات ، وكلّ ذرةٍ من تراب . وإنّ أممًا قد سيقتْ إلى الموت بسبب كَذبة ، وإنّ حروبًا أُشعلتْ لعقود بسبب فرية ، وإنّ دولاً تهـاوى بُنيـانُهـا ، وعـروشٌ تسـاقطتْ أركـانُهـا بسـبب الكذب . وما من زعيم إلاّ والكذب له عنوان ، كم من حاكم لبس قناع الصّدق ، وسربال الشّرف وهو من السّفلة الأدعياء الغَدَرة ، وإنّما يُعَجّل بالآخرة لكثرة البُهتان في الدُّنيا» . وأصابني غَمٌّ وكَرب ، وأردتُ من هذا الصّوت أنْ يعزّيني ، فإذا هو يُشعِل نار النّدم فِيّ ، ولا أدري متى ينطفِئ أوراها ، ولعنتُ العَجوز في قلبي ، ومضيت .

(١٠)
القُوى الحيوانيّة والطّبيعيّة

في بيتٍ من غُـرفـتَين كُنّا نسكـن أنا ووالدايَ ، وأختـي الكبرى ، وأخي الذي يصغرني ، وأختي الصّغرى ، هذا كـان إلى ذلك اليوم ، بعدها انفرط العِقد فتدفّق إخوتي وأخواتي ليُشكّلوا أكثر من دزّينة . كُنّا يومئذٍ نعيش في القرية . القرية الّتي تصحو في الصّباح على صياح الدّيكة ، وتنام على ترانيم الأدعية الّتي تسبق صلاة العشاء . في هاته القرية في ليالي الصّيف استيقظَ الشّاعر الّذي فِيّ . وتفتّح مثل تفتّح وردة في تربةٍ نديّة تنشقّ بتلاتُها للتّو ، وانتفض مثل انتفاض عصفورٍ بلّله القَطْر في ليلةٍ باردة ماطرة . غنّيتُ في الطّريق وأنا أصعدُ الجبل مشيًا أغنيات البِداية ، وردّدتُ أبياتًا كان وِفاضي مليئًا بها ، كان الطّرب يأخذني ، أقفز فوق السناسل المبنيّة على جانبي الطّريق ، وأرتاح قليلاً تحت أشجار البلّوط ، وأصفّر وأنا أرمي حصًى في وادي المصريّة ، وأتسابقُ أحيانًا مع ابن عَمٍّ آخر لي . في اللّيل حينَ نأوي إلى فُرُشنا في التّلّة العالية ، كان لديّ مهمّتان ، لم يكنْ عَدّ النّجوم إحداهما ، كنتُ أتسلّل إلى الوادي لأستجلب الجنّيات من أجل الأنس بالحديث معهنّ ، أو أترنّم بما أحفظ من الشّعر إلى ذلك العمر ، وهو لم يكنْ قليلاً . بعد انقضاء عشر ليالٍ أو تزيد ، كان على عمّي أنْ يأخذ من قَضى هذه الفترة في حافلته ليعود به إلى بيته في القرية ، بعد أنْ تكون

قد تغيّرتْ ألواننا ، وتبدّلتْ سحَنُنا لطول عهدنا بالماء ، لقد آن أنْ نستحمّ . وتُهيِّئ لي أمّي (البانيو) الّذي لم يكنْ أكثر من برميل كبير ، وبفرح طفوليّ أغطسُ في هذا البرميل الممتلئ إلى ثلثه ماءً والّذي يكاد طُوله يفوق طولي ، وأتقافزُ كما لو كنتُ أهمّ برمي نفسي من وراء جبل إلى أفق مفتوح ، وبكنزيّة صَدِئة أرشق الماء على رأسي ، وأنا أصيح ابتِهاجًا . وأخرُجُ من البرميل خَلْقًا آخر . حتّى الرّوح تكون قد اغتسلتْ . ونمكثُ - نحن الأولاد - يومَين في بيت القرية قبل أنْ نعود إلى الجبل مرّة ثانية . وهنا أقضي أجمل أوقاتي ، في هذين اليومَين أكتب ، أجلسُ في الغرفة الّتي كُنّا نأكل وتشرب ونلعب وننام فيها ، آخذُ زاويةً أقتعد فيها حشيةً رقيقةً من الصّوف ، وأمدّ قدمَيّ ، وفي حضني دفترٌ صغير . أكتبُ كلّ ما شاهدْتُه في الجبل ، أخترع أسماء للنّجوم وللجنّيات ، أتغزّل بشعورهنّ وبعيونهنّ المتّقدة ، أكتبُ كلّ ما امتلأ في مخيّلتي من صُور ، أرسم بالكلمات صورةَ لجدّي واقفًا بجزمته الطّويلة السّوداء ، وهو ينحني بمنجله على سيقان القمح الصّفراء فتهوي عند رجلَيه هُويّ عاشقة تلقّتْ للتّو قبلةً طويلة من عاشقٍ مجنون . أرسم صورةً لجدّتي ، تملأ البرقوق والدّرّاق والمشمش في سحّارات من خشب ذي ألواح مثبّت بعضُها إلى بعض بالمسامير . وأكتبُ أكتبُ . . . أفرّغ الذّاكرة المُزدَحمة بالصّور والأخيلة ، أشعر بالنّعاس وأنا أكتب ، فألقي برأسي على صدري وأغفو ، ويسقط القلم من بين يدَيّ ، وأتخيّل وأنا في هذه الغفوة طائرًا يحملني على ظهره ويطوف بي كلّ أنحاء العالَم . وأنا فوقه أسجّل ما أرى ، وأصوغ بالحرف الأنيق كلّ ما يجري تحتي ، كأنّ أحدًا ما تنبّه إلى ذلك ؛ لقد وُلِدتُ من أجل أنْ أكون كاتِبًا!!

وأتيتُ شجرةً صغيرةً بالقياس إلى سابِقاتها ، وتحتَها أناسٌ قليلون يُفسّرون آيات الله ، وعلمتُ لِمَ لم يكونوا بكثرةِ السّابقين ؛ ذلك أنّ الله لا يُعطي سِرّه لأيّ أحدٍ . وأنّ مفتاح الدّخول إلى كَلِمه لا يكون إلاّ لذي قلبٍ نقيٍّ طاهر ، وهؤلاء قليلون بل نادِرون . فأتيتُ شيخَ المُفسّرين فيهم ، فإذا هو قد صنّف ثلاثين مجلّدًا مرقومًا ، كلّ مجلّد لجزء من كتاب الله ، وهو يَبري أقلامه ، ويغمسها في الحبر ، ويكتب ، فلا يزال يَبري قلمًا وراء قلم ، ويكتبُ ويكتُب ، وهو لا يكاد يرفع رأسه عن قِرطاسه ، ثُمّ إنّه رفع رأسه فرآني ، فابتسم ، فسمعتُه يتلو : «ولو أنّما في الأرضِ من شَجَرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدّهُ مِنْ بَعدِهِ سَبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله» ، فعلمتُ أنّها شجرة الأقلام . فتركتُه ، فرأيتُ شيخًا آخر ، فسألتُه أنْ أجلسَ إليه لأعلم ، فما سمعتُه قال شيئًا ، فجلستُ ، فإذا هو يأتي على قوله : «عليها تِسعةَ عشر» . وإذا هو آخذٌ بتفسيرها ، فقال : «إنّهم تسعة عشر مَلَكًا يخزنون النّار» . فقلتُ في نفسي : «قد سمعتُ هذا الرأيَ في الفانية ، وإنّه ليسَ عليّ بجديدٍ ، وإنّي تائقٌ إلى مَنْ يقول غير هذا» ، فتركتُه ، وسألتُ عن محمّد رشيد رِضا صاحب المنار ، فإنّني سمعتُ أنّ له آراء طريفة ، فقيل لي : «إنّه هنا ، ولكنّه جرى عليه القَدَر في الفانية قبل أنْ يصل إلى هذه السّورة ، وإنّما توقّف عند هود» . فقلتُ : «هو ذاك . وإنّما كان ما كان في الدّنيا ، ولو أنّ الله مدّ في أجله لأتمّ فِسْره ، فأنا اليوم أسألُه ما قد كان يريد قولَه عنها لو أنّه لم يمت» فقيل لي : «أنتَ وشأنك . هو ذاك» . وأشاروا إلى رجلٍ في السّبعين كان في شبابه يُشبه حسن البنّا ، يلبس عمامةً صغيرةً تلتفّ حول رأسه لفّة أو اثنتَين ، ويسيل من وجهه خيطٌ رفيعٌ من الدّم ، فأتيتُه وسلّمتُ عليه ، وسألتُه عن خيطِ الدّم هذا ، فكأنّه قال : «هذا ما زال

يتعب منذ أنْ قُتِلتُ في السّيّارة الّتي كنتُ عائدًا فيها من السّويس إلى القاهرة» . فسألتُ الله له العافية ، ثُمّ قلت : «يا شيخ ما تقول في قوله : عليها تسعة عشر؟» . فقال : «يا بُنيّ ، إنّني كنتُ قد عزمتُ أنْ أتمّ الفسْر حتّى أصل إليها ، ولكنّني مِتُّ قبل هذا» . فقلتُ : «يا شيخ أعلمُ هذا ، إنّما أسألك الآن ، وأنتَ أمامي ، فما شأننا بالدّنيا؟» . فضحك ساخرًا منّي ، وقال : «إنّما كُنّا نعلم في الدّنيا ، فلمّا ارتفعت الرّوح ارتفع معها العِلم ، وإنّما نحن هنا ننتظر يوم المعاد ، ولا حول لنا ولا قُوّة . ولكنّني أدلّك على مَنْ تريد» وأشارَ إلى رجلٍ ينظرُ في الأفق كأنّما يستظهر شيئًا من محفوظه ، وقال لي : «إنّ عنده علمًا بالرّياضيّات والفلسفة والمنطق ، ولعلّ هذا ما تبحثُ عنه» . فأتيتُه فإذا هو شيخٌ من الرّيّ ، أيّامَ كانت الرّيّ جنّةَ الدّنيا ببنائها المُنمّق المُحكَم المُلمّع بالزّرقة المدهون كما تدهن الغضائر في فضاء الأرض ، قبل أنْ تخرب على يد التّتار ، وتصبح خاويةً على عروشها . فاستأذنْتُه أنْ أجلس بين يدَيه ، فأَذِنَ لي ، فسألتُه عن «عليها تسعةَ عشر» : «ما تقول فيها؟» . فقال : «إنّ سبب فساد النّفس هو القُوى الحيوانيّة والطّبيعيّة ، أمّا الحيوانيّة فهي الخمس الظّاهرة ، والخمس الباطنة ، والشّهوة والغضب ، فمجموعها اثنتا عشرة . وأمّا القوى الطّبيعيّة فهي : الجاذبة ، والماسكة ، والهاضِمة ، والدّافعة ، والغاذِية ، والنّامِية ، والمُولّدة ، فهذه سبعةَ ، فتلك تسع عشرة . فلمّا كان منشأ الآفات هو هذه التّسع عشرة كان عدد الزّبانية كذلك» . فسررتُ ، ووقعتُ على ما أريد ، ووافق ذلك ما كنتُ أفكّر فيه ، فقلتُ : «من أينَ جِئتَ بهذا ولم يقلْه أحدٌ من قبلك؟» . فقال : «إنّه البِرّ . والله يفتح بالبِرّ على العَبْد ما يشاء» . فقلتُ : «وما ذاك؟» . فقال : «الزُّهدُ في ما في أيدي النّاس» . فقلتُ :

«زِدْني» . فقال : «ما عُبِدَ الله بمِثْلِ طُول الحُزن» . فقلتُ : «زدني» .
فقال : «رأيتُ القذى في عينَيَّ قبل أنْ أراه في عيون العباد . فسكتَ ،
فوجدتُ حلاوة المعنى في القلب ، وكأنّه نقر منه نقرةً فاستحود عليه .
فقلتُ له وأنا نَشوانٌ من قوله : «زِدني» . فقال : «ما من شيءٍ أحق
بطول السّجن من اللّسان . ومن صَمَتَ نَجا» . فاستحييتُ أنْ أطلب
المزيد وإنْ كنتُ فيه راغِبًا ، لكنْ أخذتني من قوله هِزَّةٌ فطربتُ . ولشدّة
انفعالي رفعتُ قبضة يدي ، وضربتُ بها على صدره وقلتُ : «ليَهْنِكَ
العلمُ أبا عبد الله» . فغاصتْ يدي في صدره ، وكأنّني نسيتُ أنّه روح .
وخرجتُ ، وبعد أنْ قطعتُ ليلةً كاملة في مسيري إلى شجرة جديدة ،
تذكّرتُ أنّني نسيتُ الرّيشة ، فعدتُ فوجدتُ عند أوّلها القرطبيَّ .
عرفتُه من لباسه الأندلسيّ ، فقال لي : «لقد سمعتُ ما دار بينكَ وبين
الرّازيّ ، فلا يَسُرُّكَ ما علمتَ منه ، فإنّني وجدتُ في زماني مَنْ
يُشكِّك بذلك» . فرفعتُ يدي ، وضربتُه على صدره ، وقلتُ : «ليَهْنِكَ
العلمُ أبا عبد الله» . فتخلّلتْ يدي طيفَه ، فصحتُ من شدّة نسياني ،
ثم كأنّني سمعتُه يقول : «أعَنْ هذه تبحث؟» وأخرجَ ريشةً من طيّات
عمامته . فقلتُ مندهشًا : «نعم . ولكنْ ما أدراك؟» . فقال : «لا يعود
أحدٌ خرجَ من موضع مثل موضعنا إلاّ ناسٍ أو مُحتاج . وإنّ هذه الرّيشة
سقطتْ هنا منذ قرونٍ متطاولة وما سأل عنها أحدٌ ، فاحتفظتُ بها في
عِمامتي حتّى أجدَ صاحبها ، فها أنتَ» . وأخذتُها منه ومضيتُ .

فحفظتِ الطَّريق وَقْعَ أقدامي . فقادتْني إلى شجرةٍ وصلتُ إليها
في أوّل الصّبح ، بعد ليلٍ طويلٍ ، وعواءٍ لم ينقطع حتّى ظننتُ أنّ كل
حصاةٍ في الطّريق قد نَبَحتْني ، فإذا بي مُشرِفٌ على شجرةٍ فينانة
وأهلُها في نعيمٍ ، فسألتُ عنها ، فقالوا : «شجرةُ البيعة» . فما دريتُ مَنْ

بايعَ مَنْ . فمضيتُ أستطلعُ وجوه أشياخِها ، فإذا هِيَ وجوه سَمْحةٌ ، راضيةٌ مَرضيّة ، فسألتُ ، فقالوا يجتمع عندنا كلّ مَنْ بايعَ على الموت في سبيل الله أو العمل الصّالح ، فقلتُ بينكم إذًا عكرمة ، فقالوا : «وإليه خلقٌ كثير» . فسألتُ : «أليس بينكم قارئٌ» . فبعثوا إليّ بزيد بن ثابت ، فقرأ : «لقد رَضِيَ الله عن المُؤمنين إذْ يُبايِعونكَ تحتَ الشّجرة» . فلمعتْ صُورُ النّقباء في ذاكرتي ، فأتيتُ فإذا هم قد جَلَسُوا في حلقة يتذاكرون أشعارَ الجاهليّة ، فعجبتُ ، وقلتُ لهم : «أشعرًا وقد أبدلكم الله خيرًا منه ؛ القرآن» . فتبسّموا ، وقال أحدهم : «أأنتَ فقيه؟» . فخجلتُ من نفسي ، وقلت : «إنّما أنا عابرُ سبيل ، وبضاعتي من العِلم مُزجاة ، وكنتُ في الدّنيا أحفظُ بعضًا مِن هذا الّذي تتناشدونه ، فلمّا انقطعتْ بي الدّروب ، وجدتُ أنّه لم ينفعني إلاّ كلماتٌ كنتُ أقولها حينَ آوي إلى فراشي» . فقالوا : «فماذا كنتَ تقول؟» . فقلت : «بسم الله الّذي لا يضرّ مع اسمِه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء» . فقالوا : «لا بأسَ عليك ؛ لن يضرّك شيءٌ بإذن الله . وأمّا هذه الأشعار فقد كُنّا نُنشدها ولا تمنعنا عن ديننا» . فتركتُهم ، وطُفتُ في المكان أبحثُ عن ضالّتي ، فوجدتُها بين يدَي عابدٍ يستنسخُ بها شروحًا ، فأقمتُ عنده حتّى انتهى من الصّفحة الّتي فيها ، ومددتُ يدي بلطفٍ ، فسللْتُها من بين أصابعه ، وأنزلتها في منزلها مع أخواتها ، فاجتمع لديّ عشر ريشاتٍ إلى الآن ، ومضيت .

(١١)
إنَّ الكريم لا يخفَى

لم أكنْ ميّتًا بالمعنى التّامّ ، فأنا حيّ بوجهٍ من الوجوه . صحيح أنَّ عشرات القرون قد مرّتْ وهي - بالضّرورة - في منطق الحساب أطول من أطول البشر عمرًا ، ولكنْ مع ذلك فأنا لا زلتُ حيًا بصورةٍ أو بأخرى ؛ وإلاّ فكيفَ أمكنني أنْ أتواصل مع كلّ هذه الأرواح وأخاطبها؟! حَيٌّ في زمنٍ ما ، في مكانٍ ما ، في حياةٍ ما ، في عالَمٍ ما . ويُمكنكَ أنْ تجمع كلّ هؤلاء في كلمة واحدةٍ هي البرزخ!

في جانبٍ من النّهر الّذي يجري بغير اكتراثٍ ، ولا يدري أحدٌ على وجه التّحديد متى انبثق أوّل مرّة ، كان هناكَ بشرٌ يستقلّون حافلةً يقودها عجوزٌ سقطتْ جفونه على خدوده لِكِبَرِ سِنّه ، لم يسمعْه أحدٌ يتحدّث أبدًا ، ولم يره يضحك أو يعبس ، كان يقود الحافلة بصمتٍ تامٍّ ليسَ في مقدورِ أيّ أحدٍ سواه! كانت الحافلة تغادر الضّفّة الأولى عَبْرَ جسرٍ باتّجاه الضّفة الثّانية بانتظام ، وفي أوقاتٍ مُحدّدة بالثّانية . الغريبُ أنّ الحافلة لم تتوقّف عن نقل الرّكاب يومًا ، بل ولا لحظة ، والغريب أنّ سائقَها العَجوز ظلّ سائقها على الدّوام ولم يتغيّر ، والحافلة لم تتعطّل حتّى ظنّ أهل الضّفّة الأولى أنّها حافلة مُقدّسة ، أو هابِطة من السّماء ، لكنّ الّذي يدعو إلى ما هو أغرب ، أنّ سكّان الضّفّة الأولى الّذين ينتقلون إلى الضّفّة الأخرى لم يعودوا أبدًا ، كان هناك

نفق طويل ومُظلِم ، ولا أحـدَ يدري إلى أيّ مكان يُفـضي ، يبـتلع كلّ القادمين في جوفه ، دون أنْ يشبع ، أو يكتظّ ، أو يشكو . وُلِدَتْ أجيالٌ جـديدة ، ونسـيتْ آباءَها وأجـدادها الّذين اسـتـقلّوا تلك الحـافلة .

الملاحظة الأشدّ غرابةً من سابقتَيها أنّ النّاس كانوا يسألون عن ذويهم الّذين لا يعـودون في بداية الأمـر ، يبكون أحـيانًا ، ويُصـابون بالذّهول أحيانًا أخرى لكنّهم في النّهاية ينسَون ، إلى أنْ يحين دورهم ليركبوا هم الحافلة نفسها ، فإذا ركبوها لم يعودوا يُدرِكون بأيّ سرعة نسيهم مَن بقي على الضّفّة الأولى ممّن لم يصعد الحافلة إلى الآن . وإلى اليوم ما زال العجوز إيّاه هو الّذي يقود الحافلة إيّاها ، وما زال الجسر إيّاه قائمًا على النّهر لم تتلفْ منه قطعةٌ واحدة ، ولم يصدأ منه مسمارٌ واحد ، وما زال النّهـر إيّاه يجري دون أنْ تجفّ منه قطرة ماء واحدة ، وما زال النّفق إيّاه يبتلع القادمين نحوه ، ولم يقلْ ولو مرّة واحدة : «لقد شبعتُ!!» .

كنتُ أعودُ من مدرسة الحلحوليّ الابتدائيّة قبل الواحدة ظُهرًا إلى البيت ، كان عليّ أن أنتظر مع إخوتي نصفَ ساعة ، وأحيانًا ساعةً حتّى يأتي أبي من أجل أنْ نجتمع كأسرة على الطّعام ، كانت نصف السّاعة كافية لكي أدخل مكتبةَ أبي ، ما زلتُ أتذكرها في آخر غرفة في البيت ، تدخل من الصّالون الفسيح إلى مُوزّع صغير ، على يمينه إحدى غرف النّوم الّتي تُطلّ على بلكونة صغيرة في جهة الشّمال ، كُنتُ حينَ أقف عليها في النّهارات الصّافية أشاهد بوضوح جبل الشّيخ الّذي يغطّيه الثّلج بالكامل مثل فستان تلبسه عروسٌ جميلة مُمدّدةٌ في الأفق ، وتنعكس فوقه أشعّة الشّمس فتُحدِث بريقًا يَلمعُ في عينَيّ .

مكتبة أبي كانت تقع في وجه الدّاخل إلى هذا الموزّع الصّغير ، لها شُبّاكان يُطلان جهة الشّمال والغرب ، وبابٌ خشبيٌّ أبيض ، في

الدّاخل ، غرفة المكتبة لم تكنْ صغيرةً ولا كبيرةً ، لكنّها كانتْ كافيةً لكي تضمّ أكثر من ثلاثة آلافِ عنوانٍ ، كلّ عنوان يزدهي على الآخر بفرادته . جمع أبي عناوينه كما يجمع الصّائغ جواهره من الشّام من دمشق ، ومن مصر من القاهرة أيّام دراسته الجامعيّة ، كان يذهب إلى الأزبكيّة يبحثُ عن الكتب القديمة ، دأبَ هو على تسميتها بالأمّهات ، يقلّبها بين يدَيه بحنوّ ، يمرّر أصابعه يتلمّس خشونة أوراقها ، يقرأ بعضَ فصولها ، ويجلس ، يبحثُ عن كتب اللّغة والمعاجم والشّعر ، يسأل عن سعرها ، وقليلاً ما يُجادل ، وينقد البائع الثّمن ، ويخرج بصيده مسرورًا ، لم يكنْ أبي يُجيز لنفسه ولا لي ، ولا لأحد أنْ يفتح الكتاب بيد واحدةٍ ، دون أنْ تكون اليد الأخرى تتلقّف جانبَيه لكي لا ينفتحا إلاّ بالمقدار الّذي يقي الصّفحات من التّفسّخ أو يحميها من أنْ تشعر بشدّ عَضَلِيّ في أطرافها . ولم يتركْ أبي كتابًا اشتراه دون أنْ يُجلّده ، كان اللّون الّذي يُفضّله هو اللّون الأسود ، والكعب يكون من الجلد الأصليّ ، وبأحرفٍ مُذهّبة منقوشةً بعنايةٍ نقشًا عميقًا حتّى عاشتْ أكثر من نصف قرنٍ دون أنْ تبهت ، يكتبُ أبي اسم الكتاب واسم مؤلّفه على ذلك الكَعب ، وفي أسفله ينقش اسمه . كان أبي يدفع في تجليد الكتاب ربّما أكثر من ثمن الكتاب نفسه! لكنّه كان مسرورًا بذلك . القروش الّتي كانتْ تبعثها وزارة التّعليم له أيّام دمشق كانتْ كافيةً لمأكله ومسكنه ودراسته وشراء الكتب . حُبّ الكتب هو - ربّما - أفضلُ ما ورثْتُه عن أبي .

في نِصف السّاعة هذه ، كنتُ أفتّش في مكتبة أبي عن ضالّتي . كان أبي قد خصّص جزءًا من المكتبة لدواوين الشّعر ، وكانت أكثر ما يستهويني ، أكثر من اثني عشر رفًا ، كلّها مُزدحمة بالدّواوين تفتح

ذراعَيها لي مرحّبةً دون شروط . لا أزال أتذكّر أنّ بيتَ جرير :

إنّ العيـونَ الّتي في طَرْفِـهـا حَـوَرٌ
قَـتَلْنَنا ثُمّ لم يُحْـيينَ قَـتْـلانَا

قد حفظتُه هو والقصيدة قبل أنْ تمرّ سنواتٌ لكي نجد أبياتًا من هذه القصيدة في المُقرّر الدّراسيّ . وماذا يعني أنْ تعيش بين الكتب؟! يعني أن تتخلّص من تفاهة العالَم الّذي يسير من هراءٍ إلى هراء ، ويسقط في الهاوية!

ومضيتُ ، في البرزخ كذلك برزخ ، وفيه جحيمٌ ، وفيه فردوس . كانت الأرض زَلِقةً ، كأنّها تتحرّك من تحتِ قدَمَيّ ، فوقعَ في قلبي أنّها بداية الدّخول إلى الجحيم ، وأنّ المرور بالجحيم حَتمّي ؛ «وإنْ منكمْ إلاّ واردُها» ، فأتيتُ على شجرةٍ يسيلُ الزّيتُ من عروقها ، تُدعَى شجرة الدُّهن ، فإذا تحتها التُّجّار الّذين كانوا على هيئتهم في الفانية ، يحلفون الأيمان الغَموس ، فتهوي أيمانُهم تحت أقدامهم حتّى تصيرَ صفائح زَلِقة ، فتزلّ بهم فيسقطون على وجوههم وتندقّ أعناقُهم ، فإذا قاموا عادُوا لِما نُهُوا عنه . فأمسكتُ بأحدهم قبل أنْ يسقط ، وسألتُه : «ما خبرُك؟» . فسمعتُه يقول : «القليل الحلال مُبارَك ، والكثير الحرام مَمحُوق ، ولقد آثرْنا الكثير على القليل جشعًا ، فزلّلنا كما ترى» . وتركتُه من يدي فسقط ، وسمعتُ صيحته فما قدرتُ أنْ أفعل له شيئًا . وإنّني في مثل هذا الموطئ الزّلق ، الّذي يتساقط فوقه التّجار ، قد رأيتُ رجلاً يقفُ ثابِتًا ، فعجبتُ من ثباته بين المُتساقطين ، فأتيتُه أستخبر خبرَه ، فسألتُه : «ما الّذي ثَبّتك؟» . فكأنّني سمعتُه يقول : «كنتُ أدفعُ زكاة أموالي مرّتَين في العام» . فقلتُ : «أأنتَ الّذي تدخل الجنّة حَبوًا؟» . فقال : «أو تعرفُ أمري؟» . قلتُ : «وهل يخفَى القمر؟!» . فضحك ،

وقال : «تستعير كلمات ابن أبي ربيعة!» . فقلتُ : «يا ابن عوف ، ما الّذي وجدْتَه وكان برداً عليك وسلامًا ، ونجّاك من أن تزلّ كما يزلّ إخوتُك؟» . فقال : «المَسْح على رأس اليتيم ، والأكل مع المساكين ، والمشي في حاجة المُضطرّين» . فوجدتُ لكلامه في قلبي حلاوةً ، فقلت : «إنْ وجدْتَني في عَرَصات الحساب يُؤخذ بي إلى الهَول ، أتشفع لي؟» . فهزّه قولي ، ووجدتُ عِظَم تأثيره عليه ، وصمتَ حتّى ظننتُ أنّ الخَرَسَ قد أصابه ، ورأيتُ عينَيه بدأتا تنهمران ، وقال : «والله يا أخي لا أملك لك من الله شيئًا ، ولا يشفع لي ولا لكَ إلاّ صاحب الحوض» . ثُمّ ذاب كأنْ لم يكنْ . ومضيتُ .

فإذا الأرض تهوي ، وتتغيّر ، كأنّها بِساطٌ يُلَفّ ويُلقَى من رأسِ شاهق ، وتسارعتِ الأرض في هُويّها ، حتّى ظننتُ أنّ ثقبًا أسود قد أصابَها وراح يبتلعني في جوفها ، ثُمّ اسودّ كلّ شيء ، فما عدتُ أرى شيئًا ، ثُمّ اشتدّتِ الحرارة ، فاحتملتُها في البداية ، ثُمّ لم يكنْ إلى احتِمالِها سبيل ، ورحتُ أتعرّق بشدّة ، وأمسحُ العرق الّذي يسيل بغزارةٍ فوق وجهي ، ثُمّ رأيتُ فوّهةً تندفع منها ألسنة اللّهب كأنّها جِمالةٌ صُفرٌ ، ترمي بشررها في كلّ اتّجاه ، فعلمتُ أنّه الجحيم ، وسألتُ الله العافية ، ثُمّ رأيتُ أنهارًا تسيلُ بالحديد المُنصهر ، وتذكّرتُ أنهار (الماجما) الّتي تسيل من البراكين في الفانية فما أبعدتُ الشّبه بينهما ، فأتيتُ على شجرةٍ ، فعرفتُ أنّها شجرة الزّقوم من طَلْعِها . ورأيتُ أجسادًا من البشر تتقافز على جذوعها وأغصانها وساقها تأكل من ثِمارها ، وإذا ثِمارها كرأسِ ساحرةٍ بَشِعةٍ ، شعرُها من الأفاعي ، تنزل الأفاعي من فروة الرّأس بالعشرات يتلوّى بعضُها على بعضٍ ، وتَفحّ فحيحًا ينخلع له القلب رُعبًا ، فإذا جاعَ أهل الجحيم ، أكلوا من

تلك الرأس ، فدخلت الأفاعي في أفواههم ، فما استطاعوا أنْ يبتلعوها ، فالتفَتْ حتّى خرجتْ من عيونهم وآنافهم ، فسألتُ : «مَنْ هؤلاء؟» . فكأنّني سمعتُ مَنْ يقول : «هؤلاء هم الزّناة» . فإذا عَطِشوا ، شربوا من الحديد المُذاب ، والقَطِران المغليّ الّذي يسيل في قعر الجحيم أنهارًا ، فإذا أرادوا أنْ يستريحوا أوَوْا إلى نارٍ كأنّها بُنيانٌ ضخمٌ مَهول يبلغ أسباب السّماء ، فركنوا ظهورهم إليه ، فسالتْ جلودهم ، وساحتْ على جِداره ، وبانتْ من خلفِه عِظامُ ظهورهم زَرَداتٍ زَرَدات ، فصرخوا ، وراحوا يبحثون عن مأوىً ، فما وجدوا غير نيرانٍ تُحاصرهم من كلّ جهة ، وأنا؟ كأنّني كنتُ كإبراهيم في النّار أرى أهوالَها ، وهي عليّ بردٌ وسلامٌ . ثُمّ إنّني أتيتُ على أقوامٍ تنقرُ طيورٌ ضخمة مِخاخَ رؤوسهم ، وتشربها كما يُشرَب الحليب لذّي هَناءة ، ورأيتُ آخرين يبتلعُ جرادٌ ألسنتهم ، بعد أنْ يستلّها من حلوقهم ، فسألتُ عن هؤلاء ، فكأنّه قيل لي : «هؤلاء الّذين يفترون على الله الكَذِب» . فرجّني الهلعُ رَجًّا ، وبَسّني بَسًّا . ورأيتُ خيولاً أعرافُها من البَرق ، وأسنانها كأنياب الأسود ، وذيولها كذيول العقارب ، تدوس بأقدام كالجبالِ على أكوام مكدّسة من النّاس ، فتندلق أحشاءهم على جانبَيْ بطونهم ، فسألتُ : «مَنْ هؤلاء؟» فقيل : «هؤلاء الّذين يأكلون حرامًا» . فرجَعتُ ، ثُمّ أتيتُ على رجلٍ حَسَنِ الهيئة بين يدَيه تِمثالٌ ، يُطلَب إليه أنْ ينفخ فيه الرّوح ، وهو أعجز من أنْ يدقّ فيه بإزميله دَقّة ، ورأيت الرّجل يقول : «وأنّى لي بذلك» . فما إنْ يُتمّها حتّى يُمسَخَ إلى ذِيخ مُتلطّخ تفوح منه رائحةٌ عَفِنة ، وذيلُه يهتزّ على قفاه اهتزاز جناحَي الذّبابة ، ثُمّ يُؤمَر فيعود الرّجلَ إيّاه ذا الصّورة الحسنة ، فيُطلب منه مرّة أخرى أنْ يُحيي التّمثال ، فيعجِز ، فيُمسخَ ذِيْخًا من جديد ، وهكذا . فسألتُ عنه ،

فقيل لي : «هذا آزر» . ثُمّ إنّني رجوتُ الله أنْ يُخرجني ممّا أدخلني . فرأيتُ أناسًا تُقطَع جُلودهم مِزَعًا ، ثُمّ تُردّ إلى أفواههم فتُحشَى فيها حشوًا ، فيأكلونها وهم يتضاغَون ، فسألتُ : «مَنْ هؤلاء؟» . فقيل لي : «هؤلاء الهَمّازون اللّمّازون» . ورحتُ أبحثُ عن الرّيشة قبل أنْ أفرّ من الموقف ، فرأيتُ شخصًا جالِسًا في النّار ، لا يمسّه أحدٌ من الزّبانية ، إلاّ أنّه يقفُ على جَمْرتَين تحت قدمَيه ، فأتيتُه ، لعلّي أجد الرّيشة عنده ، فإذا هي في جيبِ قميصِه ، لم يمسّها من العذاب شيءٌ ، فأخذتُها ، وولّيت . وفي الطّريق قبضَ عليّ رجلٌ قبضةَ جَبّار ، فتضعضعتُ ، وتذكّرتُ أبا ذؤيب الهُذليّ ، فتمثّلتُ ببيته :

وتَجَلُّدِي للشّامتِينَ أُريهمُ

أنّي لريبَ الدّهر لا أتضعضعُ

فأمسكتُ بيده لأبعدها عن كتفي ، فوجدتها كما لو كانت صخرةً تجثم على كاهلي ، وتكادُ تسحقني ، ورشحتُ عَرَقًا ، ونظرتُ في عينَيه ، فرأيتُهما تقدحان شررًا ، فلم أجدْ بُدًا من الحيلةِ لأتخلّص منه ، فسألتُه : «مِن أيّ العرب القوم؟» . فقال ، وقد أُعجِبَ بنفسه : «من خيارهم» . فسألتُه : «أيُهم فإنّ الكريم لا يخفَى؟» . فازداد عُجبه بنفسه ، وأرخى قبضةَ يده قليلاً ، ونافرَ قائلاً : «من أعلاهم أرومةً ، وأرقاهم شرفًا» . فسألتُه : «زِدْني» . فقال : «من بني مخزوم» . فعرفتُه ، فأردتُ أنْ أتثبّت ، فسألتُه : «أأنتَ الّذي أقسمتَ يوم العِير» . فابتسم ، ولمعتْ عيناه ، وانطفأ ما فيهما من شرر ، وهتف : «أكنتَ معنا يومَها؟» . فقلتُ : «لا ، ولكنّ حديثكَ يومَها سارتْ به الرّكبان» . فقال : «فأيّ حديثي ، فما أقول إلاّ عجيبًا؟» . فقلتُ : «قولك : والله لا نرجع حتى نَرِد بدرًا ، فنُقيمَ بها ثلاثًا ، فننحر الجَزور ، ونُطعَم الطّعام ، ونُسقى

الخمر ، وتَعزِف لنا القِيان ، وتسمع بنا العربُ وبمَسِيرنا وجَمْعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا» . فقال وقد أزال قبضته عنّي ، ورجعَ خطوةً إلى الوراء ، وشدَّ صدرَه ، وزفر زفرةً ، وهتف : «بلى» . فوجدتُ الفرصة حانت للهرب ، فولّيتُ وأنا أهتف : «فما فعل بِكَ رُويعِيّ الغنم يا أبا جهل ، لقد مرّغ أنفكَ بالتّراب» . وأطلقتُ ساقَيّ للرّيح .

ثُمّ جاوزتُ ، فسمعتُ صياحًا وهياجًا عظيمَين ، وإذا أقوامٌ تحت شجرةٍ يتلاومون فيما شجرَ بينهم ، فعلمتُ أنّها شجرةُ الخلاف ؛ هؤلاء يقولون : «لولا أنتم لكُنّا مُؤمنين» . فيردّ عليهم آخر : «فلا تلوموني ولوموا أنفُسَكم» . فأتيتُ هذا المُزدهي بنفسه ، الرّافع صدره ، المناكف وهو في سوأته ، فقد عرفتُه ، فقلتُ له : «لي عندكَ حاجةٌ فأبرزْها» . فتفرّس في وجهي ، وقال : «قد رأيتُ هذا الوجه ، وكانتْ لي عنده نجعة ، ولَطالما أغويتُكَ في الفانية . فما الّذي بعثَ بكَ إلينا؟» . فقلتُ : «أعطِني ريشتي» . فمدّها ، فوجدتُ من نتنهِ ما جعلني أتفلُ فيها قبل أنْ أمسحها ، مُحتمِلاً ذلك على أمل الخلاص . وركضتُ وأنا أتّقي اللّهيب ، وأبحثُ عن منفذ . فوجدتُ أباليس كثيرين يخطرون تحت شجرة ، وعليهم زعيمٌ يوجّههم ، فإذا هو في النّار وقد قُضِي الأمر وما زال يُفكّر في إغواء البشر ، وعرفتُ أنّ عداوته لا تنتهي ، وأنّ ملعونًا مثله لا يأوي إلاّ إلى الشّجرة الملعونة . ورأيتُ أحدهم قد خرج من تحت الشّجرة واتّجه إليّ ، فزيّن إليّ القول ، وحبّب إليّ الفُسُوق ، فاستعذتُ بالله منه ، وسايرْتُه حتّى آخذ الرّيشة منه ، فلمّا صارت إليّ ، ولّيتُ لا ألوي على شيءٍ . وبردَ المكانُ قليلاً ، فعرفتُ أنّني جاوزتُ الخطر . فأتيتُ على شجرةٍ جرداء ، لا ورقةَ عليها ، فإذا هي شجرةُ تينٍ ، وإذا تحتها البُخلاء يتدافعون ، ثُمّ رأيتُ رجلاً آخر يحملُ فأسًا ، فيهوي

عليها ويقطعها ، فطارت الرّيشة في الهواء فالتقطتُها ، ثُمّ إنّني سمعتُه يستصرخ : «اُنْظُرُوا إِلَى شَجَرَةِ التِّينِ وَكُلِّ الأَشْجَارِ . مَتَى أَفْرَخَتْ تَنْظُرُونَ وَتَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنَّ الصَّيْفَ قَدْ قَرُبَ . هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا ، مَتَى رَأَيْتُمْ هذِهِ الأَشْيَاءَ صَائِرَةً ، فَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَكُوتَ اللهِ قَرِيبٌ» .
فقلتُ : «قد علمتُ» . ثُمّ مضيتُ .

(١٢)
خرجَ أهل الدُّنيا من الدُّنيا ولم يذوقوا أطيبَ شيءٍ فيها

كان اللّهب قد برد . والظّلام قد انقشع ، وجاءت شمسٌ فبدّدتْ كلّ سواد . ولحق بي من الجحيم ما لحق ، فكان جسدي قد تقبّض ، وجلدي قد انكمش ، وأصابني ما أصابَ يونس عندما التقمه الحُوت وهو مُليم ، فخرجتُ من جحيم البرزخ أبغي إبلالاً مِمّا أصابني ، فنظرتُ في البعيد ، فوجدتُ شجرةً ، فقصدتُها فإذا هي خضراء في كلّ شيءٍ ، تتسلّق على أغصانها الرّفيعة أذرع الجالسين تحتها كأفاع تتلوّى ، وتتلقّف ثمارَها أكفُّهم كأفواه طيورٍ زُغبٍ سمعتْ أصواتَ أُمّاتِها ، وقد أينعتْ ثمارًا من اليقطين حُلوة المنظر والمأكل . فغذذْتُ السّير حتّى وجدتُ تحتها ما يُبرِئ العِلَل الجِسام ، وإذا أنا بيونس الأخ الصّالح منهمكٌ في التّسبيح ، قد راح يتلو : «وأنبتْنا عليه شجرةً مِن يَقطين» . فعجبتُ له يتلو ما لم يسمع ، ويقرأ ما لم يكنْ عنده في زمانه في كتاب!! فسألتُه : «فكيفَ قبلتَ القُرعة؟» . فكأنّه قال : «وكيفَ لا أقبلها ، وما يجري على سِواي يجري عليّ» . فقلتُ : «وتُهلِك نفسَك برَمْيِها في البحر!!» . فقال : «هلاك الفرد أهونُ من هلاك الجَماعة» . فقلتُ : «ولكنْ أما كان من طريقةٍ غير هذه؟» . فقال : «قَدَر الله ماضٍ» . فقلت : «وهل كان ربّ السّفينة يعتقد أنّ إلقاء رجلٍ واحدٍ

سيخفف حمْل السّفينة ويُنجّيها من الغرَق ، إنّ برميلاً واحدًا مليئًا بالزّيت ليزن ثلاثة رِجال أشِدّاء» . فابتسم ، وقال : «كلاّ يا بُنَيّ . لم يكن الإلقاء للحِمْل ، فإنّ في السّفينة من المتاع ما يعادل نِصفَ وزنها» . فسارعتُه بالقول : «ففيمَ ألقيت؟» . فقال : «لمّا ملَكَنا البحرُ وَجَنَّ علينا الليلُ ، غشيَتْنا سَحابةٌ تَمُدُّ من الأمطارَ حِبالاً ، وتَحوذُ من الغَيْم جِبالاً ، بريح تُرْسِلُ الأمْواجَ أزْواجًا ، والأمطارَ أفواجًا ، وبَقِيْنَا في يَدِ الحَيْنِ ، بين البحرَيْنِ ؛ قالوا هَلُمّ نُلْقِ قُرعةً لنعرفَ مَنْ سببُ هذه البليّة ، فألقَوا القرعة فوقعتْ عليّ ، فأُلقِيتُ في اليمّ» . فقلتُ : «أصحيحٌ أنّ القرعة أعيدَتْ ثلاثَ مرات ضَنًّا بك أنْ تُلقى» . فكأنّه سألني : «ومَنْ قال لك ذلك؟» . فقلتُ : «ابن عبّاس» . فقال : «الحَبْر؟» . قلتُ : «بلى» . فقال : «هو ذاك» . فقلتُ : «وكيفَ وجدتَ جوف الحوت؟ أصحيحٌ أنّه مغارةٌ مَهولة ، سقفُها وجوانبها تنزّ بالزّبد؟» . فضحك ، وقال : «هذا من المخيال ، ومن الخرافات!! ولكنّني نزعتُ ثيابي أملاً في أنْ أسبح وأنجو ، فكأنّ جسدي لم يمسّ الماء ، إذ كان الحوت قد جاء من ظلمات البحار ، غير عابئ بجبالٍ من الأمواج ، فاغرًا فاه ينتظرني هناك تمامًا ، فلمّا أُلقيت ازدردني ازدرادًا ، واعتصرني اعتِصارًا ، حتّى كِدتُ أختنق ، وراح يُفرز على لحمي عُصارته فكدتُ أذوب ، فاجتمعتْ عليّ الظُّلمات كلّها ، فسبّحتُ الله ، فكأنّ الحوتَ قد اختنقَ بي فأصابه ما يُشبه الإغماء ، وكانت عُصارته قد أذابتْ أجزاء من جلدي ، ولكنّها لم تستفحل ، فلفظني ، كما يلفظُ الواحدُ منّا بقيّة شيءٍ من الطّعام إذا عَطَس ، وإذا أنا غَضّ الإهاب ، مثلَ طِفلٍ وُلِد للتّو لا يقوى على الحركة ، ولقد كان خروجي من بطن الحوت وِلادة . فأنبتَ الله هذه الشّجرة . فأويتُ إليها ، فكانتْ مأوى كلّ الّذين أنابوا إلى الله» . فقمتُ لأغسلَ قدمَيه ، فإذا

قدماه من نور ، لا سبيل إلى الإحساس بهما . فمضيتُ ، فوجدتُ في بعض الأنحاء طفلةً تلعبُ لم تتجاوز الثّالثة ، فعجبتُ من منظرها ، فلم أعتدْ أنْ أرى أطفالاً تحت أيّ شجرة ، فدنوتُ منها ، فإذا هي تلبسُ وشاحًا أبيضَ خفيفًا من الصّوف ، يغطّي أعلى رأسها ، ويُظهر شعرها الأسود الفاحم النّاعم ، الّذي يتوزّع فوق جبينها الواسع ، وعيناها تنطقان بكلّ ما في سُحُب السّماء من صفاء ، وحاجباها اللّذان يميلان إلى الشّقرة يرتسمان فوق عينَيها بخِفّة ووداعة . لكم كانت تُشبه ابنتي الصّغيرة في الفانية ، وتذكرتُ أيّامها الغابرات فحننتُ ، وودتُ لو أنّها حاضرةٌ فأحضنها بكلّ أشواقي المُعتّقة . وهتفتُ : «إنّ الله لن يُعذّب الصّغار» . وطفرتْ من عيني دمعةٌ حارّة مسحتُها بظاهر كفّي ، وشعرتُ أنّني هرمتُ للذّكرى ، واقتربتُ من الصّغيرة الجميلة ، وسألتُها : «ما اسمُك أيّتها الرّائعة؟» . فلم تقلْ شيئًا ، إنّما رفعتْ بصرها نحوي ، وابتسمتْ ابتِسامةً بانتْ منها أسنانها البيضاء الّتي تُشبه عقدًا من حَبّات لؤلؤ صغيرةٍ تصطفّ بانتِظام ، وأشارتْ إلى رجلٍ يجلسُ إلى كُتُبٍ ينسخُ ما فيها ، فأتيتُه فوجدتُ بين يديه كتاب الله يخطّه ، وإذا هو قد وصل إلى قوله : «فسَلّموا على أنفُسكم» . فسلّمتُ عليه ، ثُمّ جلستُ إليه ، وهو ما زال مُنكبًا على الصّحائف يخطّ الآياتِ فيها بخطٍّ لم أرَ أجملَ منه ، ولا أدقّ رَسْمًا للحروف ، فسألتُه : «ومن هذه الطفلة الّتي قادتْني إليك» . فحينئذٍ رفع بصره إليّ ، وقال : «هي ابنتي» . فتعجّبتُ من أنْ تكون معه ابنته ، فقلت : «ولِمَ هي هنا معك؟» . فقال : «إنّها سببُ دخولي إلى هذه الظّلال» . فعرفتُه . فأردتُ أنْ أتثبّتَ منه ، فقلتُ : «وما قولك في توبتك؟» . فكأنّني لم ألقِ عليه السّؤال ، وراح يُتمّ نَسْخَه . فعرفتُ أنّه تجاهله ، فأعدتُه عليه : «لقد سمعنا في

الفانية أنّك كُنت ممّن لَعبَتْ بهم الخَمْر فأنقذك الله منها ، أفصحيحٌ ما قيل؟» . فازدادتْ وتيرةُ عمله في نَسْخ ما بين يدَيه ، وراح يزفر ، فعلمتُ أنّني أحرجتُه ، فكففتُ . فقلتُ له : «التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له» . فردّ : «إنّ الله تعالى يقول : أيّها الشّابّ التّارك شهوته لي ، المُبتذل شبابه من أجلي ، أنتَ عندي كبعضِ ملائكتي» . فقلتُ : «زدني» . فقال : «خرجَ أهل الدُّنيا من الدُّنيا ولم يذوقوا أطيبَ شيءٍ فيها» . فسألتُه : «وما ذاك؟» . فقال : «معرفة الله تعالى» . فصحتُ : «أنتَ والله مالك بن دينار» . فكأنّه كتب في الصّحف : «وَنادَوْا يا مَالِكُ» . وتذكّرتُ ما كان يقوله شيخي في الفانية : «إنّكَ والله لأنْ تصحبَ أقوامًا يُخوّفونكَ حتّى تُدرِكَ أمنًا ، خيرٌ لك من أنْ تصحبَ أقوامًا يُؤمّنونكَ حتّى تلحقكَ المخاوف» .

ومضيتُ ، فإذا أحدهم يُمسكُ بورق الشّجرة وهو ينظرُ في البعيد ، فأتيتُه أستطلعُ خبره ، فسألتُه : «إلامَ تنظُر؟» . فقال : «إلى قريني» . فسألتُه : «أإلى الشّيطان؟» . فترك الورقة ومال بوجهه إليّ ، وقال : «كلاّ ، إنّما إلى أخي ، وكان الله قد أفاض المال في أيدينا حتّى لا ندري ما نفعل به ، وكنتُ أنفق منه في الصّدقات ، ويُنفِقُ منه في الملذّات ، فلمّا أنهاه عمّا يفعل ، كان يقول لي :

اغتنمْ صَفْوَ اللّيالي

لذّة العيشِ اختلاس

وإنّما هي حياةٌ واحدةٌ ، وغدًا لغدٍ ، واليوم لي ، ويُطيل السّهر في اللّهو وهو يُنشد :

فَاغْنَمْ من الحاضر لذّاته

فليسَ في طَبْعِ اللّيالي الأمانْ

فقلتُ : «هذه للخيّام ، والأولى لابن زيدون ، فمن زمان بعدهما أنتما؟» . فقال : «كلاّ ، جئنا قبلهما بقرون ، ولكنّ البشر منذ آدم يقولون الكلام إيّاه ، بمعانيه ذاتها ، وإن اختلفتْ ألفاظُها ، فيختلط الزّمان ، وتجري الحال الواحدة على اللّسان فينطقون بلفظ زمانهم دون أنْ تتغيّر معانيهم ، فلا يدري اللّفظ لأيّ زمانٍ ينتسب ، وإنْ كان المعنى لكلّ زمان» . فوددتُ لو أنّ الجاحظ حاضرٌ ليسمع هذه الفلسفة . ولكنّني قلتُ : «وأينَ أخوك اليوم؟» . فقال : «في النّار» . فسألْتُه : «وأنت؟» . فقال : «ما ترى ؛ فلولا الإنابةُ ما ظلّلَتْني هذه الشّجرة» . وبكى ، فسألْتُه : «ما يُبكيك؟» . فقال : «ما آل إليه حالُ أخي» . فقلت : «البُكاء على الحليب المدلوق لا يُعيده إلى الكأس» . وتركتُه أبحثُ عن الرّيشة ، فإذا هي خلف ورقةٍ قد لصِقتْ بالجدار ، فأخذتُها ومضيت .

كان هذا في زمن الدّهشة ، في زمن الحبّ ، الزّمن الّذي لا تشعر بمروره ، ولا بتتابع أيّامه ، لأنّ هناك مَنْ يعدّه عنك ، أنتَ فقط مشغول بِعَدّ الفراشات ، وبجَمع الورود من كلّ زوج بهيج . يومَ أنْ كان العالَم بالنّسبة لي حقلاً فسيحًا في النّهار ، ونجومًا برّاقةً في اللّيل ، وسماءً عاليةً في الصّيف ، ومطرًا تضربه الرّيح على الخدّ في الشّتاء . كان الأستاذ يجلسُ إلى مكتبه ، شارِباه غليظان ، وعيناه فيهما خُضرةٌ داكِنة ، وشعره كَثّ ، وذقنه مرفوعة لم تكنْ محلوقةً تمامًا ولا في أيّ مرّة ، كانتْ خَشِنة ، وغير مُبالية مثله ، وعلى طاولةٍ من خشبٍ نخر السّوس أكثر أجزائِها ، لكنّها تظلّ تُشبه الطّاولات الّتي كان لحم المذبوح يُقطّع فوقها في محاكم التّفتيش في القرون الوسطى ، من خلال سماكتها الغليظة ، ولونها البنّي ، وبلاهَتها ، إذ تخلو من أيّ معنًى للحياة . كان الأستاذ قد فردَ دفتره أمامه ، وتحفّز لِيُنادي على الأسماء .

وخفق قلبي ، إنّها ثلاثةُ أسماء فحسب ، وسأموت إنْ لم يكن اسمي بينها . كان الأستاذ يدقّق النّظر في العلامات ، ليرتّب الأوائل ، ويتعمّدَ الإطالة في ذلك ، حتّى يسمح لأنفاسنا أنْ تتقطّع أكثر ، ولقلوبنا أنْ تخفق أشدّ ، وكأنّ جبريل هو الّذي سيُنادِي على الفائزين بالفردوس ، وشعرتُ أنّني إنْ لم أكنْ من الثّلاثة فسيُقذَف بي إلى أتون الجحيم. بمثل هذه المشاعر كنتُ أنظر في وجه الأستاذ وأنا أكتم أنفاسي ترقّبًا للحظة النّداء . ورفع الأستاذ الدّفتر أمام وجهه ، فغطّى نصفَه الأسفل ، ولم يعدْ يظهر من معالمه إلا النّصف الأعلى من عينَيه الخضراوَين الدّاكنتَين ، وكانتا ذابِحتَين بما يكفي لأنْ أتمنّى له أنْ يُقذَف في الجحيم لطُول انتظارنا . وتنهّد . أنزل الدّفتر . وانفرجتْ شفتاه الدُّخانيّتان ، وبعثرَ لِسانُه الاسم الأوّل ، فوقفْتُ دون إرادةٍ منّي ، ولكنّي لم أكنْه . ثُمّ نادَى الثّاني ، ولم أكنْه ، فكدتُ من الخوف أنْ تنحل عُقَد ركبتَيّ فأسقط . وهأنذا أقفُ على البرزخ تمامًا ، أأنجو أم أهلك؟! وسمعتُ اسمي قبل أنْ ينطقه . كنتُ أعرفُ أنّه سيقوله ، لأنّني لا أريد أنْ أنتهي . سأجعله يقوله ، لأنّني لستُ من الّذين يخسرون ، وليس من اللائق بمثلي أنْ ينهزم . فهتفتُ في داخلي : «ستقوله كما آمرك . فافْعلْ» . فقاله . فجلستُ . اليوم في هذا البرزخ الحقيقيّ . أصل إلى هذه الشّجرة ، أرى تحتها شيخًا لعلّه ملاكٌ ، يُنادي على الفائزين الّذين سيُصار بهم إلى الجنّة وعلى البائسين الّذين سيُصار بهم إلى النّار . فأتيتُه ، فنظرتُ من خلف كتِفَيه ، فإذا هو يحمل ورقًا ملفوفًا على بَكَرة تُشبه في لونها خشب طاولة الأستاذ في الفانية ، وكلّما قرأ تسعة عشر اسمًا ، لفّ البَكَرة ، فبرز لديه تسعة عشرَ اسمًا جديدًا ، فراح يقرؤها من جديد ، وكلّ فوجٍ يُنادَى عليه ينهض من مجثمه كما تنهض الغزلان الرّابضة .

فقرأ أسماءً في الهالكين مِمّن عرفتُ أيّام الفانية ، فيمن كنتُ أتلمذ لهم ولكتبهم ، وكنتُ أجد في كتبهم عزاءً ، وحزنتُ ؛ أفكان علم الدُّنيا للدُّنيا!! وأصابني الجزع ، وهمستُ : «أحبّ أنْ أذهبَ إلى الجنّة ، ولكنْ برفقة أصدقاء من جهنّم!!» . فوجدتُه قد التفتَ إليّ ، وبانتْ على زاوية فمه نصفُ ابتِسامة ، وهتف : «مسكينٌ جون دورموسون هذا» . فتجاهلتُ الأمر ، وسألتُه : «أليسَ اسمي في قائمتك؟» . فكأنّني رأيتُه يُدير كتفه ، وقد أزعجه تطفّلي ، ليقول : «عليك أنْ تنتظر» . وأدار كتفه مرّة أخرى للجهة الأخرى ، وراح يقرأ ثانيةً ، فمكثتُ عنده ليلةً كاملة ، وهو يُدير البكرة مع كلّ فوج جديد ، فما نطق اسمي ، وإذا الورق الملتفّ على البكرة لا ينتهي . فسألتُه : «ألم تقرأ اسمي بعد؟» . فقال : «عليكَ أنْ تنتظر» . فسألتُه : «إلى متى؟» . فكاد يصفعني صفعةً يتمزّق لها لحمُ وجهي . ونهاني أنْ أسأله مرّة أخرى . فصمتّ . فعزّ عليه حالي ، فقال : «لا أدري متى ينتهي هذا الورق الملفوف على البكرة ، وإنّني أظنّ أنّه لو لُفّ على محيط الكواكب التّسعة الّتي كانتْ في زمانكم لوَسِعتْها وزادتْ عليها» . فقلتُ متعجّبًا : «تسعةُ كواكب؟» . فقال : «فيما أقدّر ، ولعلّها أكثر من ذلك» . فشهقتُ من اليأسِ وضربتُ كفًّا بكفّ . فقال : «ولكنّني رأيتُ في وجهك ما يدفعني لمساعدتك» . فقلتُ ، وقد تحمّستُ قليلاً : «فَهيّا» . فقال : «مِن أيّ زمنٍ أنت؟» . فلا أدري لماذا قلتُ له من العُجْب : «من زمان الطّائرات والصّواريخ العابرة للقارّات» . فقال : «تقصد زمن الذّباب» . فقلتُ : «أو تُسمّونه كذلك؟» . فقال : «بلى ، نُسمّيه زمن الذّباب المعدنيّ ؛ لأنّها معادنُ تطير ، وهي إلى قدرة الواحد مِنّا ليستْ إلاّ ذُبابًا ، ينهرس بين إصبعَين من أصابعنا» . فتضاءلتُ من خَجْلتي وقد انكمشتُ مثل كيسٍ بلاستيكيّ لفحتْه

الحرارة . وقلتُ وأنا أخفضُ رأسي ، وما زال هو يُدير البكرة على تسعةَ عشرَ اسمًا جديدًا : «فهيّا» . فقال : «أترى ذلك الّذي يقفُ إلى الغَيْضة؟» . فقلتُ : «بلى» . فقال : «اذهبْ إليه واستطلع اسمك عنده» . فأتيتُه ، فإذا هو لديه بكرةٌ كصاحبه ، يقرأ عليها أسماء النّاجين والهالِكين ، وإذا كلّ فوج ينهضُ من قبره في زمانه ، وينفض التراب عن جسده ، ويلحق بجماعتِه ، فطال مكوثي عنده أنتظر اسمي ، وقال لي وقد أشفق من طول انتظاري : «إنّ أوراق بَكَرتي يُمكنها أنْ تدور حول محيط الشّمس الّتي كانتْ في زمانكم مئة مرّة ، ولا أظنّ أنّ بغيتك عندي ، فإنْ شئت فأقمْ حتّى تتبيّن بنفسك ، وإنْ شئتَ فاذهبْ إلى أخي الواقف تحت ذاك الغصن فلعلّ اسمك يكون في صحائفه» .

ففعلتُ ما قال . وقال الثّالث ما قال أخواه ، وبقيتُ أدور تحت الشّجرة حتّى مررتُ بتسعة عشر مَلَكًا ، كلّ سابق يدلّني على اللاّحق . فإذا انتهيتُ إلى الأخير هذا ، وجدتُه أحناهم عليّ ، وأبلّهم لي رِيْقًا ، فإنّه حادَثني ، وناشَدني الأشعار ، وطمأنني بين الفينة والأخرى ، فما زال يزرع فِيّ حدائق الأمل ، حتّى صاح : «هذا هو اسمُك ، قد كُتِبْتَ في النّاجين» . فطرتُ من موضعي ، وقفزتُ أستلم رأسه لأقبّله ، فكأنّني استلمتُ شُعاعًا من نور ، وخمدتْ حماستي ، وأشار إليّ أنْ امضِ إلى الجنّة ، فقلتُ له : «أفلا تُرافقني فتعرّفنِي ما علمتَ وما لم أعلم؟» .

فقال : «إنّما أنا أفعل ما أؤمر به ، وإنّ بَكَرتي لم تنتهِ ، وعليّ أنْ أقرأ المزيد من الأسماء» . فسألتُه عن الرّيشة ، فنزعها من رأسه ، ووضعها بين يدَيّ ، وسمعتُ صوته يمسح على ظهري ، وأنا ماضٍ : «فلمّا أتاها نودي من شاطِئ الواد الأيمن في البُقعة المُباركةِ من الشّجرة» . ومضيتُ .

(١٣)
فتى الكلمات

لا أدري إنْ كنتُ في السّابعة أو الثّامنة من عمري، حينَ كان عقلي فضاءً لا متناهِيًا يعجّ بأسرابٍ من الطيور المتزاحمة بعضُها فوق بعض، طيورٍ من الكلمات الّتي تضجّ بالتّحليق، تُغطّي الأفق، وتخفق بأجنحتها الأسطوريّة في كلّ زاويةٍ منه. كنتُ فتى مصنوعًا من الكلمات، قبل أنْ أدخل الصّف الثالث كنتُ أحفظُ ما يزيد عن مئتَي بيتٍ من الشّعر. وكنتُ أملك قبل أنْ أدخل الصّفّ الرّابع مكتبةً فيها ثلاثمئة كتاب، التهمْتُها كلّها ولم أترك فيها صفحةً واحدةً. كنتُ مهووسًا بالتّرادف، وبالتّناقض، وبامتداد المعنى، وبتباعده، وبتشظّيه، وبتجانسه، وبانسياحه، وبِسرّه، وسِحره، وغُموضِه، وما إليه، وما خلفه، أو بين يدَيه. كانوا يقولون إذا رأوني: جاء فتى الكلمات، ذهب فتى الكلمات، نام فتى الكلمات، استيقظَ فتى الكلمات، ماذا يقول فتى الكلمات...؟ كان فتى الكلمات الّذي كُنتُه أروع شخصٍ التقيتُه في حياتي. لقد كان النُسخة الأكثر نصاعةً منّي. لم يكُنْ هناكَ كثيرون يسمعونني، وباستثناء أبي، فإنّ أحدًا لم يكن مهتمًا لكي يسمع هذا الغلام الّذي يتدفّق بالكلمات كأنّه مريضٌ بها لا يُشفَى إلاّ بقولها، كنتُ أشعر أنّها كثيرة، وكثيرةً جدًا، تنحبس في عقلي، وتضغط عليه، وتُشعرني بانفِجارٍ وشيك، ولذا كان عليّ أنْ أقولها، أنْ

أهتفَ بها ، أنْ أملأ فمي منها ، أنْ أجدَ من يسمعها منّي ، وإذْ كان هذا الطّلب عزيزًا ، إذْ لم يكنْ أحدٌ يشعر بهذا المرض الكَلميّ المُعشّش في عقلي ، فإنّني كنتُ كثيرًا ما أمشي في الطّرقات كالمجنون ، لا غاية لي إلاّ أنْ أصرخ بهاته الكلمات ، أفرّغ الكبت القاتل ، أصعدُ على سطح بيتنا في الطّابق الرّابع ، أتدفّق بما كان مكنوزًا في اللّيالي السّابقة ، أتداعى بآخر ما حفظتُ ، أتلو الآيات ، أترنّم بالأشعار ، وأردّد الجُمل ، وأتحرّك مثل أسد حبيس وأنا أقولها . وأرتاح .

حينَ حفظتُ بيتَ المتنبّي :

إذا اشتبهَتْ دموعٌ في خُدود
تبيّنَ مَنْ بَكى مِمَّنْ تباكَى

قلتُ : «لماذا لا تكون إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ ؛ فالاشتباك ، الّذي يتضمّن الاشتباه فيما يتضمّنه أفضل ، ناهيكَ بصوت حروفها الّتي تكاد تسمع فيه تدافعًا وطِعانًا ، أضِف إلى تجانسها مع كلمة تباكى الّتي في آخر البيت في ثلاثة حروف هي التّاء ، والباء ، والكاف . ثُمّ لم يُعجبني رأيي ، فقلتُ لماذا لا تكون : «إذا اشتعلتْ دموعٌ في خدودٌ» ؛ فقولنا جرادٌ مُشْعِلٌ ، إذا انتشر وجَرى في كلّ وجه ، فتعني القوّة والكثرة والانتِشار ، وقولنا غُرّةٌ شَعْلاءُ يعني أنْ تأخذ الغُرّة وهي الشّعر الكثيف إحدى العينين حتى تدخل فيها ، وهذا يُناسب امتلاء العين بالدّمع حتّى تفيضَ المقلتان به فتتدفّق على الخدود ، والاشتِعال يعني فيما يعني الاحتِراق الّذي يتناسب مع حرقة الدّموع وحرارتها ، ولكنّنا سنصطدم بقوله (تبيّن) ؛ فالتّبيُّن أو التّباين يكون بين مُستوَيَين أو بين نقيضَين كما أراد الشّاعر بين البُكاء والتّباكي ، ولكنّ اشتعل تذهب إلى مستوى واحد وهو الاشتِعال الحقيقيّ لا المُصطَنع ،

فالكلمة لا تفي تمامًا بما أراد الشّاعر ، فعدلتُ عن أنْ أجدها مناسبةً!
فقلتُ : لماذا لا تكون «إذا اشتجرتْ دموعٌ في خدود» ، فالاشتِجار يدلّ
على ألف معنًى يزيد على الاشتِباه الّذي أراده المتنبّي ؛ فاشتجر الشّيءُ
تعني تداخل بعضُه في بعض ، ويقال : اشتجرت الرّماح إذا اختلطت
لكثرتها من جهة ، ولعدم معرفة مَنْ كان منها معك مِمّن كان منها
ضِدّك من جهةٍ أخرى ، ويقال كذلك اشتجرت الأصابع إذا تشابكتْ ،
واشتجر القوم تَخالَفوا وتنازَعوا . وأعجبتْني هذه الكلمة أكثر . لكنّني
أيضًا قلت : لماذا لا تكون : «إذا اشتهرتْ دموعٌ في خدود» ؛ أي إذا
ظهرتْ بوجهٍ جليّ فَرُئيتْ لكثرتها ، وهذا يتناسب مع قَفْلة البيت
بكلمة (تباكَى) إذْ إنَ مَنْ يبدو هنا باكِيًا يريد لدموعه الاشتِهار ، فهو لم
يبكِ بل تباكَى . . . وهكذا ؛ ومع أنّ الكلمات الخمس (اشتبهتْ ،
واشتعلت ، واشتبكتْ ، واشتجرت ، واشتهرت) مشتركة كلّها في وزنٍ
واحد ، وفاؤها واحدة وهي الشّين إلاّ أنّ البَوْن بين كلّ كلمةٍ وأخرى
شاسعٌ . وفكّرتُ لماذا لا يستطيع الشّاعر أنْ يضع كلّ الخيارات الممكنة
الأخرى إلى جانب كلّ كلمةٍ يقولها ، فكلمات العربيّة رائعة وقادرةٌ
على أنْ تُصيبكَ بحالةٍ من الانخِطاف إلى حَدّ يصعبُ تخيّله ، إنّ
كلماتها أكثر من النّجوم ، والانتِقاء منها أسهل من اغتراف كأسٍ من
الماء من محيطٍ متلاطم ، ثُمّ قلتُ إذا لم يفعل هو ذلك ، فلماذا لم
يفعله الشُرّاح والنُقّاد . ثُمّ لمّا كبرتُ قليلاً صِرتُ مولعًا بتجميع الأبيات
الّتي تبدأ بالكلمة ذاتها ، لا بالحرف ، فالحرف الأوّل المتشابه سهلٌ
الإتيان به ، لكنْ أنْ تأتي بالكلمة كاملةً في تطوافك بين الشّعراء في
لغةٍ ساحرةٍ فهذا لا يستطيعه إلاّ عاشق ، وكنتُ ألعبُ هذه اللّعبة
اللّذيذة مع أبي ، فيقول : (نعم) . فأقول :

(نَعَمْ) سـرى طيفُ مَنْ أهوى فـأرّقني
والحُبّ يعـــتـــرضُ اللّذّاتِ بالألـمِ

فيقول :

(نَعَمْ) أسفرتْ ليلاً فصار بوجـهـهـا
ضـيـــاءً به نورُ المحـــاسنِ ســـاطعُ

فأقول :

حَـسَنٌ قـولُ (نَعَمْ) من بعــدِ (لا)
وقـــبـــيحٌ قــول (لا) بعـــدَ (نَعَمْ)
إنّ (لا) بعـــدَ (نَعَمْ) فـــاحـــشَـــةٌ
فَـبِـ (لا) فـــابدأْ إذا خِـــفتَ النّدَمْ

فـيـقـول : «ولكنْ يا بُني ، لم تأتِ (نعم) في أوّل الأبيات ، بل جاءتْ في عرض الكلام» . فأضحك ، ويُغيّر الكلمة ، ليقول (أرى) ، فأقول :

أرى نـفـــســي تُطالبـني بـأمـــرٍ
قليلٌ ، دونَ غـــايتــهِ ، اقـــتِــصـــاري

فيردّ :

أرى خَـلَلَ الرّمـــادِ ومـــيـضَ نـارٍ
ويـوشِـكُ أنْ يـكـون لـه ضِـــــــرامُ

فأقول :

أرى كُلّنا يبـغي الحـيـاةَ لنفـســه
حـريصًا عليهـا ، مُستـهامًا بها صَبّا

فيُكمِل :

فـحُبّ الجـبـانِ النّفسَ أوردَهُ التّـقَى
وحُبُّ الشّـجـاعِ النّفسَ أوردَهُ الحَـرْبا

وتستمرّ اللّعبة ، نقول ، ونقول ، ونقول ؛ نقول لِنُشفَى ، ونقول لنرضى ، ونقول لنشعر أنّنا أحياء ؛ كانت الكلمات ترتبك فوق لساني إذا لم أقلْها على الوجه الصّحيح ، تُلاك في الفم مثل قطعة عجين يختنق بها المجرى إذا لم أُعطِها حقّها الوافي في النّطق ، كانت هي الّتي تتأبّى ، تقول : ليس هكذا ؛ بل هكذا! الكلمة حبيبةٌ فإمّا أنْ تغمرها بالحبّ لكي تُعطيكَ أجمل ما عندها ، وإنْ لم تفعلْ فإنّها سوف تنحبس فوق اللّسان ولن تُمكّنك من نفسها . بالهَذَيان بالكلمات كانت روحي تستعيدُ عافيتها!! ومضيتُ .

ولحق بي بعضُ مَنْ كانوا يقرؤون الأسماء على البَكَرات ، حتّى إذا أشرفتُ على شجرةٍ عالية ، لا يكاد المرء ينظر إليها مُباشرةً لشدّة النّور النّافر منها ، توقّفوا . وقالوا : «لا نُجاوز هذا المكان» . فعجبتُ من أمرهم ، وهممتُ أنْ أسألهم عن سِرّ ذلك ، لكنّ أمر الحصول على الرّيشة جعلني أعدل عمّا أردت . فعرجتُ إلى الشّجرة ، فرأيتُ رجلاً يقطرُ رأسُهُ دمًا ، تفوح منه رائحة المِسْك ، فأتيتُه ، فوجدتُه يقرأ : «مَكْتُوبٌ : بَيْتِي بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى . وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوص» . فقلتُ في نفسي : «هو متَى» . فدنوتُ منه ، فسألْتُه : «أأنتَ العَشّار؟» . فقال : «العَشّارُ لمْ تُضرَبْ عنقُه بالسّيف» . ففهمتُ أنّه مات شهيدًا ، وأنّ موته كان بقطع عنقه ، فاستزدْتُه ، فقلتُ : «فعلى يد مَنْ قضيت؟» . فقال : «على يد شاؤول» . فعرفتُه ، لكنّني أردتُ التّثبُّت ، فقلتُ : «أفأنتَ أوّل الشّهداء في الحواريّين؟» . فبرقتْ عيناه سرورًا ، وقال : «بلى» . فصحتُ : «أنتَ يعقوب البارّ إذًا» . ووثبتُ لكي أُعانقه فما استطعتُ إليه سبيلاً . فتركتُه ، فسمعتُ حفيفًا من فوقي يُشبه رفرفةَ أجنحةٍ صغيرة ، فنظرتُ فإذا هي أرواحُ مثل نُقط الضّوء ، تسبح

في الهواء ، ثمّ تأوي إلى حواصل طيرٍ خُضْر ، فعلمتُ أنّها شجرة السّدرة ، فإنّني كنتُ قد قرأتُ عند الزّمخشريّ صاحبُ الكشّاف في الفانية أنّ سدرة المُنتهى تأوي إليها أرواح الشّهداء . ورأيتُ النّقاط تسبح كرذاذ ماءٍ ، جميلة ومُدهِشة ، والطّير تتلقّفها فتحيا وتطير بها إلى الأعالي ، فهالني المشهد ، وتبعتُ النّقاط السّابحة ، وخلتُ أنّني أطير معها ، فعلق بكتفي جذعٌ من جذوع الشّجرة فاستفقتُ من هيامي ، ونظرتُ فإذا رجلٌ مُعمّم ، يقطُر وجهه نورًا ، فأتيتُه ، فسألتُه : «أيّ الشّهداء أنتَ؟» . فسمعتُه يقول : «أنا سيّدهم» . فقلتُ في نفسي : «وهل للشّهداء سيّد؟» . فاستزدْتُه ، فقال : «أنا أخُو مَنْ به خُتِمت الأنبياء» . فعرفتُه ، فأردتُ أنْ أطيل معه الحديث كما فعل موسى مع الله فقلتُ : «أأنتَ الّذي ودّ ابنُ أخيك أنْ تُتركَ في الفلاة حتّى يحشرك الله من بطون السّباع والطّير لولا إشفاقه على أختك من الجزع؟» . فهزّ رأسه وابتسم . فقلتُ : «ففيم قولُك : «يا مُحمّد ، يا ابن أخي عندما أجوبُ الصّحراء في اللّيل أُدرك أنّ الله أكبر من أنْ يُوضَع بين أربعة جُدران؟» . فقال : «يا بُنيّ إنّ أثر الله في كلّ شيءٍ ، تراه ولا تراه ، وإنّها لا تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوب الّتي في الصّدور ، فإنْ أردتَ أنْ تعرفه فَلْتنظُر في قلبك» . فشعرتُ أنّ قلبي اضطرب . ورفعتُ بصري فإذا أسرابٌ من الضّوء جاءتْ لتزوره . فعللتُ عنهم ، إلى رجلٍ في ربوةٍ من الأرض يمدّ يدَيه على اتّساعهما ، وكفّاه مبسوطتانِ كأنّما سُمّرتا على الصّليب ، وتحته جمعٌ من الأرواح ينهمكُ في التّراتيل ، فتذكّرتُ لهيأته هذه قول ابن الأنباري :

عُلُوّ في الحياةِ وفي المَماتِ
لحَقًا تلك إحدى المُعجِزاتِ

مَـدَدْتَ يدَيكَ نحـوهمُ احـتِـفـاءً
كَـمَـدِّهمـا إليـهمْ بالهِـبـات

فأتيتُـه ، فأنزلْتـه من على الصّليب ، وأجلسْتُـه على الأرض ، وسألتُه : «فيكَ سُمرة العربيّ؟» . فما حار جوابًا . فقلتُ في نفسي : «لعلّه عَدّ ذلك عصبيّة ، أو لعلّه يتعافى من رَفْعه على الصّليب» . فعدلتُ إلى سؤال آخَر : «فَمِنَ الأردن أنت؟» . فظلّ واجمًا ، فقلتُ في نفسي : «لعلّه عدّ ذلك عصبيّة» . فعدلتُ إلى قولي : «قتلكَ الرُّوم؟» . فرجفتْ عيناه ، وكأنّني سمعتُه ، يقول : «أنا ما مِتّ» . فعرفتُ أنّه هو . فقلتُ : «وما عهدي وعهدك بمعان أو بالطّفيلة أو ماء عفرا؟ كم من زمن مرّ على هذه الأوابد؟ أما تزال هضابُهم شُمّا وديرتهم نَدِيّة؟ لوددتُ أنْ أجدَ شذى ريحها ، وطيبَ مائها هنا» . واستفاق الشّوق في قلبَينا ؛ فسمعتُه يقول : «أما والله ما صبّرني إلاّ رِيْح هذه الرّبضات ، وإنّكَ لو عرفتَ لصمتَ ، ولكنّ الجاهل ثرثار» . فخجلتُ من نفسي ، وعلمتُ أنّني بالغتُ ، فقلتُ : «لقد بلغني وأنا في الفانية أنّ فتًى لم يبلغ الثّامنة عشرة من عمره من مرابعك في الطّفيلة قد لَحِقَ بك» . فقال : «أتقصدُ الفتى الّذي قال لأبيه أريدُ الزّواجَ يا أبي؟» . فقلتُ : «بلى . فما كانَ رَدُّ أبيه؟» . فقال : «قال له عندما تعود من الحربِ سأزوّجك أجمل النّساء» . فقلتُ : «وهل عاد إلى الطّفيلة وزوّجه أبوه؟» . فقال : «كلاً . لقد أتى إلينا هنا فورَ أنْ صعدتْ رُوحُه من القُدسِ حتّى عرجتْ إلى منزلنا هذا» . فقلتُ : «وما أدراكَ بذلك؟» . فقال : «هو أخبرني» . فقلتُ : «وما اسمه؟» . فقال : «علي العُوران» . فقلتُ : «وهو حَيّ يُرزَق؟» . قال : «بلى يا بُنيّ فإنّنا لا نموت» . فقلتُ : «ادْعُ لي» . فقال : «إنّما النّصر صَبْرُ ساعة» . فاستزدْتُه ، فقال : «إنّما الأذى على الخشبة

في المسمار الأوّل ، فإذا غاص في اللحم واحتملْتَه ، هانَ بعده كلّ شيء . ولو عُدتُ إلى الدّنيا لضربتُ في الأرض ، أخلع بردة المُلْك ، وأهب مالي ، وروحي ، وأترك الماء لعابري السّبيل ، فرب شربة واحدة أحيتْ نفسًا خيرٌ من الدُنيا وما فيها» . فقلتُ : «يا فروة بن عمرو الجُذاميّ قد بلغتَ ، أعندكَ ريشتي؟» . فكأنّه قال : «بلى» . وأخرجها من بين أصابعه الّتي تخلّلها الدّم ، فهززتُ رأسي ، وأخذتُ الرّيشة ، وعلمتُ أنّني لو قمتُ لأقبّله ما وقعتُ على ما أريد ، فتركتُه وانصرفت .

فأصعدتُ في دروبٍ محفوفةٍ بالجَمال ، ظلال وأنداء ، وجِنان وأفياء ، وقد كُسيتُ أثوابًا من الخزّ ، وجررتُ ذيلَ الرّضا والفَوز ، فبينما أنا كذلك ، سمعتُ صوتًا من خلفي يقول : «هل أدلّك على شجرة الخلد؟» . فرجفتُ ، وأوجستُ في نفسي خِيفةً ، وقلتُ دون أنْ ألتفتَ إليه : «أأنتَ إبليس؟!» . فقال : «معاذ الله!!» . فقلتُ : «ومن أنتَ؟» . فقال : «أنا الخضر» . فعقدتِ الدّهشةُ لساني ، فاستدرتُ نحوه ، فقلتُ : «وأينَ لقيتَ موسى ويوشع؟» . فتجاهل سؤالي ، وأعاد : «هل أدلّك على شجرة الخلد؟» . فقلتُ : «أفي مصبّ نهر الأردنّ في طبريّة فذاك هو مجمع البحرين؟» . فأعاد : «هل أدلّك على شجرة الخلد؟» . فقلتُ : «ولِمَ سُمّيت بالخضر ؛ ألأنّك كنتَ إذا جلسْتَ على الأرض اخضرّ كلّ موضع حولك؟» . فأعاد : «هل أدلّكَ على شجرة الخُلد؟» . فقلتُ : «الخِضر اسْمك أم لقبك ، لكأنّني سمعتُ شيخي في الفانية يقول إنّه لقبُك ، وأما اسمُكَ فإيلياء ، أعلى اسمكَ سُمّيت القُدسُ إذًا؟» . فأعاد : «هل أدلّك على شجرة الخلد؟» . فعرفتُ أنّه لا سبيل إلى إجابة سؤال غير هذا . فقلتُ : «وكيفَ عرفتها ، وقد تشابه الشّجرُ

علينا؟» . فقال : «أنا أعلمها عِلمَ اليقين ، وأعرفُ عددَ أوراقها ، ولون ثمارها ، ومنبتها ، وطعمها ، وإنّها ليست تلك الّتي دلّ إبليسُ عليها أَبانا آدم ، ولو أنّها كانت كما قال لخَلَد ، فلمّا أكل منها ، وهبط ، ومات ، ولم يكنْ من الخالدين دلّ على أنّها ليستْ شجرةَ الخُلد» .
فسألتُه : «فكيفَ عرفْتَها دون سِواها؟» . فقال : «بالعلم اللّدُنّيّ» .
فسألتُه : «أفضّلكَ الله بهذا؟» . فقال : «بلى» . «وعلى الأنبياء؟!» .
فقال : «علمُ ذلك عندَ ربّي» . فقلتُ : «هل أكلتَ منها؟» . فقال : «بلى» . فقلتُ : «ومن أجلِ هذا خلدتَ ، فلا تموت إلى يوم الدّينونة؟» .
فسكت . فقلتُ : «أما وقد عرفتَ شجرةَ الخُلد ، وإنّ رحمة الله قد شملتْني ، فَلتأخذني أيّها المأتيّ رحمةً إليها؟» . فأخذني إليها .
وأجلسني تحتها ، فطعِمتُ من ثمارها حتّى امتلأ بطني . ثُمّ نظرتُ حولي فلمْ أعثر له على أثر ، وذابَ كأنّه لم يكنْ إلاّ صوتًا!!

(١٤)
في البَدْءِ وُلِد العمى

مضى اليوم الأوّل وأنا في غاية الهناءة ؛ فأيّ نِعمةٍ أعظم من أنْ تُجنّبَ الأمراض والأسقام والشّرور والآلام ، وتُكفَى مؤونتك ، وتُحمَل إليكَ الخيرات من كلّ صنفٍ وذوق ، وترى من الفضل ما لا تستطيع أنْ تعدّده ، أو تَصِفَه . ثُمّ مرّ يومان ، فأسبوع فشهر ، فسنة . . . ثُمّ أقمتُ زمانًا لا أدري كم هو في النّعيم ، آكلُ وأشربُ ، ولا أشتهي شيئًا إلاّ أتاني ، فلمّا مرّتْ أعوامٌ مرور الظّباء الفارّة من السّباع ، وأنا أجول بين الظّلال والأفيئة دخلني من الملل ما دخل النّفس البشريّة . فهِمتُ على وجهي أبحثُ عن شيءٍ لا أدري ما هو . أتردّد بين الوِديان الّتي حصاها من عَقيق ، وبين السّهول الّتي تربتُها من زعفرانٍ ومِسك ، والأشجار الّتي تتقوّس جذوعها لكثرة ما تحمل من الثّمر النّاضج الّذي تضجّ الأرجاء برائحته الحُلوة ، وتونع حتّى تتشبّع بالماء فتميل إلى السّواد قليلاً لشدّة نضارتها ، وبين الأنهار الّتي ماؤها حُلْوٌ زُلالٌ ، ليس مثله ماء شِعب بَوّان الذّي وصفه المتنبّي في بلاد فارس في الصّفاء والنّقاء والعذوبة . وبين الجِبال المكسوّة بكلّ ما تلذّ له العَين ، وقد أُقيمتْ على مراقيها المناظر ، وجُلِبتْ إلى قممها القناطر ، فأنتَ تنتقل ما بين قمّة وقمّة كما ينتقل الطّائر ما بينَ غُصنٍ وغُصْن ، وكنتُ قد اتّخذتُ للرّيشات التّسع عشرة صندوقًا تحت شجرة الخُلد ، أتفقّدهنّ كلّ يوم ،

وأقلّبهنّ بين يَدَيّ ، وأعجب من ألوانهنّ الزّاهية ، باستثناء الرّيشات الّتي استللتُهنّ من الشّجرة الثّانية عشرة إلى الخامسة عشرة ، فقد انتُزعنَ من وسط الجحيم ، فاسودّتْ أطرافُها ، وإنْ نمتْ بالبياض أصُولها .

ثُمّ رحتُ أركضُ بين الحدائق الغنّاء رَكضي المحموم أوّل ما استيقظتُ من القبر ، لا أتركُ بقعةً إلاّ وتطأها قدماي ، ألهثُ بين ربوعها ، أفتّش عن شيءٍ ينقصني . أدير الجذوع المتراكمة بعضُها فوق بعض أبحثُ تحتها عن هذا الشّيء فلا أجدُ إلاّ ريحانًا أو ياسمينًا أو عطرًا ، أقطفُ ورودًا لم أكنْ أعرف ألوانَها ولا أشكالَها ولا أسماءَها أيّام الفانية وأشمّها ، ثُمّ أنزع أوراقها وأبعثرها في الفضاء . أتسلّق شجرةً مثل قِرد ، فهو أجمل من أنْ أركب محفّةً تطير بي بين جبلَين في طَرفة عين ، أنظر من فوق أعلى قمّة الشّجرة الّتي تسلّقتُها للتّوّ ، وأُرسِلُ طرفي في البعيد ، فلا أرى إلاّ مزيدًا من الأشجار الملتفّة ، غابات من السّيقان المُتشابكة ، وغياضًا يتداخل بعضُها ببعض ، وطيورًا تصدح بأرقّ الأنغام ، وسُحُبًا تتزيّن بأبهى الألوان . . . والضّوء في البعيد ينكسر فيتلألأ الأفق ، فيقطرُ جَمالاً ، وأصواتٌ من هناك من البعيد البعيد ، تذكّرني بما أتوقُ إليه ، لا أدري أهي أصواتُ حيوانات الجنّة أم طيورها ، أم حفيف نسائمها ، أم ملائكتها السّابحة ، أم شيءٌ آخَر يُشعِل فِيّ الحنين إلى ما كنتُه يومًا ما . وأنزلُ من الشّجرة ، أنظر إلى نفسي ، لم أكبر يومًا واحدًا ، مع أنّه مرّ ربّما ما يقربُ من قرنٍ كاملٍ على ذلك اليوم الّذي نهضتُ فيه من قبري ، هل كان ذلك اليوم مشؤومًا ، هل كانتْ رقدتي في القبر في الظّلام والطّين والبرد والدّود خيرًا من قيامي اليوم بين هذه الظّلال الوارفة؟! ولماذا أرفضُ هذه الجنّة الّتي كنتُ في

الفانية أيّام التّعب من العمل أتمنّى عشرها أو حتّى عُشر عُشرها؟! وكنتُ أعمل وأشقى وأعيشَ في عناء من أجل الوصول إليها ، فلمّا وصلتُ إليها وجدتُني أتمنّى أنْ أعودَ إلى ما كنتُ عليه بين النّاس!! فما الّذي يحدث؟! هل كان وجودي في هذا النّعيم جحيمًا؟! أأنا في نِعمةٍ أم نِقمة؟! هل من عاقلٍ يرفض كلّ هذا التّرف الّذي يحيط به من كلّ جانب؟ أهو الجُنون؟ ومن المجنون يا تُرى؟! الّذين رفضوا الفانية أم الّذين لم يستطيبوا الباقية؟ هل كان الوعد بالهلاك خيرًا من العيش في النّجاة إلى أجلٍ غير معلوم؟ لا بُدّ أنّ في الأمر خطأ من ناحيةٍ ما!!! وركضتُ . . . وركضتُ . . . وركضتُ . . . ولا أدري أكان ركضي هربًا من شيء ما ، أم بحثًا عن شيء آخَر؟! ولكنّني ركضتُ .

في البَدْء وُلد العمى ، ثُمّ وُلد النّور . في البدء كان القلم ، ثُمّ كان الكتاب . في البدء وُلد الشيء ثُمّ وُلد نقيضه . في البدء كان الله ثُمّ كان كلّ شيء . من الجميل أنْ يخلق الله الشّر من أجل أنْ يُعرفَ به الخير ، أو من أجل أنْ يتصارَعا وتكون لهذا جولة ، ولهذا جولة ، وفي الجولة النّهاية يُقرّر الله مَنْ سينتصر ، ولأنّ الله خيرٌ مُطلَق ، فسينتصر . وتلك هي الحياة . نعرف الفرح بالحزن . والنّعيم بالألم . لكنّني هنا أفتقد الألم ، ولهذا لا أشعر بالنّعيم . وهنا أفتقد الشّرّ ولهذا لا أشعر بالخير . المُطلَق بالنّسبة للإنسان جحيمٌ لا يُمكن تصوّره ، وهذا ما أشعرُ بأنّني مُقبِلٌ نحوه إلاّ إذا أعطاني الله عقلاً غير هذا الّذي ركّبه داخل تجويف جمجمتي في الفانية ؛ فإنّني والله بهذا العقل في هذه الدّار الباقية أشقى!!

هيّأتُ لنفسي حَمّامًا جمعتُ فيه ما قرأتُ عن الحمّامات في العصور كلّها ، أخذتُ من العصر الرّوماني ، والعبّاسي ، والأندلسي ،

والعثمانيّ ، والحديث ، والّذي سيُصبح في الخيال حديثًا في المُستقبَل القريب أو البعيد سواء ، وركّبتُ من كلّ هذه العصور حمّامي المُتخيّل ، ونزلتُ تحته ، «الماء أصلُ الحياة» ، سمعتُ هذه العبارة من قبلُ ، ربّما قالها أرسطو بطريقة مختلفة : «إنّ كلّ شيءٍ كان في الأصل ماءً» . المسكين مُخطِئ . ربّما لو صيغت العبارة على النّحو الآتي : «من الماء وُجدت الحياة» لكانتْ صوابًا . الماء من ثماني جهات في هذا الحمّام يتراشّ ذرذرةً ، أردتُ أنْ يكون كلّ رذاذٍ بلونٍ لم يوجد في ألوان الدّنيا فكان . الصّابون ينبضُ من تحتِ قدَمَيّ لمجرّد أنْ أفكّر فيه ، أنابيب غير مرئيّة تتدفّق بالسّائل المُطهّر رفيقةً على مستويات جسدي ، بجغرافيّته الّتي كانتْ قد بُرمِجَتْ مُسبقًا . أيادٍ غير مرئيّة أنعمُ من ريش النّعام تتسلّل إلى أعضائي فتدلكُ كلّ بوصةٍ فيها . عطورٌ تفوح من خلايا الهواء ، وقوارير من الجهات الأربع تحنو عليّ لم ترَ بلقيس مثلها أيّام عظمتها حينَ مشتْ على الماء . ثُمّ مناشف تُنعشُ الرّوح التّائقة ، وهكذا أُصاغ من جديد وأخرج . كان كلّ شيءٍ أسطوريًا في الأداء حتّى إنّني بكيتُ!!! بكيتُ وأنا أنظر إلى نفسي بعدَ هذا الحَمّام ؛ أهذا ما أريدُه؟!

كان هذا في قريتنا ، الّتي تُعانق جبالها السّحب العالية لأنّها اعتادتْ على الأحاديث العالية ، كانت العاصفة الثّلجية في أوائل كانون الثّاني في اللّيل قد أخفتْ نفسَها ، وانتظرتْ على أبواب القرية تحفّزًا لبدء اليوم الدّراسي للأطفال . وكنتُ حديثَ عهد بالمدرسة ولهذا أحبّها ، فالحبّ إذا طال به العهد بهت . استيقظتُ مُبكّرًا جدًا ، وتهيّأتُ رغم البرد الشّديد في الغرفة الّتي خُيّل إليّ أنّ جدرانها قد تحولت إلى صفائح ثلجيّة للخروج إلى المدرسة ، كان يومَ امتحانٍ ،

والمدرسة تقع في قمّة الجبل ، وبيتُنا كان في السّفح ، وعليّ أنْ أمشي أكثر من تسع عشرة دقيقة من أجل أنْ أصل إليها ، لفّتْ أمّي الطّاقيّة على رأسي ، وأحكمتْ إغلاق أزرارها عند فمي ، وربّتت على ظهري وهي تفتح الباب ، وتدفعني برفق للخروج ، وتُمطرني بالدّعوات . زعقت الرّيح أوّل ما خرجتُ ، صفعت ما تبقّى من ظاهر وجهي صفعةً كدتُ أخرّ على إثرها على الأرض ، أهو انتقام؟! أكانت هذه العاصفة القاسية تنتظر خروجي؟! ثُمّ راحتْ تزْمجر في أذنيّ ، ولم يكنْ من مهرب إلا أنْ أركضَ إلى الأمام ، وكان الأمام الفاصل بيني وبين المدرسة يُساوي عمرًا طويلاً جِداً من العذاب والألم والخوف والبرد والقسوة . كان الثّلج قد بدأ يُغطّي الطّريق ، وكان على الأطفال الذّاهبين كالنّوارس إلى مدارسهم أنْ يتحسّسوا وَقْع أقدامهم لئلاّ يغوصوا أو يسقطوا ، وأنا عليّ أنْ أمشي بحذر وببطء ، وعليّ أنْ أصل بسرعةٍ قبل أنْ تبتلعني العاصفة . كانتْ معادلةً صعبةً ، ولكنّ التّراجع مستحيل ، وإنْ كان التقدّم أكثر استحالةً . وعصفتْ ريحٌ هبّتْ بشكلٍ مفاجئٍ أحسستُ أنّها رفعتْني عن الأرضِ لشدّتها ، وصكّتْ وجهي بحبّات البَرَد الّتي رافقَتْها ، فتزجّج لحمُ خَدّي ، حتّى أحسستُ لو أنّ أحداً لَمَسَهما لتكسّرا بين يديه كالزّجاج . ومضيتُ . ورحتُ أعدّ خطواتي لأنسى ما أنا فيه ، وأركّز في العدّ لأ نشغل عن البرد الّذي يخترق رتلاً من الألبسة الّتي راكمتْها أمّي عليّ ، فيسخر منها ، ويمضي غيرَ عابئٍ إلى عِظامي فيحزّها بسكّين حادّة أشعر بألمها بشكلٍ كامل . وأسمع طقطقةً في أسفل قدميّ ، ولا أدري إنْ كان هو صوتَ تكسّرهما أم صوتَ تكسّر طبقات الثّلج تحتهما! ومضيتُ . كنتُ أحفظُ حتّى ذلك اليوم الاستثنائيّ قصيدتَين ، بسبعةٍ وخمسينَ بيتًا ، ففكّرتُ أنّ التّرنّم

بهما قد يُخفّف وطأة البرد الذّابح ، ويُشعل شيئًا في رِئَتَيَّ البارِدتَين ، وهتفتُ بأوّل بيتٍ حفظتُه في حياتي :

أيّهــا السّــائر بينَ الغيــهَب
عــاثِرَ الخَطْو جَلِيَّ التّعب

وبدلَ أنْ يُعينني ، فاقمَ ما أنا فيه من بُؤس ، فشعرتُ بأنَّ طريقي لا نهـايةَ لهـا ، وأنَّ خطواتي على الثّلج - الّذي راح يتـراكم أكـثـر - عاثرة ، وأنَّ التّعب قد هَدَّ كلَّ خليّةٍ فِيَّ . وكِدتُ أقع على الأرض ، أو أوقع نفسي عليها ، وأستسلم ، وأنظر في السّماء لكي ترحمني ، ولكنَّ الرّحمة كانتْ تحلّق بعيدًا ، وهتفتُ بالبيت الثّاني :

ضـارِبًا في لُـجَّـةٍ غـامـضـة
من مُـحـيطِ العـالَم المُضطربِ

واضطربتُ على الحقيقة ، وانثنتْ رُكبتاي ، وانحلَّ العَصَب الّذي يُمسكهمـا ، وهويتُ ككيسٍ من ورقٍ ، وارتطم وجهي بالثّلج ، وغاص أنفي فيـه ، وبدأتُ أفقـد الوعي . وهدأ كلّ شيء . كـان الثّلج لا يزال يتساقط ، وفي الهدوء الّذي لا يمكن أنْ تسمعه في أيّ مكانٍ آخر إلاّ هنا وعلى هذه القـمّـة وفي هذا النّدف الثّلجيّ المُتواصل ، تناهى إلى سمعي أصواتُ زمـلاء آخرين لي ، كانتْ أصواتُهم تتداخل كتداخل الصّدى ، صوتُ ارتطام حجرٍ في بئر عميقة ، أو صوتُ ملاكٍ يهبطُ من السّمـاء . وامتـدّتْ يدٌ إليّ ، وأنهضَتْني ، وحُملتُ إلى البيت ، كأنّني سمعتُ الّذي يحملني يقـول : «لماذا خـرجتَ في هذا الجوّ المجنون يا بُنيّ ، فليذهب التّعليم إلى الجحيم» . في الطّريق كانت ندفات الثّلج لا زالتْ تتـهاوى من السّمـاء ، ولكنّ شمسًا خجولة بدأتْ تشقّ بعضَ

السّحب ، وأنا ظَللتُ أردّد الأبيات لأتغلّب على مخاوفي ، وكنتُ لا أزال أغنّي :

أنتَ لا تعــــرفُ مَنْ أنتَ ولمْ

تقــرأ التّــاريخَ يا ابن العَــرَبِ

وصحوتُ من الذّكرى على وردةٍ ناعمةٍ سقطتْ على خدّي . ونظرتُ حولي ، فوجدتُ كلّ شيءٍ يبتسمُ لي ، لكنّني لم أفهم هذه الابتِسامة ، ولم أشعر بدفئِها ، وزادتْني مرارة!

(١٥)
الفِكرةُ ثمرةُ إدامة النّظر

نهضتُ من مكاني . فتحتُ باب القصر الّذي أعيشُ فيه ، القصر مثلما قرأتُ في الفانية ، من لؤلؤةٍ ضخمة ، في تجويفها كلّ لازوردٍ يُبهج النّاظرين ، مراياه مصقولة حتّى إنّها لتتواطأ معك فتُظهركَ فيها أجملَ ممّا أنتَ عليه ، وقناديله تسقط من الأسقف معلّقة في الفضاء دون أنْ ترى شيئًا يُمسكها ، كأنّها نجومٌ سابحةٌ في سماء . والأبواب من بلّور ، تنغلق أو تنفتح بحاسّة التّفكير ، تعرفُ ما تريد قبل أنْ تريد ، كلّ شيءٍ هنا يسبقك بخطوةٍ أو بخطواتٍ ، في الحقيقة هذا أمرٌ مُزعج . فأنا أغيّر رأيي في اللّحظة أكثر من عشر مرّات ، لماذا على الأشياء أنْ تمتثل لرغبتي الأولى ، الرّغبة الأولى غالبًا ما تكون غير ناضجة ، ومتهوّرة ، وحمقاء ، ربّما أحتاج لكي أنضج أنْ تُنفّذ لي هذه الأشياء المُترفة هنا الرّغبة العاشرة . «الفِكرةُ ثمرةُ إدامة النّظر» أظنّ أنّ النّفّري هو مَنْ قال ذلك ، لو جاء هنا لشعر بالحُمق هو الآخر ، فالفكرة هنا بلا ثمرة ، إنّها تحدث في اللّحظة والتّوّ والآن . «أريدُ أنْ أُنضج أفكاري على نار هادئة» لا أدري مَنْ قال ذلك ، قد يكون أنا ، لكنّه على كلّ الأحوال أحمق ، فلا نار هادئة ، ولا شيءَ يُطبَخ عليها ، هذا ما ينقصني . أنْ أشعر ببشريّتي ، أنْ أشعر بأناي . أنْ أجدَ من يُشبهني ، كلّ شيءٍ هنا غريبٌ عنّي ، يسبح في زمانٍ غير زماني ، هل حدث خطأ ما في تداخل الأزمان؟ هل يُمكن أنْ يكون

هذا الخطأ هو الَّذي ساقَنَي إلى هنا قبل أنْ يُهيِّئني لمثل هذا الزَمان ، فأحدث ذلك الخطأ هذا الانفصال بين المحسوسات الَّذي أشعر به بحدَّة؟ محتملٌ جدًا . وواضحٌ أنّني لم أُطبَخ على نارٍ هادئةٍ من أجلِ أنْ يُصارَ بي إلى هذا العالَم الغريب ، إذًا لا بُدّ من العودة!! العودة؟! ولكنِ العودة إلى ماذا؟ ولا شيء مضى قد يعود ، هراء . هأنذا عُدتُ . كلّ شيءٍ يُمكن أنْ يعود بمنطق هذا العالَم الَّذي أعيشه ، أنا عدتُ من قبري ، الثّمار الَّتي آكلها سرعان ما تعود كأنّ أحدًا لم يأخذ منها شيئًا ، أنا بأفكاري أعود إلى ذكرياتٍ سحيقةٍ سحيقةٍ كانتْ تحدث معي في الفانية . ولكنْ مع كلّ ذلك ما زال هناك شيءٌ ينقصني!

الجوع هنا ليس كجوع الفانية . أمرٌ آخر مزعج . الموادّ الّتي يُمكن أنْ تُطبَخ لك شهيّة إلى درجة الملل . الطّيور المُحمّرة ، والصّدور المُقمّرة ، واللّحوم المشويّة ، «والأوساط المحشوّة ، والأكواب المملوّة ، والأنقال المُعدّدة ، والفُرُش المُنضّدة ، والأنوار المُجوّدة» . ثُمّ كلّ شيءٍ في المائدة يُشعِر بالتّمام والنّقصان في الوقتِ ذاته ، لا أشهى من المنظر والرّائحة ، ولكنْ لا شيءَ في داخلي يدفعني إلى أنْ أبدأ ، كلّ شيءٍ قد أُعِدّ للأكل على أتمّ حال وأفضل وجه ، ولكنْ لا شهيّة لديّ . نظرتُ حولي فوجدتُني وحيدًا ، تذكّرتُ حاتم الطّائيّ الّذي ذهب كرمُه في العَرَبِ مثلاً ، المسكين هو الآخَر لن يجد لكرمه في هذه الدّار معنًى ، ولربّما سيسخرون منه ومن قوله :

إذا ما صَنَعْتِ الزّادَ فَالْتَمِسي لَهُ
أكيلاً ؛ فإنّي لستُ آكلُهُ وَحْدِي
أخًا طارِقًا ، أو جارَ بيت فإنّني
أخافُ مَذمّاتِ الأحاديث من بَعْدِي

والتمستُ أحدًا ليأكله معي فما وجدتُ غير الفراغ ، وتمنّيتُ أنْ أسمع أخًا يطرق الباب عليّ في هذه اللّؤلؤة المُجوّفة ، أو جارًا إلى جانبي في جوف لؤلؤةٍ من اللئالي المُجوّفة الّتي تنتشر في كلّ مكان ، فما سمعتُ شيئًا ولا رأيتُ أحدًا ؛ وهتفتُ وسطَ هذا النّعيم : «يا لي من بائس!» .

وسيقتْ إليّ يومًا وراء يوم أطايب الطّعام ، وأشهى الموائد ، فتاقتْ نفسي إلى إنسيّ يأكل مثلي ، وتُقتُ إلى طعام الفانية ، تُقْتُ إلى صحنٍ من الفول مع حبّاتٍ من الفلافل من مطعم هاشم في وسط البلد . إلى قلاية بندورة مع فليفلة من مطعم قلايات على أحد الأرصفة المهترئة ، إلى خُبز طابون ساخنٍ تتصاعد الأدخنة الكثيفة من مدخنته في يوم صقيعيّ باردٍ ، إلى ضُمّة جرجير مع صحن زيت بلديّ . إلى شرائح من البندورة والفجل . . . إلى أي شيء غير هذه اللّحوم التي تخنقني رائحة شوائها في كل يوم ، وغير هذه الأطباق الّتي يُصرّ طبّاخو الطّعام الّذين لا يُرَون على تحضيرها في كلّ ساعة!!

وتذكّرتُ أحاديثي في الفانية مع أبي ، وتمنّيتُ لو يحضُرُ إلى هنا ساعةً واحدة . كلّ الشّجرات الّتي مررتُ بها في البرزخ لم تقدّمه لي مرّة واحدة . كلّها تجاهلتْني وتجاهلتْه ، كأنّها جميعها متواطئةٌ مع الحنين لكي تذبحني . اليوم يا أبي كم أفتقدك ، كم أحنّ إلى جلسةٍ ولو خاطفةٍ معك . أيّها القلب الّذي عرفَ كيفَ يصنعني : أينَ أنتَ اليوم؟ أين وجهك النورانيّ؟ أينَ صوتُك ، صوتُك الملائكيّ الّذي ينساب في روحي كما ينساب الماء في التّرابَ الطّريّ ، فيُحيي الأمل ، ويزرع الورد والياسمين؟ أين عيناك ، سافرَتا في البعيد ولم تَعُودا ، كانتا منارتَي في الظّلمات ، الظّلمات اليوم تحيطُ بي من كلّ جانب رغم الشّموس الّتي

تُطلّ من بين أغصان كلّ شجرةٍ ، وتظهر من خلف كلّ جبلٍ . وأنا وحيدٌ ، ومعذّبٌ وبائس . ويأكل الصّقيع قلبي ، أبحثُ عن يدَيك الحانيتَين لتُدفئناه ، لتُعيدا إليه حياةً طال الرّحيل عنها إلى هاوية لا أدري متى تنتهي . أسقط ، ولا أحد يرفعني . أتعثّر ولا أحد يُقيلني . أبكي ولا أحد يمسح دموعي . وأنهار ولا أحد يقف إلى جانبي ، أصرخ ولا أحدَ يستجيب ؛ ها أنا يا أبي ، كلّ هذه القرون أنتظركَ ؛ أفلا تأتي؟ أحنّ إلى جلساتنا في الفانية ، أحنّ إلى الكتب الّتي كُنّا نقرأ منها معًا ، أحنّ إلى المسائل الّتي كُنّا نتجادل حولها معًا ، أحنّ إلى القصائد الّتي كُنّا نُنشِدها معًا ، أحنّ إلى الآيات الّتي كُنّا نتلوها معًا ، أحنّ إلى الأمور الصّغيرة البسيطة الّتي كُنّا نضحكُ عليها معًا . . . يا أبي ؛ هناك الكثير من الكلام لأقوله لك ، وهناك الكثير من الدّموع لأذرفها على كتفَيك ؛ فهل تراني ألقاكَ يومًا؟!!

هنا لا أمراض . كيفَ يمكن أنْ تُعاشَ الحياةُ بلا أمراض؟! إنّه لأمرٌ لا يحتمله العقلُ حقًا ، أريد أنْ أشعر بجَمال سُعالي إذا أصبت بالرّشاح ، أريد أنْ أستمع إلى هذا الصّوت المبحوح الّذي أفتقده كثيرًا ، أريدُ أنْ أشعر بألم في معدتي جرّاء طعام بائتٍ أو مكشوف كنتُ قد أكلتُه ، أريدُ أنْ أرى قطرات دم تدرج على أُصبعي ، وأستمتع بمنظرها وهي تنزّ من الجرح جرّاء انكسار زُجاجة كنتُ أحملها في يدي لسببٍ أو بدون سبب! إنّ هذه العافية المُطلقة الّتي تملأ عليّ حياتي لتصيبني بالقلق حقًا .

الأمن المُطلَق خوفٌ مُطلَق . لأنّه صامتٌ فلا تقدر أنْ تتوقّع ماذا يختبئ خلفه . مَنْ يكسر هذا الأمن والهدوء والسّلام الّذي لا يُصدّق هنا؟! أريدُ أنْ أخافَ من منظر كلبٍ يظهر لي فجأةً في الطريق وأنا عائدٌ

في الليل إلى مكتبتي . أريدُ أنْ أقلق بشأن الرّواية الّتي عليّ أنْ أنهي الفصل الأخير فيها قبل أنْ يطلع الصّباح . أريدُ أنْ أنعسَ فوقَ كتاب ، أن أنام على صفحاته لئلاّ يُهاجمني النّور وأنا لم أتمّ قراءة ما أردتُ منه في العتمة . أريد أنْ أهرم ؛ أنْ يبيضّ فَوْداي ، أنْ أصبح مثل يوسف بن تاشفين يُقاتل في الثّمانين ، ويكتب فصلاً جديدًا لا يُمحى في تاريخ الأندلس ، أريد أن أحمل السّيف مثل أسد بن الفُرات وقد قاربتُ المئة ، أريد أن أذهبَ إلى أبعدِ أرضٍ في أقصى العمر مثل أبي أيّوب الأنصاري . أريدُ أنْ أنفجر . أنْ أُفجّر . أنْ أغيّر . أنْ أتغيّر . أن أشعر بالبدايات والنّهايات ، لا أنْ يكون كلّ شيءٍ ككلّ شيء ، البداية كالنّهاية ، لا زمنَ يفصل بينهما ، اللّحظة كالّتي تسبقها وكتلك الّتي تليها . إنّ هذه الرّتابة تقتلني . تحوّلني إلى كائنٍ أخرق . وبلا شكّ تجعلني معلّقًا كأنشوطةٍ بين الموت والحياة ، وتصلبني ككلمةٍ فوقَ عمودٍ يرتفع بين ضِفّتَي المعنى واللامعنى!!

في الفانية ، كان لي صديقٌ عندما كنّا طلاّبًا في كلّيّة الهندسة . كانتْ أيّام الامتحانات تُصيبنا بالدّوار ، فيأتي صديقي هذا إليّ في ساعةٍ متأخّرة ، وقد حمل اللّيل كلّ ثيابه وغادر ، فنخرج إلى مقهى في شارع الجامعة ، ندخل كغريبَين ، لا كأصدقاء ، لأنّ دوار الدّراسة يكون في تلك اللّحظات ما يزال فَعّالاً . نجلس إلى طاولةٍ في زاويةٍ مُعتمة . نثرثر . لا موضوع حقيقيّاً نفتحه . فقط نثرثر . نثرثر من أجل أنْ نتخلّص من أعراض الدُّوار . وأحيانًا نصمت . نصمت صمتَ القبور ، ولا ننطق بكلمة واحدة . بعضُ المواقف الصّعبة تُشفَى بالصّمت . نشربُ قهوةً . قهوةً بلا سُكّر . ننظر إلى الفنجانَين بشكلٍ غريبٍ كأنّنا نراهما لأوّل مرّة ، ونُطيل النّظر كأنّ فيهما سِرّاً ؛ مَنْ يرانا نتأمّل كلّ هذا

التّأمّل يظنّ أنّنا مؤهّلان لأنْ نصبح فلاسفة ، ولكنّنا في الحقيقة كُنّا مؤهّلَين لدخول العصفوريّة على وجهٍ أدقّ . وحينَ نعود نندم على الزّمن الّذي أضعناه بالهُراء ، وبالكلام التّافه ، وبالنّظرات البلهاء!! أنا اليوم أشتاق في كلّ هذا النّعيم إلى ذلك الهراء ، وتلك التفاهة ، وأحتاج إلى شيءٍ من تلك البلاهة اللّذيذة لأشعر بأنّني حيّ!!

إنّه الجسر المُعلّق المئة الّذي أتدلّى في محفّة من تحته ، والماء يجري سلسلاً في النّهر الفضيّ . الهواء الّذي لم أعدْ أحسّ إنْ كان مُنعشًا أم لا؟ لقد كان كذلك أوّل وصولي إلى هنا؟ اليوم لم أعدْ أُحسّ بدرجته ؛ الاعتِياد قتلَ الإحساس . أتخيّل كلماتٍ مكتوبةً على خشب النّهر ، الخشب الّذي يُدهشني موجودٌ دومًا ، الخشب البنّي الّذي تفوح منه رائحةُ التّاريخ . أقرأ ، لكنّها تَغيم . أستجلبُ ما حفظتُ لكنّ الكلمات تتساقط كدررٍ في النّهر . تنطبع في ذاكرتي صورٌ من الحرب العالميّة الأولى والثّانيةِ ، بالطّبع الأولى والثّانية بالنّسبة للبشر الّذين عاشوا في زماني أو عشتُ في زمانهم . أمّا بالنّسبة للبشريّة بأكملها ، فأعتقد أنّ في الأمر خُدعةً واستغفالاً ، إذ إنّها ربّما تكون الحرب العالميّة العشرين أو الثلاثين ، إذا ما عددنا حروبًا عالميّة حدثتْ حتّى في العهد الوسيط ، وفي عصر انبلاج النّور المحمّدي ، أو أبعدَ منه قليلاً في عصر الرّومان والأباطرة . يكفي أنْ نتذكّر حروب نيرون وفاسبازيان وقسطنطين . الحرب تستجلب السّلم ، والسّلم تستدعي الحرب ، وهما يتبادلان الصّعود والهُبوط كبندول ساعةٍ لا تتوقّف أبدًا . من هنا ، من هذا الهدوء المخيّم على كلّ شيءٍ ، تطوف في ذاكرتي كلّ الحروب الّتي أُشعلت في التّاريخ ، تمرّ ببالي صُور الضّحايا ، الأجساد المُمزّقة ، الأوصال المُقطّعة ، والعيون المَفقوءة ، والجلود المَسلوخة ، والأشلاء

المبعثرة ، واستغاثات المعذّبين ، والسّيوف المشرعة في كلّ حين ، والمدافع المنصوبة فوق كلّ تلة ، والدّبّابات المُوجّهة إلى كلّ جبهة ، والصّواريخ العابرة إلى كلّ نار . في الحرب يخسر الجميع ولا يربح أحدٌ ؛ في الحرب حينَ تنشب يكون هناك أبطال من كلا الجانبَين ، ومنهزمون من كلا الجانبين ، أناسٌ فرّوا من هنا ، وأناسٌ فرّوا من هناك في الجانب الآخر ، ومع ذلك يكتب التّاريخ أنّ أحدَ الفريقَين قد انتصر ، ما معنى النّصر إذا كان كلّ جانبٍ يسعى إلى أنْ يراكم الجَماجم بعضَها فوق بعضٍ في جبلٍ يعلو ويعلو ، ويكون منظره أشهى في عَين كلّ فريقٍ يُقاتِل الفريق الآخَر؟! ما معنى النّصر إذا كان القتل يستحرّ في الطّرفَينِ ولا يستثني أحدا؟! ما معنى النّصر إذا كانتْ عيون الثّكالى ستنزّ دمًا من الأمّهات في الطّرفيَن؟ أكان لِزامًا على الإنسان الأوّل العاري والجائع والبائس والوحيد والّذي لم يكنْ في الأرض سِواه أنْ يقاتل أخاه الإنسان الّذي جاء منه؟ من أينَ جاءت الحرب ، ولم يكن في الأرض حينَ هبطَ الإنسانُ فوقها ما يُحاربه أو يُحارب من أجله؟! أكان لِزامًا أنْ يكون هناك غالبٌ ومغلوب ، ومَن المغلوب ومَن الغالب؟ ومَنْ يستطيع أنْ يُميّز بينهما ، إذا كانت الحرب غولاً لا ترحمُ أحدًا ، وعلى أنيابها تقطر دماء الضّحايا من الفريقَين؟ ومن الفريقان؟ أَخَوان؟ وعلامَ تقاتَلا؟ على أرضٍ كان يُمكن أنْ تتّسع لهما معًا . على ثمرةٍ كان يُمكن أنْ يأكلا منها معًا . على ماءٍ كان يُمكن أنْ يشربا منه معًا . على سُلطة كان يُمكن أنْ يجلسا على كرسيّها بالتّناوب . على فِكرة كان الرّأي فيها يتّسع لهما معًا . على أيّ شيء؟ على الخُرء الّذي سيلطّخ أفواههما معًا!! وعلى الدّود الّذي سيسرح في محاجرهما ، ويُعشّش في عِظامهم النّخرة حينَ يُوارَون في الثّرى؟ ومَن يعترف

بالهزيمة حتّى ولو كان قد سُحِقَ سحقًا ، وطحنته الكريهة طحنًا؟!
وعادَني قول فروة بن مُسَيك المرادي :

فإنْ نَهزِمْ فَهزّامُون قِدْمًا
وإنْ نُهزَمْ فغيرُ مُهزَمينا
وما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ، ولكنْ
مَنايانا ودُولةُ آخَرينا

حروب وحروب وحروب . ضحايا وضحايا وضحايا . آهات الثكالى ، صرخات الموجوعين ، وبُكاء المنفيّين . . . واليوم؟! أينَ ذهبَ كلّ هؤلاء . . . ماذا حلّ بهم ، ماذا حلّ بقاتليهم؟ هل أخذ الثّأر موضعه من عنق القاتل؟ هل كان ثمّة قَصاص؟ أمْ كُرّم القَتَلة على ما فعلوا؟! هل جفّتْ مآقي الأمّهات على أولادهنّ الّذين سُخّروا للحرب، وأُخذوا من بين أحضانهنّ وهم ما زالوا رُضّعًا؟ أو على بناتهنّ اللّواتي استُخدمن للتّرفيه عن الجيوش ، أو اغتُصبن ، أو رُميتْ أجسادهنّ بعد نهشها في النّيران ، أو ألقيتْ في المُستنقعات؟ والبعوض والذّباب والأفاعي والنّمور والكلاب والوحوش الهائمة هل أخذتْ بحقّها من كلّ هؤلاء المجرمين أم لا؟ أينَ كلّ هؤلاء اليوم؟!!

(١٦)

الوحدة أشدّ أنواع البؤس

نمتُ. في النّوم انفصال عن السّأم، وهروبٌ من الملل. في النّوم أمل. أملٌ بأنّ نهارًا جديدًا سيحمل تغيُّرًا جديدًا. وفي النّوم هروب. وفي النّوم حلم. والأحلام أحيانًا دثار اليائس.

رفعتُ يدَيّ أمام عينَيّ، فَرَدْتُهما، قلبتُهما، تأمّلتُهما طويلاً؛ كأنّني أراهما لأوّل مرّة، أهُما لي؟ ضحكتُ كأنّني أتهيّأ للبُكاء. لمستُ بهما الزّجاج، أهما حقيقيّتان؟ أكان الزّجاجُ والماء، والخشب، والبلّور، والضّوء، والنّهار، واللّيل، والكلام، والنّفس،.. أكان كلّ ذلك حقيقيًّا؟ يبدو أنّني في طريقي إلى الجنون، اشتعل فِيّ الشّكّ، لم أعدْ أوقنُ بحقيقة العالَم الّذي أعيشُ فيه، ولا بحقيقة وجودي. أنشبتُ أسناني في لحمي وعضضتُ عليه بقوّة، فصرختُ، إنّه الألم، إنّها الحقيقة واللاّحقيقة إذًا؟ لو كانت هذه الجنّة فلا معنى للألم فيها، وإذا لم تكنْ فأنا أحلم، وليسَ كلّ ما أرى إلاّ جزءًا من حلم؛ لكنّه حلمٌ من نوع خاصّ. إنّني أرى، وألمس، وآكل، وأشربُ، وأتنزّه، وأسير على الأرض المرصوفة بالجُمان، وأرفع الأحجار المَصوغة من الذّهب، لأبحثَ عن الحقيقة تحتها، الحقيقة واللاّحقيقة كلاهما مريح، الّذي يضغط على دِماغك بالمِخرز هو المنزلة بين المنزلتَين، الشّيء الّذي يقف بين الحقيقة واللاحقيقة، هذا الّذي لا يُمكن أنْ يوصَف. ولع في

ذهني قول هتلر: «الحقيقة ليستْ مهمّة؛ الانتِصار هو المهمّ». فأيّ انتصار في حربِ النّفس مع الاعتِياد!! وحضر ديكارت، وتذكّرتُ ما كنتُ قد قرأته في الفانية من قوله: «إنّنا نتصوّر في الحُلم أشياء نحسبها إذ ذاك حقيقةً، فإذا استيقظنا تبدّد الحلم، وتبيّن لنا أنّ ما رأيناه أثناء النّوم لم يكنْ من الحقيقة في شيءٍ، ومعنى هذا أنّ كثيرًا من الصُّور والأفكار الّتي تتوارَد أمامنا في اليقظة تَرِدُ علينا بنفسِها أثناء النّوم دون أنْ تكون إذ ذاك حقيقةً، وإذًا ما الّذي يمنع أنْ تكون تصوّراتنا في اليقظة مثل تصوّراتنا في النّوم، كلّها خيالات وأوهام؟!».

لا أحدَ يُمكن أنْ يوقظني من الحلم مثل تحقّق الفِكرة. فكرة البحث عن بشريٍّ آخَر، وأيقنتُ أنّه إذا وجدتُ بشريًّا مِثلي، فإنّني حينئذٍ سأجدُ الحقيقة، أو أنّني سأتقاسَم معه الوَهم، وإذا توزّع الوَهم على اثنين صار نصفَ وهم، وصارَ أقربَ إلى الحقيقة، فماذا لو وجدتُ عددًا أكبر من البشر، ووزّعتُ الوَهم بالتّساوي على كلّ واحدٍ منهم!! وهتفتُ: «إنّني سأكون أقربَ إلى الحقيقة كلّما وجدتُ عددًا أكبر من البشر». وعليه فقد قرّرتُ البحثَ عنهم بأيّ وسيلةٍ، وبالفعل بدأتْ رحلة البحثِ عن البشر.

كانت ابنتي قد سقطتْ صباح هذا اليوم، وكانتْ سقطتها قد أحدثتْ جرحًا عميقًا في جبهتها، هُرِعتُ على صراخها فرأيتُ الدّم يثعب، ضغطتُ على الجُرح بخرقة نظيفة لكي أوقفَ النّزيف، حملتُها بين يدَيّ وأنا أرتجفُ، وركضتُ بها أنا وأمّها إلى السّيّارة، كان صراخها لا يزال يمزّق أعماقي، انشطر قلبي إلى نِصفَين، وأنا أنظر إليها في مرآة السّيّارة الأماميّة وهي تتلوّى من الوجع، كُنّا نحاول أنْ نفعل لها شيئًا يُخفّف لها من ألمها، ولكنّنا بدَونا أبلهَين لا يقدران على شيء.

سقطتْ على خدّي بعضُ الدّموع السّاخنة ، جاهدتُ لأخفيها من أجل أكذوبة أنّ الرّجال لا يبكون ، لكنّ وجع الحبيبة هو وجع الحبيب ، هذا التّمازج بين قلبَين حينَ يصيران قلبًا واحدًا ، يتقاسمان سرّ العشق ، هو شيءٌ مِمّا يُحسّ لا مِمّا يُقال . في المستشفى أمر لها الطّبيب بعمليّة عاجلة ليخيطَ الجُرح . وافقتُ على الفور ، فأنْ تُشفَى حبيبتي لا يحتاج إلى رأي . رأى الطّبيب أنْ الجرح ليس خطيرًا وبالتّالي فهي لا تحتاج إلى مُخدّر ، وبإمكانه أنْ يخيطَ الجرح من دونه ، ولا أدري لماذا وافقت!! ما إنْ رأيتُ الإبرة في يده وهو يُقرّبها من جبينها الطّفوليّ الرّقيق النّاصع البياض حتّى ارتعشتُ ، وما إنْ اقترب أكثر حتّى شعرتُ أنّ روحي تختنق ، ثُمّ ما إنْ غاص رأس الإبرة المُدبّب المُرهَف في جبينها حتّى وضعتُ يدي على فمي من أجل ألاّ أصرخَ أنا من الألم ، فلمّا وخزها الألم نظرتْ عيناها إليّ ، إلى أبيها الّذي يعني كلّ شيءٍ لها ، فالتقتْ عيناها بعينَيّ ، نظرةً لا يُمكن أنْ أنساها ، ولا أنْ أفسّرها ، شيءٌ يجمع بين الاستغاثة ، الاستجداء ، الحنوّ الذّابح ، والرّجاء القاتل ؛ كانت عيناها تقولان لي : كيفَ تتركني يا أبي الحبيب بين يدَي هذا الوحش ، ليُسبّب لي كلّ هذا الألم وأنتَ تسمع وترى؟! وشعرتُ بالعَجز ، وشعرتُ أنّني أتخلّى عن حبيبتي رغمًا عنّي ، أعلى أمل الشّفاء يُمكن أنْ نتجرّع كلّ هذا السّمّ؟! فلمّا غاصتِ الإبرة صرختْ هِي فانخلع قلبي ، فلمّا أدار الإبرة وارتفع الجِلد مع ارتفاع الإبرة ليُتمّ القطبة كادَ يُغمَى عليّ ، فسألتُه بالله أنْ يترفّق بنا ، لكنّه كان كمن لم يسمعْني استمرّ في عمله مُنهمكًا في تخييط الجرح بلا رَحمة ، وهي تصرخ ، وأنا أصرخ ، حتّى إذا أتمّ ذلك ، هويتُ على جبينها وأنا أبكي ، أحسستُ بحرارة الوَجد ، شيءٌ ما فيك يتغيّر ،

شيءٌ ما يجعلك إنسانًا آخر ، إنّها الرّحمة ، سالتْ دموعَينا على وجهها ، اختلطا كأنّ مصدرهما واحدٌ ، قلبٌ واحدٌ ، وجعٌ واحدٌ . مسحتُها ، إنّها حقيقيّة . . . حقيقيّة على أظهر ما تكون الحقيقة . أنا اليوم . هنا في هذا البرزخ الّذي لا يبدو أنّه سينتهي قريبًا أريدُ أنْ أرى عيونًا أنظر فيها وتنظر فِيّ ، أريدُ أنْ أنظر فيها وأضحك أو أبكي أو أصيح أو أفعل أيّ شيءٍ بسببهما ، لا يهمّ ، المهمّ أن تنهضَ فِيّ مشاعر حقيقيّة . أريدُ أنْ ألمسَ يدًا بشريّة ، ولو كانتا يدَي جَدّي المُجعدَّتَين والمليئتَين بالغُضون ، والمُعرّقتَين ، والنّافرتَين لأشعر أنّني بشريّ ، لا تمثال من الشّمع ، وُهِب بقدرةٍ إلهيّة المشي والحركة من مكانٍ إلى آخر ، أريدُ أنْ أمسح دموعًا حقيقيّة من عينِ أحدهم ، لا أنْ أجمع حبّاتِ اللّؤلؤ الّتي يفوق عددها هنا عدد حبّات الرّمل . ولكنْ هل يُمكن أنْ يتحقّق ذلك يومًا!!

صعدتُ على أعلى قِمّة في البرزخ ، أو الّذي لا زلتُ أظنّها كذلك ، نظرتُ في البعيد ، كان البعيد بعيدًا إلى حدّ العَمى . نظرتُ حولي ، كان كلّ شيءٍ هادِئًا ، ويُنذِر بالعدم ، لا شيءَ هنا حَيّ ما لم يكنْ النّفَسَ الّذي يتردّد في صدره يُشبه النَّفَس الّذي يتردّد في صدرك . كلّ شيءٍ بدا ساكِنًا ، هامِدًا ، رماديًا ، مُحايِدًا ، مُسالمًا ، كأنّ سُكّان هذا البرزخ هم أهلَ الكهف الّذين ناموا ثلاثة قرونَ دون أنْ تتحرّك لهم جارحة ، قبل أنْ يستيقظوا ويجدوا كلّ شيءٍ قد تغيّر . تمنّيتُ أنْ يحدث لي ما حدث لهم ، أنْ أنام كلّ هذه القرون ، وأستيقظ فأجدَ كلّ شيءٍ قد تغيّر . لكنّني تنبّهتُ إلى شيءٍ ، لمع في ذهني فجأةً . لقد استيقظوا من الموت ، وعادوا إلى الحياة من جديد ، ربّما إلى حياةٍ لا تُشبه حياتهم الأولى ، ولكنّها حياة ، وفكّرتُ : هل يُمكن

إيقاظ الموتى ولو إلى حين قبل أنْ تتحوّل هذه الحياة إلى حياة أخرى؟ هل يُمكن أنْ أوقظ عددًا منهم لأعيش معهم ما تبقّى لي من عُمرٍ في البرزخ قبل أنْ يقوم النّاسُ لربّ العالَمين؟! وتذكّرتُ أنّ رغباتي في أغلبها مُستجابة ؛ فلماذا لا تكون رغبةٌ كهذه من ضمنها؟! لكنّها رغبةٌ غريبة ، وإنّ رغبةً صعبةً كهذه ربّما لا يقدر عليها إلاّ بعض الأنبياء ، وعددٌ نادرٌ من البشر الآخرين قد أوتوا هذه الموهبة . لكنْ هل يمكن أنْ أكون أنا واحدًا من هؤلاء البشر النّادرين؟! ودار بخلدي أمرُ الرّيشات التّسع عشرة ، وفكّرتُ لماذا احتفظتُ بها إلى اليوم ، وما زلتُ أودعها في جوف القصر اللّؤلؤيّ في صندوقٍ من العاج المُرصّع بالفيروز ، أتفقّدهنّ كلّ يوم ، وأتأكّد من عددهنّ ، ومن أنّهنّ لم ينقصن ريشةً واحدةً . ما الّذي يُمكّنني أنْ أفعله من خلالهنّ ، وسَرى في خاطري أنّهنّ وسيلتي إلى ما أفكّر فيه ، ولكنّني لم أدر متى على وجه الدّقّة ، ولا كيف!!

نزلتُ من القمّة بائسًا . كلّ شيءٍ من حولي لا ينتمي لي ولا أنتمي له . كلّ شيءٍ لم يُهيّأ لكي أقضي فيه هذه الأيّام الموحشة . وهممتُ أنْ أشتم كلّ شيءٍ . أنْ ألعنَ الأيّام الماضية ، أنْ أبصق في وجه البُؤس الّذي أعيشه؟ أنْ أتمنّى الموت؟! وتوقّفتُ قليلا عند الكلمة الأخيرة : الموت؟! وندّتْ منّي ضحكةٌ مُجلجلة شعرتُ أنّ الجبال من حولي ارتجّتْ لها؟ وأعدتُ الكلمة : الموت؟! وضحكتُ من جديدٍ ، وصرختُ بأعلى صوتي : كيفَ يُمكن أنْ يتمنّى الميّت الموت؟ هل يموت الموت؟ هل للموت روحٌ لكي تخرج؟! هل أنا حَيّ لكي أتمنّى هذا الموت المُشتَهى الّذي صار هنا في هذا الجحيم من المُتشابِهات عزيزَ المنال؟ أيّها الموت الغريب الواضح ، العزيز المبذول ، والصّعب السّهل ، والقريب البعيد ، والكثير القليل ، رِفقًا بهذا الوحيد المسكين ؛ فإنّ القضاء على

البشريّ بالوحدة أصعبُ بكثيرٍ من القضاء عليه بالموت : فكيف إذ اجتمعا عليه معًا!!

وصلتُ إلى قصري قبيل غروب الشّمس ، جلستُ على العتبة قليلاً ، أسندتُ ظهري ورحتُ أفحصُ الأرض بنظراتٍ زائغة . أمسكتُ بعصًا من الخشب المُطعّم بالفِضّة ، رحتُ أحفرُ بها التّراب الزّعفرانيّ : غصتُ في الذّكريات ، من تراب الأرض خُلقنا ، لكنّ هذا التّراب الزّعفرانيّ ليس هو الّذي خُلقنا منه ، ولذلك لا أشعر معه بالألفة . أحنّ إلى ترابي ، إلى الطّين الّذي جُبلتُ منه ، وشعرتُ أنّ ترابًا ما في أرضٍ ما يدعوني إليه ، وأنّ عليّ أنْ أغادر هذا المكان بأقرب وقتٍ وبأيّ ثمنٍ لأنجو . فالبقاء هنا ، يعني الحكم عليّ بالوَحدة والاعتياد والوَحدة . الوحدة أشدّ أنواع البُؤس . وأنا لم أنتقل من الفانية إلى هنا لأعيش بائسًا . لا بُدّ أنّ هناك ما يبعثُ على الفرح في مكانٍ ما ، وأنا موعودٌ به على أيّة حال ، هكذا قال لي البشريّ السّاكن فِيّ . ووقفتُ ، وكسرتُ العَصا على درابزين الدّرجات الثّلاث الّتي في المدخل ، ولوّحتُ بقبضة يدي في الهواء مُغضبًا ، وهتفتُ بعصبيّة كمن يتوعّد أحدًا ، لكنّ هذا الأحد لم يكنْ له أثرٌ أبدًا . ودخلت .

أويتُ إلى سريري في القصر ، قبل أنْ أغفو تقلّبتُ على يميني وتنهّدتُ ، ذبلتْ عيناي كعينَي كلبٍ أجرب ينتظر نهايته ، تقلّبتُ على الجهة الأخرى ، رأيت صندوق الرّيشات العاجيّ ، لمعَ بياضه على ضوء الثّريّا السّاقطة من السقف المُذهبّة ، والّتي تلمع حبّات اللازورد فيها على انعكاس ضوءٍ خافتٍ يدخل من زجاج إحدى النّوافذ . توقّفتْ نظراتي على الصّندوق ، شعرتُ أنّ خلاصي فيه . لكنّني أزحتُ الخاطر من رأسي لكي لا يستبدّ بي السّهر ، وأردتُ أنْ أغفو ، فنمت على ظهري ،

وضعتُ يديّ تحتَ رأسي . أرسلتُ طرفي في السّقف العالي . كان هناك شيءٌ ما يتحرك على سطحه . صارت الحركةُ سريعةً . برزتْ كائنات كثيرة لا يُمكن حصرها ولا حتّى التّنبُّؤ بها ؛ خيولٌ وعرباتٌ قديمة من تلك الّتي كان يتصارع فوقها المُحارِبون في (الكولوسيوم) في روما أيّام مجدها ، بشرٌ كثيرون يعبرون الأرض مُسرعين كأنّهم يهربون من وحوشٍ مُفترسةٍ تلاحقهم . طيورٌ مذعورةٌ تخفق بأجنحتها مُبتعدةً وهي تزعق بصوتٍ حادّ . أفواه مَفغُورة تزأر . عيون جاحظة من الرّعب تسيل . أيادٍ مُلطّخةٍ بالدّم . رماح مُتشابكة . سهام مُتطايرة . رؤوس مُتدحرجة . سجونٌ مُتلاصِقة . وأقدام مَغلولة . وأصفادٌ تصلُ كحيّات . وأناس يتجادلون مع آخرين ويتصايحون . وملأٌ يختصمون . وقُضاة يحكمون . وصيحاتٌ هلع من كلّ الأطراف . وأفواه جائرة . وأناسٌ يموتون من الجوع تَبين تفاصيل أضلاعهم . ريح تهبّ على أشجارٍ عملاقة فتقتلعها . طوفان يكنسُ في طريقه عشرات الآلاف من البشر ، ومثلهم معهم من البيوت والدّواب والصّخور . أمّهاتٌ يحترقنَ وهنّ ممسكاتٌ بأبنائهنّ الرُّضّع في أحضانهنّ . مدافع مجنونة . طائرات سفّاحة . بارجات مُدمّرة . صواريخ باليستيّة . قنابل نوويّة . مقابر جماعيّة . حرائق تلتهم كلّ شيء . . . . كلّ شيءٍ بدا في السّقف واضِحًا . لم يعدْ (كلّ شيءٍ هادئٌ في الميدان الغربيّ) كما قال (إريك ريماك) . ظللتُ جامدًا على ظهري كأنّما ثُبّتتْ أطرافي إلى زوايا السّرير ، لا يتحرّكُ فِيّ شيءٌ سوى عينَيّ ، عينَيّ المرعوبتَين . لم يكنْ فلمًا من أفلام السّينما في الدّنيا . كان ربّما شاشةَ عرضٍ للفانية . كأنّني رأيتُ سؤالاً مُعلّقًا في نهاية هذه الشّاشة الّتي لم تنتهِ من عَرضِها الغرائبيّ إلاّ عند صياح الدّيكة ، كان السّؤال يقول : أهذه الحياة الّتي تتمنّى أن تعود إليها؟!

انتظرتُ حتّى نشر الضّوء جناحه في الأفق ، شربتُ عشرة فناجين قهوةٍ من تلك القهوة الّتي أدمنتُها في الفانية ، كأنّني أريدُ أنْ أشبع منها قبلَ أنْ أغادر . لم آكل شيئًا . فقط لففتُ على وسطي حزامًا من الجلد . ثبّتُّ فيه خنجرًا مسمومًا . وحقيبةً استقرّ صندوق الرّيشات العاجيّ في أسفلها ، حملتُها على ظهري ، وأجلتُ نظرةً أخيرة في غرف القصر المُنيف . كان كلّ شيءٍ فيه يبدو خاليًا من أيّ معنى . لم يستبْقني في هذا القصر شيءٌ ، ولم يعزّ عليّ فيه أمرٌ وأنا أفارقه . باستثناء اللّوحات الّتي كتبتُ فوقها بخطّ الرّقعة أجمل الأبيات الّتي كنتُ أحفظها أيّام الفانية ، وبعضُ الأبيات الّتي كتبتُها هنا . هي فقط من ألقَى شيئًا من نثار الأسى في قلبي . طفتُ باللّوحات ، قرأتُها للمرّة الأخيرة ، كأنّني أودّعها . تأمّلتُها طويلاً كأنّ الفراق سيطول كثيرًا . لوحةً واحدةً استوقفتْني أكثر من سواها ، تلك اللّوحة الّتي خُطّ فوقها بيت هشام بن البختري :

فلو كانَ خَلْقٌ في البريّة خالدٌ

لَكُنتَ ، ولكنْ ليسَ في الأرضِ خالدُ

وخرجتُ من الباب الّذي انفتح وحده مُحدثًا صوتًا أشبه بصوت النّواح . هتفتُ في نفسي : «النّواح للقلوب الحيّة ليس للزّجاج الأملس البارد» . غذذتُ السّير . صعدتُ باتّجاه الشّمس . الشّمسُ الّتي كانت معبودةً في الفانية قبل زمنٍ لم يعد لتقديره أيّ معنى الآن ، تعود اليوم لتدلّني على الخلاص . وسرتُ في عينها . كان عليّ أنْ أمضي في اتّجاه واحد ، من أجل أنْ أخرج من هذا النّعيم ، إنّه يُشبه خروجَ أبينا الأوّل ، لكنّهُ هذه المرّة بإرادةِ البشريّ دون معصية . ولا أدري إنْ كانت الفِكرة دقيقةً أم لا؟ في حين أنّني فكّرتُ طويلاً في صباح الخروج هنا

عن المعصية الّتي دفعتْ بي إلى الهروب من هذا النّعيم القاتل ؛ لعلّها عدم القدرة على تحمّل كلّ هذه الرّتابة؟ لعلّها كُفران النّعمة بعدم الصّبر عليها؟ لعلّها التّوق إلى المجهول ، الفضول ، لذّة الممنوع والمستور والمخبوء والمُفاجِئ وغير المتوقّع في كلّ لحظة؟ لعلّها البحثُ عن حياة جديدة؟ ولعلّها كلّ ذلك مُجتمعًا .

ظلّ النّعيم يرافقني طوال الطّريق . مشيتُ أيّامًا كثيرةً بحثًا عن مخرج . المشي باتّجاه واحد نحو بوّابة واحدة تُفضي إلى عالَم آخر غير هذا العالَم الرّتيب . هأنذا أصعدُ جبلاً لم أر مثله من قبلُ ؛ في علوّه الشّاهق ، وفي صخوره النّاتئة مثل شوك في جلد قُنفذ ، والّتي راحتْ تُجرّح قدمَيّ ، من الواضح أنّ هذا الجبل الّذي لم يمرّ عليّ في السّنوات الغابرات لا ينتمي إلى النّعيم الّذي كنتُ أعيشه ، إنّه أجردُ تمامًا ، ليس فيه أيّ شجرة باستثناء البُلاّن الشّوكيّ ، وليس فيه أيّ مظهر من مظاهر الحياة ؛ لا طيور ، لا ماء ، لا سُحُب من فوقه ، لا نسائم عليلة ، ولا حتّى أصوات من أيّ نوع . وتساءلتُ من أينَ نبتَ هذا الجبل فجأةً؟ من أين برز؟ لعلّه برز من الجحيم ، كلّ ما فيه يدفعك أنْ تنظر إلى الوراء ، أن تعود إلى الحياة الرّغيدة الّتي كنتَ تعيشها . ولكنّني كنتُ قد أقسمتُ على المُضيّ قدمًا ، وكنتُ قد قرّرتُ بيني وبين نفسي أنّ الرّجوع كُفر . هل تنبت الجِبال القاحلة جرّاء الرّغبات الآثمة؟ هل كانت رغبتي في هُجران النّعيم وكُفرانه والبحث عن حياة أخرى هو رغبةً آثمةً؟ وبسببها هأنذا أعاقب؟ نظرتُ إلى الدّم ينزّ من بين أصابعي بسبب بعض الصّخور النّاتئة فتألّمتُ قليلاً وفرحتُ كثيرًا ؛ إنّني أعود إلى بشريّتي الّتي افتقدتُها طويلاً!!

وصلتُ إلى قِمّة الجبل مُنهَكًا حتّى إنّني ارتميتُ أوّل وصولي إلى

هناك ، وغطستُ في نوم عميق . عندما صحوتُ كان اللّيل قد خيّم على المكان . أرسلتُ نظرةً في البعيد ، كان الظّلام قاتمًا ، لكنّني شاهدتُ في نهاية الأفق أضواءً تنبثق من مكانٍ واحدٍ . وكلّ ما حوله يغرق في ظلام كثيف . قلتُ لعلها نجومٌ في تلك السّماء الّتي تلامس تلك الجهة منّ الأفق . لكنّني لطول عهدي بالنّجوم استبعدتُ هذا الخَيار مُباشرةً ، إذ إنّ لَمعان النّجوم يختلف عن لَمعان هذه الأضواء الّتي هي أقربُ إلى أضواء الفانية وإنْ كانت لا تُشبهها تمامًا . أردتُ أنْ أواصلَ السّير نحو مصدر الضّوء لأعرفَ الأمر ، لكنّني قدّرتُ أنّ المسافة إليه تحتاج إلى أيّام ، وأنّه من الأفضل أنْ أرتاح بقيّة هذا اللّيل ، وأغدو قبل أنْ تُرسل الشّمسُ أشعّتها . ونِمت . في النّوم حلمتُ بشيخي في الفانية يقول لي : «لقد تأخّرتَ كثيرًا يا بُنيّ ، أما تعرف أنّنا ننتظر أنْ تلحقَ بنا» . وأشارَ إلى مجموعةٍ من الجالسين في زاويةٍ من قاعةٍ فسيحة ، يتدارسون كُتُبًا في أيديهم . ومَدّ يده نحوي ، وقال : «انهضْ» .

(١٧)
لِتنجُوَ مِنَ الطّوفانِ اصنْع السّفينة

صحوتُ في نهاية الحُلم على لسعة الشّمس تحرق صفحة وجهي. لم يكنْ أوضحَ من الشّمس دليلٌ على الحياة، قفزتُ. الشّيخ ينتظرني إذًا. ولكنْ أينَ يُمكن أنْ أجده؟! نظرتُ جهة الأفق الّذي كانتْ تلمع منه الأضواء، فلم أرَ شيئًا، ولم يبدُ من المكان غير نهايةٍ مسدودة تتعانق فيها الأرض مع السّماء، لكنّ شيئًا أزرق ممتدّ أمام المكان نفسه لمع على ضوء الشّمس، قلتُ: لعلّه نهر. أو لعلّه انعكاس السّماء على الأرض بسبب الصّحوة، أو لعلّهِ سراب، وما أكثرَ ما يلمع السّراب في كلّ مراحل الحياة!

نزلتُ الجبل الوَعْر. مررتُ بحفرٍ كثيرة كادتْ تُغيّبني في جوفها. صخور متدحرجة كادتْ تهرسني وتجعلني نَسْيًا منسيًا. أصواتُ سِباعٍ تزأر من بعيد سمعتُها فرجفَ قلبي. كان كلّ شيءٍ يقول لك: «أمجنونٌ أنتَ حتّى تُغادر النّعيم، وتمضي برجلَيكَ إلى الجحيم؟!!». لكنّ نداء البشريّ الّذي لم يهدأ في أعماقي كان أقوى. فتابعتُ السّير. بقيتُ نصفَ نهارٍ أهبطُ الجبل، ثُمّ استوتِ الأرضُ أمام ناظريّ. فإذا كلّها سِباخ. تكثر فيها الهَوامّ، والبَعوض، والحشرات السّامّة. والسّحالي، والحراذين، كان الماء الّذي أحضرتُه معي من القصر موفورًا. القارورة إيّاها لم تنقص إلاّ بمقدار ثلاث رَشفات منذُ أنْ

غادرتُ ، ماء الجنّة لا ينضب . كان الماء هو الحياة . به حافظتُ على ألاّ تُزهَقَ روحي . لسعات الهوامّ الّتي لم تدعني أنام في تلك اللّيلة ، كانت دليلاً آخر على أنّ رحلتي في البحثِ عن البشر قد تتكلّل بالنّجاح . في الهزيع الأخير ، أخرجتُ الصّندوق العاجيّ الصّغير من حقيبتي الّتي أحملها على ظهري ، وعددتُ الرّيشات . تأكّدتُ من أنّها كاملة . تسع عشرة ريشةً . وأعدتُها إلى مكانها . ووضعتُ الصّندوقَ تحتَ رأسي ، ونمت .

في الصّباح واصلتُ السّير . كانت الأرض ما زالتْ تنبسط في امتداد يبدو لا نهائيًا . وكان عليّ أنْ أتبع الطّريقة الوحيدة الّتي يُمكن بها أنْ أصل إلى هدفي : السّير في خطّ مستقيم وباتّجاهٍ واحد . الأضواء الّتي لمعتْ قبل ليلتَين في الأفق البعيد ، تقع في نهاية هذا الخطّ المستقيم ، ولا بُدّ أنْ أجدَ عندها شيئًا . في الطّريق فكّرتُ في هذا الجنون الّذي أنا فيه . منذ ما يزيد على مئة سنة وأنا وحيد . لماذا الآن؟ لماذا الآن أبحثُ عمّن يُشبهني؟ أبعدَ أنْ وصلتُ الفردوس أنكصُ على عقبَيّ من أجل أنْ ألتقي بمن يمشون على رِجلَين مثلي؟ ما هذا الجنون؟ هأنذا أحاول أنْ أفسّر استجابتي لذلك النّداء الّذي لا يُقاوَم ، والّذي سمعتُه في ذلك اليوم الّذي تاقتْ فيه نفسي إليّ ، إلى مَنْ تكون له عينان تذرفان الدّموع كعينَيّ . هل هذا هو السّبب الوحيد الّذي جعلني أركل النّعمة برجلَيّ ، وأتحمّل كلّ هذه العذابات لأجله؟ ربّما . أو هو ربّما النّصفان اللّذان يعيشان في أعماق كلّ بشريّ . الخير والشّرّ . إذا كان الخير سائدًا ، فإنّه يفقد معناه إن لم ينهض الشّرّ في وجهه ليُعطي مُسوّغًا لوجوده! حتّى الخُبز الّذي كان يأتيني طازجًا شهيًا ، كان سيفقد مع الزّمن كلّ معنى لو لم يُوجَد ذلك الخبّاز الّذي يلتفح بناره المُوقدة ،

ويتّسخ بطحينه المُتناثر، وعجينه الملوق .

بعد ثلاث ليالٍ وصلتُ إلى ما كنتُ أراه من قمّة الجبل الأجرد يلمع . لقد كان نهرًا بالفعل . إنّه نهرٌ من أنهار الدُّنيا هكذا فكّرت . وفرحتُ كثيرًا . يبدو أنّ هذا النّهر هو الحاجز بين العالَمين ، وخُيِّل إليّ لو أنّني اجتزتُه فسأصل إلى البشر في الضّفّة الأخرى . ورحتُ أركضُ نحوه لشدّة فرحي . ولمّا صار بيني وبينه عشرات الأمتار وجدتُ ضِفّته تموج بالمخلوقات الغريبة . المخلوقات الّتي لم أرَ مثلها في كلّ حياتي . أسودٌ تتراكضُ على الرّمل كأنّها تبحثُ عن فرائس مُحتملة ، وتتصارع فيما بينها كأنّها تهمّ من الجوع بأكلِ بعضِها بعضًا . كانت هناك أفراس النّهر بأنيابٍ أطول من أعناقها ، تفغر أفواهها في كلّ لحظةٍ تنتظر وجبةً دَسِمَةً تُقذَفُ في أجوافها لتسدّ بها الرمق . أفاعٍ تَصِلّ على التّراب ، تزحف بسرعةٍ ، ويلتفّ بعضُها على بعضٍ كأنّها منذ شهرٍ لم تزدردْ شيئًا . خيولٌ برؤوس نمورٍ تكاد تغرز أنيابها في جسدها لطول جوعها . حُمُر مُخطّطة بحوافر ذئاب ، وذيول كلاب ، وعيون إنسان ، وأشداق تنّين ، تتهارَش فيما بينَها من الشّرَه . وحيوانات أخرى لا يُمكن وصفُها لأنّني لم أكنْ أتوقّع أنّ حيوانًا مُفترِسًا يُمكن أنْ يكون له رأس إنسان ، أو أنْ أرى طيورًا بمناقير من حديدٍ قادرةٍ على تفتيتِ الصّخر . أو أنْ أُعاينَ ضباعًا تسيل أشداقُها تلهّفًا للطّعام ولها أجنحة خفافيش تطير بها ، وتُعلّق نفسها في الفراغ . كان المشهدُ مُرعِبًا ، يُقطّع الأوصال ، ويَحُلّ عَصَبَ الرُّكب ، وارتخت أقدامي بالفعل ، وساحتْ في التّراب ، كما تسيح السّكّين في الزُّبدة . وبقيتُ مشدوهًا زمنًا طويلاً على أمل أنْ أسترجع عافيتي ، وأفيق من صدمتي . وكان المنظر يقول إنّ قَطع النّهر إلى الضّفّة الأخرى يبدو مستحيلاً . لكنّ المُستحيل الأشدّ منه هو أنْ

أفكّر في العودة إلى ما خلفَ الجبل حيثُ النّعيم . لأنّ الرّعب الّذي يقودك إلى البَشَر خيرٌ ألفَ مرّة من الأمن الّذي يقودك إلى الفراغ واللاجدوى . وأغمضتُ عينَيّ ، وشددتُ على أسناني ، وأقسمتُ على أنْ أعبر النّهر ، ولو مزّقتْني هذه الوحوشُ إربًا إربًا ، ولم يبقَ منّي شيءٌ ، لأنني على الأقلّ أكون قد حاولت . وقلتُ في نفسي : «لِتنجُوَ من الطّوفان اصنع السّفينة» . وصرتُ أفكّر ما السّفينة الّتي يُمكن أنْ تُنقذني من هذا الطّوفان . قلتُ : «فلأصبرْ إلى آخر الليْل فلعلّ هذه الوحوش تنام ، فأنسلّ من بينها نحو النّهر وأنجو» . وجلستُ بالفعل على مبعدة أراقب منذ رحيل الشّمس هذه الوحوش واحدًا واحدًا . فوجدتُ أسرعها إلى النّوم أدأبها في النّهار حركةً . وحينَ لفّ اللّيل بُردَيه وأذن أنْ ينصرف . خُيّل إليّ أنّ كل الوحوش قد نامتْ . فقلتُ إنّها لحظتي المُناسبة ، وزحفتُ على أطراف أصابِعي . حتّى إذا مررتُ من بين الأسود الجاثِمة ، تنفّستُ الصّعداء ، فخفتُ أنْ يوقظ صوتُ نَفَسي الخيول المتوحّشة ، فكتمت النّفَسَ في منتصفه ، ورحتُ أنقلُ رِجلاً خلفَ رِجلٍ بهدوء ، وحذر ، وأنظر في موطئ قدمي لِئلا أدوس على أفعى فتكون بذلك نِهايتي . كانت الطّيور ذات المناقير الحديديّة قد جثمتْ هي الأخرى على الرّمل ، ودفنتْ بطنَها فيه ، مُستسلمةً لنوم لذيذ بعد تعب شديد . وتجاوزتُها هي الأخرى ، وكدتُ أغمس قدميَ في الماء استِعدادًا للسّباحة إلى الضّفّة الأخرى ، حينما شعرتُ أنّ رأسي قد ارتطم بشيءٍ ليّن ، فجمدتُ في مكاني مذعورًا ، ونظرتُ إلى الأعلى فإذا هو بطن ضبع ذات أجنحة خفّاشيّة قد علّقتْ نفسها في الفراغ ، وحانتْ منّي التفاتةٌ إلى رأسها فإذا هي تفتح عينَيها ببطء ، فازدادَ ذُعري ، ومددتُ يدي إلى وسطي لأستلّ الخنجر لأدافع به عن

نفسي ، ولوّحتُ به في الهواء ببطء ، وأنا أترقّب المشهد ، وازدادتْ عينا الضّبع انفتاحًا فعرفتُ أنّني هالكٌ إنْ لم أُعاجل الموت بالهرب ، وهممتُ أنْ ألقي بنفسي إلى الماء لأفلِتَ من الضّبع ، فوجدتُ فرس النّهر يفغر فاه استعدادًا لالتِقامي . فتسمّرتُ مكاني ، وأطلقتُ صيحةَ رُعب استيقظتْ لها كلّ الكائنات ، ودفعني الخوف إلى أنْ أركض على طول الضّفّة بأقصى ما أستطيع دون أنْ أحسبَ أيّ حِساب لأيّ خطر من أيّ نوع . حتّى إذا وجدتُ جزءًا من النّهر خاليًا من أفراس النّهر ، ألقيتُ فيه بنفسي ، والحقيبةُ على ظهري ، ورحتُ أخبط يديّ ورِجلَيّ في الماء ، لكي أصل إلى الضّفّة الأخرى . سبحتُ بكلّ قواي ، كانت الحياة على الضّفّة الأخرى تُناديني . كان نداؤها يجعلني أرفسُ كلّ شيء يتعلّق برجليّ من أفراس النّهر أو أسماكه أو ذِئابه أو أيّ شيء من كائناته الغريبة . نداء الحياة الأخرى الّتي غامرتُ بنفسي من أجلها كان يتردّد صداه في أذنَيّ واضِحًا ، وكان يدفعني إلى الإسراع في الإفلات ولو بالخسائر . وفكّرتُ : إذا وصلتُ حَيًا إلى الضّفّة الأخرى فسأكون قد هزمتُ الخلود ، وانتصر البشريّ القابع فِيّ .

ووصلتُ بعدَ رحلةِ رعبٍ وجنونٍ لا يُمكن أنْ أنساهما ما ظلّ لي من عُمر . رميتُ نفسي على الشّاطِئ ، وأنا ألهث . كانتْ قدماي تتفجّران بالدّم . وكان صدري يعلو ويهبط بسرعة مُختنقًا بأنفاسي المُتلاحقة . ويداي يابِستان من البرد والرّعب كأنّهما خَشبتان . وعيناي تنظران في البعيد ولا تكادان تُصدّقان أنّني نجوت . وأرسلتُ طَرفي إلى الضّفّة الأخرى فرأيتُ الوحوش كُلّها قد استيقظتْ وبدأتْ تتعاوى وتتعادَى وتتنابح وتتهارَش فيما بينَها ، ورأيتُ بعضها يبتلع بعضَها الآخر ، وزعيقُها يملأ الفضاء ، وأصواتُ أنفاسِها الأخيرة تصل إلى هنا

على الرّغم من بُعد المسافة . ورميتُ نفسي ، وأرخيتُ يدَيَ ، ومدّدتُ جسدي ، ونظرتُ إلى السّماء ، فوجدتُها تبتسم ، وسقطتُ في بئر النّوم بسرعة .

هأنذا أمشي في حقول القمح ، إنّه زمان الصّبا الأوّل . أيّام الرّضا ، والدّهشة ، والجَمال ، «أيّام لا نخشى على اللّهو ناهِيا» كما قال المجنون ، إنّ «الذّاكرة هي كتاب الرّوح» كما قال أرسطو . في النّوم ، تكون الرّؤيا شرط التـذّكـرّ ، والتّـفـاصـيل في تلك الرّؤيا هي السطور المبثوثة في صفحات الذّاكرة ، وهأنذا أتذكّر .

كان بَصَرُ جدّي قد ضَعُف في آخر حياته ، وضَعُف هو لأجل ذلك ، وأصبح هذا الّذي كان يملأ المكان حيويّة ونشاطًا وحركةً ضعيفًا ، أصبح هَشًا إلى الحدّ الّذي ظننتُ أنّ جسده هو الآخَر قد أُصيب بالهُزال ، ولفّتْ عُنُقَه سحابةٌ من الحُزن العميق المُعتّق . فهَمَد . هل انطفأ النّور الّذي كان يرى به العالَم ، ويُسكِن فيه عطاءَه اللاّمحدود! ثُمّ ها هو في أحد الأيّام لم يُبصِر العتبة الصّغيرة الّتي تقف على الباب الّذي يُفضي إلى بيت عمّي ، فوَطِئَ - برجله الّتي لم تترك جبلاً في القرية إلاّ جابَتْه - الفراغ ، فانزلقتْ ، وسقطَ معها ، فانكسرتْ رِجلُه . ولم ينفع تجبيرُها في أنْ يُعيدَ إليها نشاطَها السّابق ، فقد قال لنا الطّبيب : إنّ احتماليّة أنْ ينجبر الكَسْر لشيخ في مثل سِنّه هي احتماليّة ضعيفةٌ جِداً . وهذا ما حدث ؛ أقعدَه ذلك الكَسر في الفراش ، فأضاف إلى حُزنه ، بسبب ضعفِ بصره ، حزنًا جديدًا ، سببه هذا الاضطرار إلى ملازمة السّرير . وكان ذلك إيذانًا ببداية النّهاية . لقد كان جدّي رجلاً جاداً شَهمًا كريمًا ، قويًا ، يذرع طرقات القرية في كلّ يومٍ ، يصل قمّة الجبل مشيًا ، ويقضي النّهار في حقول القمح ، وبساتين

الدّرّاق والبرقوق والمشمش، يعمل حتّى آخر شعاع تودّ الشّمس أنْ ترسله في ذلك النّهار، ويعود، ليبدأ من جديد. أنْ يجد جدّي نفسه عاجزًا عن كلّ ذلك دُفعةً واحدةً فهذا يعني بالنّسبة له طامّة كُبرى. وأنْ يعرف أنّه لن يعود قادرًا على أنْ يعانقَ التّراب بقدمَيه الحافيتَين فهذه مُصيبةٌ جَلَل، وأنْ يُدركَ أنّ عينَيه لن تستمتعا بسنابل القمح تتمايل بلونها الذّهبيّ على إيقاع نسائم المساءات الصيفيّة فهذه صاخّة أعظمُ من سابِقتَيها عنده. وأنْ تجتمع عليه هذه النّوائب كلّها فهذا ما لا يُمكن تخيّله أو التّنبّؤ بأثره النّفسيّ عليه!! قبل أنْ يضعف بصره، وفي عِزّ قُوّته كانتْ لي معه جلساتٌ وجلسات. كان مُحبًّا للعلم، مع أنّه درس في الكُتّاب، ولم يدرس في المدرسة إلاّ سنوات الابتدائيّة الأربع الأولى، وكانتْ له خَطَرات في الشّعر والأدب، وكنتُ غالبًا ما أسمعه يُردّد:

نَـزَلْـنـا هُـنـا ثُـمّ ارْتَـحَـلْـنـا

كـذا الدّنـيـا نُزولٌ وارتحـالُ

كان يلخّص في هذا البيت عمر البشريّة الّذي يمتدّ عشرات الآلاف من السّنين، فما من مُقيم إلاّ وهو على وعدٍ بالرّحيل. وكان ربّما يُقدّم بذلك لرحيله عن هذه الفانية. و(ها هنا) في البيت تعني أيّ هُنا أو أيّ هناك، فلا فرق بين الأمكنة ما دامتْ ستُترَك جميعها بالرّحيل، و(كذا الدّنيا) تعني دنيا الأمس ودُنيا اليوم ودُنيا الغد، فلا يُغيّر في طبيعتها اختلافُ زمانها، فقد «طُبِعتْ على كَدَرٍ وأنتَ تريدُها صفوًا من الأقذاء والأقذارِ». أينَ موضع هذا البيت من هذا المكان اليوم؟! ثُمّ إنّ جدّي قال لي: «لن تجرح الشّمسُ عينَيكَ بعد اليوم، ولن تنال من حوبائك الآثام، وستعرفُ في الباقية كثيرًا مِمّا كُنتَ

تجهل في الفانية ، وإنّنا إلى لقائك لـمُشتاقون» .

عندما استيقظتُ كان أوّل شيء تأكّدتُ منه هو عدد الرّيشات في الصّندوق العاجيّ الصّغير . كان الصّندوق عَصيًا على الكَسر أو الاحتراق أو التّهشّم ، إنّه من الصّناديق الّتي جلبتُها معي من الفردوس ، وهو من النّوع الّذي ينتمي إلى عالَم اللانهاية .

وقفتُ على رِجلَيّ . هأنذا أستعيدُ عافيتي ، وأشرعُ في الذّهاب إلى الحياة الّتي أحلم بها ، الحُلم القاتل ، «ربّ امرئٍ حتفُه فيما تَمَنّاه» . تناهَى إلى سَمْعِي في وقفتي هذه أصواتٌ جميلةٌ ، قادمةٌ من البعيد . إنّها تقطُر شجنًا . أصختُ سمعي أوّل الأمر إليها ، فخُيّل إليّ أنّ مجموعةً من الحوريّات القادِمات من خلف الضّباب يُغنّين ، تبعتُ مصدر الصّوت ، فقادني إلى الجهة الّتي أنا ذاهبٌ نحوها ، كان الصّوت العَذبُ يقول : «نحن الخالِداتُ فلا نبيد ، ونحن النّاعمات فلا نبأس ، ونحن الرّاضيات فلا نسخط ، ونحن المُقيمات فلا نظعن» . وصوتُ موسيقى ولحونٍ تترافق مع ذلك الغِناء ، فانتشيتُ لذلك الإيقاع ، واهتزّ له الفؤاد طربًا ، حتّى إنّه أخرجني عن حدّ الاعتِدال والوقار ، وأيّ وقارٍ يُمكن أنْ يُحافِظ عليه المرء أمام صوت كهذا؟! فأُخذتُ باللّحن ، ومشيتُ خلفَ الصّوت ، فلمّا قطعتُ أرضًا ، ازداد اللّحن في أذني وضوحًا ، فإذا هُنّ يغنّين :

«نَحنُ لا نَمنحُ إلاّ الأَمْنا
من ضيانا الشّمسُ ضاءتْ والدُّنا
سَوفَ يَفنَى كُلّ ما في الكَوْنِ من
عَرَض ، لا شَيْءَ يبقَى غيرنا» .

ولا أدري لماذا شعرتُ أنّ (زراف) هو الّذي يصوغ اللّحن ، وكأنّني

سمعتُ (ماني) يقول له : «اعلم يا (زراف) أنّه في فجر الكون كانت جميع المخلوقات تَسبَح في نَغَم عُلويّ ، وقد أنسانا إيّاه سَديمُ الخَلْق ، غير أنّ روح الفنّان قادرةٌ على بَعْثِ تلك النّغمات الأصليّة» . كان صوتُ (ماني) واضِحًا لدرجة أنّني لا يُمكن أنْ أُخطئه ، وتقدّمتُ خطوات أخرى ، فسمعتُ صوتًا آخر أعرفه مِمّا قرأتُ له في الفانية ، يقول : «تأثير السّماع في القلب مَحسوسٌ ، ومَنْ لم يُحركْه السّماع فهو ناقصٌ مائلٌ عن الاعتِدال» . فلم أُنكِر قائله ، ولقد قرأتُ في كتابه (الإحياء) في الفانية ما حكاه أبو بكر الدّينوريّ حين قال : كنتُ بالبادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب ، فأضافني رجلٌ منهم ، وأدخلني خِباءه ، فرأيتُ في الخِباء عبدًا أسودَ مُقيَّدًا ، ورأيتُ جِمالاً قد ماتت ، وقد بقي منها جَمَلٌ ناحلٌ ذابلٌ كأنّه ينزعُ روحَه ، فقال لي الغُلام : أنتَ ضيفٌ ولك حَقّ ، فتشفَعْ فِيّ إلى مولاي . فلمّا أحضروا الطّعام امتنعت ، وقلتُ : لا آكل ما لم أُشفَّعْ في هذا العَبْد ، فقال : إنّ هذا العَبْدَ قد أفقرني وأهلكَ جميعَ مالي . فقلتُ : ما فعل؟ فقال : إنّ له صوتًا طَيّبًا ، وإنّني كنتُ أعيشُ من ظهور هذه الجِمال ، فَحَمّلها أحمالاً ثقيلةً ، وكان يحدُو بها حتّى قطعتْ مسيرةَ ثلاثة أيّام في ليلة واحدة من طِيب نَغمته ، فلمّا حَطّتْ أحمالَها ماتتْ كُلُّها إلاّ هذا الجَمَل الواحد» . فتبعتُ الصّوت ، فإذا بناءٌ ضخمٌ يبدو من بعيد ، فعرفتُ أنّني أُقاد إليه ، فحَثَثْتُ قدمَيّ ، وقلتُ إنّ لهذا البِناء لشأنًا حتّى أُقادَ إليه بهذا العَذْبِ من النّغَم ، فلمّا دنوتُ سمعتُ الموشّح المشهور في الفانية ، وإذا هو يُغنّى بأجمل ما يكون الغِناء :

جادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمى

يا زَمانَ الوصْلِ بالأندلسِ

لـم يـكـنْ وصـلُـكَ إلاّ حُـلُـمـــــا
في الكرى أو خِلْســـةَ المُخْــتَلِسِ

فضحكتُ ، وملأ السّرور منّي الأعطاف ، وقلتُ : «أينَ نحن وزمان الوصل» . فلمّا صرتُ على باب المبنى ، نظرتُ فإذا هو ضخمٌ كطود ، مرتفعٌ حتّى ليعانق السّحب . وعايَنتُه فإذا هو يُحيطُ به سورٌ حجريٌ من جانِبَيه ، ولا يوجدَ عن يمين السّور أو يساره إلاّ الفراغ ، فوقع في قلبي ، أنّ الدّخول إليه نجاةٌ من الوقوع في الهاوية ، فنَشَدْتُ بوّابته الضّخمة ، فما عاقني عن وصولي إليه أحدٌ . ووقفتُ أمام البّوابة الّتي يرتفعُ فوقَها قوسٌ حجريّ ضخمٌ يُشبه قوس النّصر الّذي بناه (تيتس) في الغابرة . وإذا فوقَ القوس منقوشٌ بالعربيّة : «ادْخُلُوها بسلام آمنين» . فأُشكِلَ عليّ ، كيفَ يكون ذلك ، وهذا لا يُقال إلاّ للّذين يتَهيّؤون لدخول الفردوس ، فأيّ فردوسٍ في بناءٍ حجريّ يرتفع كأنّه تمثالٌ أصمّ؟ وأينَ منه ما كنتُ أعيشه خلف ذلك الجبل الأجرد من النّعيم الحقيقيّ . لكنْ قلتُ : ربّما هنا في هذا المبنى فردوسٌ مفقود كالّذي تحدّث عنه (ملتون) في العابرة ، أو جنّة كالّتي تحدّث عنها الشّابّ الظّريف ، وعلى أيّة حال ، فلا يوجَد أمامي خَيارٌ آخر ، وسوف أدخل هذا المبنى لأختبر على أيّ نحوٍ يُمكن أنْ يكون جَنَّةً!!

(١٨)
مُستودَع الأسرار

ودخلتُ البوابة الضّخمة ، الّتي ترتفع عاليًا بما يزيد عن ارتفاع طودٍ من أطواد الدُّنيا . وشممتُ رائحةَ شذًى تتعطَّر منه الأنفاس . ومضيتُ قُدُمًا ، فوجدتُ ممرًّا في نهايته بوّابة خشبيّة ، تُفضي بدورها إلى بَهوٍ واسع . على جانبَي الممرّ ، وقُبيل البوّابة الخشبيّة كان هناك مَعلَمان لا يُمكن أنْ يغفل عنهما أيّ داخلٍ من هنا . على اليمين كانَ هناك كتابٌ من ألياف صوتيّة ، محفوظٌ في واجهةٍ زجاجيّة لا تمسّها إلا الأيادي الطّاهرة ، تنعكس عليها أضواء مُبهرة من القناديل المتدلّية من السّقف ، وفوقه عبارةٌ تُقرأ بكلّ اللّغات الّتي عرفها البشر ، ولا يُمكن أنْ تُحصَى في هذا الوصف المُستعجَل ، فهي تزيد عن ألفِ لغة ، كانت العبارة تقول : «ما فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ» . وعندما أتممتُ قراءة العبارة ، ضيّقتُ عينَيّ ، وأخذتُ نفسًا عميقًا ، وفكّرتُ : «هل كلّ شيءٍ منذ أنْ خلق الله الخَلْقَ يُمكن أنْ أجده هنا» . فكأنّني سمعتُ مَنْ يقول : «بلى . حتّى سؤالك هذا مكتوبٌ في هذا الكتاب» . ثُمّ إنّني ملتُ بعنقي قليلاً جهة الباب ، فصُعقتُ للمشهد ، كان الباب المنفرجُ قليلاً يكشفُ جزءاً من قاعةٍ فسيحة ممتدّة ، ترتكز على جُدرانها العالية أرفف لا متناهية ، مليئة بالكتب . فأعدتُ عنقي إلى واجهة الكتاب ذي الألياف الصّوتيّة ، وسألتُه : «وهذا؟» . فسمعتُ صوتًا يقول : «في هذا

الطّابق تجد كلّ ما كتبه البشر عن الأديان» . فتساءلتُ : «عن الأديان فحسب» . فقال الصّوت : «في كلّ طابق من الطّوابق التّسعة عشر ستجدُ علمًا من علوم البشر العارضة» . فشهقتُ . وعلمتُ أنّ المبنى يتكوّن من تسعة عشر طابقًا . ثُمّ إنّه حانتْ منّي التفاتةٌ إلى الجهة اليُسرى من الممرّ ، فوجدتُ فيه جرّةً من خزفٍ تتلألأ ، فاقتربتُ منها ، فوجدتُ عليها رسومًا لريشاتٍ بألوانٍ مختلفة ، فرحتُ أعدّها فوجدتُها تسع عشرة ريشة ، فبادرتُ إلى إخراج الصّندوق العاجيّ الصّغير من حقيبتي ، ورحتُ أعدّ الرّيشات فيها خوفًا من أن أكون قد فقدتُ منها شيئًا ، فوجدتُها لم تُمَسّ بسوء ، ثُمّ إنّني دقّقتُ النّظر في شكلِ كلّ ريشةٍ منقوشةٍ على الجرّة وبين الرّيشات الّتي بحوزتي ، فوجدتُ أشكالَها مُتطابقةً ، فاهتديتُ إلى أنْ أحمل الرّيشة الأولى ، وأقرّبها من النّقش الّذي يُشبهها ، فإذا هي تستقرّ في النّقش كأنّ النّقش صُنعَ لها ، وكأنّه كان ينتظر قدومها منذ زمنٍ بعيدٍ . وفعلتُ ذلك مع كلّ الرّيشات ، حتّى أضاءت الجرّة مع إيداع الرّيشة التّاسعة عشرة كأنّها كوكبٌ دُرّي . وشعرتُ بالرّاحة . وسمعتُ صوتًا يهمسُ في أذنيّ : «هنا مُستودَع الأسرار» . وتظاهرتُ بأنّني تجاهلتُ ما سمعتُ ، ودخلتُ من الممرّ إلى البهو الفسيح ؛ فوجدتُه عبارةً عن قاعةٍ وسيعةٍ جدًا ، وسقفُها تنخلع عنق النّاظر إليه إذا أطال النّظر لارتفاعه السّامق ، وفي مركز القاعة عمود من حجارةٍ رومانيّة منقوشٌ فوقَها رسوماتٌ آشوريّة يخترق الطّوابق العلويّة والسّفليّة ، وحوله مصعدٌ يحمل الرّاكب فيه إلى كلا الاتّجاهَين . ومن البلاط الأرضيّ حتّى السّقف كُتُبٌ متراصّةٌ بعضُها إلى بعض ، وأردتُ أنْ أقدّر عددَها المَهول ، فرحتُ أدير رأسي ماسِحًا بنظراتي الكتب في حركةٍ دائريّة ، فشعرتُ بالدّوار دون أنْ أجدَ إلى

إحصائها سبيلاً ، فتوقّفتُ . وقلتُ : أيًا كان عددُها فإنّني سأقرؤها كتابًا كتابًا حتّى أُجهِزَ عليها جميعًا . ورأيتُ غرفةً زجاجيّة صغيرةً تتّسع لشخص واحد تتحرّك أفقيًا أو عموديًا مُثبّتةً على مسارات فولاذيّة مُصمّمة بطريقةٍ مُتقنة . ويُمكن للدّاخل إلى هذه الغرفة أنْ يلحظَ على الواجهة اليُمنى لها لوحةً رقميّة ، يستطيع باللّمسِ أنْ يُعطيها الإحداثيّات الثّلاثيّة ، فتنقله إلى النّقطة المطلوبة في لَمح البصر ، أو يكتب في اللّوحة ذاتها اسم الكتاب أو اسم مؤلّفه فتطير به خلال أقلّ من ثانيةٍ إلى الرّف الّذي يحوي الكتاب ، ثُمّ لمّا يُصبح في مواجهته ، يبرز الكتاب وحده من الرّفّ ، وتمتدّ ذراعٌ زجاجيّةٌ من الغرفة ليستقرّ فوقها الكتاب ، وما عليه سوى أن يمدّ يده ويتناوله . ثُمّ إذا طبع على اللّوحة إحداثيّات غرفة القراءة الّتي بُرمجتْ على أنّها نقطة الصّفر في الأبعاد الثلاثة في كلّ طابق ، فإنّه سيجد نفسه أمام بابها الّذي يفتح إلكترونيًا بدوره حينَ يصير في مواجهته!

وطُفتُ في القاعة الفسيحة أستطلعها ، فوجدتُ في زاويةٍ منها غرفةً صغيرةً تُشبه في تصميمها غرفة مكتبي الّتي كُنتُ أقرأ فيها في الفانية ، ووجدتُ إليها مكتبًا أنيقًا ، وحاسوبًا متطوّرًا . وخلفَ المكتب ثلاّجةٌ تحوي أطايبَ الطّعام . وفي زاويةٍ سريرٌ يُريح عليه المرء جسده بعد يوم طويلٍ في صُحبة الكُتُب . فقلتُ : «إنّها الجنّة إذًا ، هذا ما كنتُ أبغي» .

وفكّرتُ في أنْ أعرفَ تصميم المكتبة لأعرفَ كيفَ أتعامل معها ، فأضأتُ الحاسوب ، وأدخلتُ في محرّك البحث : تصميم المكتبة ، فإذا هو يُبرزِ لي شكلاً مُسدّسًا يُشبه القلاع في القرون الوُسطى ، القاعدة السُّداسيّة يبلغ طول الضّلع الواحد منها مئتَي مترٍ ، وارتفاع الطّابق

الواحد مئتَي مترٍ كذلك . ووجدتُ أنَّ الطابق الَّذي أنا فيه تعلوه تسعةُ طوابق ، وتنزل تحتَه كذلك تسعةُ طوابق ، ومجموع الطَّوابق إلى الَّذي أنا فيه هو تسعة عشر . وسألتُ عن الكتب الموجودة في كلِّ طابق . فقرأتُ أنَّ طابقي الَّذي أقف فيه الآن هو طابق الأديان ، يعلوه بالتَّرتيب في الطَّابق الأوَّل طابق اللّغات ، فالفِكر ، فالأدب ، فالتَّاريخ ، فالتَّصوّف ، فالفنون ، فالفلك ، فالفلسفة . وأمَّا الطَّوابق الَّتي تحت طابق الأديان فتبتدئ بطابق عِلم المكتبات ، فعلم النَّفس ، فعلم الاجتِماع ، فالاقتصاد ، فالعلوم الطَّبيعيَّة ، فالجغرافيا ، فالسَّياسة ، فالتَّنمية البشريَّة ، فالسِّحر .

واحترتُ بأيِّ كتابٍ أبدأ . وتعرّفتُ إلى التَّصنيف الرَّقميِّ ، وقلتُ : «الكتب كلّها خير ، فبأيِّها بدأت فلن تجد إلاّ خيرًا» . كان أوّل كتابٍ وقع في يدي يُنبِئُ عن يوم الرَّبِّ ، عن المعركة الكُبرى (هرمجدّون) ، ولا أدري إنْ حدثتْ أم لا ، فإنّني في البرزخ لا أعرف كم مرّ على أهل الفانية من زمنٍ حتّى يكون أجلُها قد حان . ولا أدري على وجه التَّحديد مَن انتصر فيها ، لكنّني فكّرتُ أنّني يمكن أنْ أجد هنا كتابًا آخَر عنها يتحدّث عن المُنتصرين في هذه المكتبة . ثُمَّ إنّني في هذه اللّحظات لا أعرف إنْ كنتُ أعيشُ حياةً متوازيةً مع أهل الدُّنيا ، أم أنَّ زمن الفانية قد انقضى . وهناك خلف هذه البوّابات الَّتي لا تُفتَح والَّتي تفصل بينَ هذين العالَمين هل ما زال البشر يتوالدون ويتناسلون ويتكاثرون ويتقاتَلون ويتحاسَدون ويأكلُ بعضُهم بعضًا ويهرمون ويموتون ، أمْ أنّه لم يبق على الأرض منهم أحدٌ؟! هل شاهدَ أحدُ الموتى الّذين يتشاركون معي حياة البرزخ نهايات الكون؟! أتمنّى أنْ أجد مثل هذا الإنسان أو ألتقيه يومًا ما لأعرف منه الحقيقة .

شكّل الدّين أكبر عزاءٍ للمظلومين في الفانية ، إنّه لولا إيمانهم بأنّ لهم مَعادًا يحكم الله فيه بينهم لما صبروا على ما لحق بهم من أذى . ولولا الدّين لقتلَ الفقراءُ الأغنياءَ كما يقول (نابليون) تحت ذريعة استرداد حقوقهم المهضومة والمُستباحة ، وإنّه لولا وجود يوم حِساب يُنصَفون فيها لما صبروا ، وكفَّ الفقراء سيوفهم عن رقاب الأغنياء .

حتّى أولئك الّذين لا يؤمنون بوجود إله في حياتهم مِمَّن عرفتُهم في الغابرة كانوا أشدَّ النّاس بؤسًا حينَ كنتُ أنظرُ عميقًا في عيونهم ؛ فأجد الحيرةَ تُمزّق أفئدتهم ، وتكاد تطير بلُبّهم ؛ لأنّهم ليسوا متأكّدين من أنّ هناك دينونةً سيُدانون فيها أمام إلهٍ قدير ، فإنْ هم أرادوا أنْ يزهدوا في العاجلة ويمتنعوا عن الشّهوات والغرق في الملذّات ، ويتفرّغوا للعبادة والصّلوات لِقاءَ أجرٍ غير ممنونٍ في الآجلة ، خافوا ألاّ يكون هناك يومٌ آخِر فتذهبَ حياتهم سُدًى ، وتفوتهم المُتَع الّتي كانوا يتمنّون أنْ يفعلوها . وإنْ غرقوا في الفواحش ، واستغلّوا كلّ لحظةٍ للولوغ في مُتَعهم خافوا أنْ يكون هناك يومٌ آخِر فيُحاسَبوا أشدّ الحِساب على لهوهم وعَبَثِهم ، ويُقذَفوا في النّار!

فهل «الخوف هو الّذي خلقَ الآلهة» كما قال (بترونيوس) ، وبالتّالي سيّر النّاس في طريق الدّين ، الخوفُ من العقوبة ، الخوف من الطّبيعة ، الخوف من اليوم الآخِر . الخوف من عدم إدراك الأمنيات . ولقد كان من الممكن أنْ يأكل البشر بعضهم بعضًا لولا الدّين .

وصحيحٌ أنّ الدّين رادع . لكنّه حتّى في أوج الحُكم به ، كانت تنتشر - خاصّة بين طبقات الأغنياء - أشدّ مظاهر اللّهو فسوقًا . كما كان يحدث في عصور الدّولة العبّاسيّة وغيرها . إلاّ أنّه لولا الدّين لكان يمكن أنْ تكون الحياة أكثر مجونًا وخلاعةً . ففي عصرٍ يسود فيه العَبَثُ

في بعضِ المناحي ، وتنتشر فيه دور اللّهو والغِناء والقِيان ، بسبب اختلاط الأمم ، وانفتاح الشّرق على الغرب ، سيكون هناك خليفةٌ يحجّ عامًا ويغزو عامًا .

هل يُبشّر ذلك ببقاء الدّين في البشريّة ، ما حاجة النّاس إليه وقد أغناهم العلم عن كلّ حاجة؟! في زماني كان العِلم قد بلغ ذُرًا عالية ، جعلنا نتساءل عن مصير البشريّة بعد هذا التّطوّر التّقنيّ المُرعب : وماذا بعد؟ أو : إلى أين؟ ووقفْنا أمام السّؤال نبحثُ عن إجابة في حينَ أنّ العلم كان يذهبُ أشواطًا بعيدةً في التّطوّر ونحن ما زلنا نبحثُ عن تلك الإجابة الضّائعة . وذهبَ أحدُ أشهر أدبائنا في الفانية إلى التبشير بحلول العلم بوجهٍ من الوجوه محلّ الدّين من خلال روايته : «أولاد حارتنا» . لقد كانت الأديان قديمةً قِدَم البشر ، وظهرتْ حينها لأنّ النّاس كانتْ بحاجةٍ إلى إله كُلّي القُدرة ، ونصوصٍ مكتوبةٍ تُفسّر كثيرًا من الغوامض الّتي تَحدثُ أمام أعين البشر ولا يجدون لها تفسيرًا ، وخاصّة تلك الّتي تتعلّق بالطّبيعة والفلك ، أما وقد حلّ العلمُ كثيرًا من هذه الظّواهر ، وقدّم لها تفسيرًا منطقيًا ، فقد حمل هذا التّقدّم العلميّ بذور انتهاء الأديان ، لقد قرأتُ هذا عند (أوجست كونت) الّذي قال : «إنّ العقليّة الإنسانيّة قد مرّتْ بأدوارٍ ثلاثة : دور الفلسفة الدّينيّة ، ثُمّ دور الفلسفة التّجريديّة ، ثُمّ دور الفلسفة الواقعيّة» . وهذه الأخيرة آذنتْ بانتهاء الدّين بعد تقدّم العلوم التّجريبيّة . ظلّ (كونت) هذا مُحافِظًا على رباطة جأشه في الدّفاع عن فكرته ، حتّى رأيتُ (سالمون ريناك) يردّ عليه بهدوء : «ليس أمام الدّيانات مستقبلٌ غير محدودٍ فحسب ، بل لنا أنْ نكون على يقينٍ من أنّه سيبقى شيءٌ منها أبدًا ، وذلك لأنّه سيبقى في الكون دائمًا أسرارٌ ومجاهيل ، ولأنّ العِلم

(أرنست رينان) الرّماد في الوجوه حين يهتف : «إنّ من الممكن أنْ يضمحل كلّ شيءٍ نُحبّه ، وأنْ تَبطُل حرّيّة استِعمال العقل والعِلم والصّناعة ، ولكنْ يستحيل أنْ ينمحي التّديّن ، بل سيبقى حجّة ناطقةً على بُطلان المذهب المادّيّ ، الّذي يريد أنْ يحصر الفِكر الإنسانيّ في المضايق الدّنيئة للحياة الأرضيّة» .

وأنهيتُ في اليوم الأوّل كتابي الأوّل . وعكفتُ على الكتب أقرأ في كلّ يوم كتابًا أو اثنين . وكنتُ حين أتعب أمدّد جسدي على السّرير فآخذُ غفوةً قصيرةً ، فإذا مرّتْ صحوتُ ، وأعرفُ أنّ الزمن قد يبدو لا نهائيًا هنا ، ولكنّني كنتُ أخافُ أنْ يفوتني بعضُ الكتب فلا أقرؤها . ولِذا كنتُ أفزّ من نومي كأنّ مِخرزًا قد نشبَ في خاصرتي . لأتمّ قراءة الكتاب أو لأقرأ كتابًا جديدًا . وإذا جعتُ أكلتُ بعضَ الطّعام ممّا في الثّلاّجة ، ووجدتُ مع مرور الأيّام أنّ الطّعام فيها لا ينقص إلا ليكتمل ، وأنّ ما فيها لا ينتهي . وكنتُ آكل ما يعينني على أنْ يظلّ ذهني واعيًا لِما أقرأ ، فإنّ القراءة المُثمرة تحتاج إلى ذهن مُتفتّح . وكنتُ أستطيع أنْ أُعِدّ القهوة بنفسي ، وكنتُ أشربُ وأنا أقرأ أكثر من ثلاثين فناجًا في اليوم!

«مَنْ يعثر على كنزٍ في كومة رُكام أو في حائطٍ قديم فهو من نصيبه» هذا ما قاله موسى بن ميمون في تثنية التّوراة . وهأنذا قد عثرتُ على كنزي ، وهو مِلكي . ولم أجدْ إلى اليوم مَنْ يُشاركني فيه ، ولعلّي أرجو أنْ يظلّ لي وحدي ، على الأقلّ في هذه المرحلة الّتي أستمتع فيها بصحبة هذا الكمّ الهائل من الكتب . إنّها المكتبة الأضخم الّتي يُمكن أنْ تتهيّأ لبشريٍّ فانٍ مثلي ؛ المكتبة الّتي تضمّ كلّ

ما كتبه البشر من أوّل كتاب إلى اليوم ، اليوم الّذي مرّتْ عليها مئات القرون على أقلّ تقدير .

في القاعة السّداسيّة الأضلاع الفسيحة الّتي في طابق الأديان والمُبلّطة برُخام أبيض لامع ، اكتشفتُ أنّ هناك مجسّات على الجوانب . يستطيع من يضغط عليها أنْ يُشاهد جزءاً هندسيّاً من هذا الرّخام على شكل مخروط رأسه يلتقي في المركز ، يرتفع إلى الأعلى بطريقة آليّة ، حتّى ينتصب بشكل عمودي ، ورأسه المدبّب يكاد يلامس سقف القاعة ، وخلفه تختبئ أرففٌ من الكتب المُنضدّة ، وبكبسة أخرى يعود هذا البلاط الرّخاميّ المخروطيّ إلى مكانه دون أنْ يظهر له أثر ، وعرفتُ أنّ تحت الرّخام في كلّ طابق عدداً من الكتب يكاد يُساوي الكتب المصفوفة على جدران القاعة . وعلى الحاسوب ظهر أنّ هذه الكتب تضمّ الكتب الملعونة أو المكرّرة في المضمون أو المُنتحلة أو الّتي حُكِمَ عليها بالنّفي أو الموت أو الّتي قُرِئتْ من مجهولٍ مرّ قبلي بهذه المكتبة الأسطوريّة .

كلّ الحروب قامت باسم الدّين ، وهو منها في أغلبها براء . ومع أنّه «لا إكراه في الدّين» ، فإنّني كنتُ أرى الدّم يقطر من سيف (ثيودوسيس) الّذي كان يقتل كلّ من ليس كاثوليكيّاً . وسيف (كاليغولا) هو الآخر لم يجفّ عنه الدّم وهو يقتل ليهب قتلاه الخلود حسب ما كان يوحيه له عقله المَريض . وسيف (بوش) وهو ينحر أطفال العراق في حربه الصّليبيّة الكُبرى الّتي قال إنّ الرّبّ هو الّذي أمره بها!!

في اليوميّات الّتي كنتُ أرتاحُ فيها قليلاً من وهج القراءة المتتابعة ، كنتُ أسمع صوت (ميخائيل نُعيمة) : «الدّين الّذي لا يغمر القلبَ بالمحبّة ، والفكر بالإيمان ، والرّوح بالاطمئنان ليس بالدّين الّذي

يُرتجَى للخلاص ، ويصلح ملاذًا من الشّدائد والمحن والموت» . وكنتُ أعيد الكتاب إلى موضعه ، لأسمع صوت (كريشنا) في الطَّريق يهتف كأنّه جَرْسٌ خفيٌ لا يُرى قائله : «الأديان جميعها طرق ووسائل للوصول إلى الله . ولكنّ الأديان ليستْ هي الله» . وأعرفُ أنّه : «إنّما يخشى اللهَ من عِباده العُلماءُ» ، فأحسّ برفيف كلمات (أوليفر وندل) تلامسُ كتفيّ وأنا أهمّ بالبَدء بكتابٍ جديد : «كلّما تقدّمت العلوم ضاقتْ بينها وبين الدّين مشقّة الخِلاف ، فالفَهم الحقيقيّ للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله» . ولكنّ هذا الباب المفتوح للرّأي على مصراعَيه في الأديان هو الّذي حجّر واسِعًا ؛ لأنّنا بشرٌ لا نُسلّم للأمر الإلهيّ لا من أوّل مرّة ، ولا من عاشر مرّة ، نحن مِلحاحون ، كثيرو الأسئلة ، قومٌ خَصِمون ، شديدو الخِلاف والاختِلاف ، لقد قال لي (زكي نجيب محمود) ذلك ذات قراءة : «الدّين الّذي يكون من الوضوح بحيثُ نفهم كلّ تفاصيله هو من الضّآلة بحيثُ لا يفي بحاجاتنا» . وحاجاتنا لا تنتهي ، ونجدُ أنّنا نعشق أنْ نُلغِيَ الآخَر ، أنْ نضعه باسم الدّين في جهنّم ، أو نضعه باسم الدّين في الجنة . أو نجعله مع الأبرار في عِلّيّين ، أو مع الأبالسة في سِجّين . أو نُسلّمه مفتاحَ بابٍ من أبوابِ الفردوس ، أو نغلق عليه بابًا من أبواب الجحيم ، نبيعه صكوكًا للغفران ، فيقف الخاطِئ أمام قِسٍّ أشدّ منه خطيئةً ليعترفَ بحماقاته ، فإذا أراحه الكلام أمام قِسّه ، ظلّ عليه أنْ يدفع مالاً مقابل صَكّ البراءة الّذي يُدخله الجَنّة . والصّك يمنح قِطعةً من الفردوس على مقدار المال المبذول للقِسّ ، فهناك أموالٌ تُبوّئك الفردوس الأعلى من الجنّة ، وهناك أموالٌ بالكاد تجعلك تقف كشحّاذ على باب الفردوس تنتظر أعوامًا حتّى يُؤذَن لك بالدّخول . والّذي لا يملك المال من الفقراء والكادحين وهم الأقرب

في الأعمّ الأغلب إلى رحمة الله ، هؤلاء لن يكون لهم شبرٌ واحدٌ ولا حتّى بوصةٌ في الجنّة ، ولن يفوزوا ولو بنصفِ ثمرةٍ من ثمارها ، لأنّ الجنّة لها مقابل ، وأنتَ لا تملك هذا المُقابل ، وعليه فلا مكان لكَ هنا . ولكنّ هؤلاء القساوسة نَسوا أنّ المسيح كان يأكل مع الضّعفاء ، ويُنادم الخُطاة ، وكان يمسح على جِراح الموجوعين ، ويمرّر يده الطّاهرة على رؤوس المرضى واليائسين ، وكان أخوه محمّد يدعو : «اللهمّ احشرْني في زمرة المساكين» . أمّا هؤلاء القساوسة فقد جلسوا في الدكاكين وراحوا يبيعون الوهم!! كان ذلك أيّام البُؤس الّذي بيع فيه رِداء المسيح الطّاهر بلُعاعاتٍ من الدُّنيا من قِبَل قساوسةٍ جَشِعين . ومِنْ أجل ذلك ثارَ (مارتنْ لوثر) على البابا (ليو العاشر) والرّاهب (حمنا) . أيُّ بابا هذا الّذي كان يخوّل نفسه حَقًّا إلهيًّا في غفران الذّنوب ، وامتلاك سِرّ التّوبة؟!

نحن نسفك ، ونغتال ، ونُريق ، ونسفح ، ونهتك ، تحت ذريعة الدّين ، لطالَما كان يصرخ فِيّ في الفانية صوتُ أحمد مطر :

«فَعَلى مُختَلفِ الأزمانْ
والطُّغيانْ
يَذْبَحُني باسم الرّحمنِ فِداءً للأوثانْ
هذا يَذبحُ بالتّوراةِ ، وذلكَ يذبحُ بالإنجيل ، وهذا يَذبحُ بالقرآنْ
لا ذنبَ لكلّ الأديانْ
الذّنبُ بطَبْعِ الإنسانْ» .

وشعرتُ أنّني أُرهِقتُ من القراءة في هذا الطّابق ، حاورتُ فيه أصحاب أديانِ الأرض مثل زرداشت وماني وبوذا وعددًا آخر ، لكنّني شعرتُ أنّ ذلك يكفي ، وأنّه عليّ أنْ أنتقل إلى طابقٍ آخر ، لأجدَ

معرفة أخرى . واحترتُ هل أصعد إلى طابق اللّغة لم أنزل إلى طابق
المكتبات ، فقرّرتُ أنْ أنزل ، فلمّا وقفتُ أمام المصعد المُخصّص لذلك ،
لم ينفتح الباب لي ، فأردتُ أنْ أسلك الدّرج فوجدتُ الباب المُفضي
إليه مُغلقًا . فعدتُ إلى الحاسوب لأعرف ما الّذي يمنع المصعد من أنْ
يعمل مع أنّه يبدو جاهزًا لذلك . فعرفتُ أنّني لن أستطيع أنْ أغادر
الطّابق الّذي أنا فيه حتّى أُتمّ قراءة كلّ ما فيه من كتب ، وأسقط في
يدي ، فهذه مُصيبةٌ كُبرى ؛ إنّني لن أقبعَ في هذا الطّابق مئة عام
بانتظار أنْ أنتهي من قراءة كتبه جميعها قبل أنْ أنتقل إلى غيره ،
ورحتُ أفكّر في طريقة أتخلّص بها من هذا الكابوس ، فوجدتُ أنّه
يُمكنني أنْ أمرّ عبر الغرفة الإلكترونيّة على فهارس الكتب ، فإذا قرأتُ
فهارسها فذلك يُجزئ . ومكثتُ عامًا آخر وأنا أقرأ تلك الفهارس .
وصار بإمكاني بعد هذا العَناء أنْ أنتقل إلى الطّابق الّذي يقع أسفل
هذا الطّابق . وكان ما اخترته .

(١٩)
نَحنُ نَموت، الكُتُب لا تَموت

إنّه يُشبِه الطّابق الأرضيّ ، إلاّ أنّ بوّابته خشبيّة قديمة بسبب شكلها ، لكنّه يظهر أنّه قد اعتُنِيَ بها أشدّ الاعتِناء ، فبدتْ كأنّها صُنِعَتْ في الألفيّة الرّابعة لميلاد المسيح ،]ملحوظة صغيرة : أنا مِتّ في الألفيّة الثّالثة .[في البرزخ يُمكن أنْ تتعرّف على طريق النّجارة الحديثة والحفر الأنيق على الخشب . والنّجارة الّتي كانت مهنة السّيّد المسيح هي الّتي تُخبر عن زمان هذه البوّابة . فوق قوسها رأيتُ حَفْرًا بديعًا لعبارة لمالكوم إكس ، تقول : «إنّ النّاس لا تعرفُ أنّ كتابًا واحدًا قادرٌ على أنْ يُغيّر مجرى حياةِ إنسان» . وتساءلتُ عن هذا الكتاب الّذي غيّر مجرى حياة قائل هذه العبارة ، فوجدتُ حينَ بحثتُ عن كتابه الّذي يروي سيرته الذّاتيّة أنّه ربّما كان يقصد القرآن . هذا الفتى الثّائر هو الّذي قال في رسالةٍ إلى زوجته : «عزيزتي باتي ؛ ربّما لن تُصدّقي ما سأكتبه لك في هذه الرّسالة ، فأنا الآن في مكّة أُصلّي بجانب رجلٍ أبيض خلفَ رجلٍ أسود ، وآكل من الطّبَق نفسه الّذي يأكل منه رجلٌ بعينَين زرقاوَين ، وأشربُ من الكأس نفسِها الّتي شَرِبَ منها شيخٌ عربيٌّ ببشرةٍ فاتِحة ، لقد أدركتُ الآن وأنا في رِحاب هذه المدينة المُقدّسة بأنّ جميع مشاكل أمريكا العنصريّة لا يُمكن أنْ تُحلّ إلاّ بتعاليم الإسلام» . ولقد تذكّرتُ أنّني شاهدتُ في الفانية فلمًا عن

حياته ، فعرفتُ كيفَ يكون العقل رسولاً للإنسان في اختِلاط الجهات .

المكان هادئٌ ووقور . شموعٌ على الجوانب ، عددها بالمئات لا أدري مَنْ أضاءَها ، وكأنّما فعل ذلك رُهبانٌ وقساوسة وصُوفيّون استعدادًا لتراتيل دينيّة أو صَلَواتٍ من نوعٍ خاصّ ، وفضاءٌ واسعٌ وباردٌ قليلاً ، لكنّه مُنعِش . إنّه الطّابق الّذي يروي تاريخ الكتابة ، والكتب ، والمكتبات . التّاريخ الّذي بدأ به التّاريخ . التّاريخ الّذي أعطى لحضارة الإنسان مفهومًا واضِحًا . فقبل الكتابة كان وجود الإنسان باهِتًا ، يبدو من خلال ضبابٍ كثيفٍ لا تكاد ترى ما وراءه . وبعد الكتابة صار وجود الإنسان حقيقيًا . وأصبح احتِياله على الخلود ممكنًا . حتّى لأولئك الّذين مرّ على موتهم قرونٌ تنفلتُ من العَدّ ، ما زالوا أحياءً في بطون كتبهم . تلك الحضارات حجزتْ لها سطرًا في الخلود من خلال ما كُتِبَ عنها . الكتابة هي الجِسر الّذي أوصل الإنسان من ضِفّة اللاوجود إلى ضِفّة الوجود بوجه من الوجوه ، والكتاب هو وعاء هذه الكتابة ، وكل الكتب الّتي نُقِشَتْ أو سُطِّرتْ أو حُبِّرت أو نُسِخت أو طُبِعتْ هي موجودةٌ في مكانٍ ما هنا ، حتّى ولو كان الاهتِداء إليها يبدو صعبًا أو مُستحيلاً في هذا التّراكم المعرفيّ البشريّ المُذهل والأسطوريّ ، والذّي يعجز العقل البشريّ نفسه الّذي أنتجه عن تصوّره .

أجملُ الخُطُوات ، هي تلك الّتي تذرعها في فِناء مكتبة ، لأنّكَ حينئذٍ ستكون مُحاطًا بأرواح العُظماء من كلّ جهة . نحن نموت ، الكتب لا تموت ، لأنّ أرواح مَنْ كتبوها خالدة ، وفي عالَم البرزخ يُمكنك أنْ تختبر هذه الحقيقة بجَلاء . لكأنّني كنتُ أنتظر هذه اللّحظة عمري كلّه حتّى أعيشَها ، لكأنّ موتي الفيزيائيّ الأوّل الّذي أوصدَ

الباب خلفي إلى غير عودة في الفانية كان في المكتبة من أجل أنْ أحظى في البرزخ بكلّ هذا الجمال وهذه الرّوعة ، ألم يَقُل : «يُبعَث المرء على ما مات عليه»؟!

على لوحة قماشيّة سوداء كبيرة تنسدل على جزءٍ من الجدار الّذي يقع على يمين الدّاخل إلى هنا ، ومن تحتها اثنتا عشرةَ شمعةً تتلوى شُعَلُها كأنّها لن تنطفئ أبدًا ، قرأتُ هذه العبارة المخطوطة بحروف مُذهّبة : «إنّ تأليف الكُتُب لا يقفُ عندَ حَدّ ، وإنّ طَلَب العلم يُضني الأجساد» . وقفتُ أمام العِبارةِ مَليًا ، لقد أعادتْني العِبارة إلى الفانية . لكأنّ العبارة لم تكنْ جديدةً عَليّ ، وإنْ كانت اللّوحة كذلك . وعبرتُ بذاكرتي الأزمنة السّحيقة لأعرف أينَ قرأتُ هذه العبارة ، وشيئًا فشيئًا عبر دهاليز من لُفافات الزّمن ، استطعتُ أنْ أزيح ما تراكم من غُبارٍ على ذاكرتي ، وأنْ أعرف أنّها عبارةٌ على الأرجح وردتْ في التّوراة في إصحاح الجامعة . لكنّ العبارة ليستْ على هذا النّحو تمامًا ، ما الّذي حوّرها هذا التّحوير ، هل هي التّرجمة ، أم أنّ مَنْ حاكَها هنا على هذه اللّوحة حاكَ النّصّ الأصليّ ، وما قرأتُه هو الصّورة ، ورحتُ أبحثُ على عجلٍ عن نُسخةٍ من التّوراة باللّغة العبريّة القديمة ، واهتديتُ إليها في طابق الأديان ، وحملتُ الكتاب ونزلتُ من جديدٍ إلى هنا ، وقرأتُ العبارة على النّحو الآتي : «يا بُنيّ تَحَذّرْ لِعَمَلِ كُتُبٍ كثيرةٍ لا نهاية ، والدّرسُ الكثيرُ تَعَبٌ للجسد» . وأنزلتُ الكتاب وأنا أنظر بين الموضعَين ، وهتفتُ : «كلام الحُكماء كالمناسيس وكأوتادٍ مُنغرزة» . وسمعتُ صوتًا يطرق أذني ، يقول : «لنتذكّرْ أنّ المرء حينَ يقرأ يهربُ من أحقاده ومخاوفه وشهواته ، ليضع نفسه في درجةٍ عُليا من الحرّيّة» . إنّه سارتر هتفتُ في أعماقي ، والتفتّ لألتقيه ، فما وجدتُ إلاّ الفراغ .

خلفَ ظهري تمامًا ، وفي مقابل هذه اللّوحة القماشيّة ، كانتْ تتدلّى من الأعلى لوحةٌ أخرى تُضاهيها في الحجم ، كانت من جوخ أخضر ، وقد رُسِمَ بالخطّ العربيّ الكوفيّ فوقها هذه الآية : «الّذين آتيناهُمُ الكِتابَ يُؤمِنون به» . وفكّرتُ حين يغرق العالَم في الظّلام والفوضَى لا شيء مثل هذه الكتب يُمكن أنْ تُعيدَ له ترتيبَ فوضاه .

هل يُمكن السّيطرة على أفواه المطابع الّتي تُلقِي بكلّ ما في بطونها من كتب في كلّ اتّجاه ، إنّ ما يُطبَع في الزّمن الّذي عِشتُه في عالم كان ينتشر على كوكبه ستّة مليارات بشريّ هو أكثر من عشرة آلاف كتاب في اليوم الواحد ، أينَ تذهب كلّ هذه الكتب الّتي تتنشر بين النّاس كالفيروس ، وتتمدّد كالهواء ، وتسبح كالميكروبات . مَنْ يستطيع أنْ يقرأ كلّ هذه الكتب؟ وَمنْ يَعِي ما خلفَ سُطورها؟ ومَنْ يُدرك خطورة هذا الكتاب أو تفاهته؟! مَنْ له ذلك العقل النّاقد الجَبّار الّذي يُميّز بنظرةٍ واحدةٍ ما إذا كان الكتاب جديرًا بأنْ تُنفق عليه وقتكَ ومالكَ أم لا؟! أنْ تحبسَ نفسك في مكتبك من أجله أم لا؟ أنْ تدفنَ وجهك بين أوراقه أم لا؟! كُنتُ قد وقفتُ مرّة أمام (ستالين) الّذي كانتْ سياسته تقضي بتشجيع الكتب الّتي تخدم الشّيوعيّة والحَدّ من غيرها ، وكان هذا الرّجل الحديديّ يفتتح ذات مرّة معرضًا للكتاب في روسيا ، فمرّ بديوانِ شِعرٍ ، فسأل عن مضمونه ، فقيل له : إنّه لشاعر يتغزّل بحبيبته ، فأمر بإعدام كلّ نُسخ الدّيوان ، والإبقاء على نُسختَين فقط : واحدةٌ للشّاعر وأخرى لحبيبته!!

الكتب تتدفّق في كلّ مكانٍ مثل نهرٍ عظيم ، تتفجّر فيه المياه في كلّ اتّجاه ، لقد كان أبو البركاتِ البغدادي ، يُصنّف الكتب بطريقة صارمة ، ويقول عن بعضِها : «إنّها مسمومة» . المسمومة هي تلك

الكتب الّتي تتحدّث - حسب رأيه - في الفلسفة أو الهرطقة، لقد كان من غير المعقول أنْ تُضيع وقتَك الثّمين في قراءة كتب هي ثمرةُ تصوّرات البشر في إقامة مناظرة للإجابة عن سؤال: هل الله موجودٌ أم لا!! إنّ العُمر لا يتّسع لكلّ هذا الهَذَيان.

الكتب المُؤلّفة مرآة عَصْرها، ورغبةُ سلطانِ زمانها. في زمن (المأمون) انتشرت كتب علم الكلام، لأنّه كان معتزليًا، وكتب الفلسفة لأنّ الكتاب المُترجَم كان يُعطَى وزنَه ذهبًا لمُترجِمه. في زمن جَمْع الحديث استطاع شارحٌ لصحيح البُخاري أنْ يُحصيَ ثلاثمئة شرح أُلّفتْ قبله. ما الّذي يدعو كاتبًا مثله إلى إضافة نُسَخ أخرى من شرح كتاب كان قد شُرِح كلّ هذه الشّروح، أو إضافة حواشٍ على كتاب آخَر، إلاّ إذا كان موضةً، وصورةً لتدفّق مياه النّهر باتّجاه مُحدّدٍ دون سِواه.

في سنوات الطّفولة الأولى كنتُ أقرأ كلّ ما يُحضره لي أبي. تكوّمت لديّ مئات القصص الّتي كانتْ مُناسِبة لسنّي يومئذ. كنتُ أتشكّل روحًا وجسدًا على إيقاع الكلمات الّتي أقرؤها. أُصبح شخصًا آخر بعد كلّ كتابٍ أقرؤه. في الدّرج السّحريّ الّذي تظهر ثلاث درجاتٍ فقط من درجاته الألف، والبقيّة تغرق في الغموض والظّلام، كنتُ أهبط هذا الدّرج بشيءٍ من التّرقّب والخوف، إنّني أعرف أنّه سينقلني إلى عوالم تفصلني عن الواقع. كان هذا الأمر بالنّسبة لي ممتعًا ولذيذًا؛ كنتُ أهيّئ روحي من أجل الذّهاب بعيدًا في العوالم المُتخيّلة الّتي تمنحني إيّاها الكتب عبر ذلك الدّرج السّرّي. مَنْ يستطيع أنْ ينسى أنّني فتى الكلمات مِن الّذين قابلتُهم في صغري أو حتّى عندما كبرت!! انشغل أبي فيما بعد عن أنْ يأتيني بالمزيد. كان يغيبُ

في عمله طويلاً ، قبل أنْ يعودَ في نهاية الأسبوع . وقتُ المدرسة ووقتُ حلّ الواجِبات لم يكنْ يأخذ أكثر من نصف نَهار . وسيتبقّى نِصفٌ آخَر من هذا النّهار حيثُ يشتدّ جوعي ولا أجدُ كتابًا لأقرأه . لم يكنْ يومَها في البيت تِلفازٌ لأتسلّى . كنتُ أتسلّى فقط بالقراءة . وأحيانًا باللّعب على درّاجةٍ هوائيّة هي هديّةُ حفظي للجزأين التاسع والعشرين والثّلاثين من القرآن . كنتُ أعلقُ فوق العجلة الخلفيّة لهذه الدّرّاجة صندوقًا بلاستيكيًا من الصّناديق الّتي كانتْ تُعَبّأ فيها الفاكهة ، وأحملُ فوقَها القصص ؛ ثلاثين أو أربعين قِصّة ، وأذهبُ بها إلى مكتبة (الأمل) في شارع (إيدون) الّذي يتقاطع مع شارع فِراس العجلونيّ . عند نقطة التّقاطع تقع هذه المكتبة . أدُور بدرّاجتي الهوائيّة نصف دورة قبل أنْ أركنها على الجدار الّذي يسبق الباب ، وأحمل قصصي الّتي كانتْ أثمن ما أملك يومَها ، وأدخل بها إلى صاحب المكتبة الّذي كان يعرفني ، وكان يُحاول أنْ يُساعدني في اختيار الكتب . قلت له هذه المرّة : «ليسَ معي نقود . لكنّ هذه القصص الّتي قرأتُها هي نقودي . هل يُمكن أنْ أُبدلّها بقصص أخرى؟!» . ابتسم ، لمعتْ عيناه قبل أنْ يقول : «يُمكنك أنْ تأخذ قصّة واحدةً مقابل قِصّتَين من قصصك . أنا أعطيك قصصًا جديدةً مُقابل هذه القديمة» . ولم يكنْ أمامي خَيارٌ آخَر ، والأسبوع طويل حتّى يأتي أبي ، ولديّ وقتٌ كثيرٌ ، وعشرون قصّة كافيَة لكي أعيشَ عالَمي الخاصّ معها ريثما يأتي أبي في النّهاية . مَنْ قال إنّ القراءة لا تسرقنا منّا؟ ولا تُحطِّم الجسر بيننا وبين العالَم في النّهر أو تحرق المراكب حتّى لا نعود؟!

ولا أدري إنْ كانت طريقتي لقراءة كلّ شيءٍ وصلتُ إليه طريقةً سليمةً . كنُت مثل أرنبٍ أطلِقَ في حقلٍ مُعشِبٍ فسيحٍ فراح يلتهم كلّ

شيء يقع في طريقه . الكثير من العشب والقليل من الفائدة . هكذا كنتُ أرى أسلوبي في القراءة ؛ يحتاج إلى تهذيب وهو أسلوب غير ناجع . لكنّني على الأقلّ ارتبطتُ مع الكتب بعلاقة عشقٍ وثيقة لا يُمكنّ أنْ تنفصم عُراها .

الكتب الموجودة هنا هي أصوات . كلّ كتابٍ في الفانية موجودٌ منه نسخةٌ واحدةٌ هنا ، حتّى تلك الّتي أُحرقت في زمن العصبيّات العمياء . وكلّ كتابٍ قُرئ بصوتِ قارئٍ في الفانية ، هو الآخر لا يموت ، لأنّ الصّوت لا يموت . والدّليل وجودُ نسخةٍ من هذا الكتاب هنا . هُنا لا يُمكن أنْ يوجَد نَصٌّ ورقيّ لم يكنْ أحدٌ ما قد قرأه في الفانية في زمانٍ ما ، الكتب الّتي لم تُقرأ في الفانية ليس لها وجود . وفي الحقيقة ما مِن كتابٍ إلاّ وَقُرِئَتْ منه نُسخةٌ واحدةٌ على الأقلّ من قِبَل قارئٍ واحد مُحتَملٍ على الأقلّ!! عندما كبرتُ كنتُ أهبُ جسدي للعمل في النّهار من أجل لقمة العيش ، وأقرأ في اللّيل من أجل أنْ يرتاح هذا الجسد المُنهَك . كان العقل يقول ذلك للجسد . العقل الّذي يكون في أبهى حالاتِه صِحّةً بالقراءة يهبُ الجسد راحةً وانتشاءً .

الغرق بين الكتب أمرٌ ممتعٌ . أمرٌ لا يُمكن الشّبع منه ، ولكنّ نداء البشريّ في الانجِذاب إلى طينيّته يقطع هذه المتعة في البحث عن أمور مُشتهاةٍ أخرى . في غمرة الخَطَرات الّتي ترد على الذّهن ، فكّرتُ عمّا يُوجد خلفَ هذه المكتبة ، هل هي كلّ عالَمي في هذه السّنوات الّتي تمرّ عليّ هنا ، ماذا لو جرّبتُ أنْ أخرج من الباب الخلفيّ لهذه المكتبة لأبحث عن العالَم الآخَر الّذي يختبئ خلفَها . أنا هنا منذ ما يزيدُ عن ثلاثِ سنواتٍ ، وقد مرّتْ سريعًا ، لأنّها مرّت فيما أحبّ ، لكنّ التّوق إلى التّغيير ، إلى كَسْر الرّتابة هو الّذي قَضى عليّ في النّعيم الأوّل

الّذي عِشته خلف ذلك الجبل الأجرد البعيد ، فهل البحث من جديد ، عن حياةٍ أخرى هو الّذي سيقضي عليّ في هذا النّعيم الثّاني؟!

صعدتُ إلى طابق الدّيانات ، الطّابق الّذي أدخلني إلى هذه المكتبة . مشيتُ باتّجاه معاكسٍ للمدخل على أمل أنْ أجدَ المخرج ، فما وجدتُ غير جدارٍ عالٍ ينهضُ في الوجه إلى الأعالي بالكتب . ما من مخرج إذًا هنا في هذا الطّابق ، لكنّ بناءً عملاقًا مثل هذا لا يُمكن أنْ يكون بمدخلٍ واحدٍ ودون مخرجٍ أبدًا ، إنّه موجودٌ في مكانٍ ما ، وعليّ أنْ أجده!

فكّرتُ في أنْ أستخدم المصعد من أجل أنْ أصعد إلى أعلى طابق وأنظر من هناك لعلّي أجد تلك البوّابة الّتي تُفضي إلى العالَم الآخَر ، أوْ أهبطَ إلى أسفل طابقٍ ، لكنّني تذكّرتُ أنّني لا يُمكن أنْ أغادر أيّ طابقٍ من هذه الطّوابق دون أنْ أقرأ كلّ ما فيه من الكتب ، أو أمرّ على فهارسها على الأقلّ ، وهذا يستغرق سنوات ليستْ قليلةً . في الطّوابق الّتي أتممتُ قراءة ما فيها كان يُمكنني أنْ أتحرّك بينها كما أشاء . حتّى الآن لا يُمكنني إلاّ أنْ أتحرّك بين هذين الطّابقَين فقط ؛ طابق الدّيانات ، وطابق المكتبات .

هل الكتب أحلامنا أم منايانا؟ هل هي خطايانا أم حسناتنا؟ إذا كانت الخطيئة غريزةً رُكّبتْ في أفعال البشر ، فإنّ أحمد بن حنبل يرى أنّ كتبنا تحمل وجهًا من وجوه تلك الخطيئة ، قرأتُ هذا هنا ، وإنّه لا بُدّ أنْ نكون حَذِرين من جِهتَين ، في كتابتها حين نخطّها بأيدينا ، فالكلمة مدخل الخطيئة ، هذا من جهة ، وحذرين في قراءتها من جهةٍ أخرى ، فالقراءة فِعلٌ ، والفِعل تكليف ، ونحن عليه مُحاسَبون . وما

معنى : «اقرأْ كتابكَ» . الّتي ستُقال يوم يُساقُ الواحد منّا إلى الموقف الّذي لا مهربَ له منه؟ هل هو كتاب الأفعال أم الأقوال أم الخطوط ، أم كلّ ذلك مُجتمِعًا؟ أهذا الكتاب الّذي ستقرؤه وستستمعك نفسُكَ وأنتَ تتلوه مُقسّم إلى أبوابٍ ثلاثة ، بابٍ لِما كتبْتَ فيه من عملٍ ، وبابٍ لما كتبتَ فيه من قول ، وبابٍ لما كتبتَ بريشتك ، يومَ كان النّاسُ ينتظرون ما تكتب ، فيضلّون أو يهتدون لكلمةٍ أو بكلمةٍ منه وأنتَ لا تدري ، ولم تكنْ لتحسبَ لها أيّ حسابٍ! ولمع في ذهني بيتان لا أدري أين قرأتُهما في الفانية في أيّ كتاب ، يذهبان مذهب أحمد بن حنبل ، يقول صاحِبهما :

وما من كاتبٍ إلاّ سَيَبْلى
ويُبقي الدّهرُ ما كتبتْ يداهُ
فلا تكتُبْ يَمينُكَ غيرَ شيءٍ
يَسُرُّكَ في القِيامةِ أنْ تراه

ومضيتُ إلى غرفة مكتبي لأنام ساعةً أو اثنتَين ، وأواصل رحلتي في هذا العالَم ، فإنّ عمرًا مَضى لا يُمكن أنْ يعود إلينا أو نعود إليه ، وإنّ لي السّاعة الّتي أنا فيها والسّاعة الآتية :

وأعلمُ علم اليوم والأمسِ قَبْلَهُ
ولكنّني عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِي

(٢٠)
مِن أيّ نوعٍ من الجنون خُلِقت عقول هؤلاء العباقرة؟!

أوّل إمبـراطور رومـانيّ مُقـدّس، شـارلمان، اتّخذ من مـدينة آخن الألمانيّة عاصمة إمبراطوريّته، تُحَفُها المِعماريّة ظلّتْ شاهدةً على أثره حتّى في الألفيّة الّتي غادرتُ فيها الفانية، زرتُها في صيف عام ٢٠١٨ وعرفتُ أنّ للعظمة ألفَ وجه، كان شَغوفًا بالمعرفة على نحوٍ لا يُصدّق، في زمانه انتشرت الأمّيّة حتى لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين، دعا الكُتّاب والشّعراء والفلاسفة والمُفكّرين أنْ يُشاركوه في النّهضة الّتي يطمح إليها، شَكّل بنفسه مجموعاتٍ كبيرة من النُّسّاخ الّذين نسخوا بأيديهم آلاف الكُتُب وأسّسوا بها أروعَ مكتبةٍ في أوروبا في نهاية القرن الثّامن الميلادي، هذا الّذي حارب الأمّيّة في كلّ مكان، وقدّم للقراءة ما لم يُقدّم سِواه، والّذي من مركزه انطلقت أشعّة النّور في كلّ اتّجاه؛ كان أُمّيًا!! هنا في هذه المكتبة الّتي أعيش بين رفوفها والّتي بطبيعة الحال تفوّقت على مكتبته الّتي أسّسها هو، بل تفوّقت على أكبر مكتبات الكون فيما بعد كمكتبة الكونجرس في أمـريكا أيّام سطوة رجل الكاوبوي الأبيض، أقـول هنا، وجـدتُ العشرات من الكتب الّتي أمر بنسخها يومئذٍ. لم يكنْ بِدعًا في ذلك. النّبيّ الخاتم الّذي كان أُمّيًا كذلك أسّس حضارةً معرفيّة مُعجِزة، دان

لها الكون بكلّ أديانه وألوانه وأزمنته وأمكنته . العظمة في أنْ تصنع العُظماء ، في أنْ تحمل الشّعلة المُقدّسة إلى النّقطة الّتي يرتكز عليها الكون في أعلى مكان في السّماء لتُضيء للسّارين على هذه الذّرّة التّائهة دُروبَهم ، تلك الّتي تغرق في الوحل والظّلام!!

مكتبة الإسكندريّة الّتي تُشرف على المُتوسّط اليوم في شمال مصر أنشأها في الأساس الملوك البطالسة في نهاية القرن الثّالث قبل الميلاد . كان يُراد أنْ تكون أسطورةً تُروَى على كلّ لسان . على أنّ عَظَمتها لم يكنْ في بِنائها فحسب ، بل في فكرة أنّها ربما تكونُ أوّل مكتبة عامّة ، إذ إنّ مكتبات العالَم القديم كانت عبارة عن مجموعات كتب شخصيّة تعود لأفراد من طبقة المُوسرين أو الحُكّام أو الفلاسفة . قرأتُ عند (ألبرتو مانغويل) أكثر الأشخاص الّذين عاصرتُهم في الفانية هَوَسًا بالكتب ، أنّه عُثِر على وثيقة من القرن الثّاني قبل الميلاد تُدعَى «(رسالة أرستياس) تَرِد فيها قصّةٌ حولَ أصل مكتبة الإسكندريّة ، حيثُ إنّها شيدت كرمزٍ ، بناءً على حُلُم هائل ، ومن أجل أنْ يحشد الملك بطليموس الأوّل مكتبةً كونيّة كتب إلىّ جميع ملوك وحُكّام الأرض يرجوهم أنْ يبعثوا أيّ نوع من الكتب لأيّ نوع من المُؤلّفين ؛ شعراء ، كُتّاب قصص ، خُطباء ، وصوفيّين ، أطبّاءً ، وعرّافين ، مُؤرّخين وغيرهم» . استجاب له عددٌ كبير ، أحصى القائمون على المكتبة الّذين وردتْهم الرّقوق من كلّ مكان خمسمئة ألف لُفافة من الرّقّ كانت المكتبة بحاجة إليها . هنا ستجد لو كان لديك الوقت الكافي كلّ هذه الرّقوق ، لكنْ من الصّعب أنْ تعرف أمكنتها ، حيثُ تتوزّع في كلّ الطّوابق ، وأنا أعتقد أنّ جزءًا كبيرًا منها يستوطن تحت الرّخام في الكتب المنبوذة ، أو تلك الّتي قرأها بشريّ لو مخلوقٌ قبلي مرّ بهذا المكان .

وعادَني التّوق إلى البشر . وتساءلت فيما إذا كانت المكتبة على ضخامتها المُرعبة هذه ، واحتِوائها على كتابات الأوّلين والآخرين ، يعيشُ فيها بشرٌ سواي ، أم أنّها ضاقت على اتّساعها هذا عن أنْ تحوي في بطنها إلاّ بشريًا واحدًا في وقت واحد . ورحتُ أفكّر فيما إذا كان بعضُ البشر موجودين معي هنا في غير الطّابقَين اللّذَين أتمَمْتُهما ، هل من بشرٍ مثلاً في الطّابق السّادس العلوي أوّ الرّابع السّفليّ أو سِواهما . ورحتُ أفكّر في المرور السّريع على فهارس الكتب علّني حين أنتهي من قراءتها أنتقل إلى طابقٍ آخر ما زال فيه بشريٌّ لم يُنهِه فألتقيه ، فأنظر في عينَيه وأحاوره ، فأنا بحاجةٍ حقيقيّة إلى قلب ، إلى شيءٍ من الشّعور بَحَرّ الأنفاس ، إنّه الأمر الّذي اضطرّني إلى الخروج من النّعيم الأوّل .

المرض بالكتب لم يُصبْني وحدي . في الفانية صنعتُ ما صنع بطليموس الأوّل . جمعتُ قبل أنْ أغادرها ما يقرب من نصف مليون كتاب . لا أدري ما فعلَ بها مَنْ جاء بعدي . أنا لا أثق بالدّولة ، إنّها ستُهملها . ربّما لو قامتْ مُؤسّسة تعليميّة كُبرَى بالإشراف عليها ، ومواصلة فَتْح الباب للتّائقين إلى الحكمة أنْ يستفيدوا من كنوزها لكان هذا غاية ما أريد!

كنتُ مُحاطًا بالكتب كإحاطة الأشجار والأوراق بزهرةٍ صغيرةٍ في حقلٍ ممتدّ كبحر ، وفسيح كفضاء . حينَ تحدث الكوارث قد نحاول النّجاة نحن البشر ، كلّ شيءٍ مفقودٍ في الحروب والحرائق والزّلازل يهون أمام أنْ تُفقَدَ الكتب . فكّرتُ أيّام ما كانت مكتبتي في الفانية تتضخّم فيما إذا حدثتْ حربٌ كيفَ أهرب بهذا العدد الضّخم من الكتب لتنجو ، كانتْ فكرة أنّها قد تُدمّر بقذيفةٍ واحدةٍ من صاروخٍ

أعمى تُصيبني بالهلع . ومع أنّ هذا ما حدث لمكتبة بغداد في زمان الهولاكين ، هولاكو القرن الثالث عشر الميلادي ، وهولاكو القرن الواحد والعشرين الميلادي (بوش الابن) الّذي دمّر مكتبة بغداد ، وقضى عليها بطريقة ممنهجة أشدّ همجيّة ممّا فعله جدّه هولاكو الأوّل . وحدث أيضًا لمكتبةً الإسكندريّة الأسطوريّة الّتي احترقتْ سنة ٤٧ قبل الميلاد وحولّت النّيرانُ مئاتِ الآلاف من لُفافات البردي إلى رماد بسبب المعارك الّتي خاضها يوليوس قيصر ضدّ شقيق كليوباترة قبل أنْ يُعاد بناؤها في عام ٢٠٠٢م من جديد . إلاّ أنّني وجدتُ عزاءً في فكرة نفّذها عاشقٌ من نوع خاصٍّ للكتب ، تقول المعلومة الّتي قرأتُها عندَ (غاليانو) في (أطفال الزّمن) أيّام كنتُ أغيبُ لأيّام في مكتبتي الخاصّة أنّ الوزير الفارسيّ (عبد القاسم إسماعيل) حافظ في نهاية القرن العاشر الميلاديّ على الكتب سليمةً من الحرب والحريق ، إذْ «حَمَلَ هذا المُسافر الذّكيّ والحكيم ، الّذي لا يتعب ، مكتبته معه . شكّل ١١٧ ألفَ كتاب على ظهور أربعمئة جمل قافلةً بطول مِيل . كانت الجِمال أيضًا مُبوّبة : فقد رُتّبتْ بحسب عناوين الكتب الّتي حَمَلَتْها ، قطيعٌ لكلّ من أحرف الأبجديّة الفارسيّة الاثنين وثلاثين»!!

هأنذا عَطِشٌ حتّى لكأنّ العطش الّذي يجعل النّوم عليّ عَصيًا لا ينتهي ، أرى الماء من حولي في كلّ مكان ، ولكنّني لا أستطيع أنْ أشربه ، كيفَ يُمكن لظامِئٍ ترويه كأسٌ واحدةٌ أنْ يشربَ المُحيط الهائج دُفعةً واحدة!!

ماذا عن أولئك الّذين يبيعون كُتُبَهم؟ ماذا عن الّذين يتخلّون عن ابنٍ مقابل حفنةٍ من المال؟! لقد كان والد عاموس عوز في (قصّة عن الحبِّ والظّلام) حينَ يستبدّ بعائلته الجوع ، تنظر زوجته إليه نظرةً ذات

معنى ، يفهم منها أنَّ عددًا من الكُتُب لا بُدَّ أنْ يجد طريقه إلى السّوق من أجل ربْطة خُبز . الكتاب لن يُحافظ على رمق الحياة طويلاً في زمن يضرب فيه الجوع حتّى قطط الشّوارع فلا تجد شيئًا لتأكله . في المرّات الّتي خرج فيها والد عاموس عوز ليبيع الكتب من أجل الخُبز كثيرًا ما كان يعود مُتأبّطًا تحت ذراعَيه مجموعةً أخرى من الكتب قد استبدلها بمجموعته الأولى ، كان يعتقد هو وابنه وزوجته أنّهم يُمكن أنْ يصبروا ليلةً أو ليلتَين أُخريَين أمام العصافير الّتي تنقر أمعاءهم الخاوية ، لكنّهم يعرفون أنّ الأب لا يُمكن أن يقف أمام كتاب ثمين ونادر دون أنْ يشتريه ولو باع من أجله قميصه الوحيد الّذي يلبسه!!

إنّني أتذكّر ممّا قاله الخطيب البغداديّ أنّ عالمًا باعَ كتابًا ظنًّا منه أنّه لن يحتاجَ إليه ، ثُمّ أرادَ أنْ يكتبَ بحثًا ، فعلم أنّ شيئًا ممّا يتّصل بالبحث هو في ذلك الكتاب ، فراح يبحثُ ليلتَه عنه في مكتبته فلم يجدْه ، وتذكّر أنّه باعه فندم ، وقرّر أنْ يسأل عنه أحد العلماء في صباح اليوم التّالي . وظلّ طوالَ ليله واقفًا على قدمَيه مثل تمثال رُخاميّ دون أنْ ينام مع شدّة تعبه ، وعندما سُئِل : لماذا وقفَ ولم يجلس؟ أجاب : لقد استبدّ بي القلق لدرجة أنّني نسيتُ أنّني واقف ، ولم يغمضْ لي جَفنٌ .

لكنْ ماذا عن حريقٍ من نوعٍ آخر ، حريقٍ ترتكبه الدّولة أو الاصطفافات الفكريّة عمدًا . كمْ من كتبٍ أُحرقتْ في محاكم التّفتيش ، حتّى إنّها كانتْ تُشكّل تلالاً من الورق ، يُسكَب فوقها الزّيت ، وتُرمَى فيها الجذوة المُشتعلة ، فتأتي النّيران عليها كلّها قبل أنْ تذروها الرّياح رمادًا في كلّ اتّجاه؟! وفي الحرب - من أجل أنْ تَسُوقَ النّاس سَوْقًا ليحارِبوا إلى جانبك ، وليُؤمِنوا بفكرتك على أنّها هي

الفكرة الوحيدة الصّائبة - كان على الدّولة أنْ تحرق كلّ ما لا يُصفَق لها، لأنه يُشكّل خطرًا من نوع ما، أحرقت ألمانيا النّازيّة كتب أرنست بلوخ، وبرتولت بريخت، وألبرت أينشتاين، وفريدريك إنجلز، وسيغموند فرويد، وجورج لوكاس، ولودفيغ ماركيوس، وفيكتور هوجو، وأندريه جيد، وأرنست همنغواي، وجاك لندن، وهيلين كيلر، وجوزيف كونراد، وجيمس جويس، ودوستويفسكي، ومكسيم غوركي، وفلاديمير نابوكوف، وليو تولستوي، وفلاديمير ماياكوفسكي. ومن بينهم جميعًا سمعتُ صوت ماري كوري يهتف: «إنّنا نخاف فقط ما نجهله، ولا يُوجَد ما يُخيفنا على الإطلاق بعد أنْ نفهمه». فهل الخوف والجهل هما السّبب؟ هل أعدموا كتب هؤلاء لأنّهم لم يفهموها، أو لأنّهم فهموها خطأً!!

الكتب الّتي أُحرقتْ لم يبقَ من بعد حريقها إلاّ الرّماد، لكنّها جميعًا نجتْ بطريقةٍ أو أخرى. ربّما من الصّعب تصديقُ ذلك؛ نُسخةٌ وُجدتْ على عربةٍ لبيع (البوظا) في (المكتبة) لـ (زوران جيفكوفيتش). نُسخةٌ وُجِدت في سور الأزبكيّة في القاهرة. ونُسخةٌ في معرض فرانكفورت في زاوية الكتب القديمة. ونُسخةٌ وجدت في عقل قارئ حُفَظة. ونُسخةٌ مضمونةٌ وُجِدت هنا في هذه المكتبة الّتي أعيش فيها اليوم!!

ولكنْ ماذا عن المُسلمين؟ ماذا عن ابن عربي الّذي قال (السّخاوي) في (الضّوء اللامع) أنّ الفتوى قالتْ بوجوب إتلاف كُتُبه لمن كان قادرًا على ذلك لأيّ كتابٍ له وُجِدَ في أيّ مكان؟ وذهبَ بعضُ أهل الفتوى إلى أنْ تُربطَ كُتُبُه في ذيول الكلاب تجرّها خلفها على التّراب والأوساخ في الأسواق والطّرقات أمام أعين النّاس؟ إنّنا

اليوم لا نعرفُ مَنْ أفتى بذلك ، ولا مَن اخترع فِكرةً شيطانيّة كفكرة ربط الكتب في ذيول الكلاب ، لكنّنا بالتّأكيد نعرف ابن عربي ، وهو معي هنا يعيشُ كما لو أنّني أشعر بصوته وحَرّ أنفاسه في الطّابق الأوّل كلّما مررتُ به ، وقد ألتقيه مرّةً أخرى في الطّوابق العلويّة . ماتَ مَنْ أمر بإعدام كتبه ، وظلّتْ كتبه حيّة ما حيي الدّهر .

لا أدري إنْ كان هذا البناء انبثق من باطن الأرض فجأةً . ولا أدري إنْ عاش فيه قبلي آخرون ، أو إنْ كان سيعيش فيه بعدي عابرون سِواي . الّذي أعرفه أنّني سأبدأ بالمرور على فهارس الكتب في كلّ طابق ، من أجل أنْ أجد منفذًا للخروج ، لأنّني في هذا النّعيم الغريب بدأتُ أشعر بالملل . إنّها طبيعة البشريّ فِيّ ، فَمَنْ يلومني!!

كان أستاذ الدّين وأنا في مرحلة الدّراسة الثّانوية يحذّرني من شيئَين ، أنْ أستمر في كتابة الشّعر ، ماطًا صوتَه بهذه الكلمات : «لأنْ يمتلئ جوفُ أحدكم قيحًا خيرٌ له من أنْ يمتلئ شعرًا» . هذا هو الشّيء الأوّل ، وأمّا الشّيء الثّاني فكان يُحذّرني من أنْ أقرأ لأبي العلاء المعرّي لأنّه مُهرطِق وزنديق ، ولأنّه كتب كتابًا ينتقدُ فيه القرآن . قضى عليه الموتُ قبلي في الفانية ، أرجو أنْ يكو قد صار إلى رحمة الله ، ولكنّني مدينٌ له إلى اليوم بهذين التّحذيرَين ، على الأقلّ في الأمر الثّاني ، وهو عدم الاقتراب ممّا كتبه أبو العلاء المعرّي من شِعر ونَثر ، إذ إنّني منذ ذلك اليوم الّذي أطلقَ فيه صيحة التّحذير في وجهي بحثتُ عن كلّ ما كتبه أبو العلاء المعريّ ، وعكفتُ على قراءته ، ودخلتُ إلى عالَم أبي العلاء الرّحب الأخّاذ ، الغامض السّاحر ، الظّاهر الباطن ، السّهل المُمتنع ، ومن فُضُول القول أنْ أتحدّث عن المعجم الضّخم الّذي يمتلكه هذا الرّجل المُدهِش ، والّذي لم يمرّ عليّ مِمّن

لكنّ ما حيّرني هو أنّني بحثتُ
تلمذتُ لهم رجلٌ يملك معجمًا بثرائه . لكنّ ما حيّرني هو أنّني بحثتُ في الفانية عن الكتاب الّذي انتقدَ فيه القرآن فلم أجدْه ، وحينَ صرتُ إلى البرزخ في هذه المكتبة الّتي لم تُغادِر صغيرًا من الكتب ولا كبيرًا إلاّ أحصتْه قلتُ : لقد حانت الفرصة الّتي حِيلَ في الفانية بيني وبينها دون أنْ أنالها ، فرحتُ أبحثُ في الحاسوب عن المؤلِّف ، فوجدتُ لأبي العلاء أكثر من ثلاثمئة كتاب ليس هذا الكتاب من بينها ، ثُمّ إنّني قلتُ ، لعلّهُ يقصد كتاب : (مُعجِز أحمد) الّذي يشرح فيه ديوان المتنبّي ، والّذي ليس فيه من إشكالٍ سوى في الاسم ، وأمّا المضمون فهو أحد الشّروح الألف الّتي أدار عليها شُرّاح المتنبّي أقلامَهم .

إنّ حريقًا تفتعله السّلطة لإعدام كتاب ، أو جهةٍ فقهيّة تُفتي بالتّخلّص من كِتابٍ لهو أمرٌ قاسٍ لكنّه قد يكون مُسوّغًا ، أمّا الأقسى منه والأشدّ فهو أنْ يُبادر الكاتبُ بنفسه ليقوم بدور السّلطة فيقضي على كُتُبِه . والسّؤال : ما الّذي يدفع كاتِبًا بذل في كتابٍ عُصارةَ فكره ، وذوبَ قلبه ، وقضى فيه اللّيالي والشّهور والسّنوات ، وأنفق فيه الأموال والأعمار أنْ يقرّر التّخلّص منه في لحظةٍ فارقة؟!

عنّ ببالي أنْ ألتقي بهذا الصّنفِ العجيب من الكُتّاب . تسعة عشر مِجَسًّا على جوانب القاعة ، بالضّغط عليها يصعد إلى أعلى القاعة مخروطٌ يحوي الكتب المنبوذة بوجهٍ أو بآخر ، صعد إلى أعلى كلّ ما في رخام القاعدة الأرضيّة لطابق المكتبات من مخاريط . في كلّ مخروط ، كان هناك رفٌّ مميّز بلونه الأرجوانيّ ، وفي هذا الرّف المميّز كذلك كتاب وُضعَ بشكلٍ غريب ، إذْ إنّ كلّ الكتب كانتْ موضوعة بحيثُ يظهر منها كعبُها المخطوط عليه اسم الكتاب ، إلاّ كتابًا واحدًا كان يظهر الجانب المقابل للكعب ، فلا ترى غير سُمك الكتاب دون أنْ

تعرف كاتبه ، عرفتُ أنّ هذا الكتاب هو بُغيتي . في كلّ مخروط من هذه المخاريط حملتُ هذا الكتاب الّذي يعطيني بَطنَه بدلاً من أنْ يُعطيني كَعبَه ، واستللتُ بهذه الطرّيقة تسعةَ عشر كتابًا ، وحملتُها إلى غرفتي . كنتُ على قناعةٍ من أنّ أرواحهم ستحضر . القناعة الأخرى الّتي تشكّلت لديّ وأنا في طريقي إلى الغرفة أنّهم جائعون ، وأنّ عليّ أنْ أُعِدّ لهم طعامًا . لكنّني تحيّرتُ أيّ طعام سيأكلون ، وكلّ واحدٍ منهم كان يعيشُ في زمانٍ مختلفٍ عن الآخر ، وبالتّالي ستختلفُ تبعًا لذلك أذواقهم ، وحتّى لو كانوا يعيشون في زمانٍ واحدٍ ، فإنّ ذلك لا يعني أنّهم مُتشابهون في أذواقهم ، هذا كان أكثر ما حيّرني ، لكنّني قلتُ في نفسي ، لقد صِرنا في زِمانٍ واحدٍ ، وإنْ تباعَدْنا في الفانية في الأزمنة والأمكنة ، فإنّنا اليوم متساوون ، ولا بُدّ أنّ طعام البرزخ يُناسبهم ويناسبني معهم جميعًا!!

وضعتُ الكتب بشكلٍ أنيقٍ على المكتب . أوقفتُها على حُروفِها كلّ كتابٍ بجانب أخيه حتّى شكّلوا نصفَ دائرة . ووقفتُ في مركزها . بدونا كما لو كُنّا هياكل حيّة تستعدّ للنّفخة من أجل أنْ تدبّ على الأرض .

(٢١)

الظَنّ بالله يقين

تركتُ المكتب ، بضغطة واحدة على مِجسٍّ يقع على يمين الدّاخل من الباب ، برز من الحائط تسعة عشر مقعدًا حجريًا ، يُشبه تلك المقاعد الّتي كانتْ مُخصّصة للفلاسفة الرّواقيّين في عهد روما والتّي كان يجلسُ إليها (زينون) . غيرَ أنّ هذا الزّمن بدا مُوغِلاً في القِدَم تمامًا كما كان العهد الّذي نحن فيه موغلاً في الحداثة . ذهبتُ إلى الحائط الّذي ينفتح فيه بابٌ على الثّلاّجة الّتي تحوي أطايب الطّعام . كنتُ في الفانية أعرفُ نوعَين أو ثلاثةً من الأطعمة الفاخرة . كان المنسف بالنّسبة لي أحدها . تذكّرتُ أنّه هنا كثيرون لا يُحبّون اللّبن المطبوخ باللّحم ، خاصّة اليهود كفرانز كافكا ، أو أولئك القادمون من المغرب العربيّ أو الأندلسيّ كابن رُشد . أو من أوروبّا ككوبرنيكوس . استعنتُ بالتّاريخ لأختار منه الطّعام المُناسب لكلّ هذه الخلطة العجيبة من الكُتّاب . اهتديتُ إلى ما فعله إبراهيم . فطلبتُ عِجلاً حنيذًا . اللّحم المشويّ لم يعترضْ عليه في التّاريخ إلاّ القليل من العُظماء ، مثل غاندي ، والحلاّج ، وول ديورانت ، وأبو العلاء المعرّي . كان قُتار اللّحم المُتبّل شهيًا إلى درجة أنّنا نسينا أنّنا في البرزخ ، والعِجل قد نُضّد تنضيدًا ، وزُيّنَ للنّاظرين تزيينًا ، فقدّمتُه إليهم ، ودعوتُهم أنْ يأكلوا منه قبل أنْ نبدأ الحِوار ؛ فإنّ استظهار ما في العقل من رأيٍ نَصَبٌ ، وإنّ

الإتيان بالحجّة أمرٌ صَعبٌ ، ولا بُدّ من الطّعام لتُنلّل هذه الحُزُون . فنظروا إليّ كأنّني قدّمتُ لهم أفعى سامّة ، أو ضبعًا مُتذبّحَةً ، أو مومياء متلطّخة بالسّواد ، وكفّوا أيدهم ، وأشاحوا بروؤسهم ، وزمّوا شفاهَهم ، كأنّما قد اتّفقوا على ذلك جميعًا . فلمّا رأيتُ أيديهم لا تَصِلُ إليه نَكِرتُهم ، وأوجستُ في نفسي خِيفةً . فقال لي أوسطهم : لا تخفْ . إنّما نحن أرواحٌ ، ولعلّك نسيت ، أنّ النّور والرّوح لا يأكلان ، فإنْ جمعتَنا للطّعام فارفعْه ، وإنْ جمعتَنا للرّأي ، فنحنُ أهله . فابتسمتُ بعد تقطيب ، وانشرح صدري بعد انقباض . ورفعتُ الطّعام ، وعدتُ إلى مائدةٍ من نوعٍ آخَر . ونظرتُ إلى هذا الّذي برّد بقوله الرّقيق لواعجَ قلبي ، فإذا هو يلبَس عمامةً خفيفةً ، وقد أسدل يده اليُمنى إلى جانبه ، وأوقف كتابًا على رُكبته واضِعًا يده فوقَه ، وناظِرًا في عَينَيّ بشكلٍ مُباشر ، فنظرتُ إلى الكلمة المكتوبة على غلاف الكتاب ، فإذا هي : (الحَيَوان) ، فسألته : «آلجاحظ الّذي ينظر في عَينَيّ؟» . فردّ : «لا . ولكنْ لِمَ ظننتَ أنّني الجاحظ؟» . فقلت : «لأنّني أعرف أنّ كتابَ الحيوان للجاحظ» . فضحك ، وأرجع رأسه إلى الخلف حتّى بانت ترقوته ، وقال : «هذا العُنوان لكثيرين ، سبقوا الجاحظ ، منهم شيخُنا أرسطو» . فخجلتُ من جرأتي في السّؤال ، وجهلي ، فخفضتُ بصري ، وقلتُ : «لعلّك ابن رشد» . فقال : «بلى» . فقلتُ : «ففيمَ أحرقوا كُتُبَك؟» . «الرّأي عند الجَهَلة جريمة . والّذين وجدوا آباءهم على أمّة يصعب عليهم أنْ يُغيّروا هذه الأمّة ، وإنّما أردتُ أنْ أقول ما كان عنه مسكوتًا . وإنّ الكلام عن المسكوت يجلب النّقمة» . فقلتُ : «أتعرف ما يقول عنكَ بِتْرارك؟» . فسألني : «أكان هذا على زماننا؟» . فأعجبني أنّه لا يعرف ، فسارعتُ بالقول : «كلاّ ، ولكنّه جاء من بعدُ» . فسأل

بقلق : «وماذا قال؟» . فقلتُ : «لقد وصفكَ أوصافًا شنيعة» . فردَ وقد ارتاح : «أفَعَل ما فَعَله الغزالي؟» . فقلتُ : «كلا» . فقال وقد ضاقَ ذرعًا بي : «فماذا قال أيّها الحدَث؟» . فقلتُ : «لقد قال إنّكَ مثلُ الكلْب الكَلب الّذي هاجه غيظٌ ممقوتٌ ؛ فأخذ ينبح على سيّده ومولاه المسيح والدّيانة الكاثوليكيّة» . فوجدتُ ابتسامته قد اتّسعتْ ، وردَ : «ظننتُ أنّه يردَ على ما كنتُ أكتب ، فإذا هو يتّخذ من الشّتيمة رَدًا ، هذا أضعفُ النّاس ؛ فإنْ كان قد شتم روحي الشّخصيّة فإنّها قد فنيتْ ولم تعدَ تحسّ بشيء ، وأمّا الرّوح الإلهيّة فإنّها خالدة ، وهأنذا على أحسن ما تراني لم يَمْسَسْني سُوء» . فعاجلتُه : «ولكنّك لا تدري ما صنع بِكَ صاحب الكوميديا الإلهيّة» . فقال : «ما صنع؟ ومَنْ هذا صاحب الكوميديا؟» . فقلتُ : «إنّه دانتي» . فقال : «وما يهمّني منه؟ هل أضاف رسالة من أجل سرمديّة الكون؟» . فقلتُ : «كلا ، ولكنّه في أنشودته الرّابعة وضعكَ في الجحيم» . فتعجّب وقال : «أيضع نفسه موضع الله ، إنّ هذا لشيءٌ عُجاب؟!» . فقلتُ : «لقد فعلها من قبله المعرّي في الغُفران» . فردَ : «وهذا الآخر أعجبُ منه ، إنْ كنتُ لأرجو أنْ أُخلِفَ ظنّه ، فإنّ الظنّ بالبشر سقيم ، والظّنّ بالله يقين» . ثُمّ إنّه ظهر من خلفه رجلٌ أصلع شابتْ لحِيته الكثّة ، يحمل في يده فرجارًا ، فأُشكل عليّ إنْ كان (فيثاغورس) أو (أرخميدس) .

وبدأ ابن رُشد يغيب في غلالةٍ حمراء ، وخشيتُ أنْ يكون قد تأثّر بما أخبرتُه به ، فأردتُ أنْ أستبقيه ، فلم أُفلح ، فأردتُ أنْ أنثر شيئًا من الطّمأنينة في قلبه ، فقلتُ وهو يغيب في الغلالة : «يا سيّدي ، لا تحزن ؛ فالّذين أنصفوك كُثر ، العقّاد ، وبورخيس ، وجيمس جويس ، وهذا الأخير يجلسُ معنا ، فإنْ شئت فاسألْه» . لكنّه كان قد غاب

تمامًا، كما يغيبُ الخاتم إذا سقط في النّهر.

ثُمّ برز للكلام شيخٌ حُفَظَة، وإذا هو يُنشد:

صَحَا القلبُ عن سَلْمَى وَمَلّ العَواذلُ
وَمَا كَادَ لأيًا حُبُّ سَلْمَى يُزايِلُ

فأكملتُ:

فُؤادِيَ حتّى طارَ غَيُّ شَبِيْبَتي
وَحَتّى عَلا وَخْطٌ من الشَّيْب شامِلُ

وترنّمتُ معه كما كنتُ أفعل مع أبي، يقول بيتًا، وأقولُ بيتًا حتّى أتينا عليها كُلّها، وكنتُ قد حفظتُها في الفانية، فقلتُ: «لعلّك الضّبّيّ». فهزّ رأسه: «كلاّ. أنا أخوه». فسألتُه متعجّبًا: «أتروي ما يرويه سِواك؟». فردّ: «إنّما العِلْم رَحِم. وإنّه إنْ أعجبني ما رواه سِواي حَفِظتُه». فسألتُه: «ومَنْ تكونُ إذًا؟». فردّ: «أنا مؤسّس مدرسة البصرة في النّحو». فعرفتُه، ولكنّني خشيتُ أنْ أتعجّل فأُخطِئ، فقلت: «وأنتَ أحدُ القُرّاء الّذين قُرِئ القرآن بقراءاتهم؟». فقال: «بلى». فقلتُ: «أنت أبو عمرو بن العَلاء». فقال: «أصبتَ». فقلتُ: «سمعتُ أنّكَ حفرتَ قبرًا عميقًا لكتبك، ودفَنْتها كما لو كانتْ جُثّة تُوارَى الثّرى، وأهلتَ عليها التّراب، ومسحتَ الأرض، ونثرتَ عليها بعض الشّوك والخَشاش حتّى لا يُعرَف مكانُها، ومضيتَ كأنّ شيئًا لم يحدث!!». فوجدتُ غمامةً من الحزن تعبر فضاءَ عينَيه، وتنهدَ مُقرًا. فقلتُ: «لو كنتُ أدري اليوم مكان القبر لنبشتُه وأخرجتُ ما كتبتَ». فقال: «لقد سألتُ الله أنْ يُنسيني إيّاه، فأُنسيتُه». فقلت: «بل أنساك إيّاه الشّيطان أنْ تذكره».

ثُمّ دار الكلام على الحاضرين، فقال داود الطّائيّ، حين نشدَ القومُ

أنْ يسمعوه : «لقد دفعتْني موجةُ زُهدٍ متأخّرة إلى أنْ أزهدَ في كلّ شيء، حتّى في كتبي» . فسألْته : «أهي توبة؟» . قال : «بلى» فقلتُ : «وعمّ؟» . قال : «عن كلّ ما لا ينفع في الآخرة» . قلتُ : «وكيف حكمْتَ؟» . قال : «بما ألقاه الله في رُوعي» . فقلت : «وما فعلتَ؟» . فقال : «حملتُ كتبي كلّها إلى النّهر ، ألقيتُها من شاهق ، فذابتْ في الماء ، وسالتْ معه ، ثُمّ نفضْتُ كفّيّ كأنّني أتخلّص من خطيئة كُبرى وعُدتُ مُرتاح البال ، ثُمّ انقطعتُ عن النّاس!!» . فسألْتُه : «وهلْ غيّر ذلك في قلبك شيئًا؟» . قال : «لا» . فبكيت .

ثُمّ دار الكلام على يوسف بن أسباط ، فقال : إنّني صعدتُ إلى أعلى جبلٍ في زماني ، لا تكادُ تصل إليه إلاّ الطّيور الجارحة ، وبحثتُ عن غارٍ لا تسكنه الجنّ ، وألقيتُ كُتُبي هناك ، ودفعتُ صخرةً دحرجتُها حتّى سدّتْ باب الغار ، وطيّنتُ على ما تبقّى من شقوق في فم الغار ، وتركتُها هناك إلى يومِ يُبعثون» . فسألْتُه : «والغار؟» . فقال : «أشرق بالنّور» .

ثُمّ تقدّم للكلام شابٌ حليق اللّحية ، أسود الشّعر ، عيناه زائغتان ، كمن لم يُفِق من أثر الشّراب ، أو كمن حِيلَ بينه وبين النّوم عامًا كاملاً ، فسألته : «من أيّ بلاد الله أنت؟» . «من البلاد الّتي نحن أصلُها وإنْ كنا قِلّة» . فقلتُ : «تقصد أوروبّة» . فردّ : «وهل غيرُها؟ إنّنا ملْحُ الأرض ، ونحنُ الّذين فضّلنا الله على العالَمين» . فقلتُ : «أنتم الّذين قلتم إنّ عزيرًا ابنُ الله إذًا؟» . فضيّق عينَيه ، وبرمَ شفتَيه ، ولم يقلْ شيئًا . فسألْتُه : «كيفَ جمعتَ بينَ الأدب والكيمياء ، والبَوْن بينهما شاسعٌ؟» . فقال : «كما جمعتَ أنتَ بين الأدب والهندسة والبونُ بينهما أشدَ شسوعًا» . فرددتُ طرفي ، وسألْتُه : «فَلِمَ عُرِفْتَ

بالمَنْخ دون سِواها؟» . فقال : «إنّ لكل جبلٍ قمّةً» . فقلتُ : «فلِمَ هذه السّوداوية في كلماتك؟» . فأجاب مُتهكّمًا : «وهل في السُّلِّ غير السّواد ؛ كأنّ حياتكَ أنتَ كانت أقلّ حلكةً ، إنّما السّواد في كلّ شيء» . فسألتُه : «هل فكّرتَ في الانتحار حقًّا؟» . فقال : «مَنْ أخبركَ بهذا؟» . فقلتُ : «صديقُك ماكس برود» . فردّ : «السِّرّ ثقيل» . فقلتُ : «لعلّك لم تَدْرِ ما هو أثقل» . فقال : «ما هو؟» . فقلتُ : «ألم تطلبْ إلى صديقكَ هذا أنْ يُبيدَ كلّ ما كتبتَ؟» . فقال : «أولمْ يفعل؟» . فقتُ : «كلاّ ، إنّما نشرَ كلّ ما قلتَ على رؤوس الجبال فتلقّفتْها أفواه الطّير وطارتْ بها إلى كلّ مكان» .

ثُمّ تقدّم للكلام أبو سليمان الدّارانيّ الصّوفيّ ، فسألتُه : «أعرفتَ الله بما قرأتَ أمْ بما تأمّلت؟» . فقال : «إنّ القراءة من صفحات الكتاب لأقلّ من قراءة صفحات الكون ، حتّى إنّها لتبدو إلى جانبها هذْرًا» . فقلتُ : «أهذا الّذي دعاك إلى أنْ تقضي على كُتُبِك؟» . قال : «هو ، أو بعضُه» . قلتُ : «فما فعلتَ؟» . قال : «أضرمتُ النّار في فُرن لو أُلقيتْ فيه بقرةٌ لشُويتْ ، ثُمّ جمعتُ كُتُبي ، وألقمتُها النّيران ، وأغلقتُ على الفرن بابه الحديديّ ، ووليّتُ هاربًا ، كما لو كنتُ أهرب من وحش!!» . فقلتُ : «ألهذا الحدّ تنكّرتَ لها؟» . قال : «حتّى لا تتنكّر لي يومَ ألقاه» . فقلتُ مُستنكِرًا : «وهل تدري بأنّها ستفعل؟» . فردّ بلهجة أشدّ استنكارًا : «وهل تدري بأنّها لن تفعل؟!» . فسكتُّ .

ثُمّ دار الحديث على رجل أضاء المكان لإشراق وجهه ، فقال : «طلبني الخليفة المنصور أنْ أَلِيَ الحُكم فأبيت ، ثُمّ طلبني المهديّ فأبيت ، فوجدتُ أنّ السلاطينَ شرٌّ ، وأنّ يدهم ستلحق بي أينما ذهبتُ فتواريتُ عن الأنظار» . فقال له أبو سليمان الصّوفيّ : «أنتَ سُفيان

الثوريَ إذًا؟» . فأجاب : «نعم» . فقال أبو عمرو بن العلاء : «ما عن هذا نسأل؟» . فقال : «عمَ تتساءلون؟» . فقلتُ : «كيفَ هانتْ عليكَ نفسُكَ أنْ تُعدمَ ما كتبتَ؟» . فقال : «لا تُسمَى زاهدًا حتَى تزهدَ في أحبَ الأشياءِ إليك ، وأكثرها عُلوقًا بقلبِك» . فمدَ كافكا عنقه ، وقال : «قد جرَبتُ هذا الشَعور ؛ فقل لي ماذا صنعتَ؟» . فردَ : « إنَني برزتُ إلى خَلاءٍ لا ينبتُ فيه شيءٌ في يوم عاصف ، ومزَقتُ كُتُبي كتابًا كِتابًا ، وورقةً ورقةً ، وأطعمتُها للرَيح ، فطارتْ بها الرَيح إلى جهات الأرض ، ليس من قصاصةٍ تعرف أختها لطول المسافة بينهما» . فشهقَ كافكا ، وسُمِعتْ لصوته حشرجةٌ ، وقال : «قد كُنتَ أشجعَ منَي في هذا ؛ فإنَني لم أقوَ أنْ أفعلَ ذلك بنفسي فعهدتُ به إلى صديقي» .

وبرز للحديث شيخٌ طويل عهدٍ بالحياة ، فقال : «أنا شعبة بن الحجاج ، وإنَني لم أقوَ مثل كافكا على أنْ أفعل ذلك بيدَيَ» . فقال الثَوريَ له : «وما صنعتَ؟» . قال : «أوصيتُ ابني بأنْ يغسل كتبي في طُشوتٍ مليئة بالماء الحارَ أو يدفنها» . فسأله ابن رُشد : «وهل فعل ما أوصيتَه به؟» . فردَ قائلاً : «وما أدراني ، فإنَ روحي قد خرجتْ» . فقلتُ : «لقد فعل» . فعجب الثَوريَ من قولي ، فقلتُ : «لقد قرأتُ ذلك في الفانية . والعلمُ اليومَ في هذا المكان كثير ، فإنْ شئتَ أتيتُكَ به» . فسكت .

ثُمَ دار المِغزل على بِشْر الحافيَ ، فبادرتُه بالقول : «ما أطرفُ ما مرَ معك يا بِشر؟» . فقال : «ذهبتُ يومًا لأزورَ أحد العارفين ، فطرقتُ الباب ، فإذا صوتُ طفلةٍ من خلفه ، تصيح : مَنْ؟ فقلتُ : أنا بِشرُ بن الحارث الحافي؟ أينَ أبوكِ؟ فقالت : إنَه ليس بالبيت . فعدتُ ، فسمعتُها تقول : يا شيخ؟ فتوقَفتُ وقلت : ماذا؟ فقالت : ما صنعَ أبوك لو اشترى لك

بدرهمَين نعلاً حتّى لا تمشي حافيًا». فضحكنا. فقال أبو عمرو: «ما فُعل بكتبك يا بِشر؟». فقال: «أيُّ شيءٍ فإنّني لا أعلم». فردّ أبو عمرو: «إنّما جلستَ معنا هذا المجلس وجلسْناه معك؛ لأنّ نائبةً من النّوائب قد حلّتْ بكتبك كما حلّتْ بكتُبِنا». فقلتُ: «أنا أعرف». فنظر إليّ بِشْرٌ نظرةَ المتشوّف. فقلتُ: «حينَ مِتّ دفنوا ثمانيةً وعشرينَ صندوقًا من كُتُبك». فاسترجعَ. فقلتُ: «لا عليكَ، هي هنا كلُّها».

ثمّ إنّ أبا سعيد السّيرافيّ قد ضمّ لحيته بجُمع يده، غارقًا في الصّمت، كأنّه يأنف أنْ يذكر قِصّته، فقلتُ له: «يا أبا سعيد ليسَ فينا إلاّ منّا، فقُلْ». فقال: «إنّني – وأنا أقف على الحرف بين العالَمين آنَ خروج الرّوح – قد أوصيتُ ابني أبا مُحمّد أنْ يحرق كلّ ما كتبتُه بعد رحيلي. وأظنّ أنّه فعل، فإنّه كان بارًا بي، ولا يترك شيئًا ممّا أريد إلاّ أنفَذَه».

ثُمّ إنّنا عرفْنا أنّ أبا حيّان التّوحيديّ قد وصل إليه الدّور في الحديث، فقلتُ له: «أنتَ الّذي قال فيكم ابن الجوزيّ: زنادقةُ الإسلام ثلاثةٌ: ابن الرّاوندي والتّوحيديّ والمعرّي». فقال مُستخفًا: «وابن الجوزيّ من العشرة المُبشّرين بالجنّة؟!». فقلتُ: «ربّما كان الرّجل يحكمُ بالعِلم». فردّ ساخِرًا: «أطّلَعَ الغيبَ أم اتّخذ عندَ الرّحمنِ عهدًا؟». فقلتُ: «الرّأي مِلكُ صاحبه». فغضبَ وقال: «لا رأي في نِيّة. أفَشَقّ عن قلوبنا؟!». فقلتُ: «وافاني كتابُكَ الّذي وصفتَ فيه ما نال قلبَكَ والتهبَ في صدرك من الخبر الّذي نُمِي إليكَ فيما كان منّي من إحراق كتبي النّفيسة بالنّار وغَسْلها بالماء». وسكتُّ، فأرسلتُ نظرةً نحوه، فرأيتُ أنّه لو قدر على صَفْعي بظاهر كفّه لفعل، لكنّه كظمَ غيظَه، فسألتُه: «هذه رسالةٌ بعثتَ بها إلى صديقك الّذي أنكرَ عليكَ

إحراقكَ كُتُبَك ، كما أُنكره أنا أيضًا» . فقال مُغضَبًا : «وما شأنُكَ فيما فعلتُ؟» . فقلتُ : «كيفَ تصفها بأنّها نفيسة ثُمّ تُقدِم على حَرْقِها ، لو كانتْ نفيسةً لما فعلتَ!» . فكأنّني صببتُ زيتًا على نار غَضَبِه ، فازداد غضبه اشتِعالاً ، فهمّ بأنْ يقومَ من مقامه ، لولا أنّ الجماعة استَبْقَتْه ، وقامَ أبو سعيد فأخذ رأسه بين يدَيه وقبّله ، فقلتُ : «وهل أحرقتَ الإمتاع والمؤانسة من ضمن ما أحرقتَ؟» . فردّ وهو يزفر : «بلى» . فقلتُ : «والإشارات الإلهيّة؟» . فقال : «بلى» . فقلتُ : «والمُقابَسات؟» . فقال مُتأفّفًا : «بلى . بلى» . فقلتُ : «أخبرنا عن السّبب ، وإلاّ ذكرتُ لهم كتبك النّفيسة كتابًا كِتابًا» . فزفرَ زفرةً طويلةً ثُمّ قال : «وممّا شحذ العَزم على ذلك ورفع الحِجاب عنه ، أنّي فقدتُ ولدًا نجيبًا ، وصديقًا حبيبًا ، وصاحِبًا قريبًا ، وتابعًا أديبًا ، ورئيسًا مُثيبًا ، فَشَقّ عَلَيّ أنْ أدَعَها لقوم يتلاعَبون بها ، ويُدنّسون عِرضي إذا نَظَروا فيها ، ويَشمَتون بسَهوي وغَلَطي إذا تصفّحوها ، ويتراءَون نقصي وعيبي من أجلها . ووجدتُني كأنّني ذُبالةٌ نُصِبتْ ، تضيءُ للنّاسِ وهي تحترقُ ، فقلتُ لا أحد يستحقّ كتبي غير النّيران ، فأطعمتُها إيّاها» . فقلتُ : «قد انكشف السّر وعُرِفَ السّببُ فلا عليكَ . لا يفنَى هنا شيءٌ . وستجدُ ما عملتَ من خيرٍ مُحضرًا» .

ثُمّ إنّ الجدار الفسيح ابتلعهم ، وابتلع معهم مقاعدهم الرّواقيّة . فلم أعدْ أرى أحدًا . وإنّني قمتُ إلى المكتب ، فحملتُ الكتب بين ذراعَيّ ، وأنا أنظر إليها مُرتاعًا ومُلتاعًا ، ثُمّ ضغطتُ على المجسّات ، فبرزتْ المخاريط ، وعرفتُ في كلّ مخروطِ الفراغ حيثُ الكتاب ، فأعدتُه إلى هناك . ثُمّ إنّني تفكّرتُ فيما قالوه ، وفي هذا الحوار ، فتساءلتُ : من أيّ نوعٍ من الجنون خُلِقتْ عقول هؤلاء العباقرة!!

(٢٢)

القلوبُ العامرةُ بالأحلام المُستحيلة لا يمُكن أنْ تذبل

ثُمّ إنّني صعدتُ إلى طابق اللّغة ، فوجدتُ عندَ الباب الّذي يُدخَل منه إلى البَهو عمودَين لهما تاجان من ذهب ، يعلوهما قوسٌ ، فأمّا العمودان فمن زمن الأندلس الرّطيب ، وأمّا التّاج الذّهبيّ فمن زمن الفراعنة العجيب ، وأمّا القوس فمن زمن الأمويّين القريب ، ولعلّه من أقواس الجامع الأمويّ ، نُقِل من الفانية إلى هنا! فإذا خطوتَ بِضع خطوات لقيكَ لوحٌ خشبيٌ محفورٌ عليه كلماتٌ لم أتبيّنْها أوّل الأمر لأنّ النّقش كان على خشب رفيع تُظهِر الفراغاتُ فيه بين الحروف ما خلفه . لكنّني حينَ اقتربتُ قرأتُ هذا البيت بخطّ الثّلث :

إنّ الّذي مـلأ اللّغـاتَ مـحـاسنًا

جـعلَ الجَـمـالَ وسِـرّه في الضّـادِ

فتذكّرتُ البيت ، وكنتُ كثيرًا ما أردّده على لساني في المحافل أيّامَ الفانية ، وترَحّمتُ على أحمد شوقي الّذي قالَه ، وقلتُ في نفسي : لو كان هنا لدَعَوتُه أنْ ينظر في هذا النّقش البديع لحرفه الأبدع . ودخلتُ . كان الطّابق هادئًا تمامًا ، هدوءاً لم أعهده من قبل . لم يكنْ من صوت سوى صوتِ وَقْعُ أقدامي على الرّخام يتردّد صَداه في الأرجاء . نظرتُ إلى الرّفوف في القاعة السُّداسيّة تمتدّ إلى مسافاتٍ لا تكادُ ترى الكتب

في رفوفها الأخيرة. شعرتُ بالعَجْزِ قليلاً؛ كيفَ يُمكنني أنْ أقرأ كلَّ هذه الكتب، لن أقضي ما تبقّى لي من زمنٍ مقدورٍ وأنا أدور في طابقَين أو ثلاثة. صار لا بُدّ من تجربةِ شيءٍ جديدٍ. الحلّ بقراءة الفهارس قد يكون مُجديًا، لكنّه لا يُعطيني الكثير، ومع ذلك فإنّه يحتاج إلى عام كـامل. ولا أدري في أيّ طابقٍ يُوجـد المخـرج. فكّرتُ بالذّهاب إلى الطّابق الأوّل، والخروج من المكتبة في الاتّجاه الّذي أتيتُ منه. نفّذتُ الأمر على الفور، ركضتُ في القاعة الفسيحة مثل حِصانٍ يركضُ في البرّيّة، نزلتُ على الدّرج مُسرِعًا كمن وُعِدَ بجائزةٍ كبيرة إذا نزله في أقلّ زمنٍ مُمكن. فجأةً وجدتُني أمام بوّابة المدخل الّذي عبرتُ من خلالها قبل ما يزيد عن ثلاث سنواتٍ إلى هنا، كان على حاله، لم يتغيّر فيه شيءٌ، انفتح الباب الزّجاجيّ كما لو كان ينتظر خروجي، وخرجتُ، لا شيءَ أيضًا جديدًا يقع خارج هذه المكتبة، المسافة المنبسطة الّتي تمتدّ أمام البوّابة خاليةً من أيّ نوع أو لونٍ من ألوان الحياة، كانت كما هي قبل ثلاث سنوات. ومن بعيـدٍ رأيتُ على وهج الشّمس ترقرق النّهر الجهنّمي الّذي كاد يُكلّفني حياتي وأنا أعبره إلى هنا، أصختُ السّمع لأعرف إنْ كانتْ تأتي منه أصواتٌ ما، فسمعتُ الأصوات المُرعِبة إيّاها الّتي سـمعتُـها من قبل، نواح وتـهارش وتنابُح. ومن خلف النّهر بدا الجبل الأجرد مثل خط اقتران الجيب وهو يكاد يغيم أو يغيب في تكسّر الضّوء لبُعدِه. تنفسّتُ حزينًا. إنّ الرّجوع إلى الخلف انتحارٌ مُؤكّد. عُدتُ إلى المكتبة. المخرج موجودٌ في مكانٍ ما بلا شكٍّ؛ لا بناءَ يَبلعُكَ مَدخلُه ولا يَلفظكَ مَخرجُه. أسرعتُ بالصّعود إلى طابق اللّغة. عليّ أنْ أنتهي من الطّوابق بسرعةٍ، لأجد البوّابة الّتي تدفعُ بي إلى الخارج، لقد بدا سكّين الملل يغوصُ في جلدي بشكلٍ قاسٍ وبطيء!!

في الفانية ، حينَ كنتُ أكتبُ نصوصي ، كان أكثر ما يُرهقني النّعت ، أنْ أجدَ نعتًا مُناسبًا للمنعوت ، فكنتُ حين أريدُ أنْ أصفَ شيئًا بالتّمام أستخدم مثلاً : «شهرٌ كاملٌ» . ثُم يُلجئني الكلام إلى استخدام هذا المنعوت (شهرٌ) بذات النّعت في موضع آخَر ، فأشعر بأنّه يجب أنْ أنعته نعتًا جديدًا ، فأقول : «شهرٌ تامّ» . فإنّ عرض الحديثُ عن صفة الشّهر في موضع ثالثٍ فإنّه من الضّعف أنْ أقعَ في النّعتَين السّابقَين ، فأستحسنُ أنْ أقول : «شهرٌ سابغٌ» . وفي الرّابعة : «شهرٌ وافٍ» . وفي الخامسة : «شهرٌ كريتٌ» . وفي السّادسة : «شهرٌ مُجَرَّمٌ» . . . وهكذا . لعمرك إنّها لا تضيقُ اللّغة ، ولكنْ يضيقُ معجم مَنْ يستخدمها ، فهي عمَمٌ ، ولُجَجٌ خِضمٌ ، من أيّ ناحيةٍ جِئتَها وجدتَ الماء .

وضعتُ أطرافَ أصابعي على كُعُوب الكتب الّتي في مستوى ذراعي ، ورحتُ أركضُ مُمَرّرًا يدي عليها في رَكضي المتواصل . دُرتُ في القاعة دورةً كاملةً . لهثتُ في النّهاية . لكنّ مُتعةَ لمْس الكُتُب من مختلف العصور واللّغات لمختلف الكُتّاب يجتمعون في قاعةٍ واحدةٍ ، أمرٌ يستحقّ التّعب .

في غرفة القراءة الّتي أوصلتْني إليها بلمح البصر الغرفة الزّجاجيّة بعد أنْ أعطيتُها الإحداثيّات الصّفريّة الثلاث ، وجدتُ أبا منصور الثّعالبيّ مُنكبًا على كتابٍ بين يدَيه ، ورأيتُ شفتَيه تنفرجان وتتحركان بسرعةٍ وهو يُحرّك لسانه بالقراءة ، فقدّرتُ أنّ طول قراءته قد أعطشَه ، فسألتُه : «أأملأُ لكَ الكأسَ ماءً يا أبا منصور؟» . فلم يُحِرْ جوابًا ، كأنّني كلّمتُ صخرةً صمّاء ، فسمعتُ من خلفي صوتَ ابن قتيبةَ الدّينوريّ يقول : «قُلْ أأملأُ لكَ الزّجاجةَ فإنّه لا يُقال لها كأسٌ إلاّ إذا كان فيها

شرابٌ . فنظرتُ خلفي فما رأيتُ إلا الصّوت . فخرجتُ إلى غرفتي فملأتُ الزّجاجة ماء ، وعدتُ لأسقيه فما وجدتُه . لكنّني رأيتُ جمهرةً من المُنكبّين على الدّرس ، وسمعتُ أوسطهم كأنّه يترنّم بالقول :

كلامُنا لَفظٌ مُفيدٌ كاسْتَقِمْ
واسمٌ ، وفِعلٌ ، ثُمّ حَرْفُ الكَلِمْ

فصحتُ ، وقد سرّني سماع بيتٍ أقمتُ عليه في الفانية عددًا من المحاضرات لطُلّاب العلم : «أنتَ والله ابنُ مالك» . فكأنّه أنغضَ إليّ رأسه ، وهتف : «كلاّ» . فقلتُ : «لا يحفظُ ألفيّته ، ولا يترنّم بمطلعها أحدٌ بهذا الطّريقة إلاّ إذا كانَ صاحبَها أو من شُرّاحها» . فردّ : «أصبتَ ، أنا أحدُ هؤلاء الشّراح» . فسألتُه : «أيّهم؟» . فقال : «وما عليكَ ألاّ تعرف؟» . فقلتُ : «فإنّني فاضلتُ في الدُّنيا بينهم ، وأحبّ أنْ أعرفَ أيّ واحدٍ فيهم أنتَ؟» . فقال : «فأينَ وضعتَني؟» . فقلتُ : «كيفَ أعرفُ أينَ وضعتُك ، وأنا لا أعرفُ أيّهم أنتَ؟» . فقال : «لن أقول حتّى تقول» . فتنهدّتُ ، وقلت : «أمّا شرحُ ابن عَقيل فأيسرُهم وأقربهم إلى النّفاذ للعقل ، ولعلّ عمله في القضاء جعله يتروّى في تبيان المسألة والإحاطة بها من كلّ جوانبها قبل أنْ يُطلق عليها حُكمًا ، ولا أدلّ على ذلك من إقبال العُلماء على شرحه هذا حتّى لا يكادُ يخلو منه درسٌ ، وقد تلمذتُ له أيّام المحنة عندما كنتُ في السّجن ، ففرغتُ له حتّى أتيتُ على كلّ ما فيه فهمًا وعِلمًا . وأمّا شرحُ ابنُ النّاظم للألفيّة بدر الدّين فقد ظنّ أنّ طول صحبته لأبيه ستقرّبه من علمه ، لكنّه خلطَ فما أقدّمه . وأمّا شرحُ ابن هِشام الأنصاريّ فكان أوفاهم في تبيان ما غمُض ، ولعلّ مذهبه الحنبليّ الّذي آل إليه قد

جعل شيئًا من الصّرامة في تقسيمه وتبويبه الشّرح ، وعَقْد النّتائج على المُقدّمات . وأمّا السّيوطي فهو بلا شكّ عالِمٌ ، لكنّه كان يُسابق الزّمن ليُضيف كتابًا جديدًا إلى قائمة مؤلّفاته الّتي تطول ، فما أوفى الألفيّة حقّها على النّحو الّذي تستحقّ» . وسكتُّ ، فنظر في عينَيّ ، وقال : «فأيّ الشّروح بعد هذا القول يكون عندكَ في الصّدارة؟» . فقلتُ : «إنْ كان لا بُدّ من القول ، فشرح ابنُ عقيل» . فتهلّل وجهه ، وانفرجتْ أساريره ، وقام كأنّما أخذتْهُ هِزّةٌ ، وقال : «أنا هو» . فقمتُ لأقدّم له الكأس ليشرب ، فتناولها ، فغنّيتُ له ما شرح ، فاهتزّ طربًا ، وكرع الكأسَ دفعةً واحدةً ، فقلتُ وأنا أضحك :

أبا المِسكِ هل في الكأسِ فضلةٌ أنالُهُ
فإنّي أغنّي منذُ حين وتشربُ

فاهتزّتْ أعطافه للبيت كما يهتزّ الكريمُ للنّدى . وحانتْ منّي التفاتةٌ إلى الجالسين فرأيتُهم غارقين في صحائفهم ، فما أحببتُ أنْ أقطع عليهم لذّتهم . وخرجتُ من الغرفة ، فرأيتُ عددًا من الرّجال ينحتون الكلام ، كما يُنحت الصّخر ، وهم يتجادلون فيما بينهم ، وعرفتُ من خلال أحاديثهم ابن فارس ، وقطرب ، والأخفش ، والأصمعيّ ، والمُبرّد ، وابن السّرّاج ، وابن دُرَيد ، والنّحّاس ، وابن خالوَيه ، والرُّمّاني . ورأيتُ ثلاثةً منهم يختلفون في (صَقْر ، وسَقْر ، وزَقْر) أيّها الصّحيحة ، ووددتُ أنْ أقوله لهم : إنّها كلّها صحيحة ، لكنّني أحجمتُ لما أعرفه من أنّني أسمعهم ولا يسمعونني ، وأراهم ولا يرونني . ورأيتُهم يختلفون في نحت كلمة التّوحيد ، هل يقولون : هيلل أم هلّل . ووجدتُ أنّ الأمر لا يُحيج إلى الخِلاف ، ما دام الرأي يسع الجميع ، وسألتُهم : «أتعرفون ما الطّلبقة؟» . فكأنّني سمعتُ أحدهم

يقول : «أطال الله بقاءك» . فخفضتُ رأسي تواضعًا بعد أنْ ظننتُ أنني أتيتُ بجديد ، وقلتُ : «فما البأباة؟!» . فطال صمتُهم . حتّى كأنّ عملهم في النّحت قد انتهى ، وكأنّهم ألقوا معاولهم ، ومسحوا عرق جبينهم ، وخلدوا إلى الرّاحة ، حتّى نفرَ من بينهم صوتٌ رفيعٌ لا أدري أكان ذلك لحداثة سنّ قائله أم لأمرٍ آخر ، وهو يقول : «بأبي أنتَ» . فانسحبتُ من بينهم ، وولّيتُ على وجهي .

ثمّ لم يمرّ العام حتّى صعدتُ إلى طابق الفِكر ، والفِكر ما أعيى .

ولّما انقضى ما كان لي من أجلٍ في الفانية ، ولم أعرف عن (سباتاي زيفي) الكثير ، قرّرتُ أنْ أبحثَ عن شيءٍ يقودني إليه هنا . وبالرّجوع إلى الحاسوب الموجود في غرفة القراءة ، استطعتُ أنْ أستلّ عشرة كتب تحدّث عنه . كان عليّ أنْ أبدأ بها . غرفة القراءة موجودةٌ في كلّ طابق ، ولكنّ غرفة المكتب الّتي فيها منامي فلا توجَد إلاّ في الطّابق الأرضيّ ؛ طابق الأديان .

أتباعه الّذين سُمّوا فيما بعد يهود الدّونمة ، كانوا يعتقدون أنّه مسيح بني إسرائيل ، وأنّ الجسم القديم له قد صعد إلى السّماء فعادَ بأمر الله في شكل ملاك يلبس الجِلباب والعِمامة ليُكمِلَ رسالته ، (قيافا) و(حَنّان) في عصر يسوع النّاصريّ لم يكونا يُؤمنان بأنّ يسوع هذا هو المُخلّص ؛ لأنّه كان باعتقادِهما ضعيفًا . انتظرتْ طائفة الدّونمة ما يزيد عن ستّةَ عشر قرنًا كي تؤمن بأنّ (سباتاي زيفي) أو (موردخاي زيفي) أو (قرامنتشته) هو مُخلّصهم الحقيقيّ ، والّذي سيجعلهم يسودون العالَم . في الجزء الثّاني من الاعتقاد ربّما ساهمَ كثيرًا في صُنع مجد إسرائيل بتعريفها الحديث . لم يكن الأمر جديدًا . لقد مهّدوا لهم عن طريق الماسونيّة الّتي شُكّلتْ بعد أنْ رُفعَ المسيح إلى

السّماء بحوالي عشر سنين ، تولّى الموضوع (هيرودس أكريبا) ، ومن خلف السّتار كان (حيران أبيود) و(آب لامي) هما المؤسّسَين الحقيقيّين . الأفكار الّتي يُقاتل أهلها من أجلها ، تُصبح عظيمةً وممكنة التّطبيق حتّى ولو استغرق الأمر قرونًا طويلة . في (بازل) بسويسرا استطاع (ثيودور هيرتزل) أنْ يكون أكثر ذكاءً من كلّ سابقيه من الحالمين بمجد الرّبّ لشعب الله المُختار في الأرض الّتي كتبها الله لهم ، لقد وضع خُطّة ستجعل الدّولة تقف على رجلَيها في خمسين عامًا . وصدقَ حُلمه ؛ لأنّه كان مؤمنًا به حدّ الذّوبان ، ما تطلّب من غيره خمسةَ قرون ليتحقّق ، تطلّب منه خمسةَ عقود ليُصبح واقِعًا . الأفكار العظيمة تحتاج هِمَمًا عظيمة .

وأنا أحلم بحياة أخرى ، بمجدٍ آخر ، يمتدّ إلى حيثُ ينتهي كلّ شيءٍ ولا ينتهي . يموت كلّ شيءٍ ولا يموت . القلوب العامرة بالأحلام المُستحيلة لا يُمكن أنْ تذبل .

(٢٣)
غِنَى النّفسِ ما يَكفيكَ مِنْ سَدِّ حاجةٍ

صعدتُ طابِقًا في هذه المكتبة الّتي يبدو أنّها بدأتْ تضيقُ على اتّساعها . فالوَحدة تجعل الملعب الفسيح أضيقَ من سَمِّ الخِياط . فكّرتُ في أنْ أبدأ في الكتب الّتي تحتاج من أجل الوصول إليها إلى استخدام الغرفة الإلكترونيّة ؛ أن أبدأ من الأعلى ، الجدار الواحد في الطّابق الواحد يعلو حوالي مئتَي متر ، ويحمل ستّمئة رفّ من الكتب المُتراصّة على مُسدّس مُتساوي الأضلاع ، لا يفصل بين مُضلّع وآخر إلاّ مسافة صغيرة جدًا أقيمت عليها المِجسّات الإلكترونيّة الّتي تُبرز الخرائط المملوءة هي الأخرى بالكتب المنبوذة والمطرودة . في طابق الأدب تجدُ شيئًا من الرّاحة . والوقتُ يمرّ فيه سريعًا ؛ على الأقلّ بالنّسبة لي .

ولقد كنتُ في الفانية أبذل أكثر ما أملك من مال في شراء الكُتُب . وكان يقع في يدي رِزقٌ غَدَقٌ فأجدُ في شراء الكُتُب لَذّة . فيقولون : «لو أنصفتَ عقلكَ من جسدك» . فأقول : «العُشر للجسد ، وتسعة الأعشار للعقل» . فليأخذ جسدي وعقلي حَقّهما من مالي . وكنتُ أدركُ الحديث : «ليسَ الغِنى عن كثرةِ العَرَض» . فاتّخذتُه تُرسًا أردّ به على كلّ مَنْ يعذلني قائلاً : «لقد أسرفتَ في إنفاق المال على الورق ، فأنّى لك أنْ تقرأ كلّ هذا ، أفلا ادّخرتَ شيئًا لطعامك وشرابك وأهل بيتك» . فأجيبهم بقول سالم بن وابصة :

غِنَى النّفسِ ما يَكفيكَ مِنْ سَدِّ حاجة
فإنْ زادَ شيئًا عادَ ذاك الغِنى فَقرَا

وكنتُ في الفانية قد عرفتُ أنّ المُفضّل الضّبّي، قد ألّف مختاراته المسمّاة (المُفضّليّات) لتأديب (المهديّ) ولد الخليفة (المنصور)، فاختار مئةً وثمانيًا وعشرينَ قصيدةً ليحفظها المهديّ، ويفقه شواردها ولغاتها ونحوَها وصرفَها، وكان هذا الكتاب هو الّذي أنقذ رقبةَ المُفضّل الضّبّي من السّيف. فلأجل ذلك عَمَدتُ إلى أنْ أختار لأبنائي شيئًا قريبًا من ذلك، لكنْ أنْ أجمع فيه النّصّ القرآني إلى النّبويّ إلى الشّعريّ إلى النّثريّ في باقة من فنون الأدب، تقرّب النّاشئة من لغتهم، وتبسطُ لهم فيها الجَمال.

صباحَ هذا اليوم السّادس والعشرين بعد المئة الثّانية، من السّنة الخامسة كنتُ أذرع البَهو الواسع لهذا الطّابق من المكتبة. وأترنّم، بقول طرفة، وأرفع به الصّوت عاليًا:

وقوفًا بها صَحْبي عليّ مَطيّهُمْ
يَقولونَ: لا تَهلِكْ أسًى وتجلّد

فكأنّني شعرتُ أنْ أرواحًا خرجتْ من بطون الكتب، وأحاطتْ بي، فسمعتُ روحًا تهتف:

قُلْ لمن يبكي على رَسْم دَرَسْ
واقفًا ما ضَرَّ لو كانَ جَلَسْ

فعرفتُه، فأحببتُ أنْ أناكِفه، فقلت: «يا سيّدي، الوقوف على الأطلال وبكاؤها خيرٌ من المرور بالحانات وشُربِ سُمومِها». فقال: «وما ذاك؟». فقلتُ: «قولك:

عاجَ الشّقيُّ على رَسْم يُسائلُهُ
وعُجْتُ أسألُ عن خَمّارةِ البلَدِ

فقال : «هذا فيما مضى . أما وإنّي لأدركُ كم كنتُ في عَمايةٍ» . فقلتُ : «ما فعل الله بك؟» . فقال : «أنا بين يدي رحمته» . فقلتُ : «ألم يشفعْ لكَ قولُك :

إنْ كان لا يرجوكَ إلاّ مُحسِنٌ
فَبِمَنْ يلوذُ ويستجيرُ المُجرِمُ

فقال : «إنّي لأرجو ذلك» .

ثُمّ إنّي تعبتُ سائرَ ذلك العام ، فأصابني ثِقَلٌ في الحركة ، فكنتُ أميلُ إلى البقاء في الفِراش . وكانتْ قد وردتْ عليّ هواجس في مرضي ذلك فزادتْ سوء حالتي سوءاً . فصرتُ لا أنامُ اللّيل ، وكأنّني في الأولى . أسهر وأجدُ تعبَ ذلك ، وتذكّرتُ قول الوأواء الدّمشقيّ :

وليلٍ مثلِ يوم الحَشْرِ طُولاً
كأنّ ظلامَهُ لونُ الصّدودِ
بَياضُ هلالِه فيه سَوادٌ
كأثْرِ اللّطْمِ في بِيْضِ الخُدُودِ

وحاولتُ أنْ أتذكّر كم يطول يوم الحشر هذا الّذي هو آتٍ لا مَحالة ، ولا أدري إنْ كان قوله : «في يوم كان مِقدارُهُ خَمسين ألفَ سنة» هو المَقصود بيوم الحشر . فكيفَ يكونُ للبشر طاقةٌ بمثل هذا اليوم العسير؟!

وتمنّيتُ الموت . ولم أدر هل أنا ميّت أم لا؟! فإنْ كنتُ ميّتًا فلا معنى لهذه الأمنية المُستحيلة ، وإنْ كنتُ حَيًّا بوجهٍ من الوجوه ، فإنّني أشتاقُ أنْ ينتهي كلّ هذا ، فإنّ طول العَهد على الإنسان يقضمُ قلبه ، وينقر هَدْأته ، ويُقيمه في منازل الشّكّ الذّابحة ، والتّرقّب القاتلة .

كنتُ قد قرّرتُ في الطّوابق السّفليّة الّتي تلي طابق المكتبات ، أنْ

أمرّ عليها بقراءة فهارسِ كُتُبِها ، فقضيتُ عامًا في طابق علم الاجتماع ، ومثله في طابق الاقتِصاد ، وهكذا حتّى أتيتُ على الطّوابق السّفليّة كلّها إلاّ طابق السّحر ، فإنّني توقّفتُ عنده وخشيتُ أنْ أدخله ؛ فقد كان شيءٌ ما لا أدري ما هو ، يمنعني من أنْ أفكّر في الأمر حتّى مجرّد تفكير ، فأرجأتُ الأمر إلى نهاية المطاف . وكنتُ كلّما هويتُ في الطّوابق عامًا بعدَ عام يزداد مرضي ، ويشتدّ حنيني إلى بشريٍّ مثلي ، أستطيع أنْ أجسّ بيدَيّ جسدَه ، أو أنْ تَلمسَ عروقُ يدي يَده ، أو أنْ أتقاسَم معه الطّعام فيأكل معي ، فإنّني قد تعبتُ من مخاطبة الأرواح والأنوار ، وألجأني ذلك إلى ضعفِ عقلي ، فإنّ العقل بمخالطة الأشباه ينشط .

إنّها أربعةَ عشر عامًا تمرّ عليّ في هذه المكتبة . لقد أصبحتُ أحسّ أنّها سجنٌ . وأنّ تَوقِي للخَلاص من النّعيم الأوّل كان خادِعًا . وأنّني وقعتُ في مصيدة الرّتابة مرّة أخرى . وأنّه آنَ الأوان لأغادر هذه القلعة النّحِسة المُسمّاة المكتبة . إنّها سجنٌ حقيقيّ . وكابوسٌ فظيعٌ . أنْ تبحث في الطّوابق الّتي عشتَ فيها كلّ هذه السّنوات عن مخرج ولا تجده فتلك مصيبة ، وأنْ ينصرف ذهنُك إلى التّفكير في كيفيّة الخُروج من هذا المأزق ، بدل التّفكير بالكمّ المعرفيّ الهائل الّذي تكتظّ به هذه الجُدران ، هو أمرٌ آخر يدفع إلى الجنون .

كان هذا في ليلة أصابَ فيها الصّقيعُ روحي ، كانتْ باردةً كأنّها من ليالي الأولى لا الآخِرة . وكنتُ قد أويتُ إلى غرفتي في الشّهر الثّاني من السّنة الخامسة عشرة لمكوثي هنا . وكان اللّيلُ قد سَرى . والظّلام الكثيف يُغطّي كلّ شيءٍ خارج هذه القلعة الحصينة ، ويُخيّم على كلّ الطّوابق فيها ، حينَ سمعتُ صوتًا غريبًا . لم يكنْ ليكون

مُخيفًا ، لولا أنّه أخافني لأنّني لم أسمعْ بمثله من قبلُ ؛ لقد كان صوتَ ارتطام من نوع ما . فقلتُ لعلّني أتخيّل . فإنّ المرض الّذي لازمني عامًا كاملاً حَرِيٌّ به أنْ يُوقِعني في مثل هذا الوَهم . تقلّبتُ على الفِراشِ كثيرًا في محاولات بائسة لاستجلاب خَدَر النّوم إلى جسدي ، لكنّني ظللتُ مُوجَعًا كأنّ كلّ شبرٍ في الفِراش يخرج منه مساميرُ مُحمّاة تغوصُ في أضلاعي .

في الصّباح هُرعتُ لأبحثَ عن الشّيء الّذي سمعتُ صوتَ ارتِطامه ليلة أمس الطّويلة ، قدّرتُ من الصّوت أنّه قريبٌ من غرفتي ، وعليه فهو إنْ لم يكن في الطّابق الأرضيّ ، فهو في الطّابق الأوّل من الأعلى أو من الأسفل . بحثتُ في طابق الأديان ، فلم أعثر له على أثر ، هبطتُ طابقًا ، وصعدتُ آخر ، ولم أعثرْ له كذلك على أثر . لكنّني لاحظتُ في طابق الأديان ، أنّ هناك فراغًا بمقدار كعبِ كِتابٍ عدد أوراقه لا يزيد عن أربعمئة ورقة ، فهُرِعتُ إلى الحاسوب الموجود في غرفة القراءة بعد أنْ أخذتُ اسم الكتاب الّذي قبله والكتاب الّذي بعده ، فأظهرتِ النّتائج أنّه ما من كتابٍ بينهما ، وأنّ الفراغ هو للفراغ ، لا لكِتابٍ آخَر . فقلتُ في نفسي : «إمّا أنّني بدأتُ أهذي ، أو أنّ أحدًا ما موجودٌ معي في هذه المكتبة ، ويقوم بسرقة الكتب في اللّيل» .

حينَ عشتُ ما يزيدُ عن عام في طابق الاقتصاد ، كان يُعجبني قبل أنْ أقرأ الكتاب ، أنْ أرى الثّمنَ الموجود على غلافه الخلفيّ ، كان كلّ كتابٍ له سِعرٌ أو ثمنٌ مختلفٌ بعُملةٍ مُختلفة . صارتْ عندي بعد الشّهر الثّاني من ذلك العام هواية تسجيلِ العملات العابرة للعُصور ، ولم يقتصر الأمر على طابقٍ واحد ، فقد كنتُ أمرّ على الطّوابق التي قرأتُها ، فأفتّش في ظهورها عن العُملة الّتي بيعَ الكتاب بها آنذاك .

فهذا كتابٌ في الشّرائع أُلّف في القرن السّادس قبل الميلاد ثمنه درهمٌ يونانيّ واحدٌ ، وصورة الدّرهم مطبوعةٌ على الغلاف وتظهر عليها صورة سُلحفاة بدرع ذكّرني بصورة الدّرع الّذي لصق بالمَسْخ في قصّة (كافكا) . وهذا كتابٌ ثمنه (ليدن) ، وذاك ثمنه (نصف دينار) ، وآخر ثمنه (مئة فَلس) ، ورابع ثمنه (سونغ) . إلى العصور اللاّحقة ، حيثُ (الروبيّة) ، و(الجنيه) ، و(الأغورا) ، و(الشّيكل) ، و(الجنيه) ، و(الدّولار) ، و(الين) ، و(اليورو) ، و(الرّشاديّة) ، وغيرها . وشكّلتُ فهرسًا بالعُملات زاد عن ألف اسم . وحينَ أردتُ أنْ أعيد الكتب إلى رفوفها استغرق الأمر منّي كثيرًا منَ الوقت . وندمتُ . كان يُمكن في وقت إعادة الكتب هذه إلى أمكنتها أنْ أقرأ مئة كتابٍ على الأقلّ!

«التّاريخ هو الاقتِصاد في حالة نشاط» ، هذه عبارة كارل ماركس . حينَ تنتهي المنافسة بين الأفراد والجماعات والمُؤسّسات والأنظمة والدّول على الطّعام وإنتاجه ستتوقّف عجلة الاقتِصاد ، وتلقائيًا ستتوقّف عجلة التّاريخ . إذا كان هذا يصدق في الفانية بنسبةٍ أو بأخرى ، فإنّه يصدقُ هنا تمامًا . لا يوجد هنا أيّ نوع من أنواع المُنافسة أو التّعادي من أجل الطّعام أو الإنتاج ، وبالتّالي فالتّاريخ في حالة موتٍ حقيقيّ . في هذه المكتبة يبدو التّاريخ كوكبًا سقط من السّماء ، وظلّ يسير في الفضاء إلى أنْ وجد أرضًا خاليةً من أيّ نوع من الحياة فارتطم بها واستقرّ ، وبقي مركوزًا فيها بعد أنْ تحوّل إلى حجرٍ ليسَ فيه أيّ نوعٍ من أيّ حياة . التّاريخ ليس ميّتًا في هذه المكتبة ، إنّه متوقّف . متوقّفٌ عندي . كلّ ما كان في التّاريخ من قبل وجودي في الفانية ، وأثناء وجودي ، وبعد رحيلي إلى قرونٍ لا أعلمها موجودٌ هنا . التّاريخ بين يديّ . ولكنْ لا مزيدَ له!!

(٢٤)
القُدسُ هي مِحورُ الكَون

الحروب الصّليبيّة الّتي تُقرأ في دروس التّاريخ، سببها في الأساس اقتصاديّ؛ «الأرض الّتي تدرّ لبنًا وعسلاً» كما ورد في خطاب البابا المُقتبس من النّصّ المُقدّس. الاقتِصاد يصنع التّاريخ. والتّاريخ يروي حركة الاقتصاد.

لا زلتُ أتخيّل هيأته كما وصفها (ميخائيل زابوروف) في كتابه (بالسّيف والصّليب). لا بُدّ أنّه خطيبٌ مُفوّه وله تأثير السّحر على أتباعه هذا الّذي تركَ روما العظيمة وقطع جبال الألب في موكب بسيط، وتحمّل وعثاء السّفر وعذاباته، وجاء إلى فرنسا، واجتمع مع ما يزيدُ عن ثلاثمئة من المطارنة والأساقفة والقساوسة في كنيسة (كلير مون)، وطلبَ منهم أنْ يجمعوا له كلّ مؤمن بالمسيح في أكبر ساحة ممكنة. انتظر النّاس الّذين تجمّعوا في السّاحة طويلاً قبل أنْ يبدأ الملل يدبّ في صفوفهم، وقبل أنْ تعلو الهمهمات والكلمات الّتي تطير من الأفواه تبرّمًا وسخريةً، فلمّا تمكّن منهم ذلك، ظهر رجلٌ بدينٌ، متوسّط القامة، كهلٌ، في ثياب بيضاء من الدّيباج، مُزدانٌ بالصّلبان المصنوعة من الخيوط المُذهّبة الّتي تلمع تحت أشعّة الشّمس، وعلى غطاء رأسه المُتوّج بالصّليب تُبرق الأحجار الكريمة بألوانها الفيروزيّة الزّاهية؛ إنّه البابا (أوربان الثّاني) ومن خلفه حشدٌ مَهيبٌ من

مساعديه وبِطانته الّذين حضروا اجتماعه في كنيسة (كلير مون) وكانوا يرتدون ثيابًا بنفسجيّة وقرمزيّة وسوداء .

كما كانتْ خُطبة طارق بن زياد أوّل النّصر في الأندلس . وكلمة خالد بن الوليد أوّل النّصر في اليرموك ، فإنّ النّصر تصنعه كلمة ، كذلك كانتْ خطبة البابا في هذا المجمع الحاشد أوّل الحروب الصّليبيّة ؛ قرأتُ بعضَها عند المُؤرّخ الفرنسيّ (رنيه غروسّيه) . هنا في طابق التّاريخ حدث ذلك ، الكتاب لا زلتُ أذكر مكانه وشكله ، كان كعبُه بُنيًا هادئًا ، وغلافه مُجلّدًا لونه أصفر فاتحٌ يسرّ النّاظر إليه ، والعنوان بحروف بارزة نافرة يُمكن تلمّس نفورها . كان قليل الكلام ، لكنّه عميق الأثر : «تمنطقوا أيّها المسيحيّون بالسّيف وانطلقوا نحو البلدان النّائية ، فقد وقع ضريح الربّ في أيدي الكُفّار ، فهبُّوا لاستعادة الأرض المُقدّسة ، ولكي يفهم العالَم أنكم تُقاتِلون من أجل الحقّ فلْتَخيطوا على ثيابكم الصُّلبان المصنوعة من القِماش الأحمر . إنّ هذه الأرض الّتي تقطنون ، محصورةٌ من كلّ الجِهات بالبَحر والسّلاسل الجبليّة ، وقد ضاقتْ بعديدكم ، وليسَ فيها الكثير من الخيرات ، وهي بالكاد تقوم بِأَوَد مَنْ يستثمرها . ومن هنا قِيام كلٍّ منكم بنهشِ الآخَر والتِهامه ، ومن هُنا شنّكم الحروب ضِدّ بعضكم البعض . ألا فلْتضعوا حَدًّا للكراهية فيما بينكم ، ولْتُنهوا الحرب . ولْتخلُدْ إلى النّوم كلّ نزاعاتكم وخِلافاتكم . سيروا في طريق الرّبّ ، وانتزعوا تلك الأَرض من أيدي الشّعبِ الكافر . إنّ القُدس هي محور الكون ، وهي غاية في الخصب ، بالمقارنة مع الأراضي الأخرى ، وتكاد تكون جنّة الله على أرضه ، لكنّها تهفو إلى الحرّيّة ، ولا تكفّ تستغيثُ طالبةً منكم أنْ تهبّوا لنجدتها . إنّني أعدُ كلّ من يحمل الصّليب ويتمنطق بالسّيف ، وينطلق لمحاربة الكُفّار الوثنيّين

بغفران الذّنوب والإعفاء من الدّيون ، وبالجنّة لكلّ مَنْ يستشهد في القتال من أجل الرّب» . قُوطعت الخطبة بالهتاف والحماسة من الحشود الحاضرة ، كانوا يصيحون في كلّ مرّة : «الرّبّ يريد» . فيما بعدُ قبل أنْ تنطلق أولى حملاتهم الصّليبيّة باتّجاه فلسطين ويسيل من بعدها حَمّام الدّم ، أوصاهم البابا : «حينَ تلتحمون في القتال مع العدوّ ، ليهتف الجميع بصوتٍ واحدٍ : الله يريد» . لقد كانتْ خطبة البابا أروبان الثّاني الّتي لم تستمرّ أكثر من عشر دقائق الباب الّذي فتحَ النّار على المشرق ، واستغرقَ إغلاقُه مِئتَي سنة على يد جيلٍ كاملٍ من الزّنكيّين ، والأيّوبيّين ، ومَنْ جاءَ بعدهم .

التّفسير الاقتصادي أحد أهمّ التّفاسير لفهم سيرورة التّاريخ . من أجل هذا لن تجد العُبّاد والرّهبان والأغنياء هم الّذين انضمّوا تحت لواء الصّليب للحرب ، لقد كانت جيوش الحملات الصّليبيّة مكوّنة في أعمّها الأغلب من الفلاّحين المُرهَقين من ضرائب الدّولة ، والّذين كانوا سيتلقّون راتبًا إن انخرطوا في الجيش ، وسيُعفَون من كلّ أنواع الضّرائب . لقد كان هؤلاء يسكنون في قرىً مكوّنة من بيوتٍ نصف مهدّمة ، أو مُغطّاة بالقشّ ، وتحت سقفٍ واحدٍ كانتْ تنحشر أسرة الفلاّح مع ما لديها من بشرٍ وماشية . كانَ هؤلاءِ الفلاّحون لا يجدون الخُبز لسدّ جوعهم . نادرًا ما يُسمّدون الأرض ، وعندما يرشّون بذورهم من أجل أنْ تنمو في الحقول كانت الطّيور تأتي وتلتقطها وتطير بها مالئةً بطونها ، وكان ذلك يضطرّهم إلى أنْ يأكلوا بعضَ ما كان مُخصّصًا للبِذار ، فلا تأتي محاصيل العام بالغلّة الوفيرة ، وفي بعضِ القرى كان الجُوع ينتشر بين أهلها كالطّاعون فكانوا يُحاولون التّغلّب عليه بأكل حشائش الأرض وجذور النّباتات ، ولم يكونوا يتورّعون في

حالة الجوع الشّديد الّذي قد يُفضي إلى الموت من أنْ يأكلوا القطط والجرذان ، وحتّى لحم موتاهم الّذين ماتوا حديثًا . إنّ الحرب تُشكّل لهم طريقًا إلى النّجاة من كلّ هذا الجوع ، ولأن يموت أحدهم في الحرب خارج بلاده شبعان خيرٌ له من أنْ يموت بلا حرب داخل أرضه ينهشه الجوع نهشًا . هكذا كانوا يفكّرون .

كذلك لم تكنْ حربُ طروادة من أجل عينَي (هيلين) ووجهها «الأجمل من نسيم المساء المكسوّ بحُسنِ ألفِ نجمة» كما قال (هوميروس) في (الإلياذة) . بل كان بريق المال يفتن عيون هؤلاء الإغريقيّين . ولم تحدث الثّورة الفرنسيّة لأنّ (فولتير) ألّف هجائيّات رائعة كما يقول (ديورانت) ، أو أنّ (روسو) كتب روايات عاطفيّة ، وإنّما لأنّ التشريع الاقتصاديّ البالي آنئذٍ كان يحتاج إلى ثورة!!

إنّه لعُمرٌ طويل هذا الّذي أقضيه هنا . أيطول البرزخ إلى هذا الحَدّ؟! ألا يُمكن أنْ أكون من أولئك الّذين «يَتخافتون بينهم إنْ لبثْتُمْ إلاّ عَشْرًا»؟! نزلتُ اليوم وصعدتُ في المصعد أكثر من عشر مرّات . لا لشيءٍ إلاّ لتزجية الفراغ الّذي أحسّ به . أحيانًا يقصر عقلي عن أنْ يستوعب الحالة الّتي أعيشُها . أنهار . أتداعَى . أتلوّى . أصرخ . أبكي . أركض في الأبهاء . أتسلقّ الرّفوف . أشدّ على أسناني . أنتفُ شَعر لحيتي . أنادي على الموتى . أهتف بالرّاحلين . أصوّت بأسماء الغابرين ، . . . لا أحدَ سِواي . أنا في طريقي إلى الجنون .

أُبتُ إلى غرفتي ليل هذا النّهار المُتشابه في كَرّه منذ أكثر من سبعةَ عشر عامًا . النّوم أكبرُ عدوٍّ واجهتُه في حياتي . إنّه لا يكاد يزورني مرّة واحدةً في الشّهر . إنّه ليس الأرق الّذي كان يُصيب الفانين في الدُّنيا . إنّه أرَقُ الرّقّ والعبوديّة . كان عليّ أنْ أصلّي في اليوم سبع

مرّات منى أجل أنْ أرقد بضع دقائق . لا يهمّ . النّوم هو الآخَر عدوّ هذه الحياة الّتي تُدهشني كلّ مرّة بغرابتها . من بعيدٍ قَدِمَ طائر النّوم . ابتسمتُ في أعماقي . ها هو يقتربُ أكثر ، حينَ يحطّ على جفنَيّ سأكون قد نمتُ قليلاً . ظلّ يدنو ويدنو لكنْ دون أنْ يحطّ على جفنَيّ . رجوتُه في سرّي أنْ يُنهي رحلته في مدى الرّؤية ويفعلها ولا يُعذّبني ، لكنّه أبى ، اغتظتُ . مددتُ يدي لأقبض على عنقه ، وأُلقيه على جفنَيّ . لكنّه ابتعدَ ، ثُمّ بعدَ قليلٍ راحَ يقترب ، فمددتُ ذراعي إلى عنقه ، لكنّه هربَ من جديد كأنّما كان يُناكفني . لعنتُه في سرّي . هتفتُ وأنا أكاد أنفجر من الغيظ والبُؤس : ماذا يضيرني ألاّ أنام ليلةً أخرى . واستسلمْت .

مُستلقيًا على ظهري ، ومُسدلاً ذراعَيّ على جانِبَيّ . ومُغمِضًا جفنَيّ . ولافًا نفسي بلفافة بيضاء أقربَ إلى الكفن ، مثل مومياء فرعونيّة تنتظر الخلاصَ بفارغ الصّبر . كلّ شيءٍ حولي صامت . وماذا يرجو الإنسانُ من حياة ليستْ كحياة ، وموتٍ ليس كموت!! فجأةً طرقَ سمْعي ارتطامُ شيءٍ ما . صوتٌ يُشبه الصّوتَ الأوّل الّذي سمعتُه من قبل ؛ صوتُ ارتطامِ كتابٍ بالأرض . قلتُ : قد يكون قد سقط بفعل الحرارة ، وإنْ كان تعريف الحرارة هنا لا معنى له . ربّما يكون من الورق الرّديء أو الورق الّذي ينكمش بانخفاضِ درجات الحرارة ، فأحدث انكماشُه فراغًا بسيطًا بين إخوته من الكتب الأخرى ، فأحدث هذا الانكماش بدوره فراغًا ، فلم يجد الكتاب ذراعًا أو كتفًا يُسند عليها هامته ، فسقط . نسيتُ الأمر أو قُلْ تناسيتُه . فمن الجنون أنْ أقومَ من مكاني الآن لأتفقّد مكتبةً ، أو رَفًا سقطَ منه كتابٌ ، هذا إنْ كان هذا ما حدث ، فمن يدري ، قد يكون قد سقطتْ قِطعةٌ من الثّريّا الّتي

تتدلّى من سقف ارتفاعه مئتا متر في كلّ طابق منذ سنوات طويلة سبقتْ حتّى سنوات مجيئي إلى هذه المكتبة القلعة ، أو المكتبة السّجن ، أو المكتبة الموت ، سَمّها ما شئت .

كان البرد شديدًا في تلك اللّيلة ، هل في البرزخ بردٌ؟! إنّها الذّاكرة الّتي تستجلبُ كلّ شيءٍ هنا . إنّها تصنع الظّروف المُحيطة بي . اصبحتُ أخاف من هذه الذّاكرة ، لقد صارتْ تبدو كقاتلٍ يُعشّش في عقلي ، حينَ تنهض تجرّ خلفها أشلاء وضحايا ، وتُسبّب كوارث ونوائب .

كان هذا في يوم ثلجيٍّ ، يحزّ البردُ فيه العِظام ، ويكسرها ، حتّى لتكاد تسمعُ صوتَ كَسرٍ في جسدٍ يتحوّل تدريجيًا إلى قطعةٍ مُسطّحة من زُجاج . كنتُ أصعدُ قِمّة جبل (ابن أدهم) ، أعلى جبلٍ في قريتنا . اخترتُ أنّ أصعده في أبردِ ليلةٍ من شهر كانون الثّاني . كان الصّقيع يلفّ الطّرق ، وبقايا ثلج على الدروب يكسو الهضبات والحجارة ، ولم تنجُ منها سوى مواضع العَجَلات الّتي تجرّها الدّوابّ ، وأغصان الشّجر ما زال الأبيض يَعلَق بفروعها فتبدو كأشجار لوز مُزهرة . وصوتُ أنفاسي اللاهثة المُتقطّعة يكسر صمتًا مُطبِقًا في ليلةٍ صافية مليئة بالنّجوم . ولون بُخار أنفاسي الفِضّيّ يتصاعدُ من فمي تارةً ومن فتحتَي أنفِي تارةً أخرى مُعلِنًا أنّه ما زالتْ في هذا البشريّ حَياة .

حينَ وصلتُ إلى القِمّة ، كانت القرية الّتي تتمدّد في سفح الجبل المُقابل تبدو قد خلدتْ إلى النّوم ، بيوتها مُطفأة ، وكذلك شوارعها ، باستثناء أضواء شاحبةٍ تصدر من بعض النوافذ القديمة كأنّها عيونُ جِنّيّة عجوز . كانت درجةُ الحرارة في سيّارتي الّتي أوقفتُها على بُعدِ مئات الأمتار من هنا تُشير إلى عشر درجاتٍ تحتَ الصّفر . تركتُها ،

وصعدت . في القمّة يبدو الله قريبًا . السّحر قريبًا . الجَمال الّذي لا يوصَف ، الحزن الّذي لا نهايةَ له . والموت . كلّ شيءٍ هنا يبدو قريبًا ، لأنه حينَ يسمح الجسد لروحه أنْ تصل إلى منزل الأرواح سيكون كلّ شيء مختلفًا ، مختلفًا على نحوٍ حقيقيّ . أشعلتُ نارًا لأستدفئ ؛ مكثتُ زمنًا حتّى استطعت أنْ أوقِدَ النّار من الحطب الغَضّ ، والغصون الطَّريّة الّتي جمعتُها من المكان وأنا أواصل لُهاثي ، صببتُ على النّار شيئًا من الزّيت ، فشبّتْ . وجلستُ قُبالَتها أتأمّل ألسنتها الّتي تتلوّى ، وضوؤها ينعكس على صفحة وجهي ، فأبدو أنا أيضًا مخلوقًا غريبًا ووحيدًا في هذا الليل الحالك . أرسلتُ طرفي في البعيد . كانتْ هناك عوالم أخرى ساحرة تعيش في الفضاءات المُطلَقة . من هناك بدأتْ رِحلتي مع الرّواية . في تلك اللّيلة شعرتُ أنّني سأكتبُ مئة رواية . مئة رواية عن مئة عالَم مُختلف . رأيت مُدُنَ الله كلّها . ورأيتُ ما صنعتْ يداه . وأطلعني عليّ كلّ ما أريدُه . في زمنٍ بعيد آخر ، التّفاصيل كانت حاضرة . المشاهد كلّها بدقائق أوصافِها عُرِضتْ عليّ . كانت ليلتي مثل ليلة المسيح على جبل الزّيتون!!

سمعتُ صوتَ ارتطام آخَر . هل هو كتابُ . أمْ شمعةٌ . أم قِطعةٌ من الثّريّا الأسطوريّة . أمْ أنّ لِصًّا جاء ليسرق كِتابًا . مع أنّ لصوص الكتب لم يكونوا موجودين في الفانية حتّى يكونوا موجودين هنا . أم أنّ كتابًا من هذه الكتب قرّر أنْ ينضمّ إلى مجموعة الكتب المنبوذة؟! كلّ شيءٍ مُحتَمَل وقابلٌ للشّكّ . إلاّ أنّ الشّيء الوحيد الّذي لم يكنْ قابلاً للشّكّ مُطلَقًا هو حتميّة رحيلي من هنا!!

تذكّرتُ الموتى . الموتى هناك . في مكانٍ ما . يهتفون باسمي . ينتظرونني . يُنادُون عَلَيّ . يقولون بصوتٍ أقربَ إلى الهَمس : تأخّرتَ .

أقول : ليس لي في الأمر حيلة . أنا أدفع الزّمن باتّجاهكم ، وهو يدفعني باتّجاه آخَر . أصواتهم تختلط ، تجتمع . لا أفهم تمامًا ما يقولون . لكنّهم يبدون قَلِقين . القلق هو الرّحِم الّتي يكبر فيها الإنسان . أكادُ أسمعُ صوتَ جدّي قادمًا من بئرٍ عميقة . صوتَ جدّتي من خلفِ سنابل القمح الذّهبيّة . وامرأة عمّي من تحت شجرة التّين العتيقة . وأولاد عمومتي يلعبون في أرضٍ خَلاء ليس فيها غيرهم ، وهم يُشيرون بأيديهم الّتي ترتفع فوق رؤوسهم كأشرعةٍ إليّ . صوتَ أختي فاطمة الّتي ماتت صغيرة . صوتُها وهي تلفِظُ اسمي لأوّل مرّة . وصوت خديجة ، أختي الأجمل . عيناها السّوداوان . وجهها الأبيض . رموشها الطّويلة . وحُزن أبي الأطول عليها . المريولة المُطرّزة الّتي كانتْ تُغطّي صدرَها . ويداها الصّغيرتان النّاعِمتان . ورَقْدتُها الأخيرة في مَهدها الخشبيّ الأزرق ، قبل أنْ تُغمِضَ عينَيها إلى الأبد . وبُكاء أمّي الفجائعيّ عليها . ها هي أصواتهم جميعًا ترنّ في أذنَيّ .

(٢٥)

في هذه المكتبةِ لا يَفخرُ أحدٌ على أحدٍ

صارَ لا بُدّ من البحث عن مخرج بأيّ ثمنٍ. الثّمن المُقابل هو أنْ تلتهمني الوحوش؛ هنا ألفُ وحشٍ بألفِ وجه. الزّمن الّذي لا ينتهي وحش. الكتب الّتي لا تنتهي وحش. الأفكار الّتي تتصارع داخل جمجمتي وحش. الوحدة. الفراغ. اللّيل السرمديّ. الحُزن. الذّكريات. القراءة. الوَعي. اللاّنهاية... كلّها وحوش بألف ذراعٍ تلتفّ على عنقي.

كان شيخي في الفانية يقول: «إنّما نحزن على ما نفقد، فأمتْ حُزنكَ بالزّهدِ في كلّ شيءٍ». وكنتُ أرى أنّ عليّ أنْ أتعلّم آدابَ المُريدين كما صنّفها الشّيخان السّهروردي وابن عربي. فإنّني بدون هذه الآداب لن يُشرِقَ قلبي بالحِكمة. وسألتُه مرّة: «ما خيرُ العلم؟». فقال: «ما كانت الخشيةُ معه». فسألتُه: «كيفَ تُقطَع الطّريق؟». فقال: «بالله». فقلتُ: «كيف؟». فقال: «لكَ في الله غِنًى عن كلّ شيءٍ وليسَ يُغنيكَ عنه شيء».

منذُ ما يزيدُ عن سنتَين أحاول أنْ أقرأ بأقصى طاقة ممكنة؛ لأنّ رغبتي في الخروج من هذا المكان قد تعاظَمَتْ، ولم يعدْ مجالٌ للبقاءِ زمنًا أطول. إنّني منذُ ثمانيةَ عشر عامًا لا زلتُ أبحثُ عن مخرج في هذه المكتبة يُوصلني إلى الطّرف المقابل للجهة الّتي قدمتُ منها قبلَ ما

بقرب من عقدين من الزّمان . جرّبتُ تجربةً ثانيةً في الأسبوع الفائت . خرجتُ من المدخل ، وجدتُ الكتاب ذا الألياف الضّوئيّة خلف اللوح الزجاجي ما زالَ محفوظًا في مكانه لم يُمسّ بسوء . ورأيتُ كذلك نخّارة الخزف الّتي تستقرّ على مُحيطها الخارجيّ الرّيشات التّسع عشرة ما زالتْ على حالها كأنّما لم يلمسْها سِواي . خرجتُ مُصمّمًا هذه المرّة أنْ أبحثَ بِجدٍّ أكبر عن وسيلةٍ تُخرجني من هنا . مشيتُ المسافةَ الممكنة جهةَ اليمين ، حتّى وصلتُ إلى حافّة الأضلاع ، كان هناك عند تلك الحافّة خندقٌ عميقٌ ، تهبطُ فيه الطّوابق التّسعة الّتي أسفل طابق الأديان ، ولا أدري إنْ كانتْ بعدَ ذلك تستقرّ أم لا . من هنا بدت قلعة المكتبة كأنّها مُعلّقة في الفضاء لا شيءَ يُمسكها من الأسفل . كان الخندق عميقًا إلى الحدّ الّذي لم أتمكن حين مددتُ عنقي من أنْ أرى نهايته ، أو أعرف ما يوجد في أسفله إنْ كان له أسفل . ومثل هذا المنظر رأيته في الجهة الأخرى . أمّا الجهة الأماميّة فهي تنبسطُ كما قلتُ في السّابق مسافةً واسعة قبل أنْ تصل إلى النّهر الّذي يمتلئ بالكائنات الغريبة المُفزعة . عندما لا يكون لك خيارٌ سوى أنْ تجرّب حتّى تعرف ، فعليكَ أنْ تحتمل نتائج هذه التّجربة . تقدّمتُ جهة النّهر . كان ماؤه من بعيدٍ يترقرق على ضوء الشّمس يُغري كلّ منْ يراه بالسّباحة فيه . غير أنّ ما يبدو لك هادئًا قد تكون الصّواعق تختبئ خلفَ صمته الظّاهريّ . اقتربتُ أكثر . كان المشهدُ لا يزال على عهده ؛ الأسود تتراكَض كأنّها تلحقُ بفريسةٍ صعبة ، وأفراس النّهر تفغر أفواهها كأنّها لم تشبع من ذلك اليوم ، والأفاعي تتلوّى بعضُها على بعضٍ . . . وسكنني اليأسُ من جديد ، فعدتُ إلى المكتبةِ حزينًا .

تسلّيتُ في تلك اللّيلة بقراءة بعضِ أشعار (جون دون) و(ويليام

بليك) ، كانتْ روحي محتاجةً إلى بعض الهدوء . عبوديّتي هنا أصبحتْ لا تُطاق . لا بُدّ من ثورةٍ من أجل الحريّة . لكنّني مُكبّل . موضع الخروج مفقود . وأنا تائهٌ في هذه القلعة الكئيبة . اليقين يقود إلى الحريّة . أعرفُ أنّني لو أيقنتُ بوجود المخرج لوجدتُه . نحن صورةُ ما نعتقد . الحريّة أنْ تؤمن بأنّه لا يملكك أيّ شيءٍ . نحن عبيدٌ لما يملكنا بطريقةٍ أو بأخرى . إذا سيطرَ عليّ وهم استحالة إيجاد مخرجٍ فسيُصبح الأمر واقعًا ، سيكون من المستحيل بالفعل أنْ أجد مخرجًا . المخرج أنْ تتحرّر من كلّ أشكال العبوديّة في داخلك وتلك الّتي في خارجك ؛ أنْ تتحرّر من وهم البؤس ، ومن بُؤس الوهم .

في طابق التّصوّف ، تحلّ على روحك السّكينة . تعبُ السّنين الغابرات يزول حالمًا تُنشِد :

أبـداً تـحِـنُّ إليـكـمُ الأرواحُ

ووصـالُكم ريْحـانُهـا والرّاحُ

ستخرج الأرواح من ذلك الطّابق ، حاملةً دُفوفَها . ويداها فوقَ رأسِها استِسلامًا . وجذعها مركز دورانها ، صوتُها صورةُ فنائِها ، وهم ما زالوا يهتفون :

متى يا كِرامَ الحيّ عَيْني تراكُمُ

وأسمعُ من تلكَ الدّيارِ نِداكُمُ

واشتاقتْ روحي بالفِعل إلى كِرامِ الحيّ ، وتاقتْ إلى أنْ تسمعَ أخبارَهم ، فمنْ يُخبّر ماذا حلّ بأهل الفانيَة ممّن كان العيشُ بهم ريّقًا ، أين صاروا ، وإلى أيّ المنازل آوَوا ، وفي أيّ الدّيارِ حلّوا؟! وتذكّرتُ عهدَ الهوى على إيقاع النّشيد العذب الّذي يُزيل أوجاع الحياة من القلوب المُتعبة ، فهتفتُ :

سَقاني الهَوى كأسًا من الحُبَّ صافيًا
فيا لَيْتَهُ لمَّا سَقاني سَقاكُمُ

ومَّتْ تلكَ اللّيلة على إيقاع تلك الأصوات المُرَنِّمة . ولم أجِدْ من تعب في شيءٍ . فقد كان في الهناءة ما اعتضتُ بها عن كلّ كَدّ .

الفنون مظهرٌ من مظاهر رقيّ الأمم . الأمم المستقرّة لها فنون . تلك الأمم الّتي ظلّتْ تعيشُ في الكهوف حتّى بعد أنْ هبطت الأقمار الصّناعيّة على كوكب المرّيخ لن تُنتج فنًّا من أيّ نوع . العمارة فنّ . ستكون الصّورة الأبرز الّتي تُباهِي بها الأمم مَنْ سبقَ ومَنْ لحق ، والمَعلَم الأثبت الّذي يظلّ شاهدًا على وجود حاضرةٍ سادتْ زمنًا ثمّ بادتْ لكنّ آثارها ما زالتْ تدلّ عليها ؛ الفناء صورةُ كلّ حَيّ . هنا في طابق الفنون ، ستلتقي بالأعمدة الرّومانيّة ذات التّيجان ، وبالفنّ القوطيّ ، وبالأقواس الأندلسيّة ، وبالمنمنمات المقدسيّة . ما ظلّ دالاً على حضارة الصّين سورها العظيم ، وما ظلّ دالاً على حضارة الفراعنة أهراماتُها الشّامخة . وبقي من بابل بُرجها وحدائقها المُعلّقة ، وبقي من الأنباط خزنتها الورديّة . والتّماثيل ، والآبار ، والمعابد ، والنّوافذ ، والمدارس ، والمنارات ، والكنائس ، والمساجد . . . كلّها تقول : لقد كُنّا في زمنٍ ما هنا . البقاء في وجه الزّمن محاولةٌ للاحتِيال عليه من أجل الخلود . الخلود الّذي لم يكنْ لأحدٍ من البشر .

الحرب الّتي تُدمّر كلّ شيءٍ . تدمّر الفنون هي الأخرى . ليس المقصود ما يفعله البرابرة من تدمير المعابد أو المنحوتات أو غيرها . ولكنّ الحرب سوقٌ قائمةٌ لكلّ شيءٍ ، إنّها سوقٌ تُباع فيها حتّى الأجساد . في عالَم يعترف بأنّ «القوّة هي الحقّ الوحيد» كما كان (ثراسيماخوس) يعتقد . الحرب الّتي تُدمّر الفنّ ، تُحيي الخطيئة . غير أنّ الحرب ليست

المُقدّمة الوحيدة للخطيئة . فهناك أسبابٌ أخرى لها . لقد كتب (مارتن لوثر) في القرن الخامس عشر الميلاديّ : «ازدادتْ ملاحقة الفتيات ، وهنّ يجرين وراء الفتيان ، ويدخلنَ قاعاتِ نومهم ، وحيثُ يَجِدْنهم ، ويعرِضْنَ عليهم الحُبَّ المجّانيّ» . كان هذا بعد أنْ كان كسرى يتزوّج ابنته ، وهرقل يتزوّج ابنة أخيه ، و(أنتيباس) تُغويه زوجة أخيه (فيلُبُس) بقرونٍ طويلة!!!

لقد ظهرتِ الفاحشة والبِغاء والخطيئة والقِمار في كلّ عصر . لم يخلُ منه عصرٌ في القديم ولا في الحديث ، ولا في ذلك الحديث الّذي سيُصبح بعد قرونٍ قديمًا . إنّها مُركّبةٌ في الإنسانِ ، مُعلّقةٌ به ، لا تكاد تنتهي ما لم ينتهِ هو!

لقد كادت المِقصلة تطير بعنق (غاليليو) الّذي أيّد (نيكولاس كوبرنيكوس) في كتابه الّذي يُثبِت فيه أنّ الأرض ليستْ مركز الكون كما كان يعتقد أرسطو ، ومن بعده كلوديوس بطليموس . وأنّ هذه الأرض تُحيط بها ثماني كراتٍ تحمل القمر والشّمس والنّجوم والكواكب الخمسة المعروفة في زمانهم . وأوصى كوبرنيكوس أنْ يُنشَر كتابه الّذي يهدم الإيمان المسيحيّ الّذي تأسّس على القول الأرسطيّ في يوم وفاته . فكرة أنّ الأرض ليستْ مركز الكون ، وأنّ الشّمسَ هي كذلك كان هناك مَنْ يعلمها قبلهما . التقيتُ بهم وبابن الشّاطر . بسطَ ابنُ الشّاطر مخطوطتَه ، وكذلك كوبرنيكوس ، لقد كانتْ جميع النّماذج الفلكيّة الّتي استخدَمها كوبرنيكوس مأخوذة من ابن الشّاطر . من قبل ابن الشّاطر كان ابن الهيثم ينتقد أرسطو وبطليموس والكنيسة في هذه الفكرة . في هذه المكتبة لا يفخر أحدٌ على أحدٌ . على طاولة البحث والعِلم يحتلّ كلّ عقلٍ موقعه . لن يكون مُقدّمًا على سِواه إلاّ

بمقدار ما ينفع البشريّة . البشريّة الّتي كانتْ نهرًا يقذف بالأحياء في كلّ اتّجاه . النّهر الّذي لا أدري أجَفَّ اليوم أم أنّه ما زال مستمرًّا بالتّدفّق .

الطّبّ الّذي زادَ في معدّل أعمار النّاس ، لم يستطعْ أنْ يوقف الموت . هناك تيّار آخر يتدفّق عكس تيّار الطّبّ ؛ الإنسان ؛ إنّه أكبر عدوٍّ له ، الطّبّ يحاول أنْ يحميه من الأوبئة ، وهو يريد أنْ يُثبت له آنه أفضل مَنْ يصنعها ومَنْ يوجدُ أسبابَها . الّذين يتّبعون تعليمات الطّبّ في أحدث ما توصّلتْ إليه أبحاثُه لا يحمون أنفسهم من شيءٍ . الموتُ الّذي قد يأتي فجأةً - حادث سيّارة ، زلزال ، حريق مجهول ، . . . - يهزأ بتعب الأبحاث الّتي أنفقَ فيها الأطبّاء أعمارهم . ابن سينا الطّبيب العربيّ الأشهر عاشَ مريضًا نصفَ حياته ، لم ينفعه علمه الّذي أفادَ البشريّة من أنْ يُبعِدَ شبحَ المرضِ عن نفسه ، وفي النّهاية زاره الموتُ وهو صغيرٌ نسبيًا ، كأنّما كان آخر ما نطقتْ به شفتاه :

مـا للطّبيب يموتُ بالدّاء الّذي
قد كانَ يُبرِئُ منه فيما قَدْ مَضَى؟!
ذهبَ المُداوي ، والمُداوَى ، والّذي
جلَبَ الدّواءَ ، وباعَه ، وَمَنِ اشْتَرى!!

أمّا (جالينوس) الّذي مات قبل ابن سينا ، فإنّني سمعتُ المتنبّي يُنشِدُ فيه ذات مساء :

نحنُ بنو المَوتى ، فما بالُنا
نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُربِهِ
يَمُوتُ راعي الضّأنِ في جَهْلِه
مَوْتَةَ جالِيْنُوسَ في طِبِّهِ

الخلايا تموت . الهرم أمرٌ طبيعيّ . المليارات الّتي أُنفِقتْ لعلاج الهرم وإطالة العُمر في مراكز الأبحاث في الدّول العُظمى كانت بلا فائدة ولا معنى . ليس من حاجة إلى كلّ هذا القلق . القلق سيكون أكبر في أنْ يبلغ الإنسان من العُمرِ عِتِيّا ، ويموتُ كلّ شيءٍ فيه ما عداه ، يتكئ على عُكّازة الصّبر والانتظار ثُمّ لا يحدث شيء . نحنُ في الحياة السّرمديّة نشتهي أنْ ينقطع ذلك الوتر المُرخَى والّذي يمتدّ إلى ما لا نهاية . نشتهي أنْ نصحو ذات صباحٍ ، وقد رافَقَنا الموت إلى الضّفّة الأخرى!

يثقب الهمّ والحزن فؤادي في كلّ لحظة ، كلّ هذه الكتب تُغرقني في الهمّ ، العارف مَهموم ، ثقيل الغَمّ ، طويل الحزن ، شديد الحسرة ، تَقضُم الحِكمة قلبَه كالتّفّاحة ؛ «لأنّ في كثرة الحِكمة كثرةَ الغَمّ ، والّذي يزيدُ عِلْمًا يزيدُ حُزنًا» .

(٢٦)

الّذي يدخل هنا يموتُ هنا

سمعتُ همهمةً خلفَ أذني ، وأنا مُضطجعٌ في فراشي في إحدى اللّيالي الطوّيلة الّتي لم أعدْ قادِرًا على أنْ أعدّها أو أنْ أميّز بينها لكثرتها . صوتُ همَسَاتٌ تطوف كحلقات صغيرة خلف أذني اليُسرَى . «الشّيطان» قلتُ في نفسي . لا أحدَ يستطيع أنْ يهتدي إلى هذا المكان سِواه . هذا المكان المُنقطع عن كلّ العوالم الّتي يعرفها الأحياء لا يُمكن أنْ يصل إليه أو يعيشَ فيه سِوى شيطان . تقلّبتُ على جنبي الآخَر ، قد يكون «القرين» ، قلتُ ثانيةً لنفسي ، والقرين قد يكون شيطانًا هو الآخَر . سأهبُ له نفسي ليس على طريقة (جوتة) في مسرحيّة (فاوست) ، بل على طريقتي الخاصّة من أجل الخلاص . أوقفتُ سيلَ خواطري ، وأرهفتُ السّمع مرّةً ثانية . «لن تنجو» قالَها صوتٌ أقربُ إلى الحسيس ، فيه لفحُ نارٍ مجهولةٍ وصوتٌ خفيضٌ جِدًا . تحوّل الحسيس إلى همس ، قالتْ شفتان - لا أدري إنْ كانتا كذلك - تكادان تلامسان شحمةَ أذني ، فأشعرُ بدغدغةٍ وخوفٍ معًا : «لن تنجو» مرّة ثانيةً . سَرَتِ الكلمات عبر قنوات أذني مثلَ قطراتٍ من النّحاس تتدحرج وتكبر حتّى سقطت بثِقلها في قلبي ، فهوى قلبي هذا معها حتّى كاد أنْ ينخلع من أعماقي . نهضتُ . وقفتُ . صرختُ . صِحتُ بأعلى صوتٍ ممكن : «لن يهزمني أحدٌ» . تردّد صدى الكلمات في

الطّوابق التّسعة عشر ، ارتطمت بالجدران مثل كرات مطاطيّة وعادتْ بسرعة إليّ على شكل قهقهات مُخيفة . انتابني هياجٌ شديد ، رحتُ أصرخُ بالكلمات دون توقّف . بعد ساعةٍ من الصّراخ والهياج وصدى القهقهات المُرعبة تعبتُ . خررتُ على رُكبتَي . كان صدري يعلو ويهبط بسرعة . رميتُ نفسي في السّرير . قلتُ ثانيةً : «إنّه الشّيطان وهو يخدعني من أجل أنْ أصاب بالجنون» . وقرّرتُ أنْ أنسى كلّ ما حدث . أو اعتبره جزءاً من التّهيّؤات الّتي تحدث لأولئك الّذين يُدمنون العيش في الكُتُب . وحاولتُ أنْ أنام . سكنَ كلّ شيءٍ كأنّ ما حدث لم يكنْ إلاّ خيالاً . صمتٌ مُطبِقٌ لفّ غرفة مكتبي ، ولفّ المكتبة كلّها ، وغرق كلّ ما حولي في الصّمت والظّلام . انتظمتْ أنفاسي . وارتختْ أعضائي . وبدا أنّني في طريقي إلى النّوم ، حينَ عادني الصّوت ، هذه المرّة تحوّل الهمسُ إلى وسوسة ، نفضتُ أذني بأطراف أصابعي فغابَ الصّوتُ قليلاً ثُمّ عاد . عاد وسرتْ كلماته في شُعيرات دمي ، قال : «الّذي يدخل هنا يموتُ هنا» .

قمتُ في هذا الهزيع المُروّع فزِعًا ، نظرتُ حولي في الغرفة ، لا شيءَ سِواي ، لا أحدَ حَيٌّ غيري ، خرجتُ إلى طابق الأديان ، نظرتُ في المدى الفسيح ، كلّ شيءٍ ساكنٌ وهادئٌ ، الكتب تنام مُطمئنّةً في الأرفف ، ولا أثر لأحدٍ مرّ من هنا . عُدتُ إلى غرفة مكتبي . أضأتُ بعضَ الشّموع عند زاويتَي المرآة الموجودة في الحَمّام ، اتكأت بطرفَي يدَيّ على حافّتَي المغسلة ، وكان رأسي مُتدلّيًا تحتَ كتِفَيّ ، بدا أنّ كاهلَيّ يحملان أثقال الدّهور وأحزانه ، رفعتُ رأسي ببطءٍ ونظرتُ في المرآة ، ضيّقتُ عينَيّ لأُميّز هذا الشّبح المطبوع فيها ؛ كنتُ أبدو أنّني قد هرمتُ ألفَ عام . زفرتُ زفرةً حرّى : «لم أكنْ على هذه الهيئة يومَ

جننتني أيها الملك في مكتبتي في الغابة ما الذي جعلك تهملني
كلّ هذه القرون لأبدو بهذا الشّكل الفظيع .. ألا يموتُ الهرم، ألا
ينهي هذا البؤس، ألا يقضي الموتُ على كلّ هذا». كانت حواجبي
البيضاء المُشعّثة قد سقطتْ فوق جفوني، ورموشي قد طالتْ حتى
كادت أنْ تنغرز في عينيّ. ولحيتي قد شابتْ وطالتْ. وتساءلتُ لماذا
لم أتذكّرها كلّ هذه السّنوات الّتي قضيتُها في هذه المكتبة الأسطوريّة.
هل شغلتني الكُتُبُ عنّي؟! هل يَنسى الإنسانُ نفسه إذا سرقتْهُ الكُتُبُ
منه؟! لقد كنتُ أشعرُ أنّني طفلٌ صغيرٌ، وأنّ الكتاب هو أبي، يأخذ
بيدي إلى الغابة، ويُدخلني إلى عوالمها الغامضة، ويتركني هناك أتيه
فيها أربعين عامًا، حتّى أكون قادرًا على العودة أو الخروج منها!!
«إذا كان الشّيطان، فلماذا الآن؟». سألتُ نفسي، وأنا أغسل
وجهي، وأتابع النّظر في المرآة: «لماذا انتظر ما يقرب من عشرين
عامًا ليتهيّأ لي؟! إذا كان يريدُ أنْ يطردني من هنا، فإنّني أرجوه أنْ
يفعل، إنّني أبحثُ عن مخرج منذ زمنٍ، إذا كان خوفي منه
سيُخرجني من هذه القلعة فأنا أريدُ ذلك». سمعتُ صوتًا آخر، لا
أدري إنْ صعد من أعماقي، أو قالته ذرّات الهواء: «لقد بقي عليكَ
طابقان لم تقرأ فيهما شيئًا، طابق الفلسفة وطابق السّحر، إذا أردتَ أنْ
تنجو من هذه القلعة المُغلَقة، فعليكَ أنْ تقرأ كلّ ما في هَذَين
الطّابقين». كان طابق السّحر في الدّركة التّاسعة من الأسفل، وكان
طابق الفلسفة في الدّرجة التّاسعة من الأعلى، ولا أدري إنْ كنتُ
أستطيع أنْ أبتغي سُلّمًا في السّماء أو نَفَقًا في الأرض حينَ أصل
إليهما فأنجو ممّا أنا فيه!!

هذه المرّة، سأجرّب في الثّالثة، الخروج باتّجاه النّهر، لعلّه إلى يمين

النّهر أو يساره أجدُ مخرجًا ، لن أمضي قُدُمًا إن اجتزتُ النّهر ، ولن أصل إلى الجبل الأجرد ، فخلفَ الجبل الأجرد يُوجد النّعيم الّذي لم أطِقْ عليه صبرًا ، ومن الحماقة أنْ أقعَ في الفَخّ مرتّين . سأحاول إن امتلكتُ الشّجاعة أنْ أجتاز النّهر ، وأمضي يمينًا ، فاليمينُ يُمن ، وأبحثُ عن مخرجٍ يقودني إلى حياةٍ من نوعٍ آخر ، فقد سئمتُ الحياةَ هنا!

بقيتُ أسبوعًا كاملاً أقرأ وآكُل ، تغذّيتُ في هذا الأسبوع جيّدًا ، الطّعام الّذي لا ينفد من الثّلاّجة كان متعدّدًا ، ومتلوّنًا ، ويأتي حسبَ ما تشتهي . هناكَ لوحةٌ إلكترونيّة في الثّلث الأعلى من الباب ، تستطيع أنْ تبرمج فيها نوع الأكل وكمّيّته ، والأمر لا يستغرق حتّى يجهز الطّعام أكثر من دقائق قليلةً .

الخنجر الّذي حافظتُ عليه يومَ اجتزتَ النّهر قبل ما يقرب من عقدَين من الزّمان ، موجودٌ هنا في غِمده في رَفٍّ من مكتبةٍ صغيرةٍ تحمل ما بين مئةٍ إلى مئتَي كتاب ، هي تلك الكتب الّتي أكونُ بصددِ قراءتها . نظرتُ إليه نظرةً لم أجدْ لها تفسيرًا دقيقًا . قد تكون نظرةَ عاشقٍ إلى معشوقه ، أو نظرةَ يائسٍ إلى مصدر أمله . تمنطقتُ به ، وخرجتُ . هذه المرّة عزمتُ على أنْ أجتاز النّهر ، ولو قاتلتُ كلّ الوحوش والسّباع الرابضة على ضفّته .

خرجتُ من الباب ، تفقّدتُ الرّيشات . عددتُهنّ . اطمأننت . نظرتُ إلى الكتاب الّذي فيه كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وشاردةٍ وواردةٍ . وددتُ لو أنّني أستطيع أنْ أقرأ فيه مصيري ، أو مآلي يوم الحساب ، لكنّه كان مُغلقًا ومحفوظًا عن أنْ يطّلع على ما فيه أحدٌ . الأمل في القادم قد يزيد القلق لكنّه يُبطّئ وتيرة الخوف .

كان الوقتُ ضُحَى . والشّمس مثل شمس الفانية لم تكنْ حامية . مشيتُ أقلّ من ساعة حتّى بدتْ لي ضفّة النّهر بمائه الرّقراق . كنتُ أملُ الاّ أجدَ وحشًا يرتع على ضفّته الأخرى . لعنتُ الوحوش الّتي تقف حاجزًا بيني وبين ما أريد . تمنّيتُ أنْ تأتي صاعقةٌ من السّماء وتقضي عليها جميعًا . أو أنْ تموتَ من الهرم ، أو يأكل بعضُها بعضًا . هل تعيش الحيوانات كلّ هذه الأعمار؟! حينَ صارت الضفّة الأخرى في مدى الرّؤية ، وجدتُ الوحوش على هيئتها منذ ذلك اليوم الّذي نجوتُ فيه منها . تلمّستُ الخنجر الّذي أشدّه على وسطي ، فشعرتُ بشيْءٍ من الاطمئنان مع شيْءٍ من الانفعال . استللتُه من مكانه ، وحركتُه في الهواء ، مددتُ ذراعي بارتفاع خصري ، وطعنتُ به طعنات تجريبيّة . حاولتُ أنْ أتخيّل من أينَ يُمكن أنْ تنقضّ عليّ الوحوش ، فأعاجلها بطعنات مسمومة فأقضي عليها . تشجّعتُ قليلاً . وتقدّمتُ . حينَ وصلتُ الضفّة رأيتُ أمرًا مَهولاً ، كان عددُ الوحوشُ قد تضاعف عشر مرّات على الأقلّ ، الأسود كانتْ تتعارك كأنّها قُطعانٌ نافرة ، الأفاعي لم تتركْ بوصةً من الأرض إلاّ تلوّتْ عليها ، أفراس النّهر تملأ كلّ شبرٍ في الماء ، والخيول الّتي كانتْ تحمل رأسَ نمرٍ ، صارتْ تحمل رؤوسًا متعدّدة ، وتمنّيتُ لو أنّ هذا ما قرأتُه في كتب الأساطير الإغريقيّة وليسَ حقيقيًا . تمنّيتُ أنْ تكون الكتب قد فعلتْ في عقلي وفي رؤاي فعْلَ السّحر ، فأكون أرى ما ليسَ موجودًا ، وأنظر ما ليسَ كائنًا . لكنْ قد يكون بالفعل ما أراه وهمًا ، فإنّني قد نجوتُ في المرّة الأولى ، ولا بُدّ أنّ ما رأيتُه يومئذ كان وهمًا ، ولو كانَ حقيقةً لما استطعتُ أنْ أجتاز بوسْها الضّفّة دون أنْ أُقتَل ، أو تُنهكني الجِراح . وغلبَ عليّ هذا الاعتقاد ، وأردتُه أنْ يغلبَ كلّ اعتقادٍ آخر حتّى يصير بإمكاني أنْ

أغامر في قَطْع هذا النّهر . وبالفِعل أخذتُ نفسًا عميقًا وغَذَذْتُ السّير في الخُطوات المتبقّية ورميتُ نفسي في النّهر ، لم يكدْ الماء يمسَّ جسدي ، حتّى لوت الوحوشُ أعناقَها باتّجاهي . قلتُ وأنا أرى أفواهها المُرعبة : «إنّه خيالُكَ المريض الّذي يُهيّئ لك هذه الأفوه المفغورة . تقدّم ، الخطوة القادمة ستُذيبُ الوَهم» . سبحتُ أمتارًا قليلة ، ولكنّ الزّئير والفحيح والصّلّ والصّهيل وأصواتٌ أخرى صَكّتْ أذني صَكًا ، فقلتُ : «إنّني واهمٌ فيما أسمع كما كنتُ واهمًا فيما أرى» . ثُمّ في لحظة لم أدر كيفَ حدثتْ ، كأنّ هذه الوحوش شَمّتْ رائحتي البشريّة ، فقد رأيتُ قُطعانًا منها تتقدّم باتّجاهي أفواجًا أفواجًا ، الأسود - في يومي المشؤوم هذا - صارتْ لديها القدرة على السّباحة ، وكذلك النّمور والخيول والأفاعي والكِلاب ، كلّها هجمتْ عليّ ، لم أتقدّم خطوةً ، ولم أتأخّر ، كنتُ أريد أنْ أختبر النّوع الثّالث من الحواسّ ، مدّعيًا شجاعةً خارقةً سأكتشف في ثوانٍ أنّها في غير محلّها . لقد كذّبتُ عينَيّ ، وأذنَيّ ، والآن سيجعلني الالتِحام أصدّق ما أرى ، أو أكذّبه .

أوّل لطمةٍ كانتْ من يدِ أسدٍ ، نشبتْ أظفاره في خَدّي الرّقيع ، فذهبتْ بلحمه دفعةً واحدة ، وانكشطَ الجلدُ عن عظم الخَدّ فورًا . صحتُ من الرّعب ، وتراجعتُ إلى الوراء باحثًا عن الحياة في بحرٍ لجّيّ تتلاطم أمواهه بالموت ، صرتُ أطعن بالخنجر في كلّ اتّجاه ، وبيدي الأخرى أحاول أن أفلتَ وأسبح إلى الضّفّة . مرّت دقائق كأنّها سنوات ، حينَ تمكّنتُ من الوصول إلى الضّفّة الآمنة ، وأنفاسي تتقطّع ، ودمائي تسيل من كلّ شبرٍ في جسدي .

عُدتُ إلى القلعة . من بعيد بدتْ جنّةً ، وأنا أفلتُ من جهنّم الرّابضة على ضفّة النّهر . كان قلبي بالرّغم من جراحي الّتي تنزف

يرقص فرحًا وهو يقتربُ من الباب الشّاهق للمكتبة . هذه المكتبة الّتي عفتُها بدَتْ واحةً تنقذني من الجحيم المنتظر هناك . دخلتُ ، ثيابي المَمزّقة تناثرَ بعضُها على الأرض ، الجروح نزَتْ ما تبقّى على الرّخام ، شكّلتِ الخيوط الحمراء على الرّخام الأبيض لوحةً بدتْ سورياليّة ، تُشبه لوحات (فان كوخ) . نظرتُ إلى السّقف ، حضرَ الفنّانون كلّهم ، كأنّني رأيتُ في السّقف الرّسومات إيّاها الّتي صوّر فيها مايكل أنجلو قصّة الخلق على سقف كنيسة (سيستينا) ، ومن بعيدٍ كأنّني رأيتُ لوحة العشاء الأخير (لليوناردو ديفنشي) في الجهة المقابلة للمدخل ، وكأنّني رأيتُ المسيح يمدّ يده منها لينتشلني من الخوف والجوع والحزن والعذاب ، ويمسح على شعري المبلّل ، ويُطعمني بيده خُبزَ الحياة . ورأيتُ تلامذته ينظرون إليّ نظرتهم إلى يوحنّا ، ورأيتُ بعضَ الشّرر في عينَيْ بُطرس . لكنّني قلتُ له ما قاله المسيح : «عليكَ السّلام يا أخي . كلّ ما أريدُهُ هو بعضُ الهدوء والرّاحة . وإنّني لأقسم بربّي وربّكَ لو كنتَ معي هنا في هذه المكتبة في أيّ طابقٍ منها أو خلفَ أيّ رَفٍّ فيها لبحثتُ عنكَ وغسلتُ قدمَيْكَ كما فعل يسوع في تلك اللّيلة» . عاد بطرس إلى مكانه ، وابتسم الفتى يوحنّا ورأيتُ غمازَتي خدّه تتشكّلان فابتسمتُ بدوري ، وأكملتُ سيري باتّجاه غرفتي ، وأنا أعرج وأجرّ خلفي أشلائي المُبعثَرة .

(٢٧)
العارِفُ بالله لا يَهزِمه شَيطان

استغرقَ الأمرُ شهرَين حتَى تعافَيْت . كنتُ آتي بالكتب إلى فراشي ، وأقرأ . لم يكنْ ممكنًا أنْ أظلّ طويلاً في الطّابق العلويّ التّاسع في غرفة القراءة . كانت الجراح قد جعلتْني أقرأ الفلسفة بطريقةٍ مُختلفة . ربّما فهمتهُا على نحوٍ أفضل!!

فيّ الشّهر الثّالث كنتُ قدْ تعافيتُ تمامًا . صار بإمكاني أنْ أركض في القاعات ، في الطّوابق ، صار بإمكاني أنْ أتنقّل بين كلّ طوابق هذه المكتبة العملاقة وأتجوّل بين كتبها ، وأعلو أو أهبط مُستخدمًا بين الطّوابق المصعد ، وبين الرّفوف الّتي ترتفع حتّى السّقف الغرفة الزّجاجيّة . طابقٌ واحدٌ لم أدخلْه إلى اليوم إنّه طابق السّحر . تشكّلت اليوم القناعة لديّ بأنّ المخرج سيكون فيه ، وإنْ لم يكنْ فيه ، فلن يكون في مكانٍ آخر ، وحينها سأبحثُ عن وسيلةٍ جيّدةٍ للانتحار ؛ سأذهبُ إلى النّهـر بِخُطًى واثقة ، وألقيِ بنفسي فيه ، وأفتحُ ذراعَيّ على اتسّاعهما ، وأدعو الوحوشُ بكلّ لُطفٍ إلى وليمتها المُنتظرة والمُشتهاة ، وأستمتع بمنظر أشلائي وهي تغور في أفواه هذه الوحوش الجائعة . ذلك لأنّه لم يعدْ هناك من سببٍ واحدٍ يجعلني أبقى دقيقةً إضافيّةً أخرى في هذا الكابوس الأبديّ .

في هذا الطابق بالذّات شيءٌ من الجمال والجلال والرّوعة ليسَ

موجوداً في أيّ طابقٍ آخَر . هنا بخلاف البقيّة ، ليست الجدران كلّها مصمتة . هناك ما يعادل تسعةَ أرفف في الأعلى ليسَ فيها أيّ كتاب ، وهي من بلّورٍ نقيٍّ كأنّه مفتوحٌ على الفضاء ، من الجهات السّتّ الّتي تشكّل أضلاع المكتبة . والسّقف كذلك من زجاج فهو مفتوحٌ على سَماءٍ ليسَ مثلها سماء . وغرفة القراءة لا تقع على أرضيّة الطّابق في زاويةٍ من الزّوايا كما في الطّوابق الأخرى ، بل هي موجودةٌ في الأعلى ، في هذا الجزء الزّجاجيّ في منتصف الأضلاع السّداسيّة مُثبّتة بأذرع حديديّة تتّصل من تحت الزّجاج بالجدران المُحيطة . وفيها مقعدٌ دوّار ، يدور رقميًا ، بالزّاوية الّتي تختارها على درجات محيط الدّائرة الـ (٣٦٠) .

اليوم جلستُ هنا . في قمّة الطّابق الأعلى ؛ رأيتُ السحب تمرّ بجانبي ، كأنّني جالسٌ على ريْشِها أقرأ فيما بين يدَيّ ما كتبه (بيير بايل) ، وأشكّ مثله في بعض التّقاليد المسيحيّة ، وما الإنسان إنْ لم يشكّ ، أنتهي من الشّك ، لأقع نُهبةً لما قاله (فرنسيس بيكون) ، ثُمّ يتبدّل النّهار ، فيكونُ ليلٌ ، ثُمّ أقع على ما قاله (آرنست رينان) : «إنّ الفلسفة العربيّة ما ازدهرتْ إلاّ في الأمصار النّائية من الامبراطوريّة الإسلاميّة كردّة فِعْلٍ آريّةٍ قامتْ بها عبقريّة الفُرسِ ضِدّ الإسلام» . فأسمعُ صوتَ الغزالي يخرج من بين السّطور : «لقد جانبَ الصّواب ، وإنّ فيه عصبيّةً لعرقه تفوق عصبيّة العرب» . فأنظر إلى الفضاء فأرى اللّيل قد اشتدّ ، والبرد قد بدأ يتسلّل إلى أطرافي ، والنّجوم قد بدأت بالظّهور ، ثُمّ أواصل القرءة ، فأقع على كتاب رينان هذا الموسوم بـ (ابن رشد والرّشديّة) ، فأقرأ فيه : «ليس لنا أنْ نلتمسَ لدى العِرق السّاميّ دروسًا في الفلسفة . ما كانتْ فلسفة السّاميّين سوى اقتِباسٍ خارجيٍّ

عقيم ، وتقليد للفلسفة اليونانيّة» ، فأسمع صوتَ ابن رُشد يقول : «أعمتْه عصبيّتُه» . ثُمّ اريد أنْ انتهي مِمّا صنع رينان هذا ، فأذهب إلى كتابه الموسوم بـ (اللّغات السّاميّة) فأجد قولاً مُرّا له : «مِن الإسراف أنْ نُسمّي فلسفةً عربيّة فلسفة مأخوذة عن اليونان ، خاليةً من أيّ جذورٍ في الجزيرة العربيّة ؛ هذه الفلسفة مكتوبةٌ بالعربيّة ، وهذا كلّ ما في الأمر» . فكأنّني أسمع صوت ابن خلدونٍ يقول : «هذا الرّجل لم يقرأ التّاريخ جيّدًا ، وبالطّبع لم يفهم سيرورته» وقمتُ من الكرسيّ الّذي لو كان لملكٍ من ملوك الدّنيا أنْ يشعر بما شعرتُ به لبادلني به مُلكَه ، وطفتُ فيّ هذا المكان الّذي ليسَ بَعده بَعد ، ورأيتُ النّجوم تُلاصق النّافذة . النّجوم لها وجهٌ عتيقٌ وضاحك . وتذكّرتُ قولَ أبي ماضي :

فَاضْحَكْ فإنّ الشُّهْبَ تَضْحَكُ والدُّجى
مُـتــلاطِمٌ ؛ ولِذَا نُحِبُ الأنْجُــمـا

ورأيتُ الحقيقة مبثوثةً في كلّ مكان خلف كلّ كوكب . والله يتجلّى في كلّ شيءٍ . وشعرتُ أنّني عُوّضتُ بذا ما فقدتُه خلال السّنوات الغابرة كلّها . ووجدتُ راحةً في القلب لم آلفها من قبل ، وظننتُ أنّني يُمكن أنْ أجد المخرجَ في أحد الكتب هنا . الفلسفة قالتْ كلّ شيءٍ في الدّنيا أفلا تقول شيئًا واحِدًا مثل هذا هنا؟! إنّني أعتقد أنّ خروجي من هنا خاضعٌ لمنطق الفلسفة!!

ونظرتُ إلى البعيد ، فرأيتُ الكواكب مُنتشرةً في كلّ بقعة من صفحة السّماء الدّاكنة ، كانت هناك مجرّات لازورديّة في مسيلٍ أحمر يُغطّي أفقًا كُحليًا . بدت النّجوم من هنا كأنّ عاشِقًا عِملاقًا بيدِه سلّةٌ عملاقة من الزّنابق البيضاء نثرها بلا ترتيبٍ على صفحةِ بحيرةٍ صافية ، فراحت الزّنابق تنتشر بلا انتِظام في كلّ مكانٍ من هذه البحيرة .

للأسرار حرمة . المكتبة في الأصل وُجِدتْ من أجل أن تحفظ الأسرار . كلّ سِرّ يختفي في كتاب يستدعي أنْ يختفي من أجله الكتاب . الكتب الّتي تبوح بأسرارها هي كتبٌ ملعونة ، يجب أنْ تكون من ذلك النّوع المدفون في الخاريط ، والّذي يطّلع عليها ، وينبشها لا بُدّ أنْ تصيبه اللّعنة أو يُصيبه شيءٌ منها .

في ذلك الشّهر ، الشّهر الحادي عشر من تلك السّنة الثّانية بعد العشرين . وقعتُ على كتاب (منطق الطّير) لفريد الدّين العَطّار ، كان الكتاب بدايةَ النّهاية بالنّسبة لبقائي هنا ، لا أدري لماذا أقول ذلك ، ولكنّني أشعر به تمامًا . أوّل شيءٍ أفزعني في الكتاب ، أنّه المخطوطة الأصليّة ، وليست النّسخ المطبوعة في زمن الطّباعة بعد قرون ، وكان يبدو أنّه المخطوطة الأولى ، لأنّ المؤلّف نفسه وقّعها ، وذكر ذلك على صفحة الغلاف الدّاخليّة . ليسَ هذا هو المُهمّ في الحقيقة ، المهمّ هو أنّني وجدتُ رَسْمًا على الصفحة الأولى لطائرٍ يُشبه تمامًا طائر العنقاء الأسطوريّ الّذي رأيتُه في السّنوات السّحيقة الّتي تلتْ قيامي من القبْر . لا أستطيع أنْ أقول إنّه يُشبهه ، لأنّه كان هو نفسه!! شعرتُ بالرّعب وبالألفة معًا أوّل ما رأيتُه ، الألفةُ لأنّه أوّل مَنْ أشعرني بالحياة في تلك السّنوات الماضيات ، وبالرّعب لهذا التّوافق العجيب بين الرّسم والحقيقة ، بين الظّلال والوجود . الأدهى من ذلك أنّني وجدتُ الصّفحة التّاسعة عشرة تتحدّث عن ريش الطّيور ، ووجدتُه يتحدّث عن تسع عشرةَ ريشة ، وأنّها هي المُنجية ، وعدّدها في تسعة عشر مقامًا وحالاً في المقامات والأحوال ، فذكر التّوبة ، والورع ، والطّاعة ، والزّهد ، والفقر ، والصّبر ، والتّوكّل ، والرّضا ، والمراقبة ، والنّيّة ، والقُرب ، والمحبّة ، والخوف ، والرّجاء ، والشّوق ، والأُنس ، والطّمأنينة ، والمُشاهدة ،

٣

واليقين . وأنّ هذا الطّائر هو الّذي سيقود إلى الخَلاص .

في منتصف الكتاب ، قرأتُ نَصًّا يُشبهني تمامًا ، كأنّما كُتب لي في اللّحظة الّتي كنتُ أقرؤه فيها ، النّصّ يقول : «يا ربّ ألا لِلَيلتي من نهار؟ ألا لِشمع الفلك من اشتِعال؟ قد قضيتُ اللّيالي الطّوال في رياضة ، وما أريَ أحدٌ قطّ ليالِيَ مثلها ، ومن الاحتِراق كالشّمع فقدتُ كلّ قُوّة ، وما عادَ بكبدي من ماءٍ غير دماء القلب ، وأصبحتُ كالشّمعة أُقتَل بالإشعال والإحراق ، لِذا أُحرَق باللّيل ، وأُقتَلُ بالنّهار . لقد قضيتُ اللّيلةَ أُقاسي أهوال القِتال ، وغرقتُ من رأسي إلى قدمَيّ في خِضمّ الدّماء ، وفي كلّ لحظة تعرض لي مِئاتُ الأهوال ، ولا أعلم متى يُشرِقُ صُبحي؟» . وطويتُ الكتاب ، وأخفيتُه في صدري كأنّني أسرقه ، أو كأنّني أخشى أنْ يراني أحدٌ أحمله ، وما في المكان منذ زمنٍ بعيدٍ سواي؟!

ورحتُ أذرعُ القاعة الفسيحة بخطواتٍ سريعةٍ وأنا أنظر خلفي كأنّني أخاف من شيءٍ . وهبطتُ بالمصعد في لمح البصر إلى طابق الدّيانات ، وهُرِعتُ إلى غرفتي ، وأخرجتُ الكتاب ، ووضعته تحت مخدّتي ، ودفنتُ نفسي في الفِراش ، ورحتُ أستجلبُ طائِرَ النّوم . فهل فيما فعلتُه منطقٌ أيّها العَطّار؟!

في اللّيل حلمتُ بالشّيخ . كان يتخبّط في دمائه ، ويضمّ ذراعَيه إلى صدره كأنّه يحملُ بهما كتابًا . خطوطٌ تسيل على صفحة وجهه البيضاء فتختلط ببياض لحيته كذلك ، وهو لا يمسح شيئًا منها ، بل يُتمتم بكلماتٍ لم أفهمها ، نهضتُ من الفِراش لأمسح الدّم الّذي يسيل من رأسه على جبهته ووجهه ويصبغ لحيته وعِمامته باللّون الأحمر ، لكنّه طلبَ منّي ألا أفعل ، وقال : «أنا بخيرٍ يا بُنيّ . أنتَ ما

نَعِلَ بك؟» . وأدار ظهره المنحني من الأعلى قليلاً ، وراح يبتعد عني بخطواتٍ ثقيلة ، فناديتُه : «يا شيخ . . . يا شيخ» . لكنّه ظلّ محافظًا على صمته ، وابتعاده الهادئ ، فسألتُه : «أنا ابحثُ عن مخرج يا سيّدي هلاّ دللتني عليه؟» . فكأنّني سمعتُه يقول : «يا بُنيّ أتذكر تلك الرّيشات الّتي سقطتْ من ذلك الطّائر ، وسَمّاه ، فكأنّه قال : طائر السّيمرغ . إنّها وسيلتك إلى الخروج من هنا» . وراحَ يبتعدُ رويدًا رويدًا حتّى ابتلعه الظّلام .

في الصّباح استيقظتُ قَلِقًا . مددتُ يدي تحتَ المخدّة ، فلم أجد الكتاب!! ذُعِرت . لكنّني سرعان ما فكّرتُ بأنّني كنتُ أحلم ، فما أكثر ما أحلم!! أحلم حتّى بعد أنْ هبطتُ إلى هنا في آخر اللّيل ، ربّما لم آخذ الكتاب معي من الأصل من ذلك الطّابق . وهتفتُ : «الأمر بسيط ، سأصعدُ حالاً إلى طابق الفلسفة ، وأبحثُ عنه ، فإنْ وجدتُه في مكانه فهو حُلمٌ إذًا ، وإنْ لم أجدْه فلا بُدّ أنّ في الأمر خطأً ما» . وهُرِعتُ إلى المصعد ، ونقلني بلمح البصر إلى الطّابق التّاسع ، وركضتُ في البهو الفسيح ، ولهثتُ وأنا أركضُ حتّى أصل إلى الرّفّ الّذي أخذتُ منه الكتاب أمس ، واقتربتُ منه ، واتّسعتْ حَدَقَتا عينَيّ خوفًا من مفاجأة غير مُتوقَّعة تقذفني من جديد في لجج الجنون ، ولكنّني سرعان ما هدأتُ ، لقد كان الكتابُ في مكانه ، وضحكتُ بصوتٍ عالٍ ، وأنا أقول : «يا لي مِن أحمق» . ثُمّ تناولتُه من الرّفّ ، لأقرأه من جديد ، لكنّني لم أستطعْ أنْ أقرأ منه سطرًا واحِدًا ، لقد كان يغرق في الدّماء!!

رميتُه على الأرض كأنّه كرةٌ ملتهبة . ركضتُ وأنا أتلفّت مذعورًا خلفي . توقّفت . درتُ في مكاني دورتَين . توقّفتُ من جديد .

صرختُ بصوتٍ ارتجّتْ له الجُدران : «إذا كُنتَ شجاعًا فواجهني أيّها الجَبان . هأنذا هُنا . لن تهزمني . قلتُ لك ذلك من قبل . لن تهزمني . العارفُ بالله لا يهزمه شيطانٌ أخرقُ مثلك . إنْ كنت تملك الجُرأة فاظهرْ لي . لا تكنْ مثل أولئك الغَدَرة الفَجَرة الّذين يطعنون في الظَّهر . تستطيع أنْ تخدعني لكنّك لا تستطيع أنْ تهزمني . أتدرك ذلك أيّها الجَبان؟! تستطيع أنْ تسرق عافيتي لكنّك لن تستطيع أنْ تسرق روحي . هيّا ابرزْ إليّ أيّها الجبان ، ودَعْك من هذه الألاعيب الصّبيانيّة» .

وتردّدت كلماتي في المدى كأنّها عصافير مذبوحة لا تكاد تطير قليلاً حتّى تسقط وهي تتخبّط بأجنحتها الدّامية وتلفظُ أنفاسَها الأخيرة .

ولم أشعر بأنّني ضعيفٌ أكثر منّي في ذلك اليوم!!

(٢٨)
الزمن هنا علكةٌ تُمضَغ ولا تُبلَع

مرّ شهرٌ على تلك الحادثة . استعدتُ بعضًا من رباطة جأشي . ونسيتُ أو تناسيتُ تلك الأيّام ، وأراحتْني هواجسي قليلاً . وفكّرتُ أنّه إنْ لم أجدْ هذا المخرج في كلّ الطّوابق الثّمانية عشرة الّتي أنهيتُها ، فإنّه لا بُدّ أنْ يكون موجودًا في الطّابق الأخير الّذي لم أزره حتّى الآن وهو طابق السّحر . وبدأتْ رحلتي معه .

كان هذا الطّابق يقع في الدّركة التّاسعة من الأسفل ، لا يعلوه إلاّ طابق التّنمية البشريّة ، الّتي طالما كنتُ في الفانية أعتدّ كثيرًا من كتُبها هُراءً . وها هي ألصقُ ما تكون بالسّحر ؛ فكأنّما (وافقَ شنٌّ طَبَقة) كما قال (الميداني) في (مجمع الأمثال) .

المدخل ذو أرضيّة سوداء . الرّخام أسود . والخشب أسود . والجدار أسود . والبّوابة سوداء ، وعلى القوس الأعلى هناك نحوتات سوداء نافرة غريبة . دقّقتُ النّظر فيها فرأيتُ أناسًا عراةً بروؤس مقطوعة . وأناسًا آخرين يصرخون تلك الصّرخة الّتي رسمها (إدفارت مونك) وهم يصكّون أكفّهم على آذانهم مذعورين من شيءٍ ما . ونقشَين لرأسَين مقطوعَين ، الرّأس الأولى بأشداق مفتوحة وعينَين جاحظتَين ، والرّأس الثانية بفم مُغلَق وعينَين مُسبلتَين . الرأسان يُشبهان اللّوحة الّتي رسمها (ماتيّاس جرونوالد) . هبطتْ على كبدي مِطرقةٌ ثقيلةٌ فشعرتُ

بضيقٍ شديد ، كدتُ أتقيّأ بسببه . لكنْ ما حيلتي إذا لم أدخلْ إلى هنا وأقرأ الكتبَ المبثوثة في الأرفف ، وأبحثَ عن منفذٍ يُوصلني إلى الخلاص .

لقد سحرهم إبليس وأغواهم ، فانزلقتْ أرجلهم إلى الهرطقة . وصف (جوزيف بيريز) في (التّاريخ الوجيز لمحاكم التّفتيش) كيفَ كان يُعذّب هؤلاء المُهرطقين : «يوثق السّجين على سُلّمٍ مائلٍ ، بحيثُ يُصبح الرأس أدنى من مستوى الرّجلَين ، ويُرغَم على تَركِ فمه مفتوحًا بوضع قطعة قماشٍ عليه ، ثُمّ يرغم على تجرّع الماء . وكانتْ تُستعمَل لهذا الغرض جرّة تستوعبُ أكثر من لتر ، خلال حِصّة واحدة كان على السّجين أنْ يتجرّع ثماني جِرار . شكلٌ آخر من أشكال التّعذيب كان يكمن في تعليق المُتّهم على بَكَرةٍ بواسطة حبلٍ يُوثقُ مِعصمَيه ، ثُمّ تُعلّق أثقالٌ على رِجلَيه ، ويُرفَع جسد ببطء ثُمّ يُترَك لكي يسقط بعنف . الأسلوب الثّالث كان هو المنصّة : كان السّجين يُوثَق من يدَيه ورِجلَيه بحبالٍ كانتْ تُفتَل شيئًا فشيئًا بواسطة عتَلة آليّة» .

مرّ الزّمن بطيئًا في هذا العام . الزّمن هنا علكةٌ تُمضَغ ولا تُبلَع في هذا الطّابق . الزّمن يكون أطول ما يكون حينَ يقترب من نهايته . الدّقائق فيه تُصبح ساعات ، والساعات شهورًا ، والأيام أعوامًا . يتمدّد في اللّحظات الأخيرة كأنّه يستمتع بتعذيبي . يتفنّن في إغاظتي . لكنْ ليسَ لردِّ أمرٍ أراده الله سبيل .

غرفة القراءة في هذا الطّابق مُغلَقة ببابٍ أسود هي الأخرى . ونافذته المستطيلة الّتي تلتصق بالجدار الفاصل بيْن البهو وبينها كانتْ مُغطّاة هي الأخرى بستائر سوداء من الدّاخل . لا سبيل إلى رفعها إلاّ لمن ولجَ إليها . جرّبتُ أنْ أدير مِقبضَ الباب مرّة واحدة ولم أنجح في

فتحه ، فكففتُ عن ذلك فيما بعد . وكنتُ آخذ الكتب الّتي أقرؤها إلى غرفتي في طابق الأديان ، وهناك أجدُ المكان أكثر أمانًا وهدوءًا . على الأقلّ من العفاريت الّتي تتقافز داخل جمجمتي .

المحارق لم تكنْ للكتب . كانتْ للبشر كذلك . البشر الّذين قادهم ذكاؤهم على أنْ يثوروا على العَمى : «إنّا وجدْنا آباءَنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون» . الخروج عن الخطّ العامّ جريمة . ليس في عصرٍ دون عصر ، ولا في مِصرٍ دون مِصر ، بل هو في كلّ العصور وكلّ الأمصار . من أجل ذلك قُطع لسان (برينو) ، ثُمّ قُذف في النّار فاشتعل حيًا . وقُطعتْ يد (جان فرانسو لابار) واقتُلع لِسانُه ، وأُحرق . وفي جنيف كان جسد الفيلسوف (سيرفيتوس) يشتعل هو الآخر لأنّه فكّر بطريقة مختلفة . (وجان دارك) القدّيسة الّتي قادت الجيش الفرنسيّ إلى النّصر ، ثُمّ اتّهمتْ بالزّندقة ، وقضتْ حرْقًا وهي ذات تسعة عشر ربيعًا . ومن قبل هؤلاء جميعًا كانتْ يدا (الحلاّج) تُقطَعان ورجلاه ، ورأسُه . ثُمّ تجمع أشلاؤه في حفرةٍ ثُمّ يُحرق جسده ، ثُمّ يُذَرّ رمادُه في الفُرات!!

القراءة في المحارق مهلكة . والمكوث في هذا الطّابق يومًا يعدل ألفَ يوم . بعدَ كلّ كتابٍ أقرؤه هنا أحتاج إلى نومٍ لمدّة أسبوع كي أتخلّص من كوابيسه .

كان قد تَمّتْ صباح هذا اليوم ؛ كما يقول (جوزيف بيريز) السّادس من إبريل من سنة ١٤٨١ في إشبيلية القراءة العلنيّة لحيثيّات المحكمة بحضور المُتّهمين أو مُجسّمات للفارّين أو الّذين قَضَوا منهم ، وقد حضرت السُّلطات الدّينيّة والمدنيّة ، ومن بينهم قاضي الملك لكي يُصدر في حقّ المُتّهمين الإعدام أو الحرق على الفَور وفقًا لقوانين الدّولة

المتعلّقة بالمهرطقين ، وقبلَ أنْ يتمّ تنفيـذ الحُكم الّذي لا مُعقّبَ له ، يكون قد تمّ تجهيز السّقّالة والحطب والمشنقة والجلاّدين . عند الثّانية ظُهرًا سيبرز من الجانب المُقابل لهيئة المحكمة المعقودة في ساحة مفتوحة موكب (الصّليب الأخضر) ، وسيحوز شرفَ رفع راية الموكبْ أحد المحظوظين ؛ الوزير الأوّل ربّما . ستُؤخَذ الرّاية إلى مكان إقامة المحرقة الّتي كانت توضع في أعلى نقطة من المنصّة ، وتُغطّى بوشاح أسود ، ويسهر عندها الرّهبان والرّاهبات طوال اللّيل تحميهم كتيبةٌ عسكريّة . سيكون الإعلام طوال هذه اللّيلة قد نشر الخبر وأشاع الوقت الّذي سيتمكّن فيه العامّة من مشاهدة أعداء الله والزّنادقة تُنفّذ فيهم المشيئة الإلهيّة!! وفي اليوم التّالي عند طلوع الفجر ، ستبدأ الحشود تتوافد على الموقع لتُشاهد تنفيذ الأمر الإلهيّ . في الخامسة فجرًا سيُساق المُدانون في موكب شديد الحراسة أيضًا ، لم يكونوا يعرفون أنهم سيُعدَمون حتّى السّاعات الأخيرة من اللّيلة الفائتة . يتقدّم الموكب الصّليب الأبيض أو صليب الأيكة ، الصّليب الّذي يحوي بعض قطع الخشب الّتي ستُستَخدَم في المحرقة . وخلف الصّليب يسير في خشوع صادق رجال (الإكليروس) محروسين ، وخلفهم مُجسّمات المُدانين الهاربين ، والتّوابيت الّتي تحوي عِظام أولئك الّذين تُوفّوا قبل أنْ تتمّ مُحاكمتهم . وفي نهاية هذا الموكب الفظيع يسير المُدانون مُقيّدين من أرجلهم بالسّلاسل ، ويضعون على رؤوسهم قُبّعات من ورق ، ويحملون في أيديهم شموعًا مُنطفئة ، ويلبسون (عباءة العار) وهي الثّوب الّذي يرمز إلى نوع الجريمة الّتي ارتكبوها ؛ العباءة هي عبارة عن قطعتين من القِماش ، إحداها من الأمام والأخرى من الخلف على شكل وِشاح لكنْ دون قبّعة . وكان يُخاطُ عليها صليبان أحمران .

«أولئك الّذين ستتمّ إحالتهم على العدالة الملكيّة كانوا يلبسون عباءة عار سوداء، عليها ألسنة نار، وأحيانًا شياطين وتنانين وأفاع، ترمز إلى النّار الّتي تنتظرهم. وكانوا يحملون قُبّعات حمراء. أمّا عباءة (المُتصالحين مع الكنيسة) فكانوا يلبسون عباءة عار صفراء، وعليها صليبان أحمران للقدّيس أندري، وألسنة نار باتّجاه الأسفل كنايةً عن نجاتهم من النّار. أمّا المُحتالون ومُعدّدو الأزواج فيحملون حبلاً حول أعناقهم، ترمز العُقَد الّتي عليه إلى مِئات السّياط الّتي سيتلقّونها.

كانت عباءات العار الّتي يرتديها المحكومون بالإعدام وعباءات المُتصالحين مع الكنيسة بعدَ انتهاء الأجل الّذي يُلزَمون من خلاله بارتدائها، تُعلَّق بعد ذلك على الكنائس والأبرشيّات لتخليد ذكرى خِزيهم...». لقد احتلّ المحقّقون والملك والكَهَنة والقُضاة والنُّبلاء ورجال الإكليروس المقاعد المُخصّصة لهم. يقف الكاهن الأعظم ليلقي الخُطبة الأخيرة على مسامع المُجرمين، خطبة للإشادة بالإيمان وذمّ الهرطقة. بعد انتهاء الخُطبة سيُسأل المُدانون سؤالاً واحدًا: «هل تشعر بالنّدم؟». فإنْ قال: «نعم». حَظِيَ بميزةٍ عن الآخرين، سوفَ يُعدَم شَنقًا أوّلاً ثُمّ يُلقَى به في وسط النّيران المُلتهبة فلا يشعر بآلام الحرق. وإنْ قال: «لا». سوفَ يُلقَى به وسط تلك النّيران حَيًّا ليُعاني كلّ فظائع الحرق ويموت ببطء!!

إنّه مساءٌ من المساءات الّتي لا تختلف إلاّ باختلاف الكتاب الّذي أقرؤه. كان الكتاب هو الّذي يُحدّد لي الصّباحات والمساءات، النّهارات واللّيالي. الضوء والظّلام. إذْ لا نشاطَ غير القراءة وما تفعله الكتب بي. في هذا المساء، كنتُ قد وصلتُ في أحد الأرفف في القراءة إلى الموضع القريب من غرفة القراءة المُغلَقة الّتي لم أدخلها منذ

أكثر من عام على محاولتي الأولى لفتح بابها . هأنذا أسمع أصواتًا غريبةً تنطلقُ منها . كذّبتُ سمعي في البداية ، لكن الصّوتَ علا من جديد ، لم يكنْ صوتًا بشريًا ، وبدا أنّه مجموعة من الأصوات لا صوتًا واحدًا . لقد كان يُشبه ما سمعتُه في الفانية عن صفة صوت الجنّ وعزيفهم . بدأتِ الأصواتُ تعلو فبدأتْ دقّاتُ قلبي تعلو . جمدتْ أصابعي على الكتاب الّذي أتفحّصه . بلعتُ ريقي بصعوبة . ثُمّ علا الصّوت من جديد ، وسمعتُ عزيفًا يغنّي هذه الكلمات : «إنّ دروب المسيخ متشعّبة وملتوية . في اللّحظة الّتي لا نتوقّعها يصل . في اللحظة الّتي نكون فيها مطمئنّين سيظهر ليبذر حبوب الخوف . في هذه اللّحظة بالذّات سوف نسجد له جميعًا» . سقطَ الكتابُ من يدي . كان أوّل سقوط حقيقيّ لكتابٍ . أردتُ أنْ أرفعه عن الأرض . لكنّني لم أقوَ ، كان الخوفُ قد تمكّن منّي . أدرتُ ظهري للغرفة ، وأطلقتُ ساقيّ للرّيح في البهو الواسع ، وصعدتُ إلى طابق الأديان بسرعة . رميتُ نفسي على الفراش ، ورُحت أهذي كالمحموم : «إذًا هناك أحياء معي في هذه المكتبة . . . لستُ وحدي إذًا . . . هل هم بشر . . . شياطين . . . حيوانات . . . مخلوقات أخرى . . . ماذا عساهم أنْ يكونوا . . . ولماذا بعد ما يقربُ من خمسةٍ وعشرينَ عامًا يظهرون . . .؟ ولماذا في هذا الطّابق الأخير الّذي أهمّ بالانتهاء منه . . . الطّابق الأصعب . . . والمليء بالرّعب والغرابة . . .؟!» . ظلّ صدري يعلو ويهبط قبل أنْ أسقطَ في غيبوبةٍ طويلة .

صحوتُ بعدَ زمنٍ لا أدري كم هو!! يوم أو أسبوع أو أكثر . تذكّرتُ أنّ البشريّ لا يُمكن أنْ ينامَ أكثرَ من ليلتَين دون أنْ تجري عليه القوانين الحيوية ، فأنا لستُ من أهل الكهف لأنام ثلاثمئة عامٍ وأستيقظ كأنّما

منْ ليلةٍ أو بعضَ ليلةٍ . لكنّني أيضًا تذكّرتُ أنّ جسدي لا يجري عليه ما يجري على أجساد البشر في الفانية . المكان يتغيّر فالفيزياء الّتي تحكمه أيضًا تتغيّر . البرزخ يعني انتهاء العِلم . تكسير القوانين الأرضيّة . ليسَ الأمرُ مهمًا بقَدْر أهمّيّة كيفيّة الخروج من هنا حيًّا ، وبأسرع وقت .

لم ألمسْ كتابًا واحِدًا منذ ثلاث ليالٍ على إفاقتي ، ولا أدري إنْ كنتُ سأفعل ذلك في القريب . بسببٍ من الحُمّى الّتي صارتْ ترافقني . تُصيبني بدوار كلّما نهضتُ من فراشي . كلمات غريبة صارتْ تصدر منّي دون أنْ أدري كيف أقولها كأنّ أحدًا ما قالَها بالنّيابة عنّي ؛ كأنّ سِحر النّشيد الجَماعي الّذي سمعتُه في ذلك اليوم قد لَبِسَني . كلّما هممتُ بأنْ أذرع بهو طابق الأديان باتّجاه المصعد لكي أتمّ ما تبقّى من طابق السّحر أرى أنّ أشباحًا ترافقني . تنظر إليّ وتقهقه . هناك أصواتٌ مثل ضجيج البحر تملأ أذنيّ ، أسمعها في كلّ مكان . شيءٌ ما يعشّش في أذنيّ ولا يريد أنْ ينتهي أو يرحل أو يتوقّف ولو قليلاً . إنّه عهد الجنون الحقيقيّ .

لا أدري منذ كم ليلةٍ لم أنم . السّهر رُعب . السُّهاد يكشف لك العالَم المستور ، العالَم الّذي لم تره من قبل . إنّه يكسر الحاجز بين ما لا يُرى وما يُرى . أصبح منظر الأشباح الّتي تتراقص في مدى الرّؤية عاديًا . إنّني أعيش في عالَم الأشباح . الخوف يقلّ مع الاعتِياد لكنّه لا يموت .

في إحدى هذه اللّيالي الّتي يبدو صباحها بعيدًا جدًا . سمعتُ صوتَ الارتِطام إيّاه . قلتُ كما قلتُ قبل سنوات : «لا أحدَ يسرق الكتب . وإذا كان هناك أحدٌ يسرقها فليفْعلْ ؛ لماذا سيكون عليّ أنْ

أمنعه؟! فلو أتى سُكان ست قارّات من قارّات الفانية إلى هنا بقضّهم وقضيضهم وأخذ كلّ واحدٍ منهم كتابًا ما نفدت خزائن هذه المكتبة!!» . جفلتُ ؛ صوت ارتطامٍ آخر . ثُمّ كأنّ الباب قد فُتح على تساقط الأشياء من كلّ جهةٍ . سمعتُ في تلك اللّيلة كتبًا تهوي إلى الأرض من علوّها الشّاهق ، ورفوفًا تنهار من الجدران فيُحدث انهيارها أصواتًا مُدوّية . مصابيح القاعة العالية هي الأخرى بدتْ تهوي إلى الأرض وتتكسّر على البلاط متناثرةً قِطَعًا صغيرةً في كلّ اتّجاه . ظللتُ متكوّرًا في فراشي من الخوف مثل جنينٍ في بطن أمّه . في الصّباح تشجّعتُ قليلاً ، قلتُ : «هي أصواتٌ مثل الأصوات السّابقة ، سأذرع الآن الطّوابق كلّها ولن أجدَ شيئًا» . مشيتُ حافيًا . تركتُ غرفةَ مكتبي خلفي . على العتبة خارج غرفتي مباشرةً غاصتْ قدماي في الزّجاج المتناثر ، فصرختُ من الألم . سال الدّم ، كان الوجعُ شديدًا . رفعتُ بصري فأنساني ما رأيتُه وجعي . كانتْ هناك آلاف الكُتُب قد سقطتْ بالفعل من الأرفف واستقرّت بشكلٍ عشوائيّ مثل طيورٍ مذبوحة هنا وهناك . أرفف بأكملها انخلعت من الجُدران وهوتْ بخشبها وأوراقها وما فيها على الرّخام . بكيتُ في داخلي . نزلتْ دموعٌ كثيرةٌ من عينَيّ إلى رئتَيّ فخنقتْني . الأمجاد تسقط . التّاريخ ينهار . العَظَمة تتهاوى . تمالكتُ نفسي ، ونسيتُ نزيفَ أقدامي ومشيتُ . هبطتُ إلى الطّوابق السّفليّة ، وصعدتُ إلى تلك العلويّة ، وعاينتُ ما فيها ؛ كان الدّمار يملأ كلّ طابقٍ بشكلٍ هستيريّ ؛ كأنّ زلزالاً قد ضرب القلعة ، باستثناء طابق السّحر ؛ الطّابق الوحيد الّذي نجا من العبث!!

(٢٩)
البحث عن مخرج

تبدلت الأيّام بعد تلك الحادثة . صرتُ أمشي مثقوب الفؤاد بين أكوام الكُتُب المُكدّسة في بهو كلّ طابق ، أتحاشى أنْ أدوس على كتاب كان في نظري قبل هذا اليوم مُقدّسًا إلى الحدّ الّذي لن أسامح نفسي إذا سقط على الأرض من بين يديَّ ، فكيف بي أنْ أدوسَه . فكّرتُ في أنْ أعيدَ الكتب المُبعثَرة إلى أماكنها ، ولكنّ ذلك سيكون ضربًا من الجنون ، إذ إنّ عليّ أنْ أعيد مئات الألوف من هذه الكتب ، هذا عدا عن الصّفحات الّتي تمزّقت بفِعل السّقوط ، والأغلفة الّتي انثنتْ أطرافها من ذلك الهُويّ . وحاولتُ أنْ أفعل شيئًا فوجدتُ نفسي عاجِزًا . شيءٌ ما في هذه الكتب الّتي أُسقِطت أرعبني أكثر من فِكرة البحث عن الّذي أسقطَها ، ذلك هو أنّني رأيتُ صفحات مُزّقتْ بالكامل من الكتب ، مِمّا يعني أنّ يدًا مُتعمّدة فعلتْ ذلك . وانتابني رُعبٌ وهلع . وصرتُ أبحثُ كالمحموم عن مخرج من هنا ، وإذْ لم أجدْ فقد رحتُ أفكر بالانتِحار فِعلاً . ولكنْ ما هيَ الوسيلة إلى ذلك؟ فكّرتُ في أنْ أخلخل قواعد الأرفف العالية ، حتّى إذا اهتزّت ، وكادتْ تسقط بسبب الثقل ، ركضتُ إلى النّقطة الّتي ستهوي عليها ، فوقفتُ فيها ماداً ذراعَيّ مُرحّبًا بجبل الكتب الّذي سيسقط فوقي ، وسأُدفَن تحته ، إنّها نهاية الجاحظ ؛ النّهاية الأمثل ربّما . لكنّني خشيتُ أنْ

أنجو، أنْ أهرب بفِعل الخوف وحبّ الحياة من مركز السّقوط أو أتّقي الجبل بذراعَيّ، وأقاتل حتّى أخرجَ من تحت الرّكام، وحينئذٍ سترافقني كُسُورٌ ستظلّ تذكّرني بجُبني طَوال حياتي، وهذه الذّكرى موتٌ لا ينتهي. فكّرتُ بطريقةٍ أخرى، أنْ أصعد عن طريق الغرفة الإلكترونيّة إلى أعلى رفٍّ، ذلك الّذي يبعد عن بلاط كلّ طابقٍ حوالي مئتَي مترٍ، وأتعلّق بأحد الأرفف الأخيرة، ثمّ أختار بقعةً خاليةً من الكتب حتّى لا تخفّف شدّة الارتطام، ثُمّ أتردّى بنفسي من ذلك العُلوّ الشاهق، فأموت في الحال. فكّرتُ كذلك في أنْ أغرز الخنجر المسموم في عنقي وأدفعه بقوّةٍ بكلتا يَدَيّ ليغوص إلى أبعد حدّ حتّى يخرج من الجهة الأخرى، ويسري السّمّ سريعًا في جسدي فأموت على الفور.

لكنّ ذلك يعني أنّني فقدتُ إيماني، والعارف بالله ليس كذلك. والفيلسوف مع شكّه العتيق إلاّ أنّ إيمانه يغلبُ كُفره. فما الّذي يحدث إذًا؟ لِمَ تأتيني كلّ هذه الهواجس؟ لِمَ لا أقاتل في البحث عن مخرجٍ بدلاً من الجلوس نهبًا لهذه الأفكار السّوداويّة القاتمة وانتِظار المجهول؟ وفكّرتُ في أمر غرفة القراءة في طابق السّحر؛ إنّها الغرفة الوحيدة الّتي لم أدخلها في هذه المكتبة القلعة الّتي طُفتُ كلّ شبرٍ فيها عبر ما يقرب من ربع قرنٍ. لقد بدا الأمر شبه واضح؛ الحلّ في تلك الغرفة إذًا!

في صباح ذلك اليوم الّذي قررتُ فيه الولوج إلى غرفة القراءة في طابق السّحر حدثتْ أمورٌ غريبة. قمتُ أتلوّى من الجوع، فهرعتُ لآكل، فتحتُ الثّلاّجة فوجدتُها خاويةً على عروشها، الثّلاّجة الّتي لم ينفد الطّعام فيها طيلة كلّ هذه السّنوات كانتْ فارغة، ليسَ فيها إلاّ بعضُ قطع الخبز اليابسة، وكأسُ حليب كنتُ قد شربتُ نصفها في الليلة الفائتة. ولا شيءَ آخَر. اختفت الأطعمة كلّها؛ اللّحوم والجُبن

والبيض والسمك والزيتون والأرزّ ، والكعك ، والحلوى ، و . . . وكلّ شيء .

حينَ خطوتُ أولى خطواتي باتّجاه طابق الأديان لأستقلّ المصعد إلى بُغيتي ، شممتُ رائحةً كريهةً تنبعثُ من الطّابق بشكلٍ قويّ ، وكانتْ هناك ريحٌ تدور بشدّة تُشبه تلك الرّيح الّتي تصدر عن مروحيّات عملاقة تقترب من الأرض . إنّها ليستْ ريحًا عاديّة ، إنّها أعاصير بدون مصدرٍ منطقيٍّ لها ؛ فالطّوابق كلّها مغلقة ، وحده المدخل الّذي يقود إلى السّاحة الّتي تفصل بين المكتبة وبين النّهر هو مصدر دخول الهواء إلى هنا ، وهذا المدخل كان مُغلقًا بإحكام!!

عدتُ ، ريثما تهدأ العاصفة ، على الأقلّ تلك الّتي تجول في رأسي . على باب غرفتي تسمّرتْ أقدامي قبل أنْ أدخلها ؛ وجدتُ ضفادع خضراء ورماديّة وبنفسجيّة تملأ الأرضية وقد ديستْ بأقدام مجهولةٍ حتّى تفسّختْ أعضاؤها وانفجرتْ أحشاؤها . يبدو أنّني لستُ الحيّ الوحيد في هذه المكتبة!!

لم يعدْ مهمًّا الخوف ، ولا أنْ ينتشر انتشار الهواء في المكان ، المهمّ أنْ أغادر القلعة وبأيّ ثمن . تراجعتُ . لن أدخل غرفتي قبل أنْ أعرف ما يختبئ خلف غرفة القراءة في طابق السّحر . تحرّفتُ في خطواتي عن أن أدوسَ كتابًا منكفئًا على وجهه هنا أو هناك ، كانتْ هيأتي وأنا أمرّ بين الكتب كهيئة أعمى يمشي في حقلِ ألغام . لم تكنْ هناك من ضمانةٍ لأنْ أدوسَ أيّ شيءٍ في طريقي ؛ القداسة تُنتهَك أيّها السّادة ، أنا في زمن اللامعقولات ؛ إنّني أتداعى بشكلٍ مُحزنٍ!!

بكبسةٍ واحدةٍ كان المصعد الّذي يمتلئ بجرذان ميّتة ينقلني إلى طابق السّحر . بخطواتٍ قليلةٍ إلى الدّاخل ستكتشف أنّ هذا الطّابق هو

الطّابق الوحيد الّذي لم يُمَسّ بأذىً . إنّه نظيفٌ ومُرتّب ، وكتبه تتمدّد بدلالٍ على الأرفف لم يسقط منها شيءٌ ، البلاط يلمع على ضوء الشّموع ، ولئالئ الثّريّا تتدلّى هي الأخرى من السّقف بدلال كما لو كانتْ أقراطًا من الماس تتدلّى من أذنِ فتاةٍ حسناء ذات عنق حليبيٍّ ساحر . فقط السّواد كان يُغطّي كلّ شيءٍ ؛ الأرضيّات . والأبواب . وخشب الأرفف . وحتّى أغلفة الكتب . لو كان (زرادشت) حيًّا لما شكّ لحظةً بأنّ الشّيطان يتّخذ من هذا القعر مسكنًا له .

اقتربتُ من غرفة القراءة بحذر . كان الهدوء العميق سيّد الموقف . مشيتُ على رؤوس أصابعي حتّى لا أُحدثَ أيّة ضَجّة . لستُ مُهيّأً لرؤية مزيدٍ من الأهوال ، لقد تشبّعتُ تمامًا . صار بيني وبين باب الغرفة أقلّ من عشر خُطوات . توقّفتُ من أجل أنْ ألحظَ أيّ شيءٍ غير طبيعيّ . لكنْ لم يكنْ هناك شيءٌ . أجلتُ النّظر في القاعة الفسيحة ، إنّها خاليةٌ تمامًا من أيّ كائنٍ حيّ ، وتبدو كما أنّها لا تمتّ إلى الخراب الّذي يعلو الطّوابق الّتي فوقها جميعًا . سرقتُ بضع خطواتٍ أخرى باتّجاه الباب . لم أسمع حتّى الآن شيئًا . فقط تيّار هواءٍ باردٍ كأنّما تسرّب من تحت الباب وسرى باتّجاهي . «مجرّد هواء» قلتُ . لكنّني شعرتُ بأنّه دخلَ في أعماقي . لولا أنّ رائحته تختلف لقلتُ إنّه ذات التّيار الهوائيّ الّذي دخل من تحتِ ذراعي قبل مئات السّنين في ذلك اليوم الّذي زارني فيه الموت . الرّائحة هنا نفّاذة ، قويّة ، وتُشعِر بانقباضٍ في الصّدر . أحسستُ بدوخة خفيفة . «لا بُدّ أنّني استرجعتُ لحظةَ الفراق الأولى» قلتُ لنفسي لكي أطمئنها بأنّه لا شيءَ يحدثُ الآن . ابتلعتُ ثلاث خُطواتٍ إضافيّة ، صرتُ على بُعدِ خطوةٍ واحدةٍ من الباب . توقّفتُ . تنفّستُ عميقًا . وكمن يستعدّ للقاء صاحب الجلالة

أصلحتُ هِندامي ، وكـدتُ أتنحنح لولا أنّني وأدتُ النّحنحـة في أوّل صعودها من الحلق حتّى لا يُفتَضح أمري إنْ كان هُناك شيءٌ خطير . سرقتُ الخطوة الأخيرة ، صار مقبض الباب تحت سُلطتي ، هممتُ بأنْ أديره لكنّني تراجعتُ في اللّحظة الأخيرة ، تناهتْ إلى سَمعي أصواتٌ متداخلة ، بدأ فأر الخوف يقفز في ضلوعي . كتمتُ أنفاسي وأرهفتُ السّمع . نعم إنّها أصواتٌ تبدو قادمةً من غيابة الجُبّ . لا أدري أصوات مَنْ تكون لكنّها بالتأكيد ليستْ أصواتًا بشريّة ، إنّها تُذكّرني بأصوات الفونونات في المجال المغناطيسي بعد تضخيمه آلاف المرّات ، وهو يعلو وينخفض بطريقة رتيبة . كرة الخوف النّحاسية هبطتْ بثقلها أسفل كبدي فكادتْ تمزّقه . همـمتُ بأنْ أولّي هارِبًا كمـا فعلتُ في المرّات السّابقة وأنْ أغوص في الفراش وأنام هناك إلى الأبد ، لكنّني عرفتُ أنّني سأظلّ أعيش حالة الرّعب هذه ما لم أكسر هذا الحاجز ، وأعرف ما يدور . استجمعتُ شجاعتي . أمسكتُ بمقبض الباب ، وأدرتُه ببطء ، فانشقّ الطّرف عن مشهدٍ لم أكنْ لأتخيّله . لو كنتُ أعرفُ أنّ عيني ستقع عليه ، ما خطوتُ في هذا الطّابق منذ عامَين خطوةً واحدة!!
كانت الغرفة مليئةً بالشّياطين . نعم الشّياطين . ليست الشّياطين الّتي قرأتُ عنها في رؤيا يوحنا ، ولا كوميديا دانتي ، ولا أعمال بولس ، ولا في العهد القديم ، ولا في العهد الجديد ، ولا في أيّ موضع آخَر . إنّها شياطين أراها لأوّل مرّة ، وسأصفها كذلك لأوّل مرّة ، ولا أدري كيفَ عرفتُ أنّها شياطين ، ولا يهمّ ذلك في هذه اللحظة ، الحقيقة المُرعِبة أنّني أمامها الآن وأنظر إليها دون أيّ حجاب!!

كانتْ هناك طاولة مُستديرة يجلس إليها تسعة عشر شيطانًا . زعيمهم في الوسط ، وتسعةٌ عن يمينه ، وتسعةٌ مثلهم عن يساره . لم

تكنْ وجوههم ظاهرة ، كانتْ تختفي خلفَ الطّراطير الّتي تعلو القفاطين السّوداء ، لكأنّ رؤوسهم ليست موجودة فوقَ أكتافهم ، الفراغ الأسود الغامض هو الّذي كان يملأ الطّرطور الّذي يُسدله كلّ واحد منهم فوق رأسه . وجه الرّئيس وحده كان ظاهِرًا . لا أدري لماذا تذكّرتُ (راسبوتين) عندما نظرتُ إليه . لحيةٌ شهباء تكاد تلتهب تُغطّي وجهه بالكامل ، وعينان زرقاوان تتّقدان ، ووجه صفيقٌ داكنٌ كأنّما غُطّس بطبشور أسود ، وشعرٌ طويلٌ يخرج من تحت الطّرطور لينسدل على أكتافه حتّى يكاد يصل إلى خصره . كانوا جميعًا جلوسًا حول الشّيطان الأكبر الّذي سأطلق عليه تسميته الأقدم (لوسفير) ، وهم مُطأطئو الرّؤوس . كان جبينُ (لوسفير) الأغبر الأملس يلمع من العرق على ضوء مئاتٍ من الشّموع الملتصقة بالجدران . تسمّرتُ في مكاني ، وتراجعتُ قليلاً ، لأضيّق فرجة الباب بما يسمح لي ألاّ يُلاحِظوا وجودي ، وفي الوقت نفسه تُمكّنني تلك الانفِراجة من مراقبة ما يجري . ما زالت كرة الخوف النّحاسية تعصر كبدي ، تكاد بوزنها الثّقيل جدًا تنفلتَ من كبدي لتسقط على أصابع قدمَي فتهرسها!! لا أدري من أينَ جاء هؤلاء كلّهم؟ من أين دخلوا؟ هل كانوا موجودين من الأساس قبل أنْ أحلّ ضيفًا غريبًا على هذه المكتبة منذ ما يقرب من ربع قرن؟ كيفَ لم أسمع لهم صوتًا من قبل؟ كيفَ لم أشعر بوجودهم؟ هل كُنّا نتقاسم المكان إيّاه طَوال هذه الفترة ، أمْ أنّهم حديثو عهدٍ بالمكان؟ أمْ أنّهم ليسوا موجودين أصلاً ، وإنّما شكّلتْهم رؤاي المريضة الّتي استولتْ عليّ في الأشهر الأخيرة؟ كلّ شيءٍ قابلٌ للتّصديق ، وللتّكذيب أيضًا في الآن نفسه .

قامَ أحدُ هؤلاء الشّياطين الّذي يجلسُ عن يمين (لوسيفر) ،

وانحنى فيما يبدو ليتناول شيئًا من الأرض . ثُمّ رأيتُه يستقيم بجذعه ، وهو يحمل ثلاثة أخشابٍ متعانقة على هيئة مُثلّثة ، تلتقي أطرافها العُليا في نُقطةٍ واحدةٍ بحبلٍ غليظٍ يجمع تلك الأطراف ، وأمّا أطرافها السُّفلى فتتباعد في زوايا مُتساوية . رفع المِحمل هذا ، وسار به إلى الطّرف الأبعد من الطّاولة ، لقد كان يقتربُ من الباب حيثُ أقف ، رحتُ أرتعش كذبابة ، أغلقتُ فرجة الباب الضّيّقة حتى لا يراني . انتظرتُ قليلاً قبل أنْ يدفعني الفضول لأفتح الفرجة الضّيّقة من جديد وأتابع المشهد . كان المِحمل قد ثُبّتَ على طرف الطّاولة ، رجع إلى الوراء بضع خُطواتٍ ، وانحني انحناءةً بسيطةً قبل أنْ يرفع خنزيراً ضخمًا بحجم حِمار كأنّما يرفع لعبةً صغيرةً ، ويعلّقه من رِجلَيه في أعلى المِحمل ، ويشدّ عليهما بقوّة حتّى لا يقع أو يتملّص . كانتْ قبيعتا الخنزير المشطوفتان تنقبضان وتنبسطان في لُهاثٍ متسارع ، وصوتُ جُؤاره يملأ المكان ، والآخرون يهزّون رؤوسهم ، وعينا (لوسيفر) تلمعان . تدلّى رأس الخنزير في الأسفل ، ورِجلاه مُثبّتان في الأعلى . انحنى الشّيطان من جديد ، ورفع قِدْرًا عميقة ، ووضعها تحت رأس الخنزير الّذي واصل جُؤاره . مدّ الشّيطان يده فانكشف كُمّ قُفطانه عن شعرٍ كثيفٍ يُغطّي ذراعه ، سحب من مخصره سكّينا كبيرةً التمع حدّها حينَ رفعَها حتّى قابلتْ وجهه اللّيليّ . أمسك برأس الخنزير ، ووضع السّكين على عنقه ، شدّ عليه فغاص ، سحبه في ذلك العنق كما لو كان عنقًا من زبدة ، فانفصل الرّأس في يد الشّيطان ، رماه في الزّاوية ، وراح الدّم يشخب ، وجّه رقبة الخنزير كي يسيح الدّم في القِدْر . صدرتْ ضحكةٌ مُجلجلة من الشّياطين ،]ملاحظة : لا أحد يستطيع أنْ يصف ضحكات الشّياطين .[بعد مرور دقائق كان دم الخنزير قد صُفّي

تمامًا في القدر ، على ضوء الشّموع الكثيرة استطعتُ أنْ أميّز رغوة الدّم
تُغطّي سطح القدْر الّذي كاد يمتلئ ، كان الدّم المتدفّق من عنق الخنزير
المقطوعة ذات الشّراشيب قد بدأ يتخثّر . أزاح الشّيطان القدر من تحت
الأرجل الخشبيّة ، وبرزتْ في الحال تسع عشرة كأسًا بلوريّة ، ملأها عن
بكرة أبيها ، ونضّدها في صينيّة دائريّة ، وبدأ بالأكبر ، ثُمّ طاف عليهم
واحدًا واحدًا . شربوا حتّى ثملوا ، وسالت الدّماء من زوايا أفواههم . ثمّ
سُجِّيتْ جُثّة الخنزير في جفنة كبيرة ، وتحلّق الشّياطين حوله وقوفًا ،
واستلّوا سكاكينهم ، وراحوا يقتطعون بأيديهم من لحمه نيّئًا ،
وينهشون .

سحبَ هذا الّذي ذبح الخنزير ، من تحت الطّاولة فتائل ، تُشبه
فتائل المصابيح القديمة إلاّ أنّها سوداء ، لا أدري كم عددها ، لكنّه
غطّسها في قاع القِدْر فتشبّعتْ بما تبقّى فيه من دماء ، ثُمّ رفعها وهي
تقطرُ دمًا ، ثُمّ قسمَها قِسمَين ، فربَط كلّ قسم في عمودٍ من عمودَين ،
يبرز أحدهما من الجدار الّذي خلف التّسعة الأولى ، ويبرز الآخَر من
الجدار الّذي خلفَ التّسعة الثّانية ، ثُمّ أشعل النّار في تلك الفتائل .
«إنّها رائحة ذلك التّيّار الّذي شممتُه مرّتين على الأقلّ» قلتُ كمن
يتذكّر . ما إنْ صعدتْ أولى الألسنة عاليًا حتّى ظهرتْ من خلال
الدخان والأبخرة أفواج لا نهائية من الشياطين . ممتدّة كأنّه لا جِدار في
هذه الغرفة يحجزها ، كانتْ أعدادهم كأعداد النّمل ، كأنّما يتناسلون
في لحظة . وفي خشوع لم أجدْه في صِفة أكبر العُبّاد والزُّهاد وقفوا
جميعًا متحلّقين ، يمسكُ كل واحد منهم يد صاحبه ، يرفعون الأذرع
الكثيرة عاليا ، وينشدون بصوت جنائزيّ : «انتظرناك طويلاً . . . وقدّمنا
لكَ القرابين . . . فما تتعطّف علينا وتظهر أيّها الكلّيّ القُدرة . . . متى

تأتي أيّهـا العظيم القُـوّة» . كـان الصّـوت يرشح بالرّعب . ولولا أنّني اتّكأتُ على ابن عطاء الله ، لكنتُ قـد سِـحتُ من الخـوف من أوّل لحظة .

خلفَ (لوسيفر) كان هناك بابٌ يُشبه الباب الّذي دخلتُ منه إلى هذه القلعـة المُخـيـفـة في السّنوات الغـابرات ، في ثلثه الأعلى نافـذة زجاجية بعرض متر وارتفاع نصف متر ، تُشرف على ساحة فسيحة . جرداء من كلّ شيء . صحـراؤها جنّة لو أنّني استطعتُ أنْ أفلت من هذا السّـجن الكابوسيّ . فكّرتُ : «إنّه طوق النّجـاة إذًا ؛ خلفَ هذا الشّيطان الأكبر يقع المنفذ الوحيد على العالَم الآخَر» . إذا اجتزتُ هذه البوّابة سأكون قد تخلّصتُ من هذا الكابوس إلى الأبد .

(٣٠)
أصغِ إلى الحُكماء لتنجو

نهبتُ الأرض بركضي المحموم ، مضيتُ عبر المِصعد إلى غرفتي . دسستُ نفسي في الفراش ، أغمضتُ عينَيَّ لكي أمسح المشهد الّذي رأيتُه قبل قليل . لكنْ هيهات! لقد ظلّ المشهد حاضِرًا في مجال الرّؤية ، بل لقد كان يزداد وضوحًا كلّما نفضتُ رأسي لأتخلّص منه .

ظلّتْ عيناي جاحِظتَين ، عليّ أنْ أفكّر في الحلّ . «بلغ السّيلُ الزُّبى» . وإذا لم أتدارك الأمر فسيكون قد قُضِي عليّ إلى الأبد . «الرّيشات والخنجر والغرفة» . الثلاث المُنجيات قلتُ لنفسي . وعليّ أنْ أبدأ بالعمل فورًا . سآخذ الرّيشات ، والخنجر ، وأخرج عبر غرفة القراءة في طابق السّحر إلى خارج هذا المكان اللّعين ، الّذي لم أعدْ أدري ماذا أسمّيه . المعرفة شقاء .

لن أنتظر ثانيةً أخرى . شربتُ ما تبقّى من الحليب في الكأس ، وأخذتُ الخِنجر . وهُرعتُ أسعى إلى المدخل لآخذ فخّارة الخزف . في طريق الـ (مئتَي متر) الّتي تفصل بين غرفتي والمدخل أتاني مئتًا ألف هاجس حول سرقة الرّيشات . مع كلّ لحظةٍ كانتْ تنبتُ في صدري شجرة زقّوم من رعب اللحظات القادمة . هاً هو المدخل صار أمامي ، فقط عليّ أنْ أعبر البوّابة ، فخّارة الخزف الّتي تحمل الرّيشات ستكون على يميني بالطّبع ، والكتاب ذو الألياف الضّوئية عن يساري . أهما

١

هُنا . وصلتُ وأنا ألهث . ها هي فخّارة الخزف - على خلاف ما توقّعت - تُكذّب كلّ هواجسي ، مستقرّة في مكانها لم يمسّها أحدٌ بأذى أو بسواه ، وها هو اللّوح المحفوظ لا يُمكن لأيّ مخلوق أنْ يخدشَ فيه خدشًا واحدًا مهما كان بسيطًا . مددتُ يدَيّ الاثنتَين إلى فخارة الخزف مثل عاشقٍ يمدّ يده إلى وجه حبيبته ، ضممتُها إلى صدري . شعرتُ بطمأنينةٍ عميقةٍ ، وبقوّة عجيبة . نظرتُ نظرةً أخيرةً إلى الكتاب في اللّوح المحفوظ ، قبّلتْه عيناي ، وسألتُه أنْ يدعو لي ، وأنْ يكتبَ لي عنده أنّني من النّاجين ، ومضيت .

المصعد مليءٌ بالجرذان الميّتة ، وجلود الأفاعي المُبلّلة ، والعصافير المتحلّلة . وكذلك طابق الأديان ، والطّوابق الّتي مررتُ عليها بنظراتي ، كانتْ هناك كلابٌ ضالّة تتجوّل في الأبهاء . بومات تطير على الأرفف . وغربان تنعق . وسعادين تقفز من رفّ إلى رفّ ، وتتعلّق بحبال الثّريّا ، وتُصدر أصواتًا غريبة . فجأةً أصبح المكان يضجّ بالموت الحيّ!

في طابق السّحر ، لم يكنْ هناك من شيءٍ غريبٍ سوى ألف وجهٍ من كلابٍ سودٍ تطلّ من كلّ رفّ من الرّفوف السّفليّة . كانتْ تهرّ ، وتُدلّي ألسنتها الحمراء . ولا تفعل شيئًا آخر . منظر من شأنه أنْ يُجمّد الدّم في العُروق . لكنّ الطّريق إلى النّجاة لن تكون سَهلة . مضيتُ باتّجاه غرفة القراءة وأنا ألوي عنقي محاولاً أنْ أتحاشى النّظر في عيون الكلاب مُباشرة ، وكان صوتُ هَريرها يُشعرني بأنّ أسرابًا من الفئران الصّغيرة ذات الأسنان البارزة تمشي على جلدي .

على باب غرفة القراءة توقّفت . تأبّطتُ الفخّارة ، وأدرتُ باليُمنى مقبض الباب فشققتُه بما يسمح لي أنْ أرى ما في داخل الغرفة ولا

يراني فيها أحدٌ . كانت الطّاولة المُستديرة موجودةً لكنّها خالية من
شيطان . لم يكنْ هناك من أحدٍ في المكان ، المقاعد خالية كأنّما لم
يجلس عليها أحدٌ منذ قرنٍ . وبابُ الخروج كان كذلك واضحًا ولا يقف
عنده أو أمامه (لوسيفر) ولا غير (لوسيفر) . وتعجّبتُ . وراودني ظنٌّ
بأنّ ما رأيتُه فيها من قبل إنّما كان من صنع هواجسي . فتشجّعتُ
فشقّقتُ الباب بما يسمح لي بالدّخول ، وخطوتُ أولى خطواتي في
الغرفة ، ونظرتُ حولي مُتوجّسًا . وفي لحظة خارج عداد الزّمن برزتْ
من الجوانب كلّها عشرات الشّياطين فجأة ، وأعدادٌ هائلةٌ من الكلاب
السّلوقيّة السّوداء يلمع سوادها على ضوء الشّموع الّتي اشتعلتْ فجأةً
كذلك . كادت فخّارة الرّيشات تسقطُ من يدي من هول الصّدمة .
راحتْ عيون الشّياطين تُحدّق فِيّ مُباشرةً ، اخترقتْني تلك النّظرات
الكريهة المُرعبة حتّى كادتْ ترميني أرضًا . تمالكتُ . وأردتُ أنْ أتخلّص
من الرّعب المُباغت بالصّراخ ، لكنّني لم أستطع أنْ أصرخ ولا أن أصدر
أيّ صوت باستثناء نَفَسٍ متسارع كأنّه نقراتُ ديكٍ جائع من حَبٍّ كثيرٍ
متناثر . فكّرتُ بأنْ أعودَ إلى الوراء ، إلى غرفتي ، وأفكّرَ من هناك في
طريقة أخرى للخروج . لكنّ ذلك بدا مستحيلاً ، إذ إنني ما إنْ حانتْ
منّي التفاتةٌ خاطفةٌ إلى الوراء حتّى رأيتُ الشّياطين والكلاب تسدّ
الباب لكثرتها ، وتمتدّ عبر قاعة الطّابق الفسيحة وتملؤها عن بكرةِ أبيها .
إذًا صار الهروب إلى الأمام هو الحلّ مهما كلّف الأمر ، وعلى أيّة حالٍ
فلن تكون النّتيجة أسوأ مِن التّراجع . أحكمتُ قبضة يدي اليُسرى
على الفخّارة ، ورفعتُ باليُمنى الخنجر المسموم ، ورحتُ أضرب يمنةً
ويســرةً به بلا هوادة وأنا أشقّ طريقي بشقّ الأنفس بين مــوج من
الشّياطين يحيطُ بي من كلّ جانب ، ويتقافز فوق رأسي وعلى كتفيّ .

كلَّ طعنةٍ طعنتُها في قلب شيطان أو غرزتُها في عينِ عفريت كانت تُخلِّف صيحةً من ذلك الشّيطان ترتجّ لها جدران المكتبة بكلّ طوابقها كأنّها تتمايل للسّقوط علينا جميعًا في هذه الغرفة المشؤومة. ضربتُ في كلّ اتّجاه، صرختُ في كلّ لحظةٍ. هتفتُ: «لن تهزموني» في كلّ ثانية. «العارف بالله لن يهزمه شيطان». «العليّ معي». «أنتم محضُ خيال». «فلتذهبوا إلى الجحيم أنتم وأمهاتكم». «سأخرج من هنا رغمَ أنوفكم الفطساء أيّها الأبالسة». عرقي تصبّب. دمي نزّ. جراحي ثعبتْ. روحي تعبتْ. أشلائي بُعثِرت. خنجري كادَ أنْ يتكسّر وهو يطعن في جلود الشّياطين الّتي تُشبه جُلود المِعاز. صرتُ على بُعدِ خُطوتَين من باب النّجاة، من باب الخروج. حينَ وقف (لوسيفر) بنفسه حائلاً بيني وبينه. وراح ينتفخ كأنّه بالونٌ حتّى كاد يبلغ طوله أربعة أضعاف طولي. طعنتُ بالخنجر قدمَيه، فَخارَ كأنّه يسخر منّي. رحتُ مثلَ طفلٍ صغير يضربُ بيده الصّغيرة صدر عِملاق. وهو ثابتٌ لا يتزحزح من مكانه، جرّبتُ بالخنجر أنْ أطعنه في موضع عورته، فقهقه كأنّه يقول: «نحن بلا عورات». كان التّعب قد أكل منّي كلّ شيءٍ، والدّم قد غطّى كلّ جزءٍ فِيّ. والخوف قد قضم كلّ طمأنينة لديّ. والرّجاء في أنْ أخرج من باب الحياة قد ألجأني إلى أنْ أبكي أمامه كطفلٍ. ورحتُ أتهاوَى، وتجمّعت الشّياطين حولي بروائحها النّتنة تنظر إليّ بتَشَفٍّ، وأحسستُ أنْ (لوسيفر) نفسه قد رفعني هذه المرّة ليضعني في سِدْرٍ كبير كما فُعِل بالخنزير، من أجل أنْ يقتطعوا من لحمي وأنا حَيّ فيأكلونني. وقد قام بذلك فِعلاً. رُميتُ كخرقةٍ في السّدر الوسيع، ورأيتُ عشرات السّكاكين الّتي تلمع نِصالها وهي تستعدّ للغوص في جسدي. قلتُ لهم: «أنا هزيلٌ لا أصلح.

مليءٌ بالدّم لا أنفع . خائفٌ لا أُجزِئ . ذهب منّي الكثير ولم يبقَ إلاّ القليل فلن أُشبع . لحمي لا يُسمن ولا يُغني من جوع» . ولكنّ لغتي البائسة لم تحرّكْ في مشاعرهم شيئًا . خفض (لوسيفر) رأسه ، وفعلت البقيّة مثله ، وراحوا يتلون تمتماتهم . استغللتُ هذه اللّحظات الثّمينة الّتي تسبق الإجهازَ عليّ ، ورحتُ مثلهم أتلو صلواتي . في منطق القوّة الجسديّة سأكون أنا أمامهم أقلّ من ذبابةٍ تُسحق بأقدام جيشٍ كثير العدد والعُدّة . وفي منطق الدّعوات الّتي تصل إلى ربّ كلّ فريقٍ من الفريقَين يختلف الأمر . كان ربّي أقوى من ربّهم . تذكّرتُ شيخي في الفانية . رأيتُه . حضر كما لو كان معي . قلتُ له : «يا شيخ أنقذني» . قال : «ليس هذا لي ، إنّما لا يُقال ذلك إلاّ له» . فقلتُ : «لقد خانتْني العِبارة» . فقال : «أصلحْ عبارتَك يصلُحْ حالك» . فقلتُ : «دلّني إذًا يا شيخ» . فقال : «مَنِ اطّلعَ على ذرّةٍ من علم التّوحيد حمل السّماوات والأرض على شعرةٍ من جفنِ عينَيه» . فقلتُ : «نجوتُ إذًا» . فدعوت باسـمـه الأعظم . فـخـاروا . ورأيتُ رؤوسـهـم تدور مـثل طوّافـة على أكتافهم ، وتراجعوا إلى الوراء كأنّما دعاهم داعٍ أقوى منهم ، ثُمّ صغروا كأنّما صاروا فئرانًا حائرة تركضُ مذعورة . ثُمّ رأيتهم ينسحبون إلى جحورهم أو هكذا خُيّل إليّ . ويخلو المكان منهم . وقمتُ ، ففتحتُ البابَ وخرجتُ!!

كان الفضاء فسيحًا أكثر مِمّا توقّعتُ . هممتُ أنْ ألتفتَ خلفي ؛ إلى المكتبة . إلى القلعة الّتي قضيتُ فيها أكثر من ربع قرنٍ . إلى الماضي الجميل والمرعب معًا . لكنّني قرّرتُ ألاّ أفعل . لن أنظر إلى الوارء ؛ لأنّني تذكّرتُ أنّني قرأتُ عند السّمعانيّ أنّ من التفتَ وراءه عاد إلى موضع ما التفت ، ولا يحسن ذلك بأحدٍ إلاّ بالعاشق ، فإنّه إذا

النفقَ إلى موضع أحبابه لم ييأس أنْ يراهم يومًا . مشيتُ خطوةً اثنتين ثلاثًا . ثُمّ رحتُ أعــدو كــأنّني أهربُ من كلِّ شيءٍ . من وحشٍ يلاحقني يريد أنْ يفترسني . من رعبٍ كاد أنْ يبتلعني . من مكانٍ كادَ أنْ يُصيبني بالجنون . منّي الّذي ظلّ منه شيءٌ هناك في الكتب ، في الأرفف ، في ليالي القراءة ، في التوغّل في حدائق المعرفة ، المعرفة وهم ، والمعرفة حقّ . المعرفة شكّ ، والمعرفة يقين . المعرفة إيمان ، والمعرفة كفر . المعرفة خير ، والمعرفة شرّ . والمعرفة كلّ شيءٍ . وركضتُ .

ركضتُ شهرًا كاملاً حتّى أتخلّص من كلّ الرّعب الّذي عشتُه هناك ، ونظرتُ بعد كلّ هذه الأيّام حولي ، فلم أرَ إلاّ أرضًا منبسطةً بيضاء كأنّما سُبِكَتْ من فِضّة تمتدّ في كلّ الجهات ، ولا يبدو لها نهاية . لولا أنّها تختلف في اللّون عن الأرض الأولى الّتي عشتُها أوّل قيامي من القبر لقلتُ إنّها هي .

مرّ شهرٌ آخر ، أمشي وأمشي ، ولا يظهر شيءٍ ، بعضُ شجرات السّدر العتيقة في هذا المدى المفتوح تبرز بين فترةٍ وأخرى ، أجدُ عندها بعض الطّعام من (النّبق) الشّوكيّ ، ومن جذور بعض الحشائش الّتي تنمو حولها . وأنام في ظلّها يومًا ، ثُمّ أتابع المسير . مرّتْ سنة كاملة . لقد رجعتُ إلى الرّتابة من جديد . إنّني محكومٌ بهذا اللّون من العيش الّذي سيبدأ يفتك بي من جديد . والوَحدة هي القاتل الآخر . أين النّجاةُ إذًا؟ تذكّرتُ (العطّار) ، فأشرقَ وجهي ، لقد أُنسيته عامًا كريتًا ، والآنَ لا أدري كيفَ قفز إلى الذّاكرة . نحن نتذكّر ما يجب أنْ نتذكّر لكنْ بعدَ فواتِ الأوان ؛ إنّه أمرٌ طبيعيٌّ ، على الأقلّ أنا أفضل من الّذين لا يتذكّرون ، الذّكرى تهدي . تفتح فرجةً في السّدّ . تشعل ضوءًا في نهاية النّفق . تُضيء سُدفةً من سدفات الظّلام . تُرشد . تُعين

على تحمّل الوجع . وتقول أشياء لم تخطرْ من قبلُ ببال .

قال العطّار : «في هذه الرّيشات خَلاصُك . ابحثْ عن قبورها» . هكذا بدأتُ أسترجع ما قاله ، ثُمّ لم أفهم كيفَ يكون الأمر على هذا النّحو ، فرحتُ أحاول استظهار ما قرأته في ذلك الكتاب . في الفانية أُعطيتُ هذه القدرة على التّذكّر والحِفظ ، أحفظ الصّفحة من مرّتين ، على الأقلّ لستُ أفضل من الشّافعي والطّبريّ اللّذَين كانا يحفظان من مرّة واحدة . بدأتْ صفحات كتاب العَطّار تظهر أمامي ، تلخّص الموقف على النّحو الآتي : «في الخطوة الأولى : ابحث عن القبور المناسبة . في الخطوة الثّانية : ارم كلّ ريشة على صاحبها يستيقظ بقدرة الله ساكن القبر . في الخطوةَ الثّالثة : أَصْغِ إلى الحُكماء لتنجو» . وبدأتْ رحلة البحث عن القبور .

(٣١)

حيثُ توجد القبور توجد الحقيقة

عامان على جذور النّباتات . أكل ما أجد . تغيّرتُ؟ أنا في حالة تغيّر مستمرّ . كلّ شيء فيّ يتغيّر في كلّ لحظة كما قال (هيراقليطس) . هل هو النّدم؟ ربّما . علامَ؟ على كل ما سبق . لو أنني رضيتُ بالنّعيم الأوّل ، تجري من تحتي الأنهار وأعيش في القصور الباذخات وأجد كلّ ما أشتهي من كلّ طيّب!! لكنّني قاتلتُ كمجنون من أجل أنْ أفارقَ هذا النّوع من النّعيم . ثُمّ لو أنني رضيتُ بالنّعيم الثّاني لكنتُ الآن في جوفِ مكتبةٍ أسطوريّة عملاقة تحوي كلّ ما لذّ وطاب من الكتب ومن ألوانِ المعرفة . لكنّني لم أقنعْ حتّى أيقظتُ شياطينها ، وخرجتُ لأبحثَ عن حياةٍ جديدةٍ . لكنْ خيراً فعلتُ ؛ فلو بقيتُ مع الشّياطين لتعلّمتُ منها الخيانة والخِداع والرّقص ، ولهبطتُ معها في دركات الجحيم إلى أسفل سافلين ، وماذا كان يُرجى من البقاء في مكتبةٍ تضمّ في قعرها أفانين من الشّياطين ، هل يمكن للذّئب أنْ يحرس القطيعَ؟! وهأنذا في هذه الحياة الجديدة ، أقرعُ سِنّ النّدم ، وأبحثُ بائسًا عن قبور مُحتملة بناءً على سطرٍ أو اثنين قرأتهما في كتاب ما من بين طوفانِ الكتب المُتلاطمة في ذلك المكان العجيب . ألم يكنْ بوُسع الرّضا أنْ يُحيلني إلى حياةٍ هادئةٍ مستقرّة ، ولكنّها مشكلة الإنسان منذ الأزل أنّه لا يرضى ، ولا يقنعُ ، ولا يُعجبه الهدوء

ولا الاستقرار ، إنّه صورة الفانية الّتي «لا يدوم على حال لها شأن» كما قال (الرُّنديّ) .

لولا الجوع فأيّ قيمة للخبز . خبز الحقيقة يُصيبني بجوع دائم ، وها أنا أُديم مِطاله فيموت كما قال (الشّنفرى) ، ولا هو يُعرض عليّ وجه وهأنذا أمضي في حياة لم أعرف – رغم كلّ ما مررتُ به من تجارب – منها شيئًا ، جريحًا في معركة دائبة ، أسيرًا لدى عدوٍّ لا أعرفه . كأنّ أبا فراسٍ الحمْداني عَناني حين قال :

أُسِرْتُ ، وما صَحبي بِعُزْلٍ لدى الوَغى
ولا فَـرَسِي مُـهْـرٌ ، ولا رَبُّ غُـمْـرُ

وهأنذا أنظر في غَبَشِ المرآة لعلّي أرى موضع أقدامي فيما سيأتي!

يبدو كلّ شيءٍ يسير إلى النّهاية ؛ الأعمار . المُتَع . الأشياء الجميلة . الرّفقة . القهوة . الكُتب . الصّحوات السّاحرة . لم يؤرّقني سؤال كذلك الّذي ظلّ مُؤرجحًا في أُنشوطة روحي عمّا حلّ بمكتبتي في الفانية . مَنْ يمسح عن رفوفها الغُبار ، مَنْ يُعيد ما تناثر منها فوق مكتبي إلى مكانه ، مَنْ يتفقّد الكتب المُستعارة ويسأل عنها ويستعيدها؟! ولقد حننتُ إلى يوم من أيّام الدُّنيا كما حنّ الصّمّة بن عبد الله القُشيريّ إلى ريّا ، وهتفتُ :

حننتَ إلى ريّا ونَفْسُكَ باعدَتْ
مَـزارَكَ من ريّا وشِـعْبـاكُـمـا مَـعَـا
فَـمَـا حَسَـنٌ أن تأتيَ الأمـرَ طائعًا
وتَجْـزَعَ أنْ داعي الصّـبابةِ أسْمَـعَا

في إحدى ليالي النّوم الطّويلة . جاءني شيخٌ مَهيب . لم يكنْ شيخي في الفانية . لأنّ شيخي كان يلبس عِمامة ، وهذا كان يلبس

قلنسوة . ولحية شيخي طويلة بيضاء ، وهذا لحيته قصيرة سوداء ، وشيخي يلبس عباءةً من صوف . وهذا الشّيخ يلبس عباءة من ديباج احمر ، مُوشاة عند أكمامها بحروف فارسيّة مُذهّبة . قال لي : «أما آنَ أنْ توقظَ الموتى؟» . فأفزعني السّؤال ، وإنْ كنتُ قد عرفتُ صاحبه . فقلتُ كمن يتعالَم : «لا يوقظ الموتى إلاّ ربُّ الموتى» . فابتسم حتّى بانتْ ثناياه ، وقال : «إنّهم ينتظرونك» . فقلتُ كمن يتذاكى : «لأذهبَ معهم؟» . فابتسم أكثر ، وقال : «بل لكي يذهبوا معك» . فقلتُ كمن يجرّ رجل الشّيخ إلى الإفصاح عن الحقيقة : «وماذا ينفعهم أنْ يذهبوا مع ميّتٍ؟» . فقال : «مَنْ أطال السّؤال عَمِي عن طُرُق الجواب» . فسكتَ . ثمّ رأيتُه يُمسكُ بفخّارة الخزف ، فيستلّ ما فيها ريشةً ريشة ، وإذا هو يمرّ بين قبور برزتْ على جانبَيّ الدّرب ، فيُلقيها ، فيصحو صاحب القبر ، ويتبعه ، فخفت ؛ وإنْ كان هذا ما أريد . وسمعتُه يقول : «إنّما يستيقظُ من يبغي ، ولكلّ روح طيّبة أو خبيثة مُوقظ» . فقلتُ : «يا شيخ ما أقول حين أفعلُ ما فعلتَ؟» . فقال : «قُلْ : باسم ربّ مَنْ خلق ، من عَلَق ، أفِق» . واستيقظتُ .

تسعةَ عشر ميّتا بتسع عشرة ريشة ولِيَ أنْ أختار . جلستُ من صباح ليلة الحُلم أفكر في المُوقَظين ، لكنْ كيفَ أوقظهم ولم أجدْ قبورهم بعدُ؟! المهمّة الأولى أنْ أجد تلك القبور ، رحم الله أيّام الإفاقة الأولى إذْ كانت القبور تنبتُ في طريقي كالبَقْل . ورحم الله أيّام الفانية إذ كنتُ أزور بإرادتي ما يقربُ من عشر مقابر في عمّان وحدها من أجل أنْ أتحدّث مع ساكنيها قليلاً حينَ لم يكنْ هناك ما يُقال من الكلام للّذين خارجها ، أو أولئك الّذين يذرعون الأرض إلى حتوفهم بلا معنى ولا غاية .

وهبطَ ليلٌ أرجوانيٌ في ذلك اليوم على الأرض . كانت غير الأرض الّتي خرجتُ إليها من تلك القلعة المُرعِبة . كان الشّفق لي وحدي ؛ في مدى الشّفق السّاحر على مبعدة بدا أنّ هناك معبدًا صغيرًا ، لم أستطعْ أنْ أميّز إنْ كان مسجدًا لأنه لم تكنْ هناك مِئذنة ، ولا أن أميّز إنْ كان كنيسةً لأنّه لم يكنْ هناك صليب . ولا أنْ أميّز إنْ كان كُنُسًا لأنّ نجمة داود لم تكنْ تعتليه ، كان عبارةً عن غرفة صغيرةٍ من الطّين تغرق في ضبابٍ ليليّ وتعلوها قُبّة . قلتُ في داخلي : «القباب لله وليستْ لأحد» . فلْنُسمّها صومعةً أو ديرًا أو مُصلّى . خرج من هذا المعبد الصّغير رجلٌ لم أتبيّنْ ملامحه على غبش اللّيل الآخذِ بالهبوط . حلّت العتمة فجأةً كأنّها كانتْ تنتظر خروج هذا الرّجل لتفعل ذلك . تعجّبْتُ من وجودِ بشريٍّ في هذا المكان ، إنّه الآدميّ الأوّل الّذي أراه منذ يوم الإفاقة من القبر ، كنتُ لا أزال مشدوهًا حين استدار يمينًا ومشى أمامي ، من مشيته عرفتُ أنّه لم يرفع رأسه من السّجود لله أربعين عامًا ، ومن انثناء كاهله العُلويّ عرفتُ أنّه شيخٌ في التّسعين إنْ لم يكن أكبرَ من ذلك . ومن قُفطانه الّذي لم أكنْ متأكّدًا من أنّه كان قرمزيًا أم أسود بسبب العتمة المباغتة عرفتُ أنّه من الّذين فرغوا أنفسهم للعبادة . هؤلاء الّذين تكون أرواحهم تسير أمامهم أو تحلّق فوقهم ، وهي الّتي تهديهم سواء السّبيل . تساءلتُ : إنْ كان ما أراه حقيقةً ، أم خيالاً من الخيالات الكثيرة الّتي كانتْ تتهيّأ لي؟ أكان حلُمًا أم واقِعًا؟ آآدميٌّ أم شيطانٌ في مُسُوح البشر؟ ها هو يمشي ، سأراقبه لأعرف . كان يضع يده اليُسرى بشكلٍ متعامدٍ فوق صدره على ما يبدو ، ويحمل بيده اليُمنى مِشعلاً ، وكأنّه يقول لي : «اتبعني» . تَبِعتُه . ظلّ يمشي وأنا أمشي خلفه . هَمَمتُ أنْ أسأله مَنْ هو ، فخفتُ أنْ أفقده . أردتُ أنْ أُحادثَه ، أنْ آنسَ بظهوره

النبويّ ، أنْ أقول له : أيّها البشريّ إنّني تائقٌ منذ ذلك الزّمن السّحيق إلى أنْ ألتقي بمثلك ، حدّثني ولو بكلمة واحدة ، انظر إليّ ولو لمرّة واحدة ، قُلْ شيئًا ، أيّ شيء في هذا الصّمت المَريب ، أشعرني ببشريّتي أنا أيضًا ، فإنّني فقدتُها أو أكاد . لكنّه ظلّ صامتًا صمتَ الرّهبان المُخبتين وماضيًا في الدّرب مُضيّ العازمين غيرَ عابئٍ بشيء . فجأةً هبطْنا ما يُشبه الوادي . ظللنا نهبطُ فيه والأرض تعلو من الجانبَين ، شعرتُ بالتّعب . فوقَنا عوالمُ كثيرة ، كان التِفاتي إليها واستِطلاع ما فيها يعني أنْ أضيع دليلي . كأنّني سمعتُه يقول ، أو سمعتُ صوتي فيه يقول : «لكلّ حقيقةٍ دليل» . وهَزِئتُ بتعبي وتَبِعتُه . ثُمّ دلفْنا من فم الوادي إلى أرضٍ صخريّة ، وتبعتُه وهو ما يزال يمشي بهمّة شابٌ في العشرين ، ثُمّ اختفت الصّخور النّاتئة . وبدأنا نصعد . بقينا نصعد واللّيل يهبط . صوتُ لُهاثي كان مسموعًا . والأبخرة المتصاعدة كانت تحجب الشّيخ عنّي لحظاتٍ ثُمّ تذهب . كان اللّيل يُمعن في الدُّجُنّة حينَ وصلنا إلى أرض مستويةٍ . فرأيتُه بتوقّف . أدار وجهه نحوي وعلى ضوء المشعل الّذي يحمله بيده رأيتُ وجهًا ملائكيًا ، لولا أنّني رأيتُ مَنْ يُشبهه في الفانية لقلتُ إنّه (العطّار) . ثُمّ أشار بيده الّتي تحمل المشعل وضوؤه يتراقص ، ودار به دورةً شبه كاملة ، وقال : «هنا ضالّتك» . كان ضوء المشعل قد كشفَ أرضًا كلّها قبور ، تنبسطُ على أفق بلا نهاية . وهممتُ أنْ أسأله : «أكُلّ الّذين ماتوا مبعوثون هنا؟ هل يُعقَل ذلك؟ كيفَ اجتمعتْ كلّ هذه القبور في هذا المكان؟ أمِنْ عهد آدم هذه الأجداث قد حُفِرتْ يا سيّدي؟ أين القبور الدّوارس؟ أين ما بَلِيَ من تلك الرّوامس؟» . ولكنّه لم ينتظر حتّى يسمع دَفْقَ أسئلتي ؛ كان قد ذابَ تمامًا واختفى .

وبقيتُ لحظاتٍ مشدوهًا . وشعرتُ أنني خسرتُ صديقًا ، صحيح أنه لم يمكث معي إلاّ ساعات ،لكنني شعرتُ أنها سنوات ، وصحيحٌ أنه لم يقلْ إلاّ جملةً واحدةً ، ولكنّني أحسستُ أنه قال كلّ ما ينبغي أنْ يُقال . حيثُ يوجَد الشّيخ توجد الحِكمة . وحيثُ توجَد القبور تُوجَد الحقيقة .

«لقد حانت لحظة المواجهة إذًا» ؛ قلتُ ذلك في نفسي . وخطوتُ أولى خطواتي . كانت القبور بالملايين تنتشر في الأرض الّتي تحتاج ربّما إلى أكثر من نصف قرن للوصول إلى طرفها الآخَر . لكنّه بالطّبع لن يكون في مقدوري إلاّ أنْ أُوقظَ تسعةَ عشرَ ميّتًا . وعليه من بين هؤلاء الملايين المُتحشّدة عليّ أنْ أختار تسعة عشر قبرًا فقط من أجل أنْ أوقظهم . المهمّة ليستْ صعبة فحسب ، بل تبدو تعجيزيّة ، وهل تكفي قراءاتي لمئات الألوف من الكتب في الفانية وفي هذا البرزخ من أنْ أنتقي هؤلاء التّسعةَ عشر . وقلتُ : أنام بقيّة هذا اللّيل ، وأفكّر في الّذين سأوقظهم في الصّباح . و«عند الصّباح يَحمَد القومُ السُّرى» كما قال خالد بن الوليد . وأسندتُ جذعي إلى شاهدِ أول قبرٍ وجدتُه في طريقي ، ومددتُ رِجلَيّ ، ووضعتُ فخّارة الرّيشات إلى جانبي ، وأطلقتُ تنهيدةً طويلةً ، وأرخيتُ جسدي ، وهيّأته للنّوم فلم أستطعْ . وتقلّبتُ يمنةً ويسرةً . واللّيل مُقمِر وأنتَ ساهر ، فما وجدتُ للنّوم سبيلاً . وطال اللّيل . وطالت الوحشة . ونبتت قبورٌ جديدةٌ في المدى ، فقلتُ : «مهما تكاثرتِ أيّتها القبور ، فليسَ حظّي منكَ إلاّ تسعةَ عشر قبرًا» . وبدأتُ أسمعُ أصواتَ مَنْ رَحلوا ليس في الحلم . بل في اليقظة . القبور باعدتْ بيني وبين النّوم . حضر صوتُ أبي . صوتُ إنشاده الشّعر ، صوتُ قراءته القرآن ، وصوتُ قوله لي : «اقرأْ» ، وصدى ضحكته الّتي تضيق لها عيناه ؛ عيناه العميقتان . وجهه الرّبّانيّ . قال

لي : «يا بُنيَّ ؛ منازل الدّنيا تُقطَع بالأقدام وأمّا منازل الآخرة فتُقطَع بالقلوب» . فبكيتُ . فقال لي : «لا تَبْكِ عينُك» . فقلتُ : «أخشى أنْ أكون بلا قلب» . قال : «إنَّ الله لا يُعذِّبُ كريمًا» . فقلت : «وأينَ أنتَ اليوم؟» . فقال : «قريبٌ منك» . فسألتُه : «أأوقظك؟» . فقال : «أنا معك دون أنْ توقظني . لكنّني أخشى أنْ توقِظَ الأشرار» . فقلتُ : «كيفَ أوقظهم والأمر عائدٌ إليَّ ، ولن أكون أحمق حتّى أوقظ طاغيةً أو جبّارًا» . فقال : «يا بُنَي ؛ إنَّ ما معك من الرّيشات إنّما استُلَّ من بعض أشجار الجحيم كالزّقوّم ، وإنّها كالصّاحب في الدّنيا ، لا ينفع معها إلاَّ أنْ توقظ قرينَها أو ما يُشبهها» . فتحسَّرتُ . وانحدرتْ دموعٌ أخرى سِراعًا على وجنتَيَّ ، فكأنّني سمعتُه يقول : «يا بُنيَّ كلّ شيءٍ كان في قَدَر الله صائرٌ ، فلا تحزنْ فإنّما نحن مُرتِحلون عمّا قريبٍ إلى دار البقاء» . فاطمأننتُ قليلاً . ثُمَّ قلت : «يا أبي ، منذ مئتَي عام وأنا وحدي ، وقد نهشتْني الوَحشةُ نهشًا ، أفلا يكون من بعدها أُنس؟!» . فقال : «كلّ مَن كان الله في قلبه أَنِس» . فقلتُ : «إنّني أخافُ أنْ أظلَّ وحيدًا» . فقال : «روحي معك وستظلّ تسمعني» . ثُمَّ غاب الصّوت ، فسمعتُ أخلاطًا من الأصوات لم أتبيّنْها ، ثُمَّ كثرتْ عليَّ الأقاويل فما عُدتُ أميّز شيئًا . ثُمَّ سمعتُ هذا الخَلْطَ من الأصوات يأتي من بعيد ، وكأنَّ كلّ ساكني القبور قد أحسّوا بوجودي فراحوا يتشوّفون إليَّ ، ويمدّون أعناقهم من تحت التّراب يرجون أنْ يكونوا من ضمن أولئك المُوقَظين . ولكنَّ الأمر خطيرٌ ودقيقٌ ويحتاجُ إلى أناة ، ولن أفعل ذلك قبلَ أنْ أفكّر طويلاً . ورجوتُ أنْ أنام ، فما غمضَ لي جفنٌ ، وطال اللّيل حتّى كأنّه خُلِقَ بلا صباح ، أو كأنَّ ليالي أخرى قد أعقبتْه دون نهار ، وتذكّرتُ مَنْ قال : «ما أطولَ اللّيلَ على مَنْ لم ينمْ» .

(٣٢)
أعمى لا يُجيد السّباحة
يبحثُ عن إبرةٍ سقطتْ في ظُلُمات المُحيط

صحوتُ كأنّني نمتُ دهرًا كاملاً . ونظرتُ إلى الرّيشات فرأيتُ فيها حياةً غير الحياة . ورحتُ أخطّط في ذهني لأولئك الّذين سأوقظهم . هل أوقظ الفلاسفة أو الشّعراء أو الأنبياء أو الحُكماء أو العلماء أو السّاسة أو القادة أو المجانين أو الفلاّحين أو البُسَطاء . . . أو آخذ من كلّ بستان زهرةً؟! قلتُ : «كان الشّعرُ ألصقَ بفؤادي في الفانية ، فلعلّي أبدأ بالشّعراء» . ثُمّ قلتُ : «كان المتنبّي ألصق هؤلاء بقلبي ، فلعلّي أوقِظه هو إذًا ، فإنّني إلى حِوارٍ معه جدُّ مشتاق ، وقد كنتُ أحفظُ ديوانه في الفانية ، فسأجد في حواري معه أنسًا ، وسيكتشف فِيّ تلميذًا نجيبًا من تلامذته» . ثُمّ عزمتُ على ذلك ، فقمتُ أبحثُ في القبور عن قبر المتنبّي . لا أدري أيّ مجنونٍ يمكن أنْ يفعل ما أفعل؟! لكنّني لا أملك خيارًا آخر . ومررتُ بين القبور على أسماء لا حصر لها ، منها ما أعرف ومنها ما أجهل . وصرتُ اقرأ الاسمَ الأوّل ، فأمرّ على قبور العرب والعجم والبربر ، وأهل الزّمان المُتقدّم ، والمتأخّر ، والوسيط ، وفي كلّ زمنٍ مِمّن كان من الرّجال والنّساء والصّغار والكبار ، والنُّبلاء وعامّة النّاس ، والأشراف واللّصوص . . . فإنْ لم أجدْ بُغيتي عند شاهدة في مروري هذا تركتُه سريعًا إلى غيره دون أن أرى متى مات وأين . كان

متى أن أجد اسم (أحمد بن الحُسين) على أحد هذه الشّواهد المترامية الأطراف . وقضيتُ اليوم الأوّل دون أنْ أعثر على بُغيتي . وكان الأمر مُتعبًا إلى درجة الهذيان . ونمتُ . وقمتُ في اليوم الثّاني ففعلتُ الشّيء ذاته . ثُمّ بعد أسبوع من البحث عمّن يحمل اسم أحمد ، وقفتُ مذعورًا ، وهتفتُ : «ما أدراني أنّني تركتُ قبورًا خلفي في هذا الخليط المُتناثر منها ، لعلّني أغفلتُ قبرًا أو اثنين أو عشرًا من تلك القبور دون أنْ أدري . ثُمّ قد يكون اسمه كُتِبَ على هذا الشّاهد بطريقة أهل مَنْ ماتَ في الألفيّة الأولى فيُعمّي عليّ الخطّ ، فاقرأ أحمد كأنّها أمجد أو أسعد ، وإذا كان أهله من الّذين لا يُؤمنون بالتّنقيط فستكون المصيبة أجلّ وأكبر» . ووقفتُ مثل الأبله لا أدري ما أفعل ، وشعرتُ بالعَجز التّامّ . ثُمّ تمددّتُ على قبور لم أدرِ من بعدُ إنْ كانتْ من القبور الّتي مررتُ بها أم لا . فازدادتْ حيرتي . ثُمّ وقفتُ ، وأجلتُ النّظر من حولي ، فوجدتُ أنّني وسط غابة متشابكة من الشّواهد القبريّة لا حصر لها ، كانت أعدادُها بأعداد الذّر والرّمل . وسقطتُ على الأرض ، وزاغتْ عيناي . وهدأتُ من رَوعي ، لكنّ القلق المُتخثّر لا تمحوه عبارة . وقلتُ : «أنت مثل أعمى لا يُجيد السّباحة يبحثُ عن إبرة سقطتْ في ظُلُمات المحيط!!» وجلستُ . وصمتُّ طويلاً ، قبل أنْ أقول : «عليَّ أنْ أُغيّر أسلوبي في البحث» . ففكرّتُ أنْ أرمي الرّيشة على قبرٍ ما ليس على التّعيين ، وأسأل الله أنْ يُوقظه . وقمتُ ونفّذتُ الفكرة على الفور ، فلم تتحرّكْ في القبر ذرّةٌ من تُراب!!

ثُمّ أصابني عِنادٌ شديدٌ فقمتُ أبحثُ من جديد عن (أحمد بن الحسين) ، فوجدتُ (الهمذانيّ) صاحبَ المقامات ، ففكّرتُ أنْ أوقظه فقد كان ظريفًا ، ساخِرًا ، حسنَ الحديث ، وقد أحببتُ مقامته

المَوْصليّة ، لكنّني عدلتُ . ووجدتُ (البيهقيّ) صاحب السّنن الكُبرى . لكنّه مُحدّثٌ فعدلتُ . ووجدتُ (ابن قنفذ) المؤرّخ . ووجدتُ عشرات بهذا الاسم ، ولكنّني لم أعثر على أبي الطّيّب . وفكّرتُ في أن أعدلَ عن أن أوقظَ الشّعراء ، أو أؤجّل ذلك إلى حين ، فأوقظَ الفلاسفة . وفكّرتُ في أنّه من الطّريف أنْ أوقظ (كونفوشيوس) فإنّني وجدتُ حكمته أنفع ، وأوصل إلى الفؤاد ممّا فعل إخوته الآخرون . ثُمّ عدلتُ . فالبداية مع الفلاسفة مُتعِبة ، لكنّها نديّة مع الشّعراء . ولكنْ أنّى لي أنْ ألتقي بالمتنبّي . ثُمّ قلت : «لعلّني أجد في طريقي وأنا أبحثُ عنه ما يُجزئ عنه ولو قليلاً ، فأنا لن أتردّد لو عثرتُ على قبر امرئ القيس مثلاً أنْ أوقظه ، أو جرير أو الفرزدق أو حسّان بن ثابت أو الأخطل أو نزار قبّاني أو عمر بن أبي ربيعة أو أيّ شاعرٍ ممّن تلمذتُ لهم في الفانية» . ثُمّ نظرتُ في الرّيشات ، فوجدتُ أنّ ألوانها المُختلفة وأطوالها وأشكالها تدلّ كلّ واحدةٍ منها على روح خاصّة بأصناف المُوقَظين ، فلعلّني حينَ أشرع في البحث في الغد ، وأعثر على اسم مِمّن عرفتُ أجرّب الرّيشات كلّها ، فأرى أيّ واحدةٍ منه توقظه . ونمتُ وأنا عازمٌ على ذلك الأمر .

في المنام ، رأيتُ (العَطّار) . قال لي : «ليس فيما تفعل منطق» . فخجلتُ ، لكنّني مثلَ طفلٍ تشبّثتُ بكُمّه ، ورجوته أنْ يدلّني : «ماذا عليّ أنْ أفعل يا شيخ؟» . قال : «تَعُدّ من موقعك هذا تسعةَ عشر قبراً باتّجاه الشّمس تسعَ عشرةَ مرّة ثُمّ ستجد قبر أبي الطّيّب» . شُدِهتُ : «الأمر بهذه البساطة؟» . فردّ : «ونحنُ أقربُ إليه مِن حَبلِ الوريد» .

تعجّلتُ الصّباح أنْ يطلع . صحوتُ في الفجر . تابعتُ الشّمس وهي تُرسِلُ أولى أشعّتها . حينَ بزغَ قُرصها الأحمر بدأتُ العَدّ على

لقبور ، سعادةً وخوفٌ كبيران مثل بحرَين ضخمَين يملآني الآن ، عددتُ لتسعة عشر قبرًا الأولى ، ومن أجل ألاّ أخطئ في العَدّ ، كنتُ أنقل ريشةً من الرّيشات التّسع عشرة من جانبي الأيمن إلى الأيسر ، كلّما أتممتُ تسعةَ عشر قبرًا جديدًا نقلتُ ريشةً جديدةً ، حتّى إذا أشرفتُ على القبور التّسعة عشر الأخيرة ، توقّفتُ لألتقط أنفاسي ، وأستعدّ لأخطر لحظة في حياتي . خطوتُ مرتجفَ القدَمين ، عددتُ القبور ، أصبحتُ على بُعدِ ثلاثة قبورٍ فقط مِن المتنبّي . توقّفتُ برهةً لأضع يدي على صدري الّذي راحَ يعلو ويهبط ، ورحتُ أتذكّر اللّحظات الأخيرة في حياته . كان يحمل ديوانَ الطّائيّيْن في رِحاله حين برز له (فاتك الأسديّ) في أربعين رجلاً ، ولم يكن مع المتنبّي غير ابنه وخادمه . يعيده البيتُ الآتي إلى القتال :

الخَيْلُ وَاللّيلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُني

وَالسّيفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ وَالقَلَمُ

ورأسُه الّتي قَطَعها (فاتِك) ركزها على سِنان رمح ، وأشرَعها في المكان لكي يرى نهاية الشّاعر المأساويّة كلُّ رائح وغادٍ . ثلاثة أيّام لا يجرؤ أحدٌ أنْ يُنزل الرّأس من فوق الرّمح أو يدفن الجسدَ المُسجّى مِن شدّة الذّعر الّذي أشاعه فاتكٌ في المكان . الحاسِدون وهم الأكثر شمتوا بالنّهاية العظيمة لشاعر عظيم ، قلّة من الشّعراء بكت التّراجيديا الّتي حلّتْ بالشّاعر . العظيم لا يبكي عليه الصّغار ؛ كلّ مَنْ حول المتنبّي كان يومئذ صغيرًا قِياسًا إلى عبقريّته!! أمواجٌ من الذّكريات عبرتْ رأسي في تلك اللّحظات ، ثلاثة قبور ، وأكون واقفًا عندَ رأسه . ثلاثة قبور وسيكون بإمكاني أنْ ألتقي أوّل بشريٍّ وجهًا لوجه ، سيكون مثلي ، نستطيع أنْ نتصافح ، أنْ نحسّ بالدّم يجري في عروقنا ، أنْ ننظر

في عيونِ بعضِنا بعضًا ، أن نأكل معًا ، نتبادل الأحاديث ، ونتناقش حول كثيرٍ من القضايا .

على شاهدة القبر ، قرأتُ اسمه (أحمد بن الحسين الشاعر) . خفق قلبي . أنا الآن عند قبرِ أعظمِ شاعرٍ عرفته البشريّة . قرفصتُ . جمعتُ الرّيشات ، تخيّرتُ أجملهنّ ، الجميلة تليقُ بالجميل ، ألقيتُها عند الشّاهدة ، وقرأتُ العبارة الّتي عُلّمتها من أجل أنْ تتمّ عمليّة الإيقاظ : «باسْمِ ربّ مَنْ خُلِق ، مِن عَلَق ، أُفق» . وتراجعتُ مُتوقّعًا أنّ أمرًا جللاً سيحدث . لكنّ كلّ شيءٍ ظلّ ساكنًا ، لا ذرّة رمل تحركتْ من مكانها ، لا صوتَ ، لا نأمَة . كان اسمه الوحيد الّذي رأيتُ حروفه تتراقص أمام عينَي متحدّيةً غُبار السّنين . ما عدا ذلك لا شيء . تحيّرتُ . «أأكون أخطأتُ في القبر؟» سألتُ نفسي . أعدتُ قراءة الاسم فوجدتُه مطابقًا لاسم المتنبّي ، بل إنّ تاريخ ولادته في ٩١٥ م ووفاته في ٩٦٥ م كان محفورًا على الشّاهدة بوضوح . «أين الخطأ إذًا؟» . قلتُ : «لعلّه في الرّيشة ، إنّها تسع عشرة ، ربّما لا تُوقظه إلاّ ريشتُه . لكنْ ما رِيشتُه الّتي لا يُوقظه سِواها؟» . بدأتُ بتجريب الأخريات . في الرّيشة العاشرة انتفض القبر . صرختُ : «إنّه يستيقظ» . تراجعتُ على باطن ذراعيّ إلى الوراء وأنا أتمتمُ بالصّلوات الحافظات من الرّعب . كان التّراب قد بدأ يرتجّ ، الحصى يتناثر ، الشّاهدة تسقط ، القبر ينشقّ ، ويدٌ مفرودة الأصابع تمتدّ من تحتِ التّراب ، تتكئ على ما تبقّى من الحصى ، وينهضُ رأسٌ . «رأسُ أبي الطّيّب!!» . كنتُ أرتجفُ من الهلع . كتفاه . عمامته . كاهله . عباءته . ظهره . جذعه . ساقاه . ثيابه . أقدامه . إنّه يقف إنسانًا كاملاً . نفضَ التّراب عن جسده وأنا لا أزال أحملقُ فيه مشدوهًا . نظرَ إليّ فالتقتْ عيناي بعينَي من حفظتُ كلّ

شيءٍ له . مَنْ كنتُ أراه ولا أراه لشدّةِ ما قرأتُ له وعنه . ها هو بشحمه ولحمه يقفُ على قدمَيه في مواجهتي . لم يقلْ شيئًا . تلفّت حوله ، ولم أتلفّتْ مثله ، ظلّتْ عيناي مُثبّتَتَين على وجه . أسمرُ قليلاً . نحيلاً . ممشوقَ القوام ، فارسٌ من طِرازٍ فريد ، وسيفٌ عربيٌّ يتدلّى على جنبه ، قلتُ له وأنا أبتلع ريقي لأظهر الكلمات أمامه كما قالها ، ذات يوم ، وأنا أشيرُ إلى سيفه :

تُهابُ سيوفُ الهندِ وَهْيَ حَدائدٌ
فكيفَ إذا كانتْ نِزارِيّةً عُرْبَا؟!

فكأنّه ضيّق عينَيه ، والتفتَ إليّ مُستفهمًا ، ثُمّ حوّل نظره عنّي ، وأجال نظراته بين القُبور ، فازداد تعجّبه ، ثُمّ سأل : «أينَ أنا؟» . فما أمهلتُه حتّى أكملتُ بيته السّابق وأنا أشير في الشّطر الثّاني إلى نفسي :

ويُرهَبُ نابُ اللّيثِ واللّيثُ وَحْدَهُ
فكيفَ إذا كان اللّيوثُ لَهُ صَحْبَا؟!

فكأنّ عجَبَه ازداد ، وسأل وهو يقترب منّي : «أتعرفني؟» . فقلتُ : «حَقّ المعرفة» . فحدجني بنظراتِه ، وأطال فِيّ النّظر من رأسي إلى أخمص قدَمَيّ ، وقال : «ولكنّني لم أرَكَ من قبلُ» . فقلتُ : «مَنْ لا يعرفُ أبا الطّيّب ، الّذي ذهبَ بِخُبز الشّعراء كلّهم» . فكأنّ قولتي ردّتْ إليه الرّوح . فأردفتُ : «ستراني كثيرًا» . ثُمّ استدركتُ : «في الحقيقة لن نرى غيرنا على الأقلّ فترةً من الزّمن ، نحن وحدَنا في هذا العالَم» . تنفّسَ عميقًا قبل أنْ يقول بشيءٍ من القلق والخوف : «وهل بُعِثْنا؟» . فأجبتُه : «كلاّ ؛ نحن في البرزخ . العالَم الّذي تراه ليس فيه فوق التّراب غيرنا حتّى هذه اللّحظة . لقد انشقّ القبر عنّي كما انشقّ

عنكَ اليوم قبل أكثر من مئتَي عام» . فوضع يدَيه على رأسه ، وهتف : «مئتا عام . يا وليتاه ، فكيفَ استطعتَ أنْ تعيشَ ، وأنْ تحافظ على حياتكَ إلىّ اليوم» . فقلتُ وقد دخلني شيءٌ من التّباهي : «سأقصّ عليكَ حكايتي . المهمّ أنْ تعرف أنّ يومَ الحِساب لم يأتِ ، ونحن نستعدّ للجزاء . العمل هنا قد انتهى . الحِوار هو الشّيء الوحيد الّذي يُمكن أنْ نملأ به الفراغ الذّابح الّذي لا ندري كم سيطول» . هَزّ رأسه هَزّات متتابِعة ، ثُمّ خطا نحوي ، ووضع يده على كتفي ، فشعرتُ بالزّهو ، ها نحن صديقان أيّها المتنبّي . ها نحن نمشي معًا . خطواتنا واحدة . ولربّما غايتُنا واحدة . كتفي إلى كتفك . وكاهلي إلى كاهلك . ولساني إلى لسانك . كم أحبّ أنْ يَقرأ شعري في الفانية بعد أنْ صِرتُ إلى هذا المآل - ولا أدري إنْ حصل ذلك أم لا - مَنْ قرؤوا شعركَ في الفانية ، أوّاه لو كنتُ أستطيع أنْ أعودَ إليها بعدَ يقظتك فأخبرهم بما حدث!!

(٣٣)

عِلَلُ الأفهام أشدَّ من عِلَلِ الأجسام

هيأتُ لضيفي العزيز المقام . قبورٌ مُهمَلة ، لا يوقِظها إلاّ الله حين يشاء . صنعنا ما يُشبه المجلسَ فيها ، وأعددتُ له طعامًا من نِتاج ما مررنا به من الأشجار ، وأكلْنا معًا . نظرَ المتنبّي بعد أنْ أكل ، ليقول : «أكلّها قبور؟» . فقلت : «نعم» . فسأل : «أتعرفُ قبر فاتك الأسدي؟» . قلتُ : «لا . ولكنْ لِمَ؟» . فردّ بسؤال : «أتعرفُ إذًا قبر سيف الدّولة الحَمْداني؟» . فقلت : «لا ، ولكنْ لِمَ؟» . فردَّ : «الكي أقتلهما؟» . فجفلتُ . وهتفتُ في داخلي : «كيفَ سيقتل موتى؟!» . فأردف : «لن تهدأ روحي حتّى آخذ بثأري منهما» . فسألتُه : «وأبياتُك في سيف الدّولة ، أنسيتَ قولك فيه :

نَظلَ ملوكُ الأرضِ خـاشـعـةً لهُ

تُفـارقـهُ هَلْكَى وتلقـاهُ سُـجَّـدَا؟!

فزفر ، كأنّني أثرتُ غضبه . فتوقّيتُ السّلامة . وكأنّني شعرتُ بأنّني استعجلتُ إثارته ، فردَّ : «ولكنّه خائنٌ ، وكان يحطبُ لنفسه ، ولعلّه صدقَ فيه البيت الّذي قلتُه في القصيدة ذاتها :

إذا أنتَ أكـرمْتَ الكريمَ ملكْتَـهُ

وَإنْ أنتَ أكـرمْتَ اللّئيمَ تَمَـرَّدَا»

فقلتُ له : «هو ذاك» . ثُمّ أخبرتُه خبر الرّيشات . وأنّني عازمٌ على

إيقاظ الفلاسفة ، فقال : «نوقظُ أرسطو إذًا» . فقلتُ موافقًا على الفور : «ولكنْ لماذا هو بالذّات؟» . فقال : «لأنّه كان أكثرَ منْ أفدتُ منه في الفلسفة بين كلّ الفلاسفة» . فقلتُ : «وأينَ كان ذلك؟» . فقال : «كان شيخنا أرسطو يقول : عِلَلُ الأفهام أشدّ من عِلَلِ الأجسام . وكنتُ أقول :

يَهونُ علينا أنْ تُصابَ جُسُومُنا
وتسلمَ أعراضٌ لنا وعُقولُ» .

فاستزَدْتُهُ ، فقال : «وكان شيخُنا أرسطو يقول : إذا لم تنصرف النّفسُ عن شهواتها ومُرادها فحياتُها موتٌ ، ووجودها عدم . فأخذتُه فقلت :

ذَلَّ مَنْ يغبِطُ الذّليلَ بعيش
رُبَّ عيشٍ أخفّ منه الحِمامُ» .

ثُمّ إنّه صمت ، وأنا أُصيخ السّمع ، فسأل عن طرافة : «ولِمَ لا نوقظ المسيح؟» . فقلتُ له وأنا أضحك : «المسيح لم يمتْ يا سيّدي ، ثُمّ إنّه نبيّ لا فيلسوف» . فضحك هو الآخر ، وقال : «لك الأولى وعليكَ الثّانية ؛ فإنّه كان إلى نبوّته فيلسوفًا دعا إلى السّلام ، والحرب تبتلع كلّ شيءٍ من حوله ، والخلافات تنشبُ أظفارها في حلوق النّاس» . فقلتُ : صدقتَ ، ولكنْ أين كان ذلك في شِعرك؟» . فقال : «قُلْ أنتَ ؛ فإنّك تزعم أنّكَ أعرفُ بشعري منّي» . فضحكتُ ، وقلت : «تقصد ابن جنّي في عبارتك الأخيرة» . فلوّح بإصبع السّبّابة وهو يضحك ، وقال : «بلى . ولكنْ لا تتهرّبْ من السّؤال ، أينَ تجد ذلك في شعري؟!» .
فقلتُ : لعلّه قولك :

كلّما أنبتَ الزّمانُ قناةً
ركّبَ المرءُ في القناةِ سِنانا

فرأيتُ صوت ضحكته يعلو ، ثمّ ضرب بباطن يده على صدري ، وقال : لِيَهْنِكَ العِلمُ أبا الحسن» . ومَدَدْنا على مائدة الأدب أفانين من الحديث حتّى طلع الفجر .

في الصّباح كان علينا أنْ نوقظ الآخرين لكي تتّسع دائرة الحديث ، ويطيب منه ما يُعيننا على أنْ نقضيَ ما تبقّى لنا من عمر في البرزخ قبل أنْ يحين يومُ الحساب . وما أدرانا فقد يطول مجيءُ ذلك اليوم حتّى يشيب رأسُ الوليد ، «وتضعُ كلّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها» ، وقد يظلّ موغِلاً في البعد حتّى ينقر اليأس خوخة قلوبنا ، ولا ندري إلى أين نصير ، لكنّنا إلى رحمة الله ناظرون ، ولعَفوه راجون ، وبلطفه آملون . قلتُ له : «لديّ ثماني عشرة ريشة . ما رأيُكَ أنْ نتقاسَمها؟» . فقال : «ولكنّني لا أعرف مَنْ أوقِظ؟» . فقلتُ : «ما تشاء . ما تراه ببصيرتك النّافذة جديرًا بالإيقاظ من أجل أنْ نقطع معه رحلتنا الطّويلة . لديّ ريشاتٌ سللتُها من شجرات النّشأة والمعرفة والصّوت والرّؤيا . . .» فقاطعني قائلاً : «اعقد على العنق التّمائم» . فلم أفهم ما يقصد . ولكنّني سألتُه : «وهل تُؤمن بالتّمائم يا سيّدي؟!» . فقال : «أنا وْمن بكلّ شيء ، ولا أؤمن بشيء» . فسألتُه : «أهكذا هم الشّعراء؟» . فردّ : «الحُكماء . أو الفلاسفة إنْ شِئت» . فزممتُ شفتَيّ ، وقلتُ : «فما تريدُ أنْ تأخذ من هذه الرّيشات؟» . فقال : «ألم تقلْ إنّ من بينها ما اختصّ بشجرات الجحيم!» . فقلتُ : «بلى» . فقال : «ما عددها؟» . فقلتُ : «أربع» . فقال : «أعطنيها فإنّ الجحيم أليقُ بالشّعراء ، أليسَ للجحيم كما للشّعراء شياطين» . فقطّبتُ حاجِبَيّ ، فضحك ، وقال : «أريحك منها ، هاتِها ، واذهبْ إلى الفلاسفة ، ولكنْ تذكّر يا صديقي ، ربّما ليسوا أبعدَ عن الجحيم من الشّعراء» . فنقّبتُ في الرّيشات عن

تلك الّتي يعلوها السّواد من حَرق النّار وكان ذلك أوّل ما حصّلتُها ، فأعطيتُها له ، وقلتُ : «الملتقى ولو طال بكَ البَحثُ في المجلس» . فسألني وهو يقبضُ على الرّيشات : «وكم يطول إذا طال؟» . فقلتُ : «ألاّ يتجاوز ثلاثَ ليال» . فغمغم ، ومضى ، ومضيتُ .

ورُحتُ أبحثُ عن قبرِ ارسْطو ، فعييتُ في اليوم الأوّل . وانتظرتُ أبا الطّيّبَ فما أتى . ومرّ اليوم الثّاني والثّالث دون أنْ أجد القبر أو يعود أبو الطّيّب . فوقر في ذهني أنّني سأعودُ إلى حالتي الأولى من اليأس وانقطاع الرّجاء والوحدة والوحشة وطول المُقام . فدعوتُ الله أنْ يدلّني . فكأنّه ألقى عليّ سِنَةً من النّوم ، فنمتُ ، وإذا أنا بالشّيخ في المنام ، وخلطتُ في لباسه بين العَطّار وشيخي في الفانية ، لكنّه إلى شيخي في الفانية أقرب ، فقلتُ له والغَمام يتشقّق عنه في الحلم : «يا سيّدي . والله إنّه لا قِبَل لبشريٍّ على الوَحدة . وإنّها لو كانت سنةً أو عشرًا لاحتملتُها ، لكنْ أنْ أعيشَ المئة والمِئتَين والثّلاثمئة من السّنين وحيدًا ، فهذا ما لا طاقةَ لي به ، وإنّ صديقي أبا الطّيّب كان في جِواري ، وقد عشتُ معه ليلةً لا أعادلها بكلّ ليالي الدُّنيا ، ولكنّه مثل القارظ العنزيّ ذهبَ في الطّريق ولم يَؤُبْ» . ثُمّ إنّني خفضتُ رأسي في الحلم ، وتنهّدتُ كأنّ أثقالاً من الحُزنِ تَحُطّ على كاهِلَيّ . فرأيتُ الشّيخ يُضيّق عينَيه ، ويعبس فتبدو غضون وجهه ، وهو يقول : «هذه الهدأة الّتي تسبق الطّوفان . وهذا السّكون الّذي يسبق العاصفة ، وستأتيك أيّامٌ تتمنّى أن لو بقيتَ وحيدًا» . فقلتُ وقد أوجستُ في نفسي خيفة : «وما ذاك يا شيخ؟» . فقال : «ستُتفتَح عليكَ أبواب الجحيم فتقذف بساكنيها إلى البرزخ حتّى يضيق عنهم الفَضاء» . ففتحتُ فمي من صعقة الخبر ، وقلت : «وما ذاك؟!» . فقال : «إنّ

صاحبكَ هذا قد أيقظَ الشّياطين . وويلٌ ثُمّ ويلٌ ثُمّ ويلٌ مِمّا سيأتي» .
فرجفتُ ، وقلتُ ولساني لا يكاد ينحلّ لعقدة الذّهول : «أتعني المتنبّي؟» . فسكتَ ، ورأيتُ من وجهه إعراضًا ، فما أجاب بكلمة .
فسألته : «إنْ كان ذلك يُحنقك فلا بأس . ولكنْ أينَ يقع قبر أرسطو؟» .
فقال : «عُدّ من موقعك الّذي أنتَ فيه تسعةَ عشر قبرًا تسعَ عشرةَ مرّة» . فقلتُ : «هيّنة . ولكنْ أعدّها باتّجاه الشّمس؟» . فقال : «لا ، اجعل الشّمس في ظهرك وابدأ العَدّ» . ثُمّ قتلني الفضُول ، فسألتُه : «ما صنع أبو الطّيّب؟» . فلم يردّ ، وذاب في وسط الغَمام مرّةً واحدةً كما ظهر .

في الصّباح . جعلتُ الشّمس في ظهري . وبدأتُ بالعدّ . وصلتُ إلى قبر (أرسطو) ، نثرتُ عليه الرّيشة ، وقبلَ أنْ أنطقَ بالكملة الّتي توقظ الموتى بإذن الله ، أصابَ قلبي سَهمُ الفجيعة ، لم أكنْ متأكّدًا من أنّني علّمتُ هذه الكلمة للمتنبّي أم لا؟! قلتُ في النّهاية بعد استرجاع طويل للأحداث : «أغلبُ الظّنّ أنه سمعها منّي وأنا أقصّ عليه أمرَ الرّيشات ، وكيفَ جعلتُه أوّلَ المُوقَظين ، وإنّه من الذّكاء بمنزلة تُخوّله أنْ يحفظها أوّل ما سمعها منّي وإنْ جاءتْ في دَرْج الكلام» . وفكّرتُ ثانيةً : «وماذا يضيرُ إنْ لم يكنْ قد حفظها ، ستَظلّ الشّياطين في رقدتها إلى يوم يُبعَثون» . ثُمّ قلتُ : « بِاسْمِ ربّ مَنْ خُلق ، من عَلَق ، أفِق» . فقام أرسطو يمشي على قدَمَيه . احتضنْتُه لأُذهبَ عنه رَوْع الخروج من القبر ، وأزلتُ ما علق بخُصلاتِ شعره المُتدلّيات على جبينه من تراب . ومسحتُ بباطنِ كفّي ما علا وجهه ولحيته من غبار . وقلتُ له : «لا تخفْ ، إنكَ من الآمنين» . وأنزلتُه المنزل الّذي يليقُ به . فلمّا اطمأنّ سألني : «وماذا حلّ بأثينا؟» . فأخذتُه من يده ، وقلتُ في

نفسي : «يسأل عن أثينا ونحن بين يدي السّاعة» . وأردتُ أنْ أنعش ذاكرته ، فقلت : «أثينا ومقدونيا أرض ، والأرض منذُ خلقتْ بخير . إنّها تؤدّي دورها في ابتلاع الموتى بشكلٍ جيّد ، لكنْ دَعْنا نسألْ أنا وأنتَ ماذا حلّ بسُقراط وأفلاطون ، فإنّكَ بهما أعرفُ منّي» . وتركتُ يده ، ومشيتُ أمامه ، وأشرتُ إليه أنْ يتبعني إلى المجلس . أوقدتُ له النّار فقد كان يشعر بالبرد ، وأعددتُ له طعامًا بسيطًا ، واعتذرتُ له إنْ كان لا يليق بمقامه فهذا غايةُ ما نملكُ في هذا العالَم ، فضحك ، وقال : «ما كُنّا نجد مثله في الأولى» . فقلتُ مُناكِفًا : «بالطّبع ؛ لكنّكَ كنتَ تجد أفضل منه» . فقال : «ماذا تقصد؟» . فقلتُ : «لقد كان الإسكندر الأكبر يبعثُ لك بالأموال الطّائلة إلى اللّيسيّة» . فغضب . وقال : «كنتُ أنفقها كلّها على العلم وطُلاّب العِلم ، ولم أحتجنْ منها لنفسي فَلْسًا ، حتّى إنّني كنتُ آنفُ أنْ آكل منها ما بقيت جسدي ، وأرضى بما أجده أنا وطُلاّبي» . فابتسمتُ . وقلتُ : «لم تُجبْني على سؤالي الأوّل» . فقال : «وما ذاك؟» . فقلتُ : «ما حلّ بسقراط وأفلاطون . فإنّ أستاذَك كان أشجعَ منك؟» . فقال : «تقصدُ أفلاطون؟» . قلتُ : «لا . أقصد سُقراط ، حُكِمَ عليه بالموتِ بالسُّمّ ، فواجه الموتَ بشجاعة وهربْتَ أنتَ منه ، قائلاً : لن أسمحَ لأثينا أنْ ترتكب خطيئةً ثانيةً ضدّ الفلسفة» . فعرفتُ أنّ ملاحظتي هذه جعلت الدّمَ يصعدُ في عروقه ، فهتفَ وهو يشدّ على حروفه : «لقد اتّهموني بالإلحاد ، أتصدّق ذلك؟» . فقلتُ : «بالطّبع لا أصدّق ذلك ، ولكنّك - وأنتَ صاحبُ المنطق - تعلم أنّ الموتَ لا يُنجِي منه الفِرار والحَذر ، وهذا ما حدث بالضّبط» . فلوى رقبته وقال : «ما هو هذا الّذي حدث بالضّبط؟» . فقلتُ : «لقد متّ بعد فرارِكَ بأشهرٍ قليلةٍ فقط وأنتَ في منفاك بعيدً

عن وطنك» . فأطرق كأنّما يتذكّر ، ورفع رأسه ، فقال لي كأنّما يعتذر : «ولكنّني ألّفتُ مئةً وسبعين كتابًا ليس في الفلسفة فحسب ، بل في الفلك ، وعِلم الأجنّة ، والجغرافيا ، والجيولوجيا ، والفيزياء ، والتّشريح ، . . .» . فقلتُ متحمّسًا : «وليسَ هذا فحسبُ ، بل صنعتَ بفلسفتكَ فيلسوفَين آخَرَين عظيمَين ، هما ابن رشد وموسى بن ميمون . ولكنّك أخطأتَ في ثلاثةِ أمور» . فكأنّه أنغضَ رأسه بعد أنْ شدّه ، وقال وهو يزوي بفمه : «وما هي أيّها المُتعالِم؟» . فقلت : «أخطأتَ في أنّ الأرض مركز الكون هذه الأولى» . فقال : «وما مركز الكون إذًا؟» . فقلتُ : «الشّمس» . فقال : «من قال ذلك؟» . فقلتُ : «علماء الفلك والفيزياء في الألفيّة الثّانية بعد مولد المسيح» . فقال : «مساكين مثلنا ؛ لن تمرّ الألفيّة الثّالثة حتّى يأتي مَنْ يُخطِّئ هذه النّظرية ، ويأتي بمركزٍ ثالثٍ للكون» . قلتُ : «أو تعلم نحنُ في أيّ ألفيّة؟» . فقال : «وما أدراني ، إنّما قضى عليّ الموتُ قبل أنْ يظهر المسيح الّذي حدّثتَني عنه» . ثُمّ تنهّد وقال : «هذه الأولى فما الثّانية؟» . فقلتُ : «أنّ الرّقّ أو الاستعباد ضروريّ وطبيعيّ» . فهزّ رأسه هزّاتٍ سريعةً وقال : «وهل انقضى عهد الرّقّ والعبوديّة» . فسألتُ : «في التّشريع؟» . فقال : «نعم» . فقلتُ : «نعم» . فسأل : «ومَنْ فعل ذلك؟» . فقلتُ : «النّبيّ محمّد أحدهم» . فقال : «أوعشتَ في زمانه؟» . قلتُ : «كلاّ ، لقد جئتُ بعده بما يقربُ من خمسة عشر قرنًا» . فقال : «ومَنْ غيره؟» . فقلتُ : «كثيرون ، عمر بن الخطّاب ، وإبراهام لنكولن رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة ، ومارتن لوثر كنج الابن ، وميثاق جنيف ، . . .» . فقال : «والثّالثة؟» . فقلتُ : «في أنّ المرأة مُتخلّفةٌ في تفكيرها وتكوينها عن الرّجل» . فرفع عقيرته ، وقال :

«وأنا ما زلتُ أقول بذلك إلى اليوم . ولكنْ هل قال غيري بغير ذلك؟!» . قلتُ : «نعم» . فقال : «لا تقلْ إنّ محمّدًا أعطى للمرأة ما أعطى للرّجل؟» . فقلتُ : «هو خيرُ من أعطاها» . فشهق ، وقال : «لو عشتُ في زمانه لحاورتُه فإنْ كان مُقنعًا لاتّبعتُه» . فقلتُ : «إنّ بَثَّ الرّجال في الأزمان ليس إلاّ لله» . فصدّق كلامي بهزّ رأسه ، فأردتُ أنْ أحيي فيه الأمل ، فقلت : «ولكنّ فضلكَ على البشريّة كثير ، يكفي أنّك صدقتَ في غير كلمة حتّى صارتْ قانونًا بشريًا» . فقال : «وما ذاك؟» . فقلتُ : «إنّ مِن خير ما قُلت : إنّ النّقدَ هو أبو الثّورات . وأنا أحاورك على أساس هذا المبدأ» . فرأيتُه قد طَرِبَ لما قُلتُ . ثُمّ رأيتُ النّعاس يحطّ على جفنَيه ، فقلتُ في نفسي : «أصابَه ما يُصيبُ البشر في الفانية . وسيجري عليه وعليّ ما جرى عليهم» . فقمتُ فأعددتُ له منامًا . وقبل أنْ يأوي إلى فِراشه ، سألتُه : «أصحيحٌ أنّ أفلاطون كفر بالدّيمقراطيّة ، وقال إنّها حُكم الرّعاع؟» . فقال : «ومن قال لك إنّه قال بذلك؟» . فقلتُ : «لقد قرأتُه في كتابه الجمهوريّة» . فقال : «نعم ، قال بذلك بعد أن اتّهم (ميلتوسُ) سقراطَ بأنّه مُضِلّ ومُفسِد لعقول الشّباب ، وبأنّه لا يؤمن بآلهة المدينة ، وبدّلها بآلهة من عنده . وحُكِم على صديقه سُقراط بالموت جرّاء تلك التّهمة ، فرأى (أفلاطون) أنّ الدّيمقراطيّة أعدمتْ رجلاً وصفه بأنّه أحكم النّاس وأعدلهم وأعظمهم جميعًا . وأظنّ أنّه لو لم يعشْ محنة صديقه هذا لما أطلقَ حُكمًا قاسيًا مثل هذا على الدّيمقراطيّة» . فقلتُ : «عرفتُ . لكنْ هل درستَ في الأكاديميّة؟» . فقال : «تعني مدرسة أفلاطون؟» . فقلتُ : «نعم» . فقال : «كنتُ تلميذه النّجيب» . فقلتُ : «لقد تفوّق التّلميذ على الأستاذ» وغمزتُه بطرف عيني ، فابتسم ابتسامةً عريضة . ثُمّ قلت :

لقد اعجبني قول كاوفمان فيكم». فقال: «وماذا قال؟». فقلت: «قال: إذا كان كُلٌّ من الإسكندر ونابليون قد حاول الاستيلاء على العالَم بقوّته العسكريّة، فقد حاولَ كُلٌّ من أرسطو وهيجل سيادة العالَم بعقله». فقال، وهو يسحب الغِطاء ويضطجع على جنبه الأيمن: «لا أعرفُ من هؤلاء إلاّ الإسكندر». فقلت: «نومًا هنيئًا سيّدي».

(٣٤)
وجبَ عليّ أنْ أموتَ في المَنفى

وانتظرنا أنا وأرسطو المتنبّي أسبوعًا آخر فما أتى ، وكانَ آخر عهدي به كان ذلك الصّباح بعدَ تلك اللّيلة . وكنتُ قد أخبرتُ أرسطو بأمر الرّيشات ، وسألتُه أنْ نضرب في القبور نبحثُ عمّن نوقظهم ، فقال لي : «لو كنتُ أعلم أنّني سألتقيك وسأقضي ما تبقّى من عمر البرزخ مُستيقظًا إذًا لفضّلتُ أنْ أظلّ في رقدتي هانئًا حتّى يأتي يوم النّشور» . فعرفتُ أنّه لم يجدْ عندي إلاّ القَصَص ، أو لعلّي أغْظْتُه في حواري الأوّل معه ، وكنتُ خلال الأسبوع قد أخبرتُه بكلّ مَنْ جاء من بعده من الفلاسفة والشّعراء ، فلم يعنِ له ذلك شيئًا كثيرًا . فقلتُ له : «يا أرسطو . إنّما أنا باحثٌ عن الحكمة كما كنتَ في الأولى فإنْ أردتَ أنْ تمضي معي لنجد ضالّتنا ، فقمْ . وإنْ أردتَ أنْ تعيشَ حياتَكَ هنا ، فلا أقدر أنْ أفعل لكَ شيئًا» . فقام مُتثاقلاً . وكان قد تبقّى معي ثلاث عشرة ريشة ، فأعطيتُه ستًا ، وأخذتُ سبعًا . ومضى كلّ واحدٍ في طريق .

وإنّه خطر ببالي أنْ أوقظَ عنترة من الشّعراء أو حاتم الطّائيّ . فإنّهما سَحَراني . ولكنّ كثرة الشّعراء تُفسِد الجَلَسات لما ينشأ بينهم من التّنازع ، والتّفاضل ، والتّنافر ، والتّفاخر ؛ كُلٌّ يرى نفسَه خيرًا من صاحبه . فقلتُ : المتنبّي يكفي . ثُمّ خطر ببالي أنْ أوقظ هتلر أو

او حسن الصبّاح او هولاكو أو ستالين أو نيرون أو كاليغولا أو
موسوليني او هاينرش الرّابع أو صدّام حسين أو الحَجّاج او تيتو . . . ممّن
[illegible] او كان السيف في أيديهم لا يُغمَد . كنتُ أريدُ أنْ أعرفَ كيفَ يُفكّر
هؤلاء ، وبما أنّ سبع ريشات ليستْ كافية لإيقاظ كلّ هؤلاء فلأبحثْ
عمّن اكون قادرًا على إيقاظه منهم . ومضيت ومضى أرسطو .
صمّمتُ على أنْ أوقظ (هتلر) فإنّي كنتُ قد قرأتُ كتابه
(كفاحي) في الفانية ، وقرأتُ عنه الكثير في قلعة المكتبة . وقلتُ أجد
في الحوار معه كَشْفًا لأعماق الطُغاة . قضيتُ شهرًا كاملاً ، لا المتنبّي
عاد ولا أرسطو ، ولم أجدْ بُغيتي ، فاستغثتُ بشيخي أو بالعَطّار أنْ
يدلّني ولو في المنام على قبر (هتلر) ، ونمتُ تلك اللّيلة ، واستجلبْتُ
طيفَ الشّيخَين ، ولكنّني صحوتُ كما نمتُ ، كأنّ مَنْ طلبَ الشّيءَ عَزّ
عليه . ومضيتُ أبحثُ . فوجدتُ شاهدةً لفتت انتباهي ، فوقفتُ
عندها ، قرأتُ ببطء الكلمات المحفورة على الشّاهد ، فإذا هي تقول :
«إنّني أحبّ العدالة ، وأنا أكره الشّرّ ، هكذا وجبَ عليّ أنْ أموتَ في
المنفى» . فكرّرتُ قراءة الكلمات لأتأكّد منها ، فوجدتُها كاملةً كما هي
غير منقوصة . فعرفتُ يوم كنتُ في القلعة أنّ صاحبها هو البابا
(غريغوري السّابع) . فعزمتُ على إيقاظه . فألقيت الرّيشة وسرعان ما
قام من قبره ، وهو ما يزال يلبس قُفطانه الخمريّ ، اللّون المُفضّل عنده ،
وإذا هو ينحني في خضوع الرّهبان ، ويتلو بعض الصّلوات بخوف
ورَهبة ، عرفتُ ذلك من ذبذبة يدَيه المعقودتَين أمام صدره في هيئة
الصّلاة الكَنَسيّة ، ومن ارتعاش رُكبتَيه الجاثي عليهما . تركتُه أكثر من
عشر دقائق يفعل ذلك ، حتّى أنهضْتُه بنفسي بعد أنْ استطلتُ جُثُوّه ،
وقلتُ له وأنا أشدّه من ذراعه اليُسرى وكُمُّ قُفطانه يتدلّى تحتها : «قُمْ» .

تلفّت نحوي مذعورًا ، وقال : «أهو يوم القيامة؟» . فقلتُ : «كلاّ بيننا وبينه أمدٌ لا يعلمه إلاّ الله» . ولكنّني سأصطحبك إلى المجلس ، ولم يملك سوى أنْ يتبعني ، كان يتلفّت من خلفي في كلّ اتّجاه ، وهو ينظر إلى القبور مشدوهًا ، قلتُ له : «هل يُمكن أنْ تتعرّف إلى قبر الملك هاينريش الرّابع؟» . فكأنّني سمعتُه من خلفي يبصق . فتوقّفتُ ونظرتُ إليه لأقول : «هنا لا أحقاد يا عزيزي . إذا كان الحقد يأكل قلب صاحبه في الفانية ، فإنّه في هذه الدّار يسخر منه» . فطأطأ رأسه ، ثُمّ تبعني ، وعنّ ببالي - على عادتي - أنْ أستشيره ، فقلت : «لقد كنتما ساذجَين» . فظلّ صامتًا . فأردفتُ : «تتنازعان على تعيين الأساقفة ، وكلاكما سيُطعَم جسده للتّراب والدّود . أين الزّهد الّذي أردتَ أنْ تعلّمه للبشر يا أبتي؟» . والتفتُّ إليه ، فكأنّني رأيتُه يُسدل طرطوره فوقَ رأسه ، ويُخفيه داخله تمامًا ، ويتبعني بصمت . في المجلس ، أعددتُ له الطّعام الخشن ، وكوزًا باردًا من الماء ، وقلتُ له : «الأساقفة يكيدون للملك ، الدّيني يُشهر الإنجيل في وجه السّيف السّياسيّ» . فردّ : «مَنْ تقصد؟» . فقلتُ : «لماذا يأمر كبير أساقفة كولونيا باختطاف هاينرش ويسجنه في برج حصين؟» . فردّ : «لأنّه كان يريدُ أنْ يستولي على كلّ شيء» . فقلتُ : «لقد كان طفلاً» . فردّ : كان سيفعل ذلك عندما يكبر» . فقلتُ : «وترجُمُ بالغيب؟» . فخجل . فأردفتُ : «لولا أنّ الملك قفز من برج سجنه إلى نهر الرّاين وأنقذَ حياته بنفسه لقتله صديقك كبير الأساقفة» . فشدّ على شفتَيه وقال : «ليته قتله ، أتعرفُ ما فعل عندما صار ملكًا؟!» . قلتُ : «أعرفَ أنّه نفاك» . فقال : «هذا أقلّ شيء ، لقد كان ملكًا بلا رحمة» . فقلتُ : «أعرف . ولكنْ ليتَه بيننا من أجل أنْ نسمع منه ما فعل» . فردّ غريغوري : «أنا أخبرك . لقد ذبح

جيش المُشاة الثّائرين عليه في منطقة (الهارس) كما تُذبح الشّياه» .
فقلتُ : «ثاروا على ملكهم فماذا كانوا ينتظرون؟ أنْ يُعيّنهم وزراء في حُكومته مثلاً ، أو يُغدقَ عليهم الأموال والذّهب؟» . فردّ بتجاهل عبارتي : «أتعرف كم كان عمره حين ذبح الآلاف وجزّ أعناقهم كما تُجزّ أعناق الخرفان؟!» . أجبتُه بهدوء : «ثمانية عشر عامًا» . فقال : «وهل هذا بشريّ!! إنّه شيطانٌ قادمٌ من الجحيم تشكّل على هيئة آدميّ سمّى نفسه هاينريش» . فقلتُ وأنا أبتسم : «هذا ما تراه فيه ، لكنْ أتعرف ماذا كان يرى هو في نفسه؟» . فقال متجاهِلاً : «لقد وعد الّذين استسلموا له من النّبلاء والأمراء أنْ يعفو عنهم ، ولكنّه نكث وعده ، وخان عهده ، لقد صادرَ مُدُنَهم وأبراجهم وأملاكهم ووزّعها على أتباعه» . فرددتُ بتجاهلٍ آخر : «لقد كان يعدّ نفسه وكيلاً للمسيح على الأرض ، وظيفته تحقيق النّظام الإلهيّ في العالَم» . شدّ غريغوري على أسنانه ، وقال : «ولكنّني مُرتاحٌ إلى ما آل إليه» . فقلتُ : «تعني مسيرته نحو كانوسّا» . فقال : «وهل غيرُ ذلك؟» . فقلتُ : «لقد قُمتَ بإذلاله بشكلٍ مَشين ، كان الأمرُ شخصيًا على ما أعتقد ، وإلاّ فلماذا لم تمنحه التّحيّة والبركة الرّسوليّة؟» . فقال مغتاظًا : «لأنّه كان عليه أنْ يعتذر عن جرائمه أوّلاً وأنْ . . .» . قاطعتُه : «تقصد تعيين الأساقفة دون الرّجوع إليك» . فقال : «نعم» . فقلتُ : «وأنتَ تتدخّل في أمور السّياسة؟» . فردّ : «إذا كان بإمكان المقعد الرّسوليّ استِنادًا إلى التفويض الرّبّاني أنْ يحكم في أمور الدّين فلماذا لا يحكم في أمور الدّنيا؟» . فقلتُ متوسّلاً مزيدًا من إغاظته : «ولكنّ المسيح قال : دَعْ ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . فردّ وهو يتقلقل في جلسته : «لم أكنْ أدري أنه عيّن نكِرةً من الألفيّة الثّالثة للدّفاع عنه» . فقلت : «أنا لا أدافع عن

أحد ، أنا فقط أحاور في أمور كُتِبَتْ في اللّوح المحفوظ في محاولة لفهمها أو فهم غايتها» . فكأنّه هدأ قليلاً ، وقال : «إذاً لا تهرف بما لا تعرف» . فقلتُ : «لقد كنتَ أقسى منه ، كلاكما طاغيةٌ من نوع مُختلف» . فردّ : «كيف؟» . فقلتُ : «دَعْني أقصّ عليكَ قصّتكما بطريقتي لتُقرّر» . فردّ ورجله تهتزّ من الانفعال : «قُصّها أيّها المُتحنلق» . فتربّعتُ ، وشربتُ كأسًا من الماء ، وأملتُ جِذعي نحو غريغوري ، وقلت : «لقد كان ذلك في شتاء عام ١٠٧٦م وكان أقسى شتاءٍ تعرفه أوروبّا . عندما انطلق الملك الألمانيّ هاينرش الرّابع من مدينة (شباير) الواقعة على نهر الرّاين في رحلةٍ تاريخيّة ستظلّ مشهودةً لقرون نحو إيطاليا يرافقه عددٌ قليلٌ من حاشيته وزوجته (برتا) وابنه الصّغير (كونراد) . كان الأمراء المُعادين له قد سدّوا عليه الطّرق الجبليّة المأنوسة ، وأرغموه على سلوك المنحدرات المتجمّدة الصّغيرة العميقة ، الّتي كان في كلّ شبرٍ منها خطرٌ من نوعٍ ما ، ولقد فقد الملك بعضَ فرسانه بالسّقوط في انهيار ثلجيّ أو غيره في تلك الطّريق الصّعبة . بعد أنْ مشوا مسافاتٍ كبيرة ، صارتِ الطّريق الثّلجيّة كالمرآة ، اضطُرّ الرّجال بمن فيهم الملكُ إلى الزّحف والانزِلاق على الثّلج ، وبعضُهم فقد حياته ، وأُجلست النّساء على جلود بقرٍ وأُنزلوا من المرتفعات بالحبال ، كان مُعظم الخيول قد نفق . وصل الملكُ إلى القرية الصّغيرة (كانوسّا) حيثُ سيعقد له البابا مُحاكمة هناك في ٢٥-١-١٠٧٧م . كان الملك يقف أمام بوّابة القرية عاري القدمَين فوق الثّلج ، يلبس أخفّ الملابس ، والبرد يثقب جسده ، ويسري في قدمَيه المُجمّدتَين . وقد بدأ طقس الغُفران بذلك من البابا . لم يسمح له البابا غريغوري السّابع أنْ يدخل البوّابة . ظلّ واقفًا هناك عارِيًا في البرد ثلاثةَ أيّام ، باكِيًا ، مُتوسّلاً إلى

البابا أنْ يعفو عنه» . تنهدّتُ ، لأردف موجّهًا سؤالي إلى البابا غريغوري : «أليستْ هذه ساديّة يا قداسة البابا؟!» . فردّ وهو يميل صفحة وجهه ويهزّ رأسه : «إنّه كاذب . ومع ذلك سمحتُ له بالدّخول ، مع أنّني كنتُ أعلم أنّه ليس أكثر من سياسيّ يريد ردّ الاعتبار لنفسه ، ولولا أنّ تقاليد الكنيسة تقتضي العفو لجعلتُه يبكي تحت قدميّ شهرًا دون أن أعفو عنه» . فقلتُ : «لقد ردّها لك بعد أنْ تمكّن من أخذ البركة الرّسوليّة ، لقد جعلكَ تنزوي مُختبئًا في برج الملائكة في روما وأنتَ ترى كيفَ قام المجمع الكنسيّ الرّوماني بعزلك وحرمانك» . فردّ كمن يشتفي : «صحيح ، ولكنّ الرّبّ انتقم لي ؛ ابنه هاينرش الخامس أرغم أباه بطريقة مُهينة على التّنازل عن الحكم . القَدَر لا يُصيب البابوات وحدهم ، إنّه يصيب المُلوكَ كذلك» . فقلتُ له : «الخيانة تبدأ بصاحبها ، فلا تُبقي عليه» . واستمرّت المناكفات بيني وبينه حتّى خذلنا النّعاس ، ونمنا وأسراب الكلام تطير من أفواهنا .

في النّوم ، زارني شيخي في الفانية ، قال لي : «الحجر الّذي كان يغطّي الثّقب في زاوية السّد أزيل . والطّوفان قادم» . وغابَ في غلالات القُبور . وظهرَ من بعده دانتي ، قال لي : «تُعاتبُ غريغوري ، وتنسى بونيفاز الثّامن ، إنّ غريغوري ليبدو - بكلّ فظائعه - ملاكًا أمامه ، إنّ بونيفاز الثّامن إنسانٌ دون حياة ، وحشٌ كاسر ، أخلاقُه لا يُمكن أنْ تُحتَمل ، ونَهَمُه إلى السّلطة لا يُمكن أنْ يُفسّر ، ولا يستطيع أنْ يواجهه أحدٌ دون أنْ يرتجفَ أمامه . وهو لصٌّ مُحترف ، استغلّ الدّين من إجل الإثراء ، فهو الّذي أعلن عام ١٣٠٠م أنّ الحُجّاج الّذين يَفِدون إلى روما ستُغفَر ذنوبهم على أنْ يدفعوا للرّبّ ، الأمر الّذي ساهمَ في سَدّ الثّقوب الّتي سبّبَتْها حروب الفرنجة في خزائن دولة الفاتيكان» . كان (دانتي)

يلهثُ وهو يتحدّث عنه بسرعة في سيل من الكلام المتدفّق ، فاستوقفتُه لأقول : «لقد خلّدْتَه في الجحيم في النّشيد التّاسع عشر وهو ما يزال حيًّا . هل لذلك دلالة؟» . فردّ : «دلالة فيمَ؟» . قلتُ : «لماذا اخترتَ هذا الرّقم لهم ؛ أعني النّشيد التّاسع عشر ليلقى مصيره في الجحيم هناك؟» . فقال : «لأنّ هذا النّشيد يضمّ أعتى الطّغاة ، وأكثر اللائقين بالقعر الأسفل من الجحيم» . فقلتُ : «لكنّك ألقيتَ في هذا الجحيم عددًا من البابوات؟» . فقال : «كان لكلّ بابا حفرةٌ تليقُ به وكانوا يُلقَون فيها رؤوسهم إلى الأسفَل وأعقابهم إلى الأعلى (وكما تتحرّك النّار على ما دُهِنَ بالزّيت صاعدةً على امتداد سطحه وحده ، فهكذا كانت النّار تسري من أعقابهم إلى الأطراف) ، وكنتُ أخاطبهم فيظنّون أنّ بونيفاز لشدّة رعبهم منه هو الّذي يُخاطبهم ، ولأنّ وجوههم في النّار وأرجلهم إلى الأعلى كانوا لا يَرون مَنْ يُخاطبهم ، لكنّ هؤلاء البابوات كانوا يعلمون أنّ الّذي أوردهم هذه المهالك هو الشّيطان بونيفاز» . فهتفتُ متحسّرًا : «ما أكثرَ الشّياطين يا عزيزي!!» .

ثمّ دنت القبور وتدلّتْ . وصار سهلاً أنْ أجد القبر الّذي أبحثُ عنه ، وصرتُ في أحلام تلك اللّيلة أفكّر في الّذين سأوقظهم فأجد القبر أمامي دون أيّ عناء ، وأجد ترابه يتقلقل كأنّه يريد أنْ ينشقّ عن الميّت الرّاقد فيه ، أو أجد بعضَ العلامات على أنّ هذه القبور تضمّ أجساد الّذين أبحثُ عنهم ، فتارة تكون العلامةُ غرابًا يقف على الشّاهدة يصيح باسم صاحبه ، ويكرّر : «اسقوني ، اسقوني» . وتارةً أجدُ كلبًا ينبح الطّرّاق دون الشّاهدة . وتارةً أجدُ أفعى تطوف حول القبر وهي تمدّ لسانها ذا الشّعبتَين متراقصًا ومتحفّزًا لقيام صاحب القبر . وتارةً ريشًا كثيرًا قد تساقطَ على قبرٍ دون سواه ، وتجمّع على ظهره ،

تحرّكه الرياح دون أنْ تطيّره . ومطرتْ عليّ رؤى ربّما لم يفطن لها ابن سيرين ولا عبد الغنيّ النابلسيّ في تفسيريهما المشهورين للأحلام ، ولو أنّني لحقتُ بزمانهما لأمليتُ عليهم من تلك الليلة أحلامًا يؤلّفون منها كتابًا أو كتبًا جديدةً .

ثمّ جاءني العطّار في المنام ، فقال : «لم يبقَ لديك إلاّ ريشةٌ واحدةٌ . أمّا الريشات المتبقّيات فقد أخذن ، وإنّه قد أوقظ بهنّ مَنْ أوقظ ، وإنّ أصحابَك الذين ضربوا قبلكَ في القبور قد أيقظوا مَنْ تشتهي ومَنْ لا تشتهي ، وإنّ كُلّ موقَظٍ أعطي القُدرة على أنْ يوقظَ بعد أنْ يعرفَ سِرّ الكلمة راقدًا جديدًا ، يختاره على هواه ، وإنّ الأهواء لا حصْرَ لها كما تعلم ، وإنّ كلّ تسعة عشر موقظًا يستطيعون أنْ يوقظوا تسعةَ عشرَ ميّتًا بأمر الله غيرهم ، والتّسع عشرة الجُدُد يوقظون تسع عشرة أجدَ ، وهكذا في متواليّةٍ لا نهائيّةٍ من الأرقام» . وسكتَ الشيخ ، وكان الفزع باديًا على وجهه ، ولم أدرِ ما أقول ، فقد عقد الذّعر من القادم لِساني . واختفى الشيخ ، فرأيتُ قبورًا جديدةً قد برزتْ ، وتساءلتُ والرّهبة تجتاحني : «أجيء بي إلى هذه القبور ، أم جيءَ بها إليّ؟!» .

(٣٥)
البقاءُ للأصلح

في الصّباح ، كان كلّ شيءٍ هادئًا . بحثتُ عن غريغوري فلم أجده ، لا أدري كيفَ اختفى وإلى أينَ ذهب . كان المكان خاليًا . وبحثتُ عن الرّيشات فلم أجِدْها . تذكّرتُ أحلامَ الأمس فارتعبتُ ؛ لا بُدّ أنّ شخصًا ما أخذها وأيقظ أشخاصًا بطريق الخطأ . إذا صدق الحُلم فإنّه بقي ريشةٌ واحدةٌ منها ، وبعدَ بحثٍ مضنٍ ، وجدتُها قد غُرِزتْ في جنبي . وكسرتُ فخّارة الخزف ، فسالَ منها سائلٌ عِطريّ ورديّ اللّون . وتحرّك في الأرضِ شيءٌ جرّاء هذا السّائل ، ولكنّني لم أُعِره أيّ انتباه ، فأنا مُقبلٌ على النّهاية ، وعليّ أنْ أغادر هذا المكان على الفور . وحملتُ الرّيشة الأخيرة ، ولا أدري لماذا عَنّ في بالي أنْ أوقِظَ (داروين) بها مع أنّني مُقتنعٌ بأنّ هناك الآلاف أولى منه بالإيقاظ . جعلتُ الشّمس هذه المرّة عن يميني ، وعددتُ تسعة عشر قبرًا تسع عشرة مرّة ، وألقيتُ ما في يدي ، فقام من القبر رجلٌ طويل شعر اللّحية ، غائر العينَين ، كثيف الحاجبَين أبيضهما ، أصلع أعلى الرّأس ، يتكوّم شَعر مُؤخرَة رأسه في كُبّة على عنقه ، وشارباه غليظان يُغطّيان شفتيه ، فلا تكادان تظهران من غابة الشّعر . لقد عرفتُه من شكله . قال لي بغضب كقاضٍ يُحاكمُ صبيًا صغيرًا : «لِمَ أيقظْتَني . مَنْ خوّلك أنْ تفعل ذلك؟» . فقلتُ : «وما المشكلة في أنْ تستيقظ؟» . فقال : «إذا استيقظتُ أنا فسيستيقظ

الآلاف من خلفي» . فتجاهلتُ عبارته فأنا أعرفها من قبل أن تعه
بحرفٍ . وقلتُ : «أريدُ أنْ أسألكَ سؤالاً؟» . فقال مستحمقًا : «أأنت
الّذي تسأل وأنا الّذي أجيب؟» . فقلتُ : «يا سيّدي ، الوقتُ لا يسمح
بالمُناكفة . بعد قليلٍ سينفجر البركان» . فمطّ شفتَيه ، وجلس على قفاه
على شاهدة القبر ، واستسلم للأمر ، إذْ كان لا يملك أحدٌ لنفسه في
ذلك اليوم شيئًا . فقلتُ : «هل كنتَ مؤمنًا حقًا بنظريّة النّشوء والارتقاء
الّتي ادّعيتها؟» . فأغضبه السّؤال أيّما إغضاب . فقال وقد بانَ عِرقٌ في
صَلعته من شدّ الغضب : «جاهلٌ يُحاورُ عالمًا . وما أدراكَ أنتَ؟» .
فقلتُ : «سأقول كلّ ما في بالي قبل أنْ يجرفنا أنا وأنتَ وغيرنا
الطّوفان . أوّلاً النّظرية بالأساس فلسفيّة لا علميّة ، ومسروقة لا
مُبتَكرة ، فلقد أخذتَها من (أنكسمندر) الّذي وُلِدَ ٦١٠ قبل الميلاد
والّتي قال فيها إنّ الإنسان ظهر بعد الحيوانات كلّها ، ولم يخلُ من
التّقلّبات الّتي طرأتْ عليها ، فخُلِقَ أوّل الأمر شنيعَ الصّورة ناقص
التّركيب ، وأخذ يتقلّب إلى أنْ حصلَ على صورته الحاضرة . ثانيًا :
مقولتَك الّتي أصبحت عنوان نظريّتك وهي : (البقاء للأصلح) ليستْ
بالأساس لك ، بل سرقتَها من (هربرت سبنسر) يا سيّدي . وإنّه والله
لا مجال لكي أخوض في الحديث معك أكثر من ذلك ، ولكنْ أسألكَ
سؤالاً أخيرًا ، ها أنتَ تراني ، وهأنذا أراك على هيئة الإنسان الّتي
خلقنا الله ربّنا جميعًا عليها ، فإذا كُنّا محكومين بالتّطورّ ، فلماذا لم
نُبعَثْ خلقًا جديدًا . وأنا الّذي بقيتُ مئتَي عام في هذا العالَم ،
وسنبقى أنتَ معي إلى أنْ يشاء الله لماذا لم أتطوّر ، وقد مرّتْ عليّ كلّ
الظّروف الطّبيعيّة الّتي مرّت على الإنسان الأوّل من تغيّر الفصول ،
وتبدّل الأحوال ، فهل ننتظر نظريّة جديدةً لكَ في هذا المَجال بعد أنْ

بانَ عَوارُ الأولى؟» . وفتح فمه ليقول فلم يكدْ ينطق بحرف حتّى سمعنا أصواتًا عجيبة . كانتْ اختلاطًا . ظهر أناسٌ يركضون في كلّ اتّجاه ، وهم يتصايحون ويتساءلون عمّن أيقظهم ، وبعضهم يشتم ، وآخر يصرخ ، وثالث يتمطّى مُغمَضَ العينَين ، وآخرون يسقطون وتدوسهم الأقدام في هيجة لم أشهدْها من قبلُ ، وشعرتُ أوّل الأمر بشيءٍ من الفرح إذ إنّ في قيامهم أنسًا تُقطَعُ به الأيّام القادمة حتّى يحين يوم الحشر والحِساب . ولكنّ اختلاطَهم الّتي كانتْ من كلّ لونٍ وعِرق وجِنسٍ ولغة أفسدتْ عليّ هذه الفرحة ، لم يكنْ أحدٌ منهم يدري ما حصَلَ . كانوا تحت تأثير صدمة القيام . ركضتُ بينهم ، أمسكتُ بيد أحدهم لأشرح له أنّ ما يراه ليس يوم القيامة ، إذ إنّ يوم القيامة لن يكون بهذه البساطة ، وأنّ هذه حياة البرزخ ، وكلّ ما حدث أنّه حدث خطأ بإيقاظ كلّ هؤلاء ، إذْ كانتْ غلطتي في أنْ أعطي الرّيشات لغيري ، فإنّ نفوس البشر في الفانية لا يُتَنَبَّأ بما تُكنّه من أخلاق سوداء ، ونفسيّات صَعْبة فكيفَ يكون الأمر إذًا هنا وقد انبثق من تحتَ التّراب كلّ هؤلاء . وهم فَزِعون يبحثون عَمّنْ يُفسّر ما يعيشونه ، ولقد حاولتُ ، ولكنّ الذّعر كان قد سدّ بينهم وبين الفَهم . وأصمّ آذانهم عن أنْ يسمعوني . ثُمّ لم تكدْ تمرّ لحظات حتّى ظهرَ قومٌ آخرون كأنّ باطن الأرض قد انتفشَ عنهم . ورأيتُ أمواجًا من البشر تتداعَى وتتصارخ في مدى الرّؤية ، واجتاحني ندمٌ شديدٌ ، كاد يفتّت كبدي ، على أنّني المُتسبّب بكل ما حدث ، وتذكّرت ما فعله النّحّات بجماليون بتمثاله الّذي كاد لِحُسن التّصوير أنْ ينطق ، وبرزتْ مسرحيّة توفيق الحكيم في ذلك ، ولكنْ أين المكنسة العِملاقة الّتي يمكن أنْ أهوي بها على رؤوس كلّ هؤلاء التّماثيل فأقوم بتكسيرهم . وتأكّدتُ أنّ الأمر قد خرج عن

السّيطرة ، وتوقّعتُ الأسوأ فيما سيأتي . وهربتُ في لا اتّجاه وفي كلّ اتّجاه ، وركضتُ . . . ركضتُ لا ألوي على شيء . وركض أناسٌ كثيرون معي وهم لا يدرون وأنا أدري . ولكنْ تساوينا في الذّعر ، هم ذُعر الجهل وأنا ذُعر العِلم . وذعر العِلم أقسى وأنكى ، لأنّ صاحبه يرى الأهوال قبل أنْ تقع . وركضتُ . ورأيتُ عِراكًا بسيطًا بدأ بين بعض النّاس ، كأنّما لم يكفهم عِراك الدّنيا ، فجاؤوا إلى البرزخ لِيُتمّوا خلافاتهم . ورأيتُ أياديَ تتشابك ، وأعينًا تُفقَأ . وأذرعًا تهوي على رؤوس وأجنابٍ . وكان مشهد العِراك لولا أنّه جارحٌ لقلتُ إنّه مشهد رَقص سورياليّ ، في ماخورٍ تتشابك فيه الأذرع والأقدام والجذوع وتتمايل . وركضتُ من جديدٍ . هاربًا منّي . من نفسي الّتي بينَ جنبَيّ ، ولا أدري إلى أينَ أنتهي . وتمنّيتُ أنْ أرى أحدَ العقلاء كي نُفكّر معًا فيما سنفعل من أجل هذه الطّامّة الّتي حدثتْ . تمنّيتُ أنْ أرى المتنبّي أو أرسطو أو حتّى جريجوري ، أو مَنْ قام هؤلاء بإيقاظهم . فما وقعتْ عيني إلاّ على صارخ من الحنق ، أو باكيًا من الذّعر .

وعندما تعبتُ من الرّكض جلستُ تحت ظلّ شجرةٍ أستريح من اللّهاث . وقلتُ : «لا بُدّ أنْ أجدَ حَلاً لما يحدث» . ثُمّ طمأنتُ نفسي قائلاً : «إنّه ذعر الإفاقة الأولى ، وبعد أنْ يبتلعوا الصّدمة سيهدؤون ، وسنفكّر سويّةً كيفَ سنقضي الوقتَ معًا» . وقمتُ من تحت الشّجرة على الفور ، وصعدتُ على صخرةٍ مُشرفةٍ بحيثُ يراني عددٌ غفيرٌ من النّاس ، وصرختُ بأعلى صوتي : «أيّها النّاس . . . أيّها الموقَظون . . . اهدؤوا قليلاً . . . ليس هناك ما يدعو إلى الخوف . . . اهدؤوا . . .»

فكأنّ صوتي قد نفذ إلى عقولهم فاستجابوا ، فتوقّفوا عن الرّكض في كلّ اتّجاه ، وتوقّفوا عن التّعارك ، وأمالوا رؤوسهم إليّ ، إلى مصدر

الصّوت ، كأنّه كان قادمًا من السّماء . وصمتوا . وفي دائرة قُطرها على الأقلّ مئة متر رأيتُ هدوءًا كبيرًا وانجذابًا إليّ ، حيثُ أصغوا باهتِمام . خارج هذه الدّائرة كانتْ هناك أعدادٌ أخرى سادرةً في غَيّها . كان عليّ أنْ أنقل الوَعي بالعَدوى من أجل الخلاص ، ولهذا قلت : «أيّها الرّائعون ، كلّ واحدٍ منكم قامَ من قبرٍ ما بقدرة الله وحده ، وإنْ كان بوسيلةٍ من الوسائل البشريّة . نحن الآن في مُجتمعٍ جديد ، وإنْ لم نتعاون لِلعَيْشِ معًا فسيأكلُ بعضُنا بعضًا» . فزعقَ أحدُهم : «أينَ نحن الآن؟» . فأجبتُ وقد تأمّلتُ فيه خيرًا ، إذ إنّ السّؤال أوّل الطّريق إلى الحقيقة : «نحن في البرزخ» . فضحك ، ثُمّ انتابته حالةٌ من الهستيريا ، وراح يُقهقه ويُشير إلى مَنْ حوله : «لم يكفه أنْ يكذب هذا الأحمق حتّى يخترع لنا عالمًا» . ثُمّ تناولَ حجرًا من الأرض ، فقذفني به ، فأصاب رأسي ، فسال منه الدّم ، وكدتُ أقع مُغمًى عليّ لولا أنّني عاجلتُ بالهبوط ، ومسحتُ الدّم ، ثمّ ما لبث أنْ شايَعَه الآخرون فصاروا يقذفونني بكلّ ما تقع عليه أيديهم من الحجارة والحصى وجذوع الأشجار ، فولّيتُ هاربًا ، وأنا أعرج . ونجوتُ من الهلاك بأعجوبة وقد أصابني من البلوى ما أصابني . ورحت أبحثُ عن قوم آخرين أجدُ عندهم أذُنًا صاغيةً . فلم أجد إلاّ الاستهزاء والسّخرية . وما وقعتْ عيني إلا على مجموعاتٍ هنا وهناك يفتكُ بعضُها ببعض .

واخترتُ مكانًا لا يلحظني فيه أحدٌ ، وانزويتُ فيه ، وأنا في غاية البؤس والحُزن . وبكيتُ بكاءً مريرًا على ما يحدث . وأصابتْني رَجّة من النّحيب ، وهَزّ أعماقي ما أرى ، فكأنّني سمعتُ صوتَ أبي يقول ما قاله من قبل : «لا تَبْكِ عينُك . إنّ ما حدث لم يكنْ ليحدث لولا مشيئةُ الله . وليس لنا فيما أراده رأي . فَهَوّنْ عليكَ يا بُنَيّ ولا تحزنْ» .

وتلفّتُ فلم ار إلاّ صوته . ثم إنّني سمعتُه يقول : «إنّه لا ييأسُ من روح الله إلا القوم الكافرون» . فانئذٍ علا نحيبي حتّى بلغ عنان السّماء .

قمتُ لأواصل الرّكض نحو المجهول . وركضتُ . أمواجٌ بشريّة تعبرني ، تركضُ باتّجاه غير الّذي أركضُ فيه . كانتْ عطشى تبحثُ عن الماء . جوعى تبحثُ عن الطّعام . لفحتْها الشّمسُ تبحثُ عن الظّلّ . ولم يكنْ مع هذا الجنون لا ماء ولا طَعامٌ ولا ظِلّ . وكان هناك فقط رحمة الله . ووقفتُ في الحشود ، ورفعتُ يديّ إلى السّماء . كانتْ ترى . وكان يسمع . ولا بُدّ أنّه أرأفُ بنا منّا . وجثوتُ على ركبتيّ . وداستْني أقدام العابرين ، ولم أتزحزح من مكاني . واختلطتْ بي سيقان الهاربين فمزّقت في تخابطها ثيابي . وحرفتْني هنا وهناك . فما قمتُ حتّى رجوتُه أنْ ينقذنا ممّا نحن فيه ، وأنْ يغفر لي زلّتي ويغفر لهم جهلهم . وركضتُ من جديد أبحثُ عن عقول أجدُ فيها ماوى من هذا السّراب من البشر . وركضتُ حتّى لم تعدْ بي طاقةٌ لأركضَ أكثر . كانت العتمة قد حلّتْ . لم يمنع هبوط اللّيل النّاس من الصّياح والعِراك . اخترتُ جذع شجرةٍ بعيدًا عن حومة النّاس واستلقيتُ تحته ، وأخذني النّوم إلى عالَم آخر .

في النّوم ، جاءني شيخي في الفانية ، رأيتُه يجلسُ عندَ رأسي ويمسح عليه ، ثُمّ أجلسني ، كان العطش قد شقّق شفاهي ، رأيتُه يمدّ كأسًا من بلّور صاف يترقرق ما فيها كأنّه من ماء الجَنّة ، وسقاني بيده شربةً ما ظمئتُ بعدها ، فلما ارتويتُ ، قال : «لقد علّمنا الله المُنجيات . أتذكر؟» . فخجلتُ . وقلتُ : «لقد أنسانيها الهَول الّذي ترى» . فردّ : «الهولُ لم يأتِ بعدُ ، ولكنّ المُنجيات تصلح في الفانية وهنا ويومَ الحشر ؛ ألا تذكر؟» . فقلتُ وقد ازداد خجلي من نسيانها : «يا شيخ

علّمني إيّاها مرّة أخرى» . فقال : «الباقياتُ الصّالحات . منْ قالها نجا» . ثُمّ إنّه صمت ، ونظر في الأفق كأنّه يُعايِنُ منظورًا . فنظرتُ حيثُ نظر فلم أرَ إلاّ سماءً كُحليّة تبرقُ فيها نقاطُ ضوءٍ كثيرة كأنّها نجومٌ مُتلألئة ، فأردف : «يا بُنَيّ ، إنّ خلفَ هذا العالَم عوالم ، وإنّك لم ترَ إلاّ ما فتح الله به عليك . وإنّ عدد العوالم الأخرى بعدد الرّمل في الأرض . وما أوتينا من العِلم إلاّ قليلاً» . فسألتُه ، وقد أنستُ بحديثه : «أفتكون يا شيخُ معي في هذا العالَم؟» . فقال : «لا يا بُنَيّ ، أنا أعيشُ في عالَم آخر ، ويومَ الحشر نلتقي . وإلى ذلك اليوم لا تنسَ الباقيات الصّالحاتْ . فإذا ذكرتَها هدّأ الكون ، فإنّه يخشع لها أكثرَ مِمّا يخشع الإنسان» . ثُمّ شربَ جرعةً من البلّورة . وحمد الله ، واختفى .

(٣٦)
الثّقبُ الأسْود

صحوتُ مرتاحًا . كان الضّجيج الّذي اندفق أمسِ قد خفّ كثيرًا .
النّفس هدأتْ كأنّما شُفيت من سُعار الأمس . أو لعلّها اعتادتْ ما
ترى . وألفتْ ما جدّ عليها في هذا العالَم .

قمتُ أمشي فرأيتُ النّاس تهرب من أشعّة الشّمس إلى الظّلّ ،
تجد صخرةً ناتئةً هنا ، أو شجرةً فينانةً هُناك فتستظلّ بها . ورأيتُ عددًا
من الأقوام بدؤوا يبنون من جذوع الأشجار ما يقيهم الحرّ . وبدا أنّهم
ماضون في حياة جديدة . وأنّ قدرة الإنسان على التّكيّف لا حدود
لها . وأنّ لديه منجمًا ذهبيًا للأفكار لا ينفد ، وأنّه قادرٌ على الإذهال
والإدهاش في كلّ مرّة .

كان المجتمع الّذي صحوتُ عليه قد بدأ يتصالح مع نفسه ، صار
أقلّ عدوانيّة ، وأكثر ألفةً . اختفى كثيرٌ من الكراهية المُعتّقة الّتي
جعلتْهم أمسِ يتهارشون فيما بينهم كالكلاب أو كالأسود الجائعة .
لكنْ لا أحدَ يدري ماذا يختبئ خلف ثياب هذه النّفس الإنسانيّة
العجيبة ، فقد ينهضُ فيها الشّره إلى القتْل ، والنّهَمُ إلى الدّم فجأة!!

قلتُ في نفسي : «أطوفُ على النّاس أعرفُ أخبارهم ، وأسمع
قصصهم . أو أبحثُ عمّن فقدتُهم أو عرفتهم في الفانية أو في المكتبة
من خلال ما قرأتُ» . وبدأتُ أمشي .

رأيتُ (أرنست همنجواي) و (خليل حاوي) و (تيسير السبول) كُلُّ واحدٍ يحمل بيده حديدةً يضربُ بها رأسه ، فيقع مُضرّجًا بدمائه ، ثُمّ ينهضُ فلا يكاد يمشي خُطوتين حتّى يضربَ رأسه بتلك الحديدة من جديد فيتردّى ، ثُمّ يقوم ، ويبدأ الضربَ مرّة أخرى ، يُكرّرون ذلك دون كللٍ أو ملل ، فأسيتُ لهم ، ورأيتهم (يعبرون الجسر) ، وأحدهم يقول : (وداعًا أيّها السّلاح) والثّالث يقول : (أنا يا صديقي أسيرُ مع الوهم أدري) . فتركتُهم فأتيتُ رجلاً يدخّن الغليون ، ويضع يديه على وسطه في حالة استعداد ، وقد تحزّم بالطّلقات ، وشاربه يحطّ فوق شفتيه مثل ذبابة ، وشعره مُرجّل ، وعلى ذراعه صليبٌ معقوف ، فعرفتُ أنّه هتلر الّذي تُقتُ إلى حِواره ، فأتيتُه فسألتُه : «كيفَ استحكمتْ فيكَ شهوةُ القتل» . فقال وهو ينفثُ دُخان غليونه ويهزّ رأسه ، فتهتزّ لذلك غُرّة شعره : «أنا أؤمن أنّ كلّ سلوكيّاتي تتّفق مع إرادة الخالق العَظيم» . فوجدتُ في عبارته شيئًا من البابويّة ، فتركتُه ، فنحن في أيّام لا ينفع فيها العتاب ولا اللّوم ولا الحِساب . إذْ إنّنا كلّنا ننتظر رحمة الله . ولكنّني أردتُ أنْ أعرفَ من أيقظه ، فسألتُه : «أتذكر أوّل رجلٍ رأيته حين نهضت من القبر؟» . فقال : «رجلٌ يُدعَى جريور ، وإنّني أوّل ما رأيته قلتُ له : إنّ مَثلكَ مَثلُ البقرة تُثير المُدية بقرنيها» . فتركتُه وأتيتُ أقوامًا محتشدين حول زعيم قزم ، وهو يُشير عليهم وهم يأتمرون بما يقول ، شعورهم سوداء فيها حُمرةٌ كأنّما اشتعلتْ فيها نارٌ . ووجوههم كأنّها تروس مُسطّحةٌ وهم قِصار القامة يدورون حول أنفسهم كما يدور المِغزل . فسألتُ أحدهم : «أأكلتم من نخلِ بيسان؟» . فقال : «لم نُبقِ فيه ثمرة» . فقلت : «أشربتم من ماء طبريّة؟» . فقال : «لم نُبقِ فيها قطرة» . فسألتُه : «فمتى كان ذلك؟» . فقال : «وما أدراني . اسأل

زعيمنا فلعلّه أدرى» . وكنتُ أدري أنّهم يجيزون في آخر الزّمان على الأرض ، فسألتُه : «أسمعتم نفخةَ الصّعقة؟» . فنظر في وجهي شزرًا ، وقال : «ولماذا تسألني؟ أمِنْ أجل أنْ تختبرني؟! العارف فينا ذاك» . وأشار إلى زعيمهم . فتركتُهم ، وأتيتَ جماعةً من خمسة أشخاص ، عرفتُ فيهم ابن الأثير المؤرّخ ، وابن سهل الشّاعر اليهوديّ ، ويعقوب الحواريّ ، وقد كانوا يقرؤون من الصّحف قبل أنْ تجري عليها أقلامُ البشر ، وينالَها من التّبديل ما ينالها ، فرأيتُ إشراقًا في وجوههم ، فسألتهم عن بطرس سمعان ، فقال يعقوب : «لقد رأيتُه في الطّرف الآخَر يبحثُ عن بحرٍ ليصيدَ سمكًا!» . فدعوتُ الله أنْ يُنجّينا ويُنجيّهم ، وتركتهم . فأتيتُ صخرةً فإذا تحتها اثنان أدهمان يختصمان ، فيقول الأوّل للثّاني : «لقد كان يمكن أن نكون إخوة ، لولا حسدُك ، ولكنّك اخترتَ أن تكون عدواً» . فيردّ الآخر : «كنت أعرف أنني سأكون أكثر عددًا وقوة وتفوقًا وسرعةً فلماذا كان عليّ أن أسجد لك؟!» . فمضيتُ فرأيتُ رجلاً يلطم وجهه بشدّة ، فسألتُه عن خبره ، فقال : «كنتُ في الفانية صياد ثعالب أبيعُ فِراءَها للنّاسِ فألقى الله في قلبي الرأفة ، فندمتُ على أنّني أزهقتُ أرواح الآلاف من الثّعالب دون جريرة ، فتُبتُ إلى الله ، وهِمتُ على وجهي في الأرض لكي أكفّر عن ذنبي ، واليوم إذا أعاد الله إلى أجساد تلك الثعالب أرواحها وواجهني بها فبماذا أجيب؟» . ولطم وجهه لطمةً كاد يقتلع بها عينه . فتركتُه . فأتيتُ على أناسٍ بثيابٍ بيضاء ، يجلسون في حلقة ، وقد راحوا يرتّلون الصّلوات ، وينشجون ، فعجبتُ من العمل حيثُ لا ينفع العمل ، فسألتُ أحدهم : «يا شيخ قد كان يُجزئ هذا في الفانية ، أمّا هنا فلا عمل» . فقال : «ليس من أجل الجزاء يا جاهل» . فقلتُ : «فمن أجل

ماذا؟» . «إنّا قد علمْنا أنّ المَلك قد التقم النّاقور ، وإنّه عن قريب نافخٌ فيه ، فإذا نفخ فيه صَعِقَ مَنْ في السّماوات ومن في الأرض ، إلاّ من شاء الله ، فنحن نذكره من أجل أنْ يُخفّف علينا وَقْعَ الصّعقة أو نكون ممّن شاء» . فقلتُ : «قد جانبتم الصّواب ، إنّما هذا في الأولى في الموتة العامّة» . فقال : «وإنّه في الثّانية يا جاهل في القَومة العامّة» . فخجلتُ من نفسي ، وعجبتُ من أمرهم . ثُمّ مررتُ بثلاثة يركبون خيولاً مُطهّمة ، فعجبتُ أنْ تكون خيولٌ بهذا الجَمال في هذه الفوضى يعتليها ثلاثةُ فرسانٍ أشدّاء ، فاقتربتُ منهم أتملّى وجوههم فعرفتُ فيهم صلاح الدّين وعمرو بن معدي كرب وأبا دُجانة ، فإذا صلاح الدّين يسأل : «أين القُدس؟» . وإذا أبو دجانة يسأل : «مَنْ يُبايع على الموت؟» . وإذا عمرو بن معدي كرب يسأل : «مَنْ يُبارِز؟» . وتركتُهم فأتيتُ على (روتشيلد) هو وعائلته الممتدّة ، فرأيتهم يأكون مِمّا تساقط من النّبق على الرّمل ، ومن حشف التّمر ، وإذا بعضُ ما يضعون في أفواههم قد اختلط بالتّراب وبالأقدام!

ومضتْ أيّامٌ على تلك الحال ، أنتقل من قوم إلى قوم ، ومن مجلسٍ إلى مجلس . فأرى أنّهم يألفون ما اعتادوه في الدّنيا . وتبِعتْها شهورٌ فسنوات ، فرأيتُ النّاسَ كأنّما أصابها طولُ الأمل من جديد ، فراحتْ تنظّم حياتها ، وتتألّفُ في جماعات ، كلّ جماعةٍ بلسانٍ تُنصّب على نفسِها زعيمًا ، وإذا هي قد راحتْ تبني البيوت ، وتشقّ القنوات تستجلبُ الماء ، ورأيتُ ابن خلدون كأنّه يُنظّم لهم سير الحياة من بعدِ فوضى ، ويُخطّط لهم المدن ، ورأيت (سنمّار) يعقد على حجر الأساسِ الدّورَ . ثُمّ سمعتُ أنّ ابن خلدون قد استنكفَ فيما بعد ، ولأنّ سنمّار قد تبرّأ مِمّا بنى ، وانتظرا مثلي رحمة الله ، وألطافه الخفيّة .

ورأيتُ عشرات من القادة بلباسهم العسكريّ في ليلة بنسامرون حول نار موقدة ، فعرفتُ منهم بشّارًا وأباه ، وستالين ، ولينين ، وفلاد الثالث (دراكولا) ، وهتلر ، والقذّافي ، وروبرت موغابي ، وكيم يونغ ، وهيروهيتو ، وبريجينيف ، وماوتسي تونغ ، . . . وآخرين كثيرين ، كانوا يتبارَون فيما بينهم عن عدد الضّحايا الّتي سفكوا دماءهم ، مَنْ قتل أكثر من الآخَر ، أنهارٌ من الدّماء سالتْ من أجل شهواتهم السلطويّة . ولم أر واحِدًا منهم يُقرّ بما فعل . ولم أر أيًّا منهم قد ندم ، وأخذهم الحديث في وسائل القتل ، مُستمتعين بتمثيل صَرَخات المُعذّبين وهم يلفظون آخر أنفاسهم ، فقضوا ليلهم كلّه في ذلك ، وقد وجدوا للحديث لذّة . فتعجّبتُ من أنّ تحوّل الدّار لا يقفوه تغيّر الحال!

وعبرتُهم . فوجدتُ أنّ شخصًا ما يتبعني . فأهملتُه ، فمن يكون يعرفني في هذا العمى اللامنتهي . مَنْ يعرفُ مَن؟ ومضيتُ ، فإذا هو يلحقُ بي ، فاستدرتُ نحوه ، وواجهتُه ، فإذا عيناه جاحظتان كأنّما فُتِحتا على مشهدٍ مُرعِب وبقيتا مفتوحتَين ، فسألتُه : «ماذا تريد؟» . فردّ : «هل تتبعني ، فإنّ لديّ أخبارًا قد تكون جديرةً بأنْ تُسمَع» . فقلتُ : «أيّ أخبارٍ ستفيد وكلّنا ننتظر النّهاية» . فقال : «اتبعْني ولن تندم» . فسألتُه : «ولماذا تريدُني أنا بالذّات أنْ أسمعها؟» . فقال : «لأنّكَ كنتَ معي؟» . فتمليّتُ وجهه لعلّني أعرفه ، أو أكون قد قرأتُ عنه في مكانٍ ما ، فلم أهتدِ إلى ذلك ، فقلتُ : «أنا أراكَ لأوّل مرّة يا هذا!!» . فردّ : «أدري ، ولكن اتبعني لنحدّثك الحديث» . فقلتُ في نفسي : «إنّما نحن في أحاديث ، ولقد جُعِلَ أقوامٌ من بعدنا أحاديث ، فما عليّ لو عرفتُ المزيد منها» . وتبعتُه . فأتينا على قوم في شِقٍّ في جوفِ صخرةٍ ضخمة يلجؤون إليها من الذّعر كأنّها ستحميهم من خطرٍ

قادم ، «ولا عاصمَ اليومَ مِن أمر الله إلاّ مَنْ رَحِم» ، وكانتْ عيونهم مُفتّحة . فقال لي الّذي اصطحبني : «اجلسْ . لقد جمعتْنا النّهايات في الأولى» . فعلمتُ أنّهم من الجيل الّذي رأى أهوال الصعقة ، فاستعذتُ بالله من ذلك اليوم ، وحدّثتني نفسي أنْ أقوم فما أقوى على سماع أهوال كهذه ، ثُمّ إنّ الهول قادمٌ ، فلماذا أجمع على نفسي هولَين . ولكنّ الفضول الّذي يهزمني في كلّ مرّةٍ ، هزمني هذه المرّة أيضًا . فطلبتُ أنْ يصنعوا لنا شرابًا ساخنًا ، فأوقدوا على قِدْرِ النّار ، ثُمّ لّما غلا الماء ، وزّعوا الشّراب في الكؤوس ، وقال أحدهم : «بدأ انفجارٌ في القُطب الشّماليّ ، نثر الثّلج ، ثُمّ انفجارٌ ثانٍ فثالثٌ فرابعٌ فعشراتٌ من الانفجارات فآلافٌ منها ، فارتفعتْ درجة الحرارة بحيثُ إنّها لشدّتها كانتْ تصهر الحديد ، فذابت الكُتل الثّلجية من الحرارة ، فأدّى ذلك إلى ارتفاع منسوب المياه ، ففاضت ، فأغرق الماء المنساح نصف الكرة الأرضيّة الشّماليّة ، كان الماء قد طغى حتّى إنّ العمارات الّتي تبلغ مئةَ طابقٍ تُبتَلع كأنّها حصاةٌ صغيرة أو تسيل كأنّها قشّة في نهر» . فسألتُه : «أشاهدتَ ذلك بأمّ عينَيك؟» . فقال : «لقد راقبتُه من الأقمار الصّناعيّة الّتي كنتُ أعمل عليها في وكالة ناسا الفضائيّة» . فقلتُ : «ترى هذا الهول وتتذكّر؟» . فقال : «هول اليوم ربّما ذكّرني به» . فقلت : «هول القادم أكثر» . فرجفوا ورجفتُ معهم . لكنّ الحديث يُذيب شيئًا من الهلع حتّى ولو كان في الهلع نفسه . قال الثّاني : «أنا أعرف ما معنى الثّقب الأسود . لقد كان نظريّة . وأنا كنتُ أحد المؤمنين بها في الورق ، لا على أرض الواقع ، وأنا أحدُ العلماء الّذين أكلوا بها خُبزًا ، لكنّني لم أكنْ أتوقّع أنْ تصبحَ واقِعًا ، أو يُصبح شيءٌ منها كذلك . هذا النّجم الّذي يكبر شمسنا بآلاف المرّات والّذي مات

بمصطلح الفيزيائيّ ، تقلّص حجمه وانضغطت مادّته بسبب ذلك الضغط كبيرًا حتّى بلغت درجة جاذبيّته أنّها لا تسمح للضّوء بالنّفاذ من خلالها ، لقد شكّل حجمه الهائل جاذبيّة يمتدّ قطرها بشكل مهول . وكلّ مَنْ يدخل في مجالها فإنّ الثّقب الأسود يبتلعه» فقاطعته : «أنتَ تشرح الموقف ، لكنْ كيفَ ترويه وقد حدث للطّوفان الابتلاع في الثّقب» . فردّ : «إنّ الثّقب لم يبتلع الأرض ، ولكنّني شاهدتُ كيفَ يعطّل فيها الطّاقة ، فقد انطفأ كلّ مصدر للطّاقة . وانخفضت الأضواء وامّحت الكهرباء ، وأعتَم الكوكب ، وبدأت الأرض تنحــرف رويدًا رويدًا عن مســــارها ، وبدأتْ تلك سلسلةٌ من الانفجارات ، أنا قضيتُ في إحداها ، ولم أشاهدْ ما حدث بعد ذلك» . ابتعلتُ ريقي بالشّراب السّاخن . قال الثّالث : «أنا رأيتُ النّيران جرّاء الانفجارات تأتي على كلّ شيء ، أنا قضيتُ بالنّار» . قال الرّابع : «إنّ الكون وُلِدَ بالأساس نتيجةَ انفجار عظيم ، ولا تزال أجزاؤه منذ تلك الانفجار الأوّل تتمدّد وتتناثر حتّى إذا توقّفت حركة التّناثر نتيجة التّباطؤ . فإنّ حركةً عكسيّة سوف تبدأ ، فتنقبض الكواكب والنّجوم والمجرّات وتنكمش ، تمامًا مثل امتداد بالون ثمّ انفجاره ثُمّ انكماشه ، ولقد بدأ الانكماش من زمن طويل حتّى حانت لحظة الانكماش الكلّيّ الّذي أنهى كلّ شيء ؛ أنا كنتُ في إحدى مناطق الانكماش تلك . إذ ابتلعتْنا حفرةٌ عظيمةٌ لم يدر أحدٌ كيفَ تشكّلتْ ولم يتنبّأ بحدوثها» . قال الخامس : «أنا قضيتُ بالغرق» . قال السّادس : «أنا قضيتُ بالرّيح الّتي شكّلت دوّامات الماء المميتة» . قال السّابع : «أنا قضيتُ بالرّصاص ، كان هناك عددٌ كبيرٌ من النّاس يحملون بنادق آليّة يطوفون في الشّوارع يتسلّون بإطلاق النّار على كلّ مَنْ يتحرّك ، جاءتني

رصاصةً في الرّأس فلم تُمهلني حتّى أسأل قاتلي فيمَ قتلني!!» . وقفتُ صارِخًا : «كفى أيّها الإخوة . كفى . ربّما تكونون صادقين ، أو غير ذلك . ماذا يعني أنّكم مُتّم بهذه الطّريقة أو تلك ، النّتيجة أنّكم متّم ، وجميعنا الّذين نتشارك هذه الأرض الغريبة هنا متنا كذلك ، وماذا يعني أنّنا متنا في نهاية الكون أو في بدايته أو في وسطه فالنّتيجة كما ترون واحدة . وماذا يعني أنْ تروي لي هذه القصّة أو تلك ، أنا بالنّسبة لي شبعتُ من القصص ، ولديّ الآلاف منها ، ولو حدثّتكم بالأهوال الّتي مررتُ بها لشابَ رأسُ الصّغير فيكم . دعوا كلّ هذه الأمور الّتي مضتْ وانقضتْ ، وانظروا إلى ما نحن فيه ، انظروا إلى الحقيقة الّتي نحن عليها اليوم ، نحن في البرزخ ، ننتظر النّفخة الثّانية ليقوم كلّ النّاس من قبورهم لربّ العالَمين . أنتم الّذين تُخاطِبونني وأخاطبكم وكلّ هؤلاء المبثوثين هنا وهناك ليسوا كلّ البشر ، ولا أدري كم هي نسبتهم منهم . أنا أعتقد أنّها لا تُساوي واحدًا في المليون ، التّدفّق البشري سيكون بعد الصّيحة الثّانية ، وهي الأشدّ رعبًا ، والأشَدّ نصوعًا . . . والآن ، فكّروا في رحمة الله ، فكّروا كيفَ ننجو من النّفخة الثّانية ، فإنّها ستُبعثر القبور ، وتنثر النّاس من بواطنها فيخرجون يمشون كالنّمل المذعور في كلّ اتّجاه . فكّروا إنْ كُنّا سنُحشَر بأنْ يُخفّف الله عنّا . فكّروا في القادم ، فإنّ ما فات مات!!

(٣٧)
كلّ روحٍ تتّجه إلى جسدها

ماتت الشمس، وكُشطت السّماء. وانطفأت النّجوم. لم يكنْ مشهدًا سينمائيًا، كان مقدّمةً للصّيحة الثّانية. لم أكنْ أدري متى حدثت الصّيحة الأولى، لأنّني لم أشعر بها على نحوٍ يجعلني متيقّنًا، ولا أدري إنْ كان ذلك بسبب موتي المتقدّم زمنيًا كثيرًا عليها، أم لأنّني كنتُ في مكانٍ لم يسمعه مَن تحت التّراب، وإنْ كان بعضُهم قد قال إنّه قد سمعها من أولئك الّذين التقيتُهم مؤخّرًا.

كان يقف بين السّماء والأرض، النّجوم قبل أنْ تنطفئ لم تكنْ أكثر من غُبارٍ تحت قدمَيه، والكواكب كانتْ فراشاتٍ صغيرةً تطوف في السّديم. والسّماء خيمة. والأرضُ حصاة. حينَ يأذنُ الله سينتهي كلّ شيءٍ. كان مُلتقمًا الصّور، مُستعِدًا كجنديٍّ مُطيع أمام الملك، ينتظر الأمر بالنّفخة الثّانية، عيناه كوكبان دُرّيّان لا ينامان. وأذناه إلى مولاه مُصغِيتان، الطّاعة غريزةٌ مركّبةٌ فيه. ولِذا لا تعني السّنوات ولا القرون له شيئًا في وقوفه الطّويل بانتظار كلمة: «انفخ».

نزلَ مطرٌ ثقيل، كان حليبيًا ثخينًا. انساح في الأرض الّتي كنتُ عليها. ابتعله التّراب. التّراب الصّامت. الحبوب الصّغيرة. آخر فقرة في ظهر الإنسان تحرّكت نحو الحليب. شربتْ نصيبَها منه، فبدأتْ تنمو، إنّها بذرة الإنسان الّتي لا تبلى. عَطشى منذ مئات القرون إلى

مانها الّذي يُحييها . قال الله للبذور بأمري بقيت ، وبأمري مات صاحبك ، وبأمري أحييك . فأطاعتْ إذ لا يملك مخلوقٌ يومئذٍ أنْ يعصي . فنبتت الأجساد كأنها الزرع ، لكنْ في النّموّ واللّحظة ، لم يستغرق الأمر كثيرًا . من موقعي على نتوءٍ من هنا كنتُ أشاهدهم وهم ينمون ويتفتّحون . أوّلاً نبتت العظام من ذرّات التّراب ، شكّلتْ كما لو أنه لم يُصبْها شيء ، فرُكّبتْ ، لم يكنْ من عظمةٍ في هذه الجبال من العظام المدفونة تُخطئ صاحبها . كلّ عظْمةٍ تعرفُ طريقها إلى إنسانها . فلمّا تركّبت العظام ، ظهر اللّحم فغطّى العظْم ، لحمٌ طريٌّ ، غضّ ، على هيئته في الفانية دون أمراضٍ ولا أسقام ، إنّها إعادة النّشأة الأولى . اكتسى العظم كلّه باللّحم ، وأضاءت العينان ، فبدتا سليمتَين تمامًا ، لكنّ صاحبهما كان ينظر في اتّجاه واحدٍ كما لو كان أعمى . والسّاقان السّليمتان كانتا جامدتَين في مكانهما لا تتحرّكان أبدًا . إنّ جسم هذا البشريّ يبدو كما لو أنّه تمثال ، لكنّه ليس من رُخام ، بل من لحم وعظم ودم . غير أنّه لا يتحرّك ولا يتكلّم . نظرتُ إلى الآخرين ، فإذا المدى كلّه يشتعل بالعظام النّاشزة واللّحم المكسوّ ، وإذا أمامي غابات من البشر تقوم من قبورها ، لكنّها لا تحير ، ولا تتكلّم ، ولا يظهر منها شيءٌ يدلّ على الحياة ، وإذا هم عراةٌ كما خلقوا أوّل ما بعث الله بهم من الرّحم إلى مساقط رؤوسهم ، ونظرتُ إلى نفسي فإذا أنا عارٍ مثلهم . وأردتُ أنْ أكلّمهم أو أخطو باتّجاههم فإذا أنا قد فقدتُ القدرة على الحركة مثلهم فجأة ، وعجبتُ من أمري وأمرهم . كنتُ أرى ولا أستطيع أنْ أفوه بكلمة ، ووددتُ لو أكلّم أقرب المُنشَرين منّي ، ذلك الّذي رأيتُ عينَيه كأنّما تُحدّقان فِيّ ، لكنّه كان ينظر إليّ كأنّه ينظر في فراغ . لم يعدْ موضعٌ من ترابٍ ولا شبرٌ من رملٍ ، ولا موطِئ قدمٍ إلاّ نبتَ فيه

بشريّ . كان الماء الحليبيّ ما زال يهطل ، وبهطوله تنمو أجسادٌ جديدة ، لم يتوقّف المطر ولم يتوقّف انبثاق الأجساد من الأرض في مشهدية لا يُمكن أنْ تكون في مكانٍ أو زمانٍ آخرين . أجساد عارية فأجساد فأجساد ، من كلّ الأجناس والأعمار والألوان والأعراق ، ثمّ تجمدوا بأنْ تتمّ هيئاتهم كأنّما ثُبّتوا في الأرض . لم يعد في مدى الرؤية أمامي ما يُمكنني أنْ أرى فيه فجوة ، الأفق البعيد البعيد غطّي بالأجساد النّامية ، كانوا بحرًا منساحًا من البشر المبعثوين يغطّون في صمت أسطوريّ . وحاولتُ أنْ أحرّك قدميّ ، فأسير بينهم ، وإلى أين ينتهي هذا المدّ ، فلم أستطع أنْ أزحزح حتّى أصابع قدميّ ، كأنّما كانتا قد ثُبّتتا بالرّصاص في الأرض . وأردتُ أنْ أقول شيئًا ، أنْ أصرخ ، أنْ أطلبَ من الله الرّحمة ، أنْ أسأله العفو ، أنْ أقول أيّ شيء ، ولكنّ لساني في فمي كان مثل قطعة خشب يابسة!!

ثمّ مرّ اليوم ، والشّهر ، والسّنين ، ولا أدري كم هي ، لعلّها أربعون ، لا أحد فينا يعوزه الحاجة إلى الطّعام أو الشّراب ، فإنّما كنّا أجسادًا بلا أرواح ، فلا يجري عليها ما يجري على البشر في الفانية ، وعرفتُ أنّ قيام النّاس من القبور يتتابع حتّى يكون لهم أربعون سنةً ، لكي يتمّ قيام كلّ نسمة خُلقتْ من نسل آدم من أوّل الخلقِ إلى آخره . ثمّ حدث مشهدٌ مُريعٌ . كأنّما هناك من يتحكّم بهذه التّماثيل البشريّة الموقوفة ، نظرتُ فإذا بعضُ هؤلاء قد ركعَ واضعًا يديه على رُكبتيه في هيئة خشوع وتذلل تامّين ، نصفُ هذا المدّ فعل ذلك ، وظلّ على ركوعه دون أنْ ينهضَ منه . والنّصف الآخر رأيتُه يفعل ما هو أعجب ، إذْ إنه جثا على رُكبتَيه ، وانكبّ على وجهه ساجدًا . ثمّ إنّهم ظلّوا على هيئتهم تلك ، ولم ينهض من سجدته أحدٌ ، وأمّا أنا فركعتُ ، ثمّ أردتُ أنْ أتلو

ما كنتُ أتلوه في الرّكوع في الدُّنيا فما استطعتُ ، ثُمّ سجدتُ وأردتُ أنْ أقول ما كنتُ أقوله في السّجود في الدُّنيا فما استطعتُ ، فشعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في البُكاء فما أطاعتْني عيناي ، فتلك كانتْ حسرتي ، حتّى إنّني تخيّلتُني أقول : «يا حسرتى على ما فرّطتُ في جنبِ الله» . ثُمّ إنّ المَلَك المُلتقم للصّور جاءه الأمر ، فنفخ في البوق ، فإذا في البُوقِ أرواح كلّ البشر ، وإذا هي تخرج من فَمِ البوق كنقطٍ من الضّوء ، أو كيعاسيب النّحل أو كفراشاتٍ صغيرة ، وقد ملأتْ ما بين السّماء والأرض كأسراب الطّيور المهاجرة ، قد غطّت الفضاء حتّى صارتْ كالسّحب المُسرعة ، وإذا كُلّ روح تتّجه إلى جسدها فلا تُخطئه في هذا الخضمّ المتطاول ، فإذا دخلت الرّوح في الجسد ، انتفض ، وقامَ حَيًا ، فإذا وقعتْ عينه على ما حوله ، راحَ يركضُ بين الجموع لا يدري إلى أين!!

(٣٨)

الآن تُعرضون على الله!

وجاءتْني روحي فعرفْتُها . لقد عاشتْ في البرزخ عمرًا طويلاً فدخلتْ جسدي من خلال فتحتي أنفي فانتفض التّمثال الّذي كُنْتُه . فلم يُصبْني هلع الأخرى ، لأنّه أصابني هلع الأولى ، فوقفتْ مكاني استطلع النّاس ، وأنظر إليهم يتدافعون من الذّعر ، ويتصايحون . وسمعتُ صوتَ نشيجٍ جماعيّ ، كأنّ كلّ مَنْ قاموا ، هتفوا برنّة واحدة : «يا وَيلنا من بَعَثَنا مِنْ مَرقدنا هذا» .

كانت الأرض قد بُلكتْ . فصارتْ مستويةً عن آخرها ، مثل الجلد المدبوغ ليس فيه أيّ اعوجاج . ثُمّ هدأ تدافع النّاس . وسكنَ ضجيجُهم قليلاً . ونظرتُ مَنْ حولي فلم أعرفْ أحدًا . الوجوه غريبة ، والسّحن كئيبةٌ من هول ما يأتي ، وأخذتُ أتعرّف النّاس فما عرفتُ أحدًا . وتذكّرتُ «يتعارفون بينهم» . فأيقنتُ أنّه لي في هذا الموقف . ويئستُ من أنْ أجد أحدًا أعرفه ، وتعبتُ من المشي بين النّاس ، والنّاس ذاهلةٌ لم تدرك بعدُ ما يُخبّئه الغيب ، وتعبتُ من التّحديق في الوجوه الّتي لا تُعيرني انتباهًا ، والتمستُ مكانًا أجلسُ فيه فأرتاح ، فما وجدتُ . وكان يوم وقوف طويلاً .

وأظلمت الآفاق فجأة ، فاعتم المكان ، وازدادت العيون عمًى ، فكنتُ لا أرى أين أضع قدمي ، ولا أرى مَنْ هو إلى جانبي أو أمامي ،

وأملتُ كما أمل كلّ مَنْ كان هناك ألاّ تطول العتمة ، وظننتُ كما ظنّوا أنّها مثل ظلمة الفانية ، أو حتّى مثل ظلمة البرزخ ، فإذا هي تطول حتّى لم تُشرق شمسٌ ولم يطلعْ فجرٌ سبعين عامًا . ورأيتُ النّاس في السّنوات الطّوال هذه يزحفون على وجوههم أو على بطونهم كالحَيّات ، حين تتعبُ أرجلهم من المشي أو الوقوف ، وكانوا لا يُحصّلون من مشيهم نفعًا ، ولا يَصِلون إلى جهة ، فأنّى مشوا وجدوا أنفسهم نقطةً في محيط بشريّ متدافع كأنّهم ما تقدّموا شيئًا ، ولا عرفوا أين تقودهم أرجلهم ، ورأيتُ بعضهم يقرفصون ، ويقفزون كالجنادب . ومن كان يستلقي ليرتاح تدوسه الأقدام فتنبعج معدته ، أو يُعفّر رأسه في الرّغام . وكُنّا نصرخ ، فتذهب الصّرخات سُدًى ، وكنّا نسأل فلا نجد لأسئلتنا العقيمة جوابًا . وتمنّى كلّ واحدٍ فينا الموت فكان الموتُ أعزّ من الكأس الباردة في النّهار القائظ بعد صوم طويل . فلا نحن نموت ، ولا نحن نحيا ، ولا نحنُ نعرفُ أين ، ولا نحنُ ندري كم يطول هذا الظّلام ، ولا نحن نجد مخرجًا ، ولا نحن ندري إلى أيّ مدًى تصل الأرض المبسوطة ، المحشورون نحن فيها!!

بعدَ سبعين عامًا من الانتِظار حتّى قستْ جلودنا ، ووهنتْ عظامُنا ، وشاختْ قلوبُنا ، وبكتْ عيوننا ، سمعنا صوتًا لم نسمعه من قبل ، كان صوتًا يدخل إلى أذن كلّ واحدٍ في الموقف . أصختُ له السّمع ، ونظرتُ إلى جهته ، فإذا هو عن يميني فاستدرت ، ووقفتُ على رؤوس أصابعي لكي أراه ، فكأنّني رأيته يقف على الصّخرة الّتي ببيت المقدس ، فصوّبتُ النّظر لكي أتبيّن إنْ كان ما رأيته صحيحًا ، فإذا هي بالفعل صخرة النّبيّ الّتي عرج منها إلى السّماء ، وإذا فوقها مَلَكٌ على أجمل ما يكون هيئةً ، وإذا هو يُنادي : «أيّتها العِظام البالية ، والأوصال

المتقطّعة ، والأكفان الفانية ، والقلوب الخاوية ، والأبدان الفاسدة ، والعيون السّائلة ، هلمّوا . .» فلم يبقَ أحدٌ في الموقف إلاّ سمع الصّوت ، ولم يبقَ أحدٌ إلاّ وتبع المَلَك ، فسار أمامنا ، فسرنا خلفَه ، وهوّن ذلك شيئًا على النّاس أنّ سبعين عامًا من الانتِظار في الظّلمات قد مرّت .

لم نكدْ نمشي خلف المُنادي قليلاً ، حتّى انكشفت الظّلمة ، وتحوّل النّاس العراة ، وانقلبتْ صُورهم ، وفَزِعَ بعضُنا من بعض ؛ فقد رأيتُ مَنْ بُدّلتْ هيئته البشريّة فصار قِردًا ، وبعضهم خنازير ، وتذكّرتُ الخنزير الّذي شربت الشّياطين دمه في ذلك اليوم ، وبعضهم مُنكسُو الرّؤوس كأنّما كانتْ مربوطةً بحبلٍ فانقطع الحبل أو ارتخى فتدلّى الرأس على الصّدر ، وبعضهم كانوا يمشون على رؤوسهم وأرجلهم إلى الأعلى وتذكّرتُ يونيفاز في النّشيد التّاسع عشر في جحيم دانتي ، لقد كانت ذات الهيئة ، ورجلاه تتراقصان من فوق كأنّما يبكي أو يرتعش ، ورأيتُ آخرين يُربَطون في حبالٍ غليظة وسلاسل معدنيّة من أعناقهم ويُسحَبون على وجوههم ، وتلمّستُ جسدي فوجدتُه سليمًا وحمدتُ الله ، ودعوتُه في سرِّي أنْ يسترني فإنّ الفضيحة هنا تكون على رؤوس الأشهاد .

ومشيتُ كالآخرين بين الحشود المنقادة خلفَ الصّوت ، ورأيتُ ما هو أشدّ عجبًا ، رأيتُ أقوامًا يتهدّون الطّريق بأيديهم يمدّونها أمامهم فقد كانتْ عيونهم بيضاء قد ذهبَ نورها ، وهم يجأرون ولا أحدَ يهتمّ لجُؤارهم ، ورأيتُ آخرين وقد تدلّتْ ألسنةٌ طويلةٌ من أفواههم يسيل منها اللّعاب وهم يقومون بمضغها وابتِلاعها ، ورأيتُ جمعًا منهم قد قُطّعتْ أيديهم ، وقد صُلّبوا على جذوع النّخل ، يجرّون أجسادهم وصليب النّخل بكلّ أثقاله على أقدامهم النّحيلة الّتي تشتعل النّار أسفلَ منها .

ورأيتُ قومًا يلبسون جلابيب وكانوا هم الصّنف الوحيد الّذي لا يسير عارِيًا ، ولكنّ جلابيبهم كانتْ من قَطِران أسود ، غطّى كلّ شيء في أجسامهم حتّى وجوههم فلم يبنْ منها إلاّ عيونهم حمراء تتّقد من خلف السّواد كأنّها جمراتٌ ملتهبة .

وكان يومَ فزع ، ويوم ذعر ، ويوم ترقّب ، وتبعتُ الصوت كغيري ، وأنا من الجزع لا أقوى على المسير . وبقينا نمشي أُسارَى خلف المَلَك الّذي نادَى أوّل مرّة . وتذكّرتُ ما عملتُ في الفانية فما أغنى عنّي شيءٌ ، وتبعنا الصّوت حتّى إذا مرّ على ذلك أعوامٌ لم أهتدِ من الهول إلى عَدّها ، أشار لنا بيدَيه ، فتوقّفْنا ، وقال : الآنَ تُعرَضون على الله!

انتهت

كُتبِتْ في الفترة

من ١-١٢-٢٠١٧

إلى ١-١-٢٠١٨


بوك كافيه